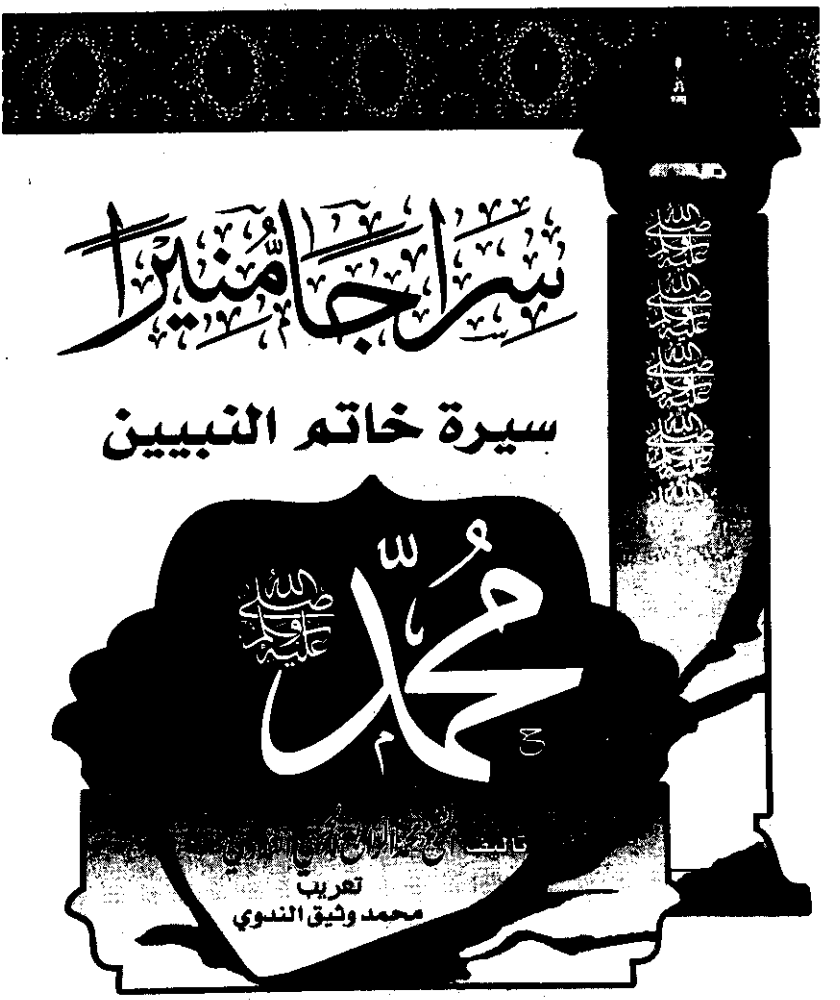

www.abulhasanalinadwi.org

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ ٢٠١٤م

اسم الكتاب	:	سيرة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم
مؤلف الكتاب:		الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي
تعريب	:	محمد وثيق الندوي
الصفحات	:	٥٠٠
النسخ	:	١١٠٠
ثمن النسخة:		٣٥٠ روبية هندية

يطلب من:-

(١) المجمع الإسلامي العلمي، ندوة العلماء لكناؤ .

(٢) المكتبة الندوية، ندوة العلماء لكناؤ

(٣) مكتبة إحسان، مكارم نغر لكناؤ

(٤) مكتبة الشباب الجديدة، مكارم نغر لكناؤ

الناشر

164/106 Khatoon Manzil, Haidar Mirza Road
Golaganj, Lucknow. Mo: 9452294097-9838154415
e-mail:daralrasheed17@gmail.com

www.abulhasanalinadwi.org

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

نحمده ونصلي على رسوله الكريم وبعد.

هذا الكتاب الذي تحمله بيدك، هو ترجمة عربية فصيحة لكتاب رائع ألفه الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي(رئيس ندوة العلماء العام ورئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية لشبه القارة الهندية) حول السيرة النبوية باللغة الأردية، ونال قبولاً واسعاً في الأوساط العلمية والدينية في شبه القارة الهندية، ثم نقل هذا الكتاب إلى اللغة الهندية؛ لغة الهند الرسمية، ليقف الناطقون بها، ويبلغ عددهم أكثر من مليار، على سيرة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، وقوبل بترحيب حار لأسلوب مؤلفه السهل العذب المقنع، وإبرازه لجوانب إنسانية وخلقية من حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وعرضه الرسول الأعظم كمنقذ للإنسانية التائهة في متاهات الضلالة والغواية، وكمعيد للإنسان الخائف المذعور المثخن بالجروح، أمنه المفقود، وتقديمه لنماذج رائعة من تعامله صلى الله عليه وسلم مع الأسرى، وتوجيهاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ لجنوده بشأن جثث القتلى، وأوامره ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقواته برعاية الأرامل والأيتام، وعدم التعرُّض للشيوخ والنساء والأطفال، وعدم إحراق الأشجار والزروع، وعدم استهداف المدنيين الأبرياء

www.abulhasanalinadwi.org

العزل خلال اندلاع نيران الحرب، فأحلّه كثير من المثقفين الهندوس المحل الأرفع في قائمة الكتب التي تناولت شخصية الرسول الأعظم بالبحث والدراسة، وأقبلوا عليه، وأبدوا إعجابهم به، واعترفوا بأن هذا الكتاب يزيل سوء التفاهم الذي يغشى المجتمع الهندوكي عن رسول المسلمين صلى الله عليه وسلم.

ثم نقل هذا الكتاب القيم بتوفيق من الله عز وجل إلى اللغة الإنجليزية لتبليغ رسالة السيرة النبوية العطرة إلى الطبقة المثقفة التي كان من طبيعتها أن لا تقرأ إلا ما كتب في اللغة الإنجليزية، فتقرأه باهتمام وتفهمه بسهولة، وتثق به ثقة كل الثقة، فلقي الكتاب من هذه الطبقة حفاوة بالغة لأسلوبه العلمي الجاد الرزين المدعم بالأدلة والبراهين، المستند إلى الوثائق التاريخية المسجلة، المقارن بين ما شهده العالم في عصر النبوة من ازدهار الإنسانية ورقيِّها وبين ما يشهده العالم اليوم من انحطاط الإنسانية وانقراضها، فأعطاهم هذا الكتب انطباعاً لم يعطه إياهم غيره من كتب السيرة التي صدرت باللغة الإنجليزية لاختلاف طبائع المؤلفين وميولهم ونزعاتهم.

ونسعد الآن بتقديم هذا الكتاب الذي نقله من الأردية الفصيحة إلى العربية الفصحى أخونا محمد وثيق الندوي (أستاذ التفسير والأدب العربي بدار العلوم لندوة العلماء) وأحسن وأجاد، وتمكن من نقل هذا الكتاب بروحه وحرارته، وحجمه ولونه، وأريجه وعبيره، فجاء الكتاب كالأصل.

وقد سبق أن سعدنا بإصدار الطبعة الهندية والإنجليزية لهذا الكتاب، فنشكر الله عز وجل على أنه وفقنا لهذه الخدمة الجليلة للسيرة

www.abulhasanalinadwi.org

النبوية، وخاصة في مثل هذه الظروف الحالكة الدامية التي لا نرى فيها إلا الجثث المتراكمة، والأشلاء المبعثرة، والجماجم المتناثرة، والدماء المهراقة، والغارات الجوية، والهجمات الانتحارية، والقنابل المتفجرة، وأنواعاً مختلفة للتعذيب والتنكيل وأساليب متنوعة للقمع والكبت والإبادة والتشريد، وموجز القول أن الإنسان يأكل الإنسان، كما قال سيدنا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه حين استقدمه النجاشي ملك الحبشة ليشرح له دعوة النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحِّده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات".

فيشهد كل من يقرأ هذه الكلمات بأننا تقهقرنا اليوم إلى الوراء، وعدنا إلى العصر الجاهلي الذي صوره سيدنا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه بكلمته الصادقة الصريحة، ووقعنا في كل ما وقع فيه الإنسان في ذلك العصر المظلم من إراقة الدماء، واستعباد الأحرار، وهتك الأعراض، ففي هذا العصر الذي يشبه العصر الجاهلي في تدنِّي الإنسانية وتدلِّيها، يحتاج كل منا إلى مثل هذا الكتاب الذي يقدم أعظم شخصية على الإطلاق، وأرفع قمة من الأخلاق، بعث رحمة للعالمين، وسراجاً منيراً للتائهين، كالنموذج الوحيد الفريد للبشر في

www.abulhasanalinadwi.org

جميع جوانب الحياة، وفي كل مرحلة من مراحل العمر، وفي كل حالة من السلم والحرب والصلح.

فتسعد "دار الرشيد للطباعة والنشر والبحوث" بتقديم هذا الكتاب إليكم بفضل جهود الأستاذ محمد وثيق الندوي، فله الشكر الجزيل على القيام بهذا العمل الجليل، فجزاه الله عنا خير الجزاء، ويتقبل منه هذا الجهد، والله ولي التوفيق والقبول.

جعفر مسعود الحسني الندوي

١٤٣٦/١/١هـ

www.abulhasanalinadwi.org

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة العربية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد بن عبد الله الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وعلى كل من اهتدى بهديه إلى يوم الدين وبعد:

فلقد بعث الله محمداً بن عبد الله العربي القرشي رسولاً خاتماً لأنبيائه، انتهت عليه بعثة الأنبياء والرسل الذين كان من مسئوليتهم هداية الناس وإرشادهم إلى أوامر الله تعالى، واتباع الحق، ولما ختمت عليه النبوة ختم نزول الوحي، وجعل القرآن كتاب الله الأخير، وجعل حديث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وسيرته أسوة ونموذجاً، وجعله الله تعالى بذلك سراجاً منيراً لحياة الإنسان، وجعل أوامره وأعماله كافية لهداية الناس إلى يوم القيامة، فقد قال: "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا" [الأحزاب: ٢١]، وجعل طاعته واجبة على كل إنسان، فأصبحت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة كاملة لهداية كل إنسان مؤمن بالله تعالى، لا يهتدي إلا باتباعها والعمل بما يطلع عليه من أعمال حياته وأوامره الدينية، وبذلك أصبح كل مسلم بحاجة إلى أن يطلع على سيرته الطيبة، ليبني أعمال حياته على ما يحصل منها من توجيه وتعليم وهداية؛ لأن الله تعالى جعل رضاه تابعاً لرضاه، وجعل طاعته تابعة لطاعته، لأنها موافقة لطاعة الله تعالى.

www.abulhasanalinadwi.org

وإن حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم تحمل صورتين: صورة إنسانية، وصورة نبوية، أما صورته الإنسانية فهي صورة فطر الله عليها الإنسان، فيتيسر بذلك للإنسان أن يجد في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم أحوالاً للفطرة الإنسانية التي طبع الله عليها الإنسان، وأما صورته النبوية فإنه يجد فيها هداية دينية وتهذيباً وتحسيناً للأحوال الإنسانية؛ ليصبح الإنسان بتوجيهاته الطيبة النبوية متبعاً لما يرضى به الله تعالى وهو خالق الإنسان ومالكه وربُّه، فإن الإنسان المؤمن يستفيد من سيرة الرسول توجيهاً لما يجعل حياته حياة صالحة مهدية من ربه تعالى عن طريق رسوله وخاتم أنبيائه صلى الله عليه وسلم.

ولقد قام كثير من الناس الذين يشتغلون بالعلم من أصحاب الإيمان والرشد والهداية بتقديم سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس في قوالب علمية وأدبية مختلفة ليستفيد بها الناس ليتخذوها سراجاً منيراً ومنهجاً سليماً لحياتهم، وهم يرون بذلك شرفاً لأنفسهم أنهم قاموا بخدمة إنسانية كريمة، وهم يريدون بذلك إسداء الخير إلى الناس وخدمة دين الله تعالى بصلاحياتهم الأدبية والعلمية.

فنظراً إلى ما يحصل للإنسان من الشرف من هذا العمل الطيب أردت أن أتشرف به أنا أيضاً، فقمت بقدر ما تيسر لي بعرض لمعالم حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، أرجو من الله تعالى القبول لعملي هذا، وهو عمل عظيم وجليل من ناحية موضوعه، من مؤلف صغير متواضع من ناحية الشخص الذي قام به.

ألفت هذا الكتاب باللغة الأردية السائدة في شبه القارة الهندية، ورجاء لتوسيع نطاقه أشار عليّ بعضُ زملائي وأصدقائي أن

www.abulhasanalinadwi.org

ينقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية الحية الباقية، فقام الأخ العزيز محمد وثيق الندوي (محاضر بكلية اللغة العربية وآدابها بجامعة ندوة العلماء والمدير المساعد لصحيفة "الرائد" الصادرة بندوة العلماء) أحد البارعين في اللغة العربية والمطلعين على مصادر السيرة النبوية بنقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية ليتسع نطاق الاستفادة به، ونقله الأخ العزيز من الأردية إلى العربية بإتقان وجدارة، وبلغة رصينة بليغة، وبأسلوب سهل سائغ، وقد حاول أن يراجع خلال الترجمة إلى الأصول العربية للسيرة النبوية، ليكون تقديم الوقائع والأحداث باللغة العربية مباشرة ليسهل للقارئ مراجعتها في مصادرها ومظانها الأصيلة، فأجاد وأحسن. جزاه الله خير الجزاء، والله ولي التوفيق والقبول.

٢/١١/١٤٣٥هـ محمد الرابع الحسني الندوي

٢٩/٨/٢٠١٤م ندوة العلماء، لكناؤ (الهند)

www.abulhasanalinadwi.org

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير الطبعة العربية

بقلم: فضيلة الدكتور سعيد الأعظمي الندوي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء وإمام المرسلين، محمد، و على آله وصحبه أجمعين، وبعد!

فقد كانت الفترة طويلة بين عيسى عليه السلام وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم استغرقت ٥٧٠ خمس مائة وسبعين عاماً، شهد خلال ذلك العالم البشري شرقاً وغرباً تقلبات واسعة من الحريات والانطلاقات، تخللتها دعوات باطلة، ونظرات زائفة من اليهودية والنصرانية، وأباطرة الرومان، أما الجزيرة العربية، فقد تسربت إليها أدواء خلقية ونفسية، وأمراض عقلية واجتماعية، تشتت بها شمل الحياة الاجتماعية، والحرمات الإنسانية، وانتشرت الفوضى والانقسامات القبلية في كل مكان، والعقائد المنحرفة، ذاك أن أهلها كانوا يعيشون بين وثنيات متسعة الآفاق، ويعبدون الأصنام ويعتبرونها ذريعة للتوصل إلى الله خالق الأكوان، وبذلك كانت حياتهم منصبغة بصبغة الشرك الذي كان الداء الدوي الذي حال دون الإيمان بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من دين ودعاهم إليه، فرفضوه وحاربوه، وقالوا "إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ" [الزخرف: ٢٣].

www.abulhasanalinadwi.org

وأرد الله سبحانه أن يجعل النبي صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ورسالته خاتمة الرسالات السماوية، وتلك هي الميزة الخاصة التي تميز بها رسول الله صلى الله عليه وسلم دون غيره من الأنبياء، وهي تتلخص في شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام، وفي دينه الذي أكمله الله تعالى، وختم به الأديان كلها، فلا يأتي بعده نبي ولا رسول، ولا رسالة ولا دين، وذلك هو الذي أشاد به الله سبحانه وبشر به أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا" [المائدة: ٣].

كان الرسول صلى الله عليه وسلم مجمع الفضائل والأخلاق والمكارم والمحامد كلها، كان فيه أسوة حسنة للعالم البشري كله، فكانت سيرته من أكمل السير، وحياته من أروع ما شهده البشر، على طول مداه، كان داعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وقد شهد الله سبحانه بأنه نور، فقال "قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" [المائدة: ١٥- ١٦].

كانت حياته صلى الله عليه وسلم صورة صادقة ونسخة كاملة للدين الذي بعثه الله تعالى به، ولما سئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن خلقه فقالت: " كان خلقه القرآن " لذلك كان ا لمثل الأعلى في كل صفة وفضيلة، وخلق وأدب، صنعه الله تعالى وأدّبه فأحسن تأديبه، وربّاه تربية مثالية للعبادة والدعوة والجهاد في سبيل الدين وتمثيله في كل صغير وكبير، وفي جميع الأحوال والظروف، وتطبيقه بالعمل الصادق على الحياة بجميع ألوانها، فردية كانت أو جماعية،

www.abulhasanalinadwi.org

عائلية كانت أو اقتصادية، سياسية كانت أو أممية، ولولا ذلك لما ا نتشر هذا الدين، ونال إعجاب الناس على المستوى العالمي، ولما كان ديناً يتفق وطبيعة البشر في كل زمان ومكان، وعلى سبيل الخلود والدوام، ورغم التغييرات والتقلبات التي تتناوب المجتمعات البشرية.

لاريب فيما إذا كانت سيرة النبي صلى الله عليه وسلم مكتبة علمية وخلقية ودينية وأدبية زاخرة بالنماذج العملية والأسوة الحسنة للجميع، فإن الدارس لهذه الحياة الجامعة للفضائل ولجميع الكمالات الإنسانية والأوصاف النادرة، ينادي من أعماق قلبه: إنها سيرة لم تسبق في العالم البشري، وأنها أسوة حسنة لم تخطر على بال ذي روح، بل الواقع أن الجماد وما ليس فيه روح ولا قلب شهيد بعظمته وسموّ مكانته، والأمثلة في هذا المعنى كثيرة سجلتها مكتبات السير والتراجم في العالم، فكان النبي صلى الله عليه وسلم معجزة بذاته، وأظهر الله سبحانه على يديه معجزات وخوارق كثيرة، ومجرد قصة صلح الحديبية، ثم فتح مكة بعده بسنتين الذي عبر الله سبحانه عنه بالفتح المبين، ليست أقل من معجزة، يقول الله تعالى: " إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا" [الفتح: ١- ٣].

كان فتحاً كبيراً في مجال الدعوة إلى الله تعالى ودخول الناس في دين الله أفواجاً، يقول ابن شهاب محمد الزهري التابعي المتوفى في سنة ١٢٤هـ:

" فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب (أوزارها)

www.abulhasanalinadwi.org

أمن الناس بعضهم بعضاً والتقوا، فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، ولم يكلم أحد في الإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر".

ولاشك فإن فرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الفتح كان بالغاً إلى آخر المدى، فرحه بالنصر العزيز الكريم، وبالفتح المبين، وجاء في رواية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " نزلت علي البارحة سورة هي أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها" ذاك إن من ثمار الفتح كان دخول عدد كبير في الإسلام، كما أن القبائل العربية بادرت بالدخول في الإسلام، فكان العام التاسع عام الوفود التي أعلنت دخولها في الإسلام، وقد بلغ عددها أكثر من ستين وفداً جاءت إلى المدينة معلنة إسلامها، وقد ذكر ابن إسحاق أسماء هذه الوفود فقال: "هي وفد نبي الحارث بن كعب، ووفد همدان، ووفد عدي بن حاتم، ووفد فروة بن مسيك المرادي، ووفد صرد بن عبد الله الأزدي، ووفد فروة بن عمرو الجذامي".

وقد قام ابن سعد في الطبقات الكبرى بجمع المعلومات عن الوفود التي أعلنت إسلامها كما أن الإمام البخاري رحمه الله ذكر قدوم وفد بني تميم الذي حكت سورة الحجرات بعض ما صدر من أهله من الأعمال التي اتسمت بالجفاء وقلة الأدب في الخطاب "إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ" [الآية: ٤]. وذكر البخاري رحمه الله قدوم وفد عبد القيس ووفد بني حنيفة الذي كان فيه مسيلمة الكذاب، واشترط لإسلامه أن يكون له الأمر بعد الرسول

www.abulhasanalinadwi.org

صلى الله عليه وسلم، ولكن قال له النبي عليه الصلاة والسلام: إنه لو سأله قطعة جريد ما أعطاه وأشار إلى ما سيكون منه من فتنة.

كل ذلك يشير إلى أن الإسلام انتشر في الجزيرة العربية وفي بعض بقاع العالم مع الفتح المبين الذي أكرم الله سبحانه به نبيه صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك انهارت دعائم الحضارات المصطنعة الفارسية والرومية، وباءت فلسفة الوساطة بين العبد وربه بالفشل، ولقيت الوثنية و الصنمية انتكاسا ويأساً وماد بها مركزها في قلوب الجماهير، وهنالك وفق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بناء حضارة إنسانية عالمية من خلال تعاليم الإسلام، وتوجيهاته، وفضائله، وآدابه، وأخلاقه، ودعوته السماوية الأخيرة التي ليست بعدها دعوة ولا دين، ولا مدنية ولا حضارة، إنما هي حضارة الإسلام التي قامت في ضوء الهداية السماوية التي نزلت بالوحي، والخلق العظيم الذي تحلى به الرسول صلى الله عليه وسلم على أسس من الوحي، فقد تحدث عنها الله سبحانه وتعالى بصيغة التأكيد والتأييد البالغين فقال: "وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ" [القلم: ٤- ٦].

ومن هنالك كان أساس هذه الحضارة موقف الإنسان الروحي من إدراك صلته بالوجود، والإيمان بالله تعالى الذي يدعوه إلى تزكية نفسه وتحلية حياته بالعلم والحكمة، ودراسة ما أودع الله تعالى في كتابه من العلوم والحكم والمعارف التي لا يكاد يبلغ أحد إلى أولياتها فضلاً عن استيعابها، وقد أشار الله سبحانه إلى هذا المعنى في كتابه العظيم، فأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقول ذلك "قُلْ لَوْ كَانَ

www.abulhasanalinadwi.org

الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا" [الكهف: ١٠٩].

فالعلم والتقوى والحكمة والإخلاص لله تعالى هو في الواقع الأساس الأصيل للحضارة الإسلامية الإنسانية، وكل حضارة من وضع الإنسان فشلت في حل الأزمات بأنواعها وألوانها، وأخفقت في توفير السعادة لحياة الإنسان ولو بأقل ما يمكن، بل الواقع أن حضارة الغرب والشرق لم تقم إلا على أساس الطمع المادي الحقير وعبادة المال والجاه والطمع في كسب الفائدة المادية بأي طريق ممكن من غير أن يمت إلى شرعية.

وما كان ذلك إلا لأن الديانات السابقة المنسوخة قامت بفصل الدنيا عن الدين، والجسم عن القلب، وأقامت جسوراً بين العبد والرب، وبين المادة والروح، لا علاقة بينهما مباشرة في أي حال، وإنما هي الحرية المطلقة التي ينادي بها الماديون والاشتراكيون ومن معهم في تفسير معنى الحضارة، بينما الحرية تابعة للعقل المؤمن الذي يحكم بين ما هو لله وما للإنسان، وكيف ينبغي أن يعيش الإنسان في هذه الدنيا بالجمع الوسط المتزن بين حسنة الدنيا وحسنة الآخرة، ويدعو ربه من أعماق قلب: " رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ" [البقرة: ٢٠١].

ومن ثم كانت شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ذات قيادة عالمية، ذابت أمامها حضارات الفرس والروم، وفقدت كفاءة الحكم وذاتية المدنية التي كانت قد سحرت العالم البشري كله، وتأكدت أنها منتهى الحضارة والمثالية، وسوف لا يحتاج بعدها العالم

www.abulhasanalinadwi.org

إلى حضارة أو مدنية أو قيادة للبشر، ومع ذلك تحطم طلسم الفنون والآداب التي كانت تنتمي إلى الإغريق واليونان، وجاء رسول صلى الله عليه وسلم بحضارة الإنسان الراقية نمت فيها تعاليم الروح والمادة فتميزت بوسطية انسجمت مع الطبيعة البشرية، وعدلت جميع شئون الحياة والكون والإنسانية التي كانت فريسة الإفراط والتفريط وانحرفت بها الطرق المعوجة فتفرقت بها عن سبيلها، ولولا القصد والاعتدال في التعاليم التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم لما تيسرت قيادة العالم بعد ما غابت عنه القيم والمثل العليا أيام الجاهليات التي عاشتها الأمم والشعوب على جميع المستويات، والتي أنتجتها الحياة المصطنعة والحضارات المادية التي رصدتها، كنموذج للحكم، حكومات الشرق والغرب، ولم تتحمل المتاعب في سبيل الدعوة إلى الخير والهدوء والطمأنينة، مثل ما فعل رسول الإنسانية في تثبيت دعائم الحب والأمن وتعميق جذور العدل والمساواة والاجتماع، وترسيخ عقيدة التوحيد والإيمان في القلوب "مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا" [الفتح: ٢٩].

ولكي يعم خير هذا الدين ويستمتع منه العالم كله، لم يكتف الرسول عليه الصلاة والسلام بإيثاره بجماعته وقومه وبلده على

www.abulhasanalinadwi.org

الآخرين، وإنما نشر خيراته النامية كلها بين الشرق والغرب وفي جميع أرجاء المعمورة، بدءاً من جزيرة العرب إلى الفرس والروم، والهند والصين، وقد اعتز أهلها بانتمائهم إلى هذا الدين الكامل الخالد الذي غمر العالمين بالرحمة والسعادة وروح التضحية والفداء، فتلك هي خير أمة، الأمة الوسط التي دعت الإنسان إلى بناء حياته في ضوء كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجهت دعوة الإسلام إلى الناس كافة وقامت بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشئ كثير من الشعور بالمسئولية واستحضار يوم الحساب في الآخرة، الواقع الذي أنتج لهذه الأمة أياماً سعيدة تحت ظلال الدولة الإيمانية، والخلافة الإسلامية التي ظلت تمثل محاسن الإسلام في الحياة والمجتمع، وقد ترفرفت راية الدين والدولة معاً في معظم مناطق العالم، ونال العالم البشري حظاً وافراً من السعادة والعز والكرامة على أيدي رجال مؤمنين كانوا قوة عظيمة لنشر رسالة الإسلام في أنحاء العالم، وسداً على الرذائل، وعلى الخصومات التي أقامتها بعض الطوائف من مخلفات الديانات القديمة التي أثارت الأحقاد على الدين الإسلامي ومنهج حياته الطبيعي الذي نال الإعجاب في المجتمعات الإنسانية على المستوى العالمي، ولاسيما بعد الفتح الإسلامي الذي توسع نطاقه في عهد الخلافة الراشدة وأيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد تصدت اليهودية والنصرانية لمحاربة الإسلام وصد تياره وتحديد تأثيره في المجتمعات في القرن العاشر الميلادي وما بعده، وظلت المناوءات تتوسع والتبشير يأخذ طريقه نحو البلدان الغربية والشرقية، لإسقاط الخلافة الإسلامية

www.abulhasanalinadwi.org

في الأندلس التي عمرها الخلفاء المسلمون بالعلوم والمعارف، وبالمدارس والجامعات والمكتبات الواسعة الكبيرة، والمتاحف العامرة بنوادر الآثار، والمساجد الشامخة، والقصور المزخرفة، وبالتالي بالحضارة الإسلامية النادرة، أضف إلى ذلك كوكبة مسلمة من أساتذة الفنون والمعارف من كل نوع، أولئك الذين انتشلوا أوربا من مهالك الجهل والوحشية، وأخذوا أهلها بالتعليم والتثقيف وبمعطيات من خزائن العلم والمنهج الطبيعي للحياة الإنسانية.

ولكن أوربا كفرت بأنعم الله تعالى وسرعان ما نسيت ما أسداه المسلمون إليها، وفرضت على العالم الإسلامي حروباً صليبية دامت نحو قرنين من الزمان في إبان القرن السادس الهجري والقرن الثاني عشر الميلادي، قيض الله تعالى السلطان نور الدين الزنجي وقائد قواته السلطان صلاح الدين الأيوبي لمقاومة الصليبيين وإنقاذ المسجد الأقصى وفلسطين ومصر من الصليبيين ومن والاهم من اليهود، وذلك في عام ١١٨٧ الميلادي.

ولم تنته الصليبية بل إنها تلبست اليوم بملابس جديدة وظهرت في أشكال شتى، فتارة باسم حرية الكلمة، وتارة باسم العولمة، وثالثة باسم تحرير المرأة، وباسم الفنون والثقافات، وفي عام ٢٠٠٢/٩/١١م أعلنت حرب صليبية جديدة وهددت الأمة الإسلامية بها من خلال الرئيس الأمريكي يومذاك، وكأنها مستمرة بألوانها ضد الإسلام الذي تحاك خيوط المؤامرات لإضعاف مركزه، وإسكات صوته، وإخراج هيبته من القلوب، وبتوجيه التهم إلى العالم الإسلامي، بخرق القوانين الأمنية والسلمية، وتسمية الإسلام

www.abulhasanalinadwi.org

بدين الإرهاب والجهاد، كما أن هناك سعياً حثيثاً لمحو شعائر الإسلام بالوسائل السرية وتسريب السموم البطيئة إلى صفوف الدعاة وعلماء الإسلام، والقضاء عليهم نهائياً، يبرهن على ذلك ما يجرى اليوم في العالم الإسلامي من أوضاع مضادة لتشويه وجه الإسلام وهز كيانه، قال الله تعالى: "وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ" [هود: ١١٣].

وبمجرد الاطلاع على شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ومعرفة أخلاقه السامية وحياته الزكية وسيرته الشاملة الجليلة يضطر المرء إلى أن يخضع أمامها ويفتح صدره لكي يستقر فيه حبه باتباع الدين الذي أكمله الله تعالى على يده، وتطبيق شريعته التي جاء بها من عند ربه، على الواقع المعاش العام ماضياً أو حالاً أو مستقبلاً، وذلك هو الطريق الوحيد، الطريق الممهد نحو حب الله تعالى والخضوع أمام كبريائه، وأداء ضريبة هذا الحب بالعبادة التي كانت الغرض الأصيل لخلق الجن والإنس "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ" [الذاريات: ٥٦- ٥٨].

فما أحوجنا إلى تحقيق هذا الغرض الأصيل، وأداء واجب الحب والودّ الذي تشرفت به أمة الإسلام والذي يتمثل في أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين".

عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله

www.abulhasanalinadwi.org

أحبّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود إلى الكفر بعد ما أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار" [متفق عليه].

وعنه رضي الله عنه، أن أعرابياً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم، متى الساعة؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ماذا أعددت لها؟ قال: حب رسوله، قال: أنت مع من أحببت" [متفق عليه].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه فقال: يا رسول الله كيف تقول في رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المرء مع من أحب" [متفق عليه].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق ا لإسلام، وحسابهم على الله تعالى.

إن مسئوليتنا ضخمة حول ترسيخ جذور الحب لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم في النفوس والعقول، توثيقاً للثقة بالإسلام وتأكيداً بأنه هو في الواقع سفينة نجاة للعالم البشري في كل زمان ومكان، ومصدر حضارة الإنسان الأصيل، ولاسيما في عالمنا المعاصر الذي يحاول فيه الغرب بجميع وسائله وأدواته أن يؤكد للناس أن الإسلام ليس له حضارة، وأن الغرب سيفرض حضارته على العالم البشري بأجمعه، كما قد صرح بذلك رئيس مجلس الوزراء الإيطالي "سلفيويرلومسكوني" في عام ٢٠٠١م لدى زيارته لألمانيا،

www.abulhasanalinadwi.org

وقال: إن حضارتنا أرقى من حضارة الإسلام، لا يمكن أن نضع الحضارتين على قدم المساواة، وسيواصل الغرب فرض نفسه على العالم كله وتغريب بقية الشعوب كما فعلنا مع العالم الشيوعي وجزء من العالم الإسلامي، يجب أن نضع قوة تفكيرنا بوجه خاص حول مواصلة التغريب وفرض نفسه على العالم كله".

ولقد كانت دراسة سماحة العلامة الإمام السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي للغرب ومطامعه ضد الإسلام وعبقريته في معرفة نوايا جميع الشعوب المادية ضد الإسلام وحضارته الباقية إلى آخر المدى، ذات مغزى كبير يفتح آفاق الفكر متسعة على أوساط العلم والتاريخ والدين والحضارة، وحسبنا كمثال كتابه الشهير "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" الذي اعترف بجلالة شأنه وعلو مكانته كبار المفكرين والعلماء والدعاة والقادة في العالم الإسلامي، إنه يتحدث عن الإيمان والإنسانية فيقول:

" "المهم الأهم لقادة العالم الإسلامي وجمعياته وهيئاته الدينية والدول الإسلامية غرس الإيمان في قلوب المسلمين، وإشعال العاطفة الدينية، ونشر الدعوة إلى الله ورسوله، والإيمان بالآخرة على منهاج الدعوة الإسلامية الأولى، لا تدخر في ذلك وسعاً، وتستخدم لذلك جميع الوسائل القديمة والحديثة، وطرق النشر والتعليم، كتجوال الدعاة في القرى والمدن، وتنظيم الخطب والدروس، ونشر الكتب والمقالات، و مدارسة كتب السيرة، وأخبار الصحابة، وكتب المغازي، والفتوح الإسلامية، وأخبار أبطال الإسلام وشهدائه،

www.abulhasanalinadwi.org

ومذاكرة أبواب الجهاد وفضائل الشهداء، وتستخدم لذلك "الإذاعة" والصحافة وكتب الأدب، وجميع القوى والوسائل العصرية.

والقرآن وسيرة محمد صلى الله عليه وسلم قوتان عظيمتان تستطيعان أن تشعلا في العالم الإسلامي نار الحماسة والإيمان، وتحدثا في كل وقت ثورة عظيمة على العصر الجاهلي، وتجعلا من أمة مستسلمة، منخذلة ناعسة، أمة فتية ملتهبة حماسة وغيرة وحنقاً على الجاهلية وسخطاً على النظم الجائرة" (١).

واستجابة لنداء الإمام الندوي فيما جاء في المقتطف المذكور أعلاه، قام سماحة العلامة الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي خلف الإمام الندوي ورئيس ندوة العلماء العام اليوم بتأليف هذا السفر الجليل حول سيرة النبي صلى الله عليه وسلم بميزته الأدبية والفكرية الخاصة، وبدراسته العميقة لما يجري في العالم اليوم من تقليل شأن خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم الذي جعله الله تعالى سراجاً منيراً بصفة دائمة، وما يوجد من انتهاك حرمته في معظم الأحوال والمناسبات في حواضر العالم المادي اليوم بغضاً وعداوة، وكان مؤلفه هذا باللغة الأردية، إلا أنه نقل إلى لغات عالمية عديدة، وكانت الحاجة ماسة إلى ترجمته إلى اللغة العربية، فتحمَّل هذه المسئولية تلميذه الوفي الأخ الفاضل الأستاذ محمد وثيق الندوي، محاضر في كلية اللغة العربية بجامعة ندوة العلماء، ومساعد التحرير في صحيفة "الرائد "العربية الصادرة من ندوة العلماء منذ ٥٦ عاماً مرتين في كل

---

١ -ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص٢٨٩- ٢٩٠.

www.abulhasanalinadwi.org

شهر، فكانت الترجمة طبق الأصل في غاية من وضوح التعبير ونقل المواد إلى لغة عربية أصيلة بأسلوب عربي خالص، رجاء أن ينال إعجاباً كبيراً من أبناء لغة الضاد وإقبالاً جيداً من أهل العلم، وفي أوساط الأدباء والمعنيين بالعمل الإسلامي في ضوء الكتاب والسنة في العالم اليوم.

ونحن إذ نتمنى للكتاب قبولاً واسعاً ندعو الله سبحانه وتعالى أن يجزي المؤلف الجليل والمترجم الفاضل بأحسن ما يجزي به عباده المخلصين العاملين، وأن يعمم نفعه في جميع مجالات العلم والعقيدة والإيمان، آمين.

كاتب هذه السطور

سعيد الأعظمي الندوي

مدير دار العلوم لندوة العلماء

ورئيس تحرير مجلة البعث الإسلامي

الصادرة بندوة العلماء لكناؤ (الهند)

١٤٣٦/١/٨هـ

٢٠١٤/١١/٢م

www.abulhasanalinadwi.org

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المترجم

الحمد لله رب العالمين الذي أكرمنا بمبعث محمد بن عبد الله الأمين معلّماً ومربّياً وموجّهاً ومرشِداً، فقال عزّ من قائل: " لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ" (آل عمران: ١٦٤) والصلاة والسلام على أشرف الخلق وأزكاهم نبينا محمد قدوة العاملين وإمام المتقين وخاتم الأنبياء والمرسلين ورحمة للعالمين، اختاره الله عز وجل واصطفاه فأرسله " شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا " (الأحزاب: ٤٥- ٤٦) وكتب العزة والسعادة والفخار لمن سلك سبيله، والذلة والصغار على من خالف أمره، فصلوات ربِّي وسلامه عليه ما ذكره الذاكرون الأبرار وما تعاقب عليه الليل والنهار، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فإن السيرة النبوية لا تزال هي المعين الثَرُّ الذي تنهل منه الأمة الإسلامية أزكى معاني الخير، وأسمى مبادئ العز، والمجد، والكرامة، وأقوم مناهج التربية والتوجيه، وأفضل معاني الشرف والفضيلة، وترشد الأسوةُ المحمديةُ الأمةَ إلى معالم الطرق، وتضع أقدامَها على جادّة الصواب، وترسم لها صورةَ الحياة الفاضلة النبيلة،

www.abulhasanalinadwi.org

وتهديها إلى أصول الحياة الحُرَّة الكريمة، فلا تضلّ ولا تشقى، ولا تزيغ ولا تضطرب، ولا تلتبس عليها السبلُ، مسلكُها واضحٌ، وسالكُها رابحٌ.

وإن سيرة حبيبنا ورسولنا العظيم الطيبة الجامعة لشتى الأمور والكمالات والصفات، هي ملاك الأخلاق، وجماع التعاليم لشعوب الأرض، وللناس كافة، في أطوار الحياة كلها، وأحوال الناس على اختلافها وتنوُّعها، فسيرةُ الرسول العظيم نورٌ للمستنير، وهديُه نبراسٌ للمستهدي، وإرشاده ملجأٌ لكل مسترشد.

إن دراسة الهدي النبوي ـ كما كتب الدكتور علي محمد محمد الصلابي في مقدمة كتابه السيرة النبوية ـ لها أهميتها لكل مسلم، فهي تحقق عدة أهداف؛ من أهمِّها: الاقتداءُ برسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال معرفة شخصيته صلى الله عليه وسلم، وأعماله، وأقواله، وتقريراته، وتكسب المسلمَ محبةَ الرسول صلى الله عليه وسلم، وتُنمِّيها، وتباركها، وتُعرِّفه بحياة الصحابة الكرام، الذين جاهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتدعوه تلك الدراسة لمحبتهم، والسير على نهجهم، واتباع سبيلهم، كما أن السيرة النبوية توضح للمسلم حياةَ الرسول صلى الله عليه وسلم بدقائقها وتفاصيلها منذ ولادته؛ وحتى موته، مروراً بطفولته، وشبابه، ودعوته، وجهاده، وصبره، وانتصاره على عدوِّه، وتظهر بوضوح: أنه كان زوجاً، وأباً، وقائداً، ومحارباً، وحاكماً، وسياسياً، ومربياً، وداعية، وزاهداً، وقاضياً، وعلى هذا فكل مسلم يجد بغيته فيها.

فنظراً إلى هذه الجامعية والشمول للسيرة النبوية كتب العلماء والمفكرون والأدباء والمفسرون والمحدثون والمؤرخون من المسلمين كتباً

www.abulhasanalinadwi.org

في بيان جوانب متنوعة للأسوة المحمدية الدائمة الخالدة، ونشر خلقه العظيم، وسيرته العطرة، وأسوته المثالية بين الناس مراعين طبيعة عصورهم وبيئاتهم بأسلوب علمي وأدبي وتاريخي، لتحصل لهم سعادةُ الاتصال والحبّ للرسول صلى الله عليه وسلم، وتستمر هذه السلسلة المباركة إلى يومنا هذا.

وفي هذا العصر وهو عصر العلم والمعرفة، يستهدف الحاقدون وأصحاب الأقلام المغرضة والمأجورة وخاصة الغربيون السيرة النبوية وصاحبها ويتهمونه بتهم كاذبة، فنهض العلماء الغيارى من المسلمين ودحضوا الأباطيل والتهم الكاذبة، وفنّدوا الدعاوي الزائفة، وألفوا كتباً قيمة حول السيرة النبوية بأسلوب علمي معاصر بلغات مختلفة، وحسب البيئة والطبيعة المعاصرة، فتكونت منها مكتبة ضخمة، تزيل الشكوك والشبهات المثارة، وتقنع العقول المعاصرة، وتؤثر على النفوس والأذهان.

ومن هؤلاء العلماء العظام شيخُنا العلاَّم سماحة الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي (الرئيس العام لندوة العلماء ورئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية لبلدان شرق آسيا) فقد ألف كتاباً قيماً في السيرة النبوية بالأردية اللغة السائدة في شبه القارة الهندية، نال القبول والتقدير حتى نفدت عدة طبعات له في مدة قصيرة، فكانت الحاجة إلى نقله إلى لغات أخرى، فنقل إلى الإنجليزية والهندية ولغات محلية أخرى، وبقيت الحاجة ماسة إلى نقل هذا الكتاب إلى العربية ليطلع إخواننا العرب على ما فيه من جوانب مضيئة للسيرة النبوية بثوب قشيب وأسلوب جديد، فأحسن المؤلف الظن بي وكلّفني بهذا

www.abulhasanalinadwi.org

العمل ، وقبلتُ راجياً من فضل الله تعالى أن يجعلني به ممن تشملهم يوم الدين شفاعة سيد المرسلين وخاتم النبيين الذي جعل الله في شخصيته وكمالاته الإنسانية وشريعته السمحة الغراء حجة قائمة على الناس خالدة إلى يوم يبعثون ؛ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم ، فأنا جِدُّ شاكر له ومعترف بفضله وإحسانه إليَّ.

ونظراً إلى اختلاف أسلوب اللغة الأردية عن أسلوب اللغة العربية وتباين طبائع المسلمين الهنود وأذواقهم عن طبائع الإخوة العرب وأذواقهم عدلت عن الترجمة الحرفية ، وحاولت أن أراجع أصول السيرة النبوية ومصادرها التي استفاد منها المؤلف الجليل ليطلع القارئ على الوقائع والأحداث بلغتها الفصيحة الأصيلة وأسلوبها البليغ الرصين مباشرة ، وقد استفدت خلال الترجمة من "السيرة النبوية" لابن هشام ، و"زاد المعاد في هدي خير العباد" للعلامة ابن قيم الجوزية من القدامى ، كما استفدت من "السيرة النبوية" للشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي و"السيرة النبوية" للدكتور علي محمد محمد الصلابي من المتأخرين.

فالشكر موصول لكل من ساعدني في نيل هذه السعادة ؛ سعادة المساهمة في خدمة السيرة النبوية ونشرها بالعربية ، برعاية ، أو توجيه ، أو فكرة ، أو مراجعة ، أو دعم ، أخص بالذكر منهم سماحة الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي مؤلف الكتاب ، الذي أحسن الظن بي في نقل الكتاب إلى العربية ، وهيأ لي الفرصة للعمل تحت رعايته ، كما أشكر أستاذي الجليل فضيلة الشيخ محمد واضح رشيد الحسني الندوي (رئيس الشئون التعليمية لندوة العلماء ورئيس

www.abulhasanalinadwi.org

تحرير صحيفة "الرائد") على توجيهه وتشجيعه وإشرافه على الترجمة، وأشكر أستاذي العطوف فضيلة الدكتور سعيد الرحمن الأعظمي الندوي (مدير دار العلوم لندوة العلماء ورئيس تحرير مجلة "البعث الإسلامي") على كتابة كلمة تصدير وتقريظ قد زادت في قيمة الترجمة العربية، وكذلك أشكر أخانا الكريم الأستاذ النبيل السيد محمد جعفر مسعود الحسني الندوي الذي تناول الترجمة بالتهذيب و التحسين، و أشكر الأخ العزيز محمد خالد الباندوي الندوي الذي راجع الترجمة بعد الطبع على الكمبيوتر وساعده الأخ محمد سهيل الباندوي، فجزاهم الله خير الجزاء.

وصلى الله تعالى على خير الخلق سيدنا وحبيبنا محمد، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً كثيراً.

٢٠/ ذوالحجة ١٤٣٥هـ
١٦/اكتوبر ٢٠١٤م

محمد وثيق الندوي
محاضر بكلية اللغة العربية وآدابها
بدار العلوم لندوة العلماء
والمدير المساعد لصحيفة "الرائد"
الصادرة بندوة العلماء، لكناؤ (الهند)

www.abulhasanalinadwi.org

تقديم الكتاب

بقلم: فضيلة الشيخ محمد واضح رشيد الحسني الندوي[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله الأمين، وعلى آله و أصحابه أجمعين، وعلى كل من اهتدى بهديه إلى يوم الدين، وبعد.

فكل من يدرس سيرة الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم بدون عصبية قومية، أو عصبية دينية، لا يصعب عليه أن يكتشف من هذه الدراسة الموضوعية، أن السمة الغالبة الجلية لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وسلوكه مع أصحابه، وجوهر تعاليمه وتربيته للناس، هي الرحمة واللين، ولغلبة هذه الصفة وصفه القرآن الكريم برحمة للعالمين، وليس برحمة للمسلمين، فقال عز وجل: " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ". [الأنبياء: ١٠٧].

وقد ظهرت هذه السمة في سائر مواقفه ؛ في حياته الشخصية، وفي حياته الاجتماعية، وفي أشد وأصعب فترات الحياة ؛ في ظروف القسوة والمعاناة، عندما كان يواجه أشد أنواع الأذى من رجال قبيلته ؛ من المقاطعة، ووضع عقبات في سبيل دعوته السلمية إلى الحق، وفي ظروف الحروب التي فرضت عليه، وظهرت في أصحابه، وفي المؤمنين

---

[1] رئيس الشئون التعليمية لندوة العلماء، ورئيس تحرير صحيفة " الرائد " الصادرة بندوة العلماء، وعميد كلية اللغة العربية وآدابها سابقاً بدار العلوم لندوة العلماء، لكناؤ(الهند).

www.abulhasanalinadwi.org

بتعاليمه، وقد وصف القرآن الكريم هذه الطبيعة طبيعة الرأفة والرحمة فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آل عمران الآية: ١٥٩] وقال في موضع آخر: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ﴾ [سورة الفتح الآية: ٢٩] وقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًاوَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًاوَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًاوَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ [سورة الفرقان الآية: ٦٣- ٦٩] وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُون، وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُون، إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْعَادُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ، أُوْلَئِكَ هُمْ الْوَارِثُونَ، الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ١-١١].

وتعنى هذه الآيات أن الرحمة هي السمة الغالبة للإسلام، وقد اشتملت تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم على الرفق والرحمة حتى بالحيوانات والحشرات، ووردت في ذلك أحاديث كثيرة وتوجد أمثلة

www.abulhasanalinadwi.org

كثيرة في السيرة النبوية.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إمام الخلق أجمعين، ومعلمهم في حسن الخلق، وكرم النفس، والتواضع، لقد قال الله تعالى﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم الآية: ٤] وقد قال صلى الله عليه وسلم: "أدبني ربي فأحسن تأديبي" وعن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله بعثني لتمام مكارم الأخلاق، وكمال محاسن الأفعال، وسئلت عائشة - رضي الله عنها - عن خلقه، فقالت: "كان خلقه القرآن".

وكان في العفو والحلم ورحابة الصدر وقوة الاحتمال، حيث لا يبلغه ذكاء الأذكياء، وخيال الشعراء، ولو لم يرو عن طريق لا يتطرق إليه شك، ولا ترتقي إليه شبهة، لما قبلته أذهان الناس، ولكن روي بإسناد صحيح متصل، ونقل عادل عن عادل، وتواتر، واستفاض ذلك، فكان أثبت من التاريخ الأمين.

وإن أكبر مظهر لمكارم الأخلاق ومحاسن الفضائل هم الأنبياء، وإن أفضلهم وأكرمهم النبيُّ الخاتم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد جعله الله تعالى حاملاً لهذه الميزة الجليلة الممتازة ووصفه بهذه الصفة الغالبة: " لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ "[التوبة: ١٢٨].

وقد أبرز بعض المنصفين من الكتاب الغربيين هذا الجانب من السيرة في كتبهم.

وإن طبيعة المسلمين، هي طبيعة الشجاعة والجرأة، والشهامة والبسالة، والجود والكرم، ورحابة الصدر والحلم، والإحسان والإكرام، والعفو والصفح، ونجدة الملهوف والمظلوم والمقهور،

www.abulhasanalinadwi.org

ومعاملة العدل والتسامح، والملاطفة والمؤانسة مع الناس، ولذلك أمثلة كثيرة في التاريخ الإسلامي.

يقول المؤرخ النصراني فيليب فارج والمؤرخ يوسف كرباح في كتاب "المسيحيون في التاريخ الإسلامي العربي والتركي"(في صفحات ٢٥، ٤٦، ٤٧):

" كان عدد سكان النصارى واليهود في مصر إبان خلافة معاوية حوالي ٢٥,٠٠,٠٠٠ نسمة، وبعد نصف قرن أسلم نصف هذا العدد في عهد هارون الرشيد بسبب عدالة وسماحة الإسلام.(١)

ويقول المستشرق والمؤرخ السير توماس أرنولد في كتابه "الدعوة إلى الإسلام":

" إنه من الحق أن نقول إن غير المسلمين قد نعموا بوجه الإجمال في ظل الحكم الإسلامي بدرجة من التسامح لا نجد لها معادلاً في أوربا".(٢)

وتقول المستشرقة الألمانية الشهيرة سيجريد هونكه (١٩١٣-١٩٩٩م) مؤلفة "شمس العرب تسطع على الغرب" و"أرحم الفاتحين" :

" لم يجبر الحكام والفاتحون المسلمون أحداً على قبول الإسلام، وبالعكس ارتكب النصارى مجازر بشرية لإكراه الناس على الدخول في النصرانية، وخاصة أذاقوا المسلمين في الأندلس أنواعاً من التعذيب الوحشي".

ويقول الأسقف يوحنا النقيوسي:

" كان عمرو بن العاص (٥٠ق هـ- ٤٣هـ) يقوى كل يوم في

---

١ - ترجمة: بشير السباعي، طبعة القاهرة ١٩٩٤م.

٢ - ترجمة د/حسن إبراهيم حسن، د/ عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوي، طبعة القاهرة، عام ١٩٧٠م.

www.abulhasanalinadwi.org

عمله، ويأخذ الضرائب التي حددها، لم يأخذ شيئاً من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئاً ما، سلباً أو نهباً، وحافظ على الكنائس طوال الأيام".([1])

ويقول الأسقف ميخائيل السرياني عن تحرير الإسلام للنصرانية المصرية الشرقية، وعن سماحة الإسلام مع نصارى مصر:

"لم يسمح الإمبراطور الروماني لكنيستنا المونوفيزتية (القائلة بالطبيعة الواحدة للمسيح) بالظهور، ولم يصغ إلى شكاوى الأساقفة فيما يتعلق بالكنائس التي نهبت، ولهذا فقد انتقم الرب منه.

لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا، وأديرتنا؛ بقسوة بالغة، واتهمونا دون شفقة، ولهذا جاء إلينا أبناء إسماعيل من الجنوب لينقذونا من أيدي الرومان، وتركنا العرب نمارس عقائدنا بحرية، وعشنا في سلام".([2])

ويقول يعقوب نخلة روفيلة (١٨٤٧- ١٩٠٥م):

"وبالجملة فإن القبط نالوا في أيام عمرو بن العاص راحة لم يروها من أزمان" ([3]).

إنه لمفارقة غريبة أن هذه السمة الغالبة لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم التي تجلت في حياته كلها وتجلت في حياة من اقتدى به، قد حولها قصداً الكتاب الغربيون الذين ألفوا كتباً في السيرة النبوية، قسوة، واقتنصوا من السيرة وتاريخ الإسلام بعض الوقائع، أو الإجراءات التأديبية لإثبات

---

[1] - تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي: رؤية قطبية للفتح الإسلامي، ص: ٢٠١- ٢٢٠، ترجمة ودراسة: د/ عمر صابر عبد الجليل، طبعة القاهرة، دار عين، سنة ٢٠٠٠م.

[2] - تاريخ مصر في العصر البيزنطي، ص: ٦٢، للدكتور صبري أبو الخير سليم، طبعة القاهرة، دار عين سنة ٢٠٠١م.

[3] - تاريخ الأمة القبطية، ص: ٥٤- ٥٧، تقديم د/ جودت جبرة، الطبعة الثانية، القاهرة، مؤسسة مارمرقس لدراسة التاريخ، سنة ٢٠٠٠م.

www.abulhasanalinadwi.org

أنه كان نبي الحرب، أو العنف، وأن الإسلام هو دين العنف.

وتمسَّك سائر الكتاب في الغرب بهذا الخطأ والاستنتاج المقصود الذي قدمه بعض الكتاب الحاقدين عن قصد وتعمُّد، في عهد الحروب الصليبية، وعرض أصحاب السير سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم من هذه الناحية، وآثروا جانب المغازي من السيرة، وكتبوا فيه كثيراً، ولم يبرزوا عهد الظلم الذي عومل فيه الرسول صلى الله عليه وسلم معاملة القسوة والبربرية والعدوان، وصبر الرسول صلى الله عليه وسلم على الظلم، وتحمل الأذى والجفوة، بغاية من الصبر والأناة والحلم، والعفو والصفح، واستمر هذا الوضع القاسي إلى فتح مكة، فلم يبرز أصحاب العلم هذا الجانب، ولم يؤلفوا فيه إلا كتباً عديدة، ذكرت فيها جوانب الأسوة الحسنة للرسول صلى الله عليه وسلم، وقد اختار الكتاب الغربيون عهد الفتح والغلبة للمسلمين موضوع الدراسة والبحث وأعرضوا عما مرّ به الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة من معاناة، وظلم، وأهملوا جانب الصبر والتحمل والرحمة والعفو والصفح في حياته، وأغفلوا مآثره العظيمة على الإنسانية جمعاء، وما قام به من انقلاب عظيم، وما خلف من آثار خالدة ومعالم باقية في سائر مجالات الحياة، وقد حول المستشرقون جوانب العفو والصفح في حياة الرسول وصفته الغالبة الرحمة والرأفة، قسوة وجفوة، وصار هذا التصور المفتعل، شبه عقيدة للغربيين لا تتغير بتغير الزمان، ولا بالتجربة والمعرفة، ولا يكلف أحد من أهل العقول والبحث العلمي، نفسه بأن يدرس السيرة دراسة مفتوحة، ويعرف الحقيقة وكل من يدرس السيرة دراسة غير منحازة، يدرك هذه السمة. وقد اعترف بذلك كثير ممن درسوا الإسلام واعتنقوه، واعترفوا أن معرفتهم السابقة كانت خاطئة.

لقد أظهر بعض الكتاب وكان منهم وليم ميور Sir William Muir،

www.abulhasanalinadwi.org

وواشنجتون ايرفنج Washington Irving، وأ.ج.آربري A.J. Arberry، والفردجيوم A. Geom، وجولد تسيهر Goldizher، و س.م.زويمر S.M. Zweimer، و و.غ.فون جرون باوم G.Vom. Grunbaum، وفيليب حتي P.H.Hitti، و أ. ج. فينسينك A.J. Wensink، ولوي ماسينيون L.Massignon، و د.س. مرجيوليوت D.S.Margoliouth وأمثالهم، نيتهم عند التأليف في السيرة النبوية، أن المقصود من التأليف في هذا الموضوع هو قطع صلة المسلمين بذات الرسول صلى الله عليه وسلم، وإزالة قدسيته من النفوس، وصار من طبيعة معظم الكتاب في السيرة النبوية في الغرب أن يبرزوا جانب الغلظة والمؤاخذة والعقاب، ويركزوا عليه، ويعرضوا عن جوانب الرحمة، والإحسان، والعفو، الغالبة السائدة في حياته صلى الله عليه وسلم.

وقد شاعت هذه الكتب المشتملة على المواد السامة، وأقبل عليها الناس، ونالت القبول والرواج في النصارى للحقد الدفين في نفوسهم والعداء المتوارث للإسلام، ولأثر الحروب الصليبية، وقد أذيع وعمم هذا التصور المضلل بالروايات والقصص التاريخية والمسرحيات، وأنتجت أفلام تعرض هذا التصور، وتسمم الأذهان، وبذلت محاولات لربط أحداث العالم الإسلامي السياسية ووقائعه الاجتماعية بتعاليم الإسلام وبذات النبي نفسه، وأدرجت هذه الكتب في المناهج الدراسية.

وكانت الحاجة في نهضة أوربا الثانية، وفي عهد احتكاكها بالمسلمين، إلى استعراض هذه الكتب استعراضاً علمياً، ولكن لم يتحقق ذلك للمصالح الاستعمارية، وقد أدرجت تلك الكتب الحاقدة في المناهج الدراسية في جامعات العالم الإسلامي ومعاهده العلمية، في عهد الاستعمار الغربي، واعتمد عليها الباحثون من المسلمين بأنفسهم

www.abulhasanalinadwi.org

كمصادر موثوق بها، بينما كانت الحاجة إلى دراسة هذه الكتب دراسة نقدية، وغربلتها، فنتيجة للتقصير في هذا الجانب، انتشرت في العالم الإسلامي مع العالم الغربي، المواد المضللة والشكوك والشبهات عن تعاليم الإسلام وذات الرسول صلى الله عليه وسلم.

ولقد ألفت هذه الكتب في عهد غلبة المسلمين السياسية في العالم، عندما كانت أوربا تخرج من عهد الظلام والجهل، وكانت نفسية الذعر من المسلمين الغالبين الذين فتحوا معظم أرجاء العالم المعمورة، تطارد نفوس المقهورين في أوربا، وكانت أوربا في هذه الفترة تمر بحروب طاحنة، أدت إلى التشاؤم بالحياة، فوجدت معها عقدة نفسية أو مركب النقص أمام الغزاة المسلمين والحضارة الإسلامية السائدة، فوجدت في سب النبي صلى الله عليه وسلم وتزوير سيرته سلوى.

إن طبيعة الغرب هي طبيعة الضعف، والضعيف يلجأ دائماً إلى بذاءة اللسان، والجرئ يلجأ إلى العفو والصفح والتسامي، وكف اللسان، وقد جاء في المثل العربي "من ضاق صدره طال لسانه" وقد اختار الغرب للتوغل في الشرق الإسلامي حرباً سافرة في عهد غلبة المسلمين، انها اختارت طريق المكر والخداع، والافتراء والدجل، والدسائس، وشنت حرباً فكرية وحضارية ضد المسلمين.

نشأت في أوائل عهد النهضة العلمية في أوربا مكتبة ضخمة عن الإسلام، وخاصة عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، وتختلف هذه المكتبة في طبيعتها عن المكتبة العلمية الأخرى التي نشأت في أوربا في هذا العهد، فهي في العلوم والفنون موضوعية، تقوم على التجربة والبحث، وعدم التقليد، والشك في كل ما وصل إليه العلم من السلف، وتقدمت أوربا بذلك في العلم، لكنها في أفكارها وتصوراتها عن الإسلام، ظلت

www.abulhasanalinadwi.org

مقلدة ومتمسكة بالخط القديم، تجدد وتعيد ما كتبه المتقدمون من الباحثين في الموضوعات الإسلامية بدون أي محاولة لغربلة تلك التصورات.

لقد كان هناك بعض أصحاب القلم المحايدين أو المنصفين ولكن بحوثهم كانت ضد الطبيعة السائدة في أوربا التي كانت تتسم بالحقد والكراهية للإسلام، فلم تنل كتاباتهم شيوعاً ورواجاً، لا شك أن المنصفين كلامرتين(Lamartine) وويل ديورانت(Will Durant) وتوماس كارلايل(Thomas Carlyle) وجاك ريسلر(**J. S. Restler**) وهوبرت جورج ولز(Herbert George Wells) وهنري دي كاستري(Henri de Castries) كانوا معترفين بفضل رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولكن كتابات الحاقدين ظلت نافقة لوجود طبيعة العداء للإسلام التي ورثتها أوربا من عهد الحروب الصليبية الفاشلة.

إن هذه المكتبة القديمة التي تبث الكراهية والحقد للإسلام وخاصة لذات الرسول صلى الله عليه وسلم هي الباعث الكبير على الكتابات المضللة التي تصدر حيناً بعد حين في أوربا، وهي تظهر في أعمال الفنانين أيضاً، لأن هذه المواد المضللة مدرجة في الكتب الدراسية الشائعة، فبالتالي ينشأ في الأذهان والنفوس منذ الطفولة التصور الخاطئ عن الإسلام ونبي الإسلام.

يصادف كل من يدرس كتب السيرة التي ألفها المسلمون رداً على هذه الكتب المسيئة نماذج من تصورات أهل الغرب الحاقدة.

لقد كان من واجب أهل العلم والمعرفة من المسلمين أن يوجهوا عنايتهم إلى هذا الجانب، في بداية هذه الحملة، لكنهم اعتنوا بالغزو العسكري أكثر من اعتنائهم بالغزو العلمي والفكري الذي أقبل عليه الغرب قبل غزوه العسكري للعالم الإسلامي.

www.abulhasanalinadwi.org

لاشك أن أهل العلم من المسلمين أغنوا العالم الإسلامي بمؤلفات قيمة في السيرة النبوية في لغات المسلمين، فقد كانت الكتابة في السيرة موضوعاً مفضلاً ومحبوباً، وبفضل هذه التأليفات علق بقلوب المسلمين حب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وانتعشت في قلوبهم روح الفداء والولاء له، وظهر هذا العنصر جلياً في السنوات الأخيرة، وشاهد العالم ذلك، وشاهد العالم مصداقية الحديث الشريف، "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين"، فإن كل مسلم مهما كان شغله، وعلمه، وبيئته، مستعد ليقدم أغلى ما عنده من ماله ونفسه، ليعبر عن عاطفة حبه للرسول صلى الله عليه وسلم .

لقد نمّت مكتبة كتب السيرة في لغات المسلمين هذه العاطفة، وحافظت عليها، كما ساعدت المدائح النبوية في مختلف لغات المسلمين على تنمية وتعميق هذه العاطفة، ولكن موقف أوربا، لا يمكن أن يتغير إلا بمكتبة غنية بكتب السيرة في لغات أهل الغرب .

فإن هذا الفراغ يجب أن يملأ، وينال الأولوية، كما لا بد من عرض أهمية النظام الإسلامي وضرورته، وحياة الرسول الطيبة المشرقة بجوانبها المختلفة أمام غير المسلمين بأسلوب علمي معاصر، فعلى المؤسسات الإسلامية أن تقوم بإعداد كتب في السيرة والتاريخ الإسلامي بأسلوب علمي مقنع مراعية لطبيعة القراء في الغرب والشرق، الذين يحملون في أذهانهم أحقاداً وشكوكاً وشبهات عن الإسلام ونبي الرحمة.

ولا تتعلق هذه المسألة بغير المسلمين، بل تتعلق أيضاً بالناشئين في البيئات الغربية، والمثقفين بالثقافة الغربية في أوساط المسلمين، فإنهم أيضاً يحملون شكوكاً وشبهات، لاعتمادهم على كتب أهل القلم في أوربا وثقتهم باستنتاجاتهم المقصودة الموجهة .

www.abulhasanalinadwi.org

ركز المؤرخون وأصحاب السير في كتبهم على الغزوات، وهي تتعلق بعهد الحياة المباركة الذي بلغ فيه الظلم نهايته، وكان المسلمون مستهدفين من كل جانب، فكانوا مضطرين للدفاع عنهم، وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم بقوله: " أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ" [الحج: ٣٩]، وكانوا قد قبلوا صلح الحديبية الذي أبدى معظم الصحابة الكرام عدم رضاهم به؛ لأنهم يوقنون أنهم قادرون على مواجهة العدو، حتى قالوا: لِمَ نعطي الدنيئة في ديننا؟ ألسنا نحن على الحق والعدو على الباطل؟ فلم يكن غالبيتهم مستعدين لقبول هذا الصلح، وقد قبله الرسول صلى الله عليه وسلم حتى جاءه رجلان ممن أسلموا في مكة، وقد عذَّبهما كفار مكة، واستغاثا المسلمين، ولكن الرسول ردّهما إلى قريش طبقاً للصلح، فيعتقد المؤرخون أن هذا الصلح قد أفاد المسلمين ما لم تفده الغزوات، وإن فتح مكة نتيجة لهذا الصلح.

وفتح مكة خير دليل على صفة الرحمة والعفو والكرم والإحسان في الحياة النبوية، وكل من يدرس سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم يعرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم دخل مكة، بعد أن تهيأت له الفرصة، وساد الهدوء، وانقاد أهل مكة، وأسلم قادة الأعداء الذين أخرجوه وآذوه، فلم ينتقم، ولم يدخل كمنتصر، وفاتح، وإنما دخل واضعاً رأسه، تواضعاً لله، خاشعاً له، وأمر أصحابه أن لا يستخدموا السلاح إلا إذا واجهوا مقاومة، وأن يتركوا أقوال أهل مكة، وقد علت روح الانتصار على بعض قادة المسلمين فقال: اليوم يوم الملحمة، فردّ الرسول الكريم ذلك القول وقال: "اليوم يوم المرحمة" ونزع منه اللواء.

تُروَّج اليوم بقوة أسطورة السيف، ويوصف رسول الإنسانية

www.abulhasanalinadwi.org

والرحمة، برسول السيف، وإن سائر وسائل الإعلام المعاصرة عاكفة على القيام بهذه الدعاية الكاذبة المضللة، حتى يوصف القرآن الكريم، كتاب العنف، والله إله الحرب، فيقتضي العصر المعاصر أن تقدم السيرة النبوية بكاملها بأسلوب معاصر، وتنقل إلى سائر اللغات العالمية، ليطلع غير المسلمين والمفكرون المسلمون المتغربون على السيرة النبوية، وتبرز أمام العيون، الصفة الغالبة للحياة النبوية المباركة، وهي الرحمة والرأفة.

وقد ألفت في موضوع السيرة النبوية كتب كثيرة من نواح مختلفة، وجوانب متعددة، فيتناول كتاب منها حياته كقائد، وكتاب يعرضه كمعلم ومربٍ، وكتاب يقدمه كزعيم سياسي، أو قائد ثوري، وكتاب يعرضه كمنقذ للعرب، ولكن صفة الرسول الأصيلة الأساسية الغالبة هي الرحمة والعفو، وهو في الواقع معلم الأخلاق، ومعلم الإنسانية، وقد بيَّن الرسول نفسه غرض بعثته فقال: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".

وقد حاول العالم الرباني الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي (رئيس ندوة العلماء العام) في كتابه هذا أن يقدم صورة جامعة للحياة النبوية المباركة، وسيجد القارئ كيف تُقدَّمُ السيرة النبوية، مشوهة مغلوطة منذ زمن، وكيف يعرض الكتاب الأوروبيون سيرة الرسول بغاية من الافتراء والخداع والمكر والكذب، والدجل، ويمتاز مؤلفُ هذا الكتاب من بين المؤلفين الآخرين في موضوع السيرة النبوية، بأنه درَّس موضوع السيرة مدة، وتاريخُ العرب وعلم الجغرافية موضوع اختصاصه، وقد نالت كتبُه حول تاريخ الأدب العربي والجغرافية قبولاً وتقديراً في الأوساط العلمية، فقد عاش المؤلف أكثر من ٥٢ سنة في مطالعة السيرة النبوية وما ألف حولها من كتب، أو قدمت من دراسات وتحقيقات جديدة في السيرة النبوية، وتدريس مادة السيرة النبوية، لأن

www.abulhasanalinadwi.org

الكتابة في موضوع السيرة النبوية تحتاج إلى معرفة طبيعة العرب وخصائصهم القومية، والبيئة العربية، وحالة العصر والبلد الذي عاش فيه صاحب السيرة، اجتماعياً، وسياسياً، ودينياً وعقائدياً، ووضعه الاقتصادي والسياسي، وقوته الحربية والعسكرية، حتى يعرف الدارس للسيرة طبيعة هذا البلد، وعقلية سكانه، والعقبات التي كانت تعترض في سبيل الدعوة إلى الإسلام وانتشاره وشقه الطريق إلى الأمام، لأن موضوع السيرة ليس مجرد موضوع التاريخ، بل لابد لدارس السيرة النبوية أن يعرف البيئة التى نشأ فيها وترعرع صاحب السيرة الطيبة، فلذلك لابد أن يعرف أحوال الداعي والمدعو كليهما معرفة جيدة.

ويمتاز هذا الكتاب بلغته السلسلة، وأسلوبه السهل المؤثر الذي يسيغه القارئ العام، ومنهج استدلاله سهل الفهم ومقنع مع كونه علمياً وتحقيقياً، وقد راعى المؤلف عقلية المعاندين والمعارضين، واختار أسلوب المجادلة بالتي هي أحسن، بدل المناقشة الجافة والمناظرة المنفرة، فبهذه الناحية أصبح هذا الكتاب إضافة قيمة إلى مكتبة السيرة النبوية، ويستحق الكتاب أن ينقل إلى اللغات التي يستخدمها غير المسلمين، أرجو أن يساعد في إزالة ما علق بالأذهان والنفوس؛ من تصورات خاطئة وشكوك بشأن ذات الرسول صلى الله عليه وسلم، وجزى الله المؤلف خير الجزاء أنه درس السيرة النبوية دراسة عميقة، وعاش معها مدة طويلة، وهو الآن يقدم عصارة دراسته الطويلة في هذا الكتاب.

كتبه

٢١/شوال ١٤٢٩هـ — محمد واضح رشيد الحسني الندوي

٢٢/أكتوبر ٢٠٠٨م — ندوة العلماء، لكهنؤ

www.abulhasanalinadwi.org

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد بن عبد الله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد!

فإن الذات الحقيقية الفاعلة في هذا الكون السماوي والأرضي الهائل، وآفاقهما وأبعادهما اللانهائية، هو الله صانعهما، وخالق جميع الحيوانات والجمادات فيهما، الله هو الذي خلق السماوات والأرض، وجعل فيهما أنواعاً من المخلوقات، وكرم الإنسان من بينها بخصائص بارزة، تميزه عن المخلوقات الأخرى، ومن أبرز هذه الخصائص صلاحيةُ الانتفاع بالعلم، وفوَّض الله تعالى إليه مسئوليات منذ أن عمره على وجه الكرة الأرضية بهذه الصلاحية الممتازة، وأكد على تأدية هذه المسئوليات والأعباء المنوطة به نحو الكون والإنسان والحياة، وهيأ له كل ما يحتاج إليه في قضاء الحياة في الدنيا من وسائل وأسباب، تساعده في أداء تلك الأمانة العظيمة التي حملها ا لإنسان بينما أبت السموات والأرض أن يحملنها.

ونظراً إلى هذه الخصائص الممتازة يجب على الإنسان أن يدرك ويعرف ما هي مسئولياته؟ وما هو الغرض من خلقه على وجه هذه الأرض، وبماذا يأمره الله خالقُه وربُّه بهذا الصدد، فكلما اقتضت الظروف ومسَّت الحاجة إلى الإنذار والتنبيه بعث خالقهم ومالكهم الله

www.abulhasanalinadwi.org

ربُّ العالمين فيهم رسولاً ذا صفات ممتازة منهم ؛ يبلِّغهم رسالات ربهم ، وينذرهم ويبشرهم ، وقد بدأت سلسلة النبوة والرسالة منذ هبوط الإنسان إلى الأرض ، ليصلح الإنسان حياته ، ويجعلها تابعة لرضا ربِّه الله ، ويؤدي المسئولية الملقاة عليه نحو هذا الكون والإنسان والحياة في الدنيا ، وكان هذا النبي والرسول المبعوث يدعو قومه إلى عبادة الله وحده ، واتباع أحكامه ، وينهاهم عن السيئات والمعاصي ، ويراقبهم لئلا يقعوا في الباطل ، ولا يبطرهم رغد العيش ، وكثرة الثروة الكاثرة ، فينسوا خالقهم وربَّهم الله ، ويكفروا بأنعمه وآلائه ، فلم يزل يُبْعَثُ الأنبياء والرسل في الشعوب والأمم ، عبر العصور والدهور ، كل منهم يدعو قومه إلى الله ، واتباع أوامره ، وينذرهم من عذاب الله الشديد إذا لم يطيعوه فيما يأمرهم وينهاهم.

فكان الأنبياء عليهم السلام ينذرون قومهم من يوم ا لحساب والجزاء الآتي بعد موتهم في بدء حياتهم الأخرى ، وينهونهم من السيئات والمنكرات ، والأعمال السيئة ، ويدعونهم إلى عبادة الله ربِّهم ، واتباع أحكامه ، ويهدونهم إلى الصراط المستقيم ، ويعلمونهم الخير والفضيلة ، ويمنعونهم من الشر والرذيلة ، ويقولون لهم : إن خالقكم وربَّكم هو الله الذي أنعم عليكم نعماً كثيرة ، وآلاء وفيرة ، فكيف يرضى ويحب أن يكفر عبدُه الإنسانُ بخالقه ، ولا يشكره على نعمه ، ولا يؤدي حقه من العبادة والطاعة ، وفوق كل ذلك يرتكب الإنسان جريمة شنعاء أن يجعل غيره إلهاً له من الحيوانات أو الجمادات ؛ يعبده ويسجد له حسب زعمه ، إنها خطيئة كبرى وجريمة شنعاء من مخلوق ضد خالقه ، يستحق مرتكبُها أن يُعاقَب ويُعذَّب بصورة موافقة لقدرها ، ومن حق هذه الخطيئة أن يُحرَم مرتكبها من كل ما يتمتع به ؛ من أسباب

www.abulhasanalinadwi.org

الحياة ونعمها المتي هيأها خالقه وربه، ولكن الله ربٌّ غفور، ورحيم كريم، فإنه لا يتعجل في العقوبة؛ بل يُمهِل الخاطئ والعاصي، ويبعث النبي والرسول لينذره من العاقبة الوخيمة، وينصحه ويهديه إلى الحق، ويأخذ بيده من الغي والضلال إلى الرشد والهدى، ولكن الإنسان إذا لم يرتدع عن غيِّه وتمرُّدِه، ولم يقبل دعوة النبي المرسل إليه، ولم يصلح نفسه، بل يتمادى في غيِّه، حلَّ به غضب الله و عذابه، فقد أتى عدد لا يحصى من الأنبياء والرسل في أزمان مختلفة، وأقوام مختلفة، وأمصار مختلفة، لهداية الإنسان إلى ربِّه الله، وكل منهم قام في قومه؛ يدعوهم وينصحهم مدة مديدة، ولما لم يقبلوا دعوته، حلَّ عليهم العذاب من خالقهم وربِّهم، وأُبيدوا، وقد أشار إلى ذلك الله تعالى بقوله في محكم تنزيله: "كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" [البقرة: ٢١٣].

فكلما عمَّ الضلال، والانحراف عن جادة الحق، وطغى الظلم والفساد في الشعوب والأمم الماضية، بعث الله فيهم رسولاً منهم اختاره أحسن خلق منهم، وأعلى صلاحية إنسانية، وأكرم صفات، وأعظم ميزات، تجعله خير فرد من أفراد قومه، وتجعله إنساناً مثالياً كاملاً، لإصلاحهم وهدايتهم وفق ما يوحي إليه، وتوالت بعثة الأنبياء والرسل بهذه الخصائص في أزمان مختلفة، في شعوب مختلفة، واستمر ذلك بضلال الشعوب المختلفة في الأزمان المختلفة ونزول العذاب على من انقطع الرجاء في صلاحه إلى ما وقع لآخر نبيّ من أنبياء بني إسرائيل،

www.abulhasanalinadwi.org

وهو سيدنا عيسى بن مريم عليهما السلام، وتوقفت بعثة الأنبياء بعده لستمائة سنة، ولما تفاقم الشر، وانتشر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، في القرن السادس المسيحي، بعثَ الله آخر أنبيائه محمداً صلى الله عليه وسلم، وذلك في قبيلة قريش التي كانت حاملة للخصائص الإنسانية الفطرية مع انحرافاتها العامة عن جادة الحق، و إعراضها عن طاعتها لخالق الكون رب العالمين طاعة خالصة، وكانت من الفرع الإسماعيلي من ذرية إبراهيم عليهما السلام، بعث فيهم النبيَّ الخاتم محمداً صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك استجابة لدعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي دعا الله تعالى أن يبعث فيهم رسولاً، فتقبل الله دعاءه وبعث آخر أنبيائه فيهم، وجعله نبياً أعظم، ونائباً عن سائر الأنبياء؛ لكونه نبياً للمرحلة الأخيرة للعالم، وكان متصفاً بأكرم صفات وأجلّ خصائص، وحاملاً لأحسن سيرة مثالية، ومتخلقاً بأعظم خلق، وكان في مقدمة مسئولياته المفوضة إليه: تصحيحُ العقيدة، والدعوة إلى عبادة الله وحده، والانتفاع بنعمة العلم الممنوحة من الله، انتفاعاً صحيحاً صالحاً، والسعي لجعل النظام الاجتماعي نظاماً إنسانياً كريماً، وكانت الرعاية الإلهية تحرسه، والهداية الربانية تهديه، والوحي الإلهي يرشده في كل مرحلة من مراحل دعوته، وكل شأن من شئونه، وكان لَعلى خلق عظيم، جعله الله تعالى أسوة حسنة ونموذجاً عالياً للإنسان الطالب للصفات الإنسانية الرفيعة الكريمة، فأصبحت حياته وسيرته جامعة لسائر جوانب الحياة الإنسانية الصالحة، ومثلها العليا، وقيمها المثلى، فأصبحت أسوة كاملة أبدية لسائر الناس في اختيار الصفات الإنسانية الكريمة الجليلة، يجدون في حياته أسوة لكل جانب من جوانب حياتهم، يسهل لهم اختيارها، كما يجدون فيه الإنسان المثالي الكامل إذا

www.abulhasanalinadwi.org

أرادوه، وقد أمروا بذلك في القرآن الكريم: "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا" [الأحزاب: ٢١].

وبذلك أصبح سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أسوة كاملة للناس كافة، كما تقررت أقواله وأفعاله مرشدة للأجيال القادمة إلى اختيار سبل الهدى والرشاد، ومنارة نور لصلاح الإنسان وهدايته إلى عبادة الله وحده، وإن جميع أفعاله وأقواله مؤيدة من الله تعالى بطريق الوحي، فقد قال الله تعالى في محكم تنزيله: "مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ" [النساء: ٨٠].

وقال: "وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى" [النجم: ٣- ٤].

فقد تقرَّر بذلك اتباعه – صلى الله عليه وسلم – وإطاعته والعمل بما صدر منه من قول وفعل أبدياً دائماً، يجب على كل إنسان عاقل، أن يستفيد بأسوته الحسنة الكاملة الدائمة.

كانت قد تسلسلت قبله بعثة الأنبياء في الأزمان والأقوام السابقة، جاؤوا إليهم برسالات ربهم وأحكامه حسب الضرورة واقتضاء الظروف السائدة في عصورهم، وفي نهاية المطاف بعث سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم كخاتم النبيين والرسل، وإن الشريعة والتعاليم الإلهية التي أتى بها من عند ربِّه، لم تكن تخص قوماً دون قوم، وعصراً دون عصر، ومكاناً دون مكان، وطبقة دون طبقة، بل كانت لكافة الناس، وللأجيال القادمة؛ لتَهديهم إلى الصراط المستقيم، وتعلّمهم العقائد الحقة الصحيحة، والطرق السليمة للعبادة

www.abulhasanalinadwi.org

والطاعة لخالق الكون إلى يوم القيامة، فقال عز وجل: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ" [سبأ: ٢٨].

فكان نبياً عالمياً، وبشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله، وهادياً للإنسانية جمعاء، فخاطب الناس جميعاً، وكانت دعوتُه ورسالتُه عامة شاملة جامعة، ثم بدأ بفضله عهد العلم والتعليم، فانتشر العلم، ونشأت في الناس الرغبة في كسبه، وصيانة العلم، واعتنوا بتدوين العلوم والفنون وتأليف الكتب، وتسجيل المعارف، فحفظت جميع أقواله صلى الله عليه وسلم بغاية من الدقة والأمانة والصحة، كانت محفوظة في صدور صحابته البررة، ثم دونت في الكتب، وسجلت أقواله وأحكامه وأحوال سيرته الطيبة الطاهرة في الدواوين.

عاش الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الدنيا ٦٣ سنة، وتشتمل هذه المدة على ثلاث مراحل: المرحلة الأولى تبدأ من ولادته إلى السنة الأربعين من عمره، والمرحلة الثانية من السنة الواحدة والأربعين إلى السنة الثالثة والخمسين من عمره، والمرحلة الثالثة تمتد من السنة الرابعة والخمسين إلى السنة الثالثة والستين من عمره، كانت المرحلة الأولى قبل النبوة، وقد عاشها بين أفراد أسرته؛ متصفاً بالصفات الكريمة الجليلة والسيرة المثالية العليا، ونال بأخلاقه الكريمة وسيرته المثالية حباً وتقديراً، واحتراماً وقبولاً عاماً في قبيلته وأسرته، وتزوج بخديجة بنت خويلد في السنة الخامسة والعشرين من عمره، فقام بتأدية مسئولياته العائلية خير قيام، وكانت زوجته الكريمة ذات شرف وعزّ ونبل، وكانت طبيعتها منسجمة مع طبيعته انسجاماً جميلاً، فكانت حياته معها حياة ألفة ومحبة، ومؤانسة ومؤازرة، وولدت له أولاداً، وربتهم تربية حسنة.

www.abulhasanalinadwi.org

وأوحى الله إليه عندما بلغ السنة الأربعين من عمره، وأعطاه النبوة، ثم بدأ يتنزل عليه الوحي الإلهي، واستمر إلى آخر عهده بالدنيا، وكان يتلقى أوامر ربه بواسطة الوحي الذي يخبره ويعلمه ما يحتاجه في هداية الناس، يأمره الله تعالى عن طريق الوحي إليه بقول الحق، والدعوة إليه، وإصلاح قومه، وإنقاذهم من الظلمات إلى النور، وكانت هذه المرحلة من حياته الطيبة مرحلة ثانية بدأت من السنة الواحدة والأربعين إلى السنة الثالثة والخمسين، فوضت فيها إليه مسئولية منع الناس من الإشراك بالله وكفره، ومن السيئات والآثام والمعاصي، والظلم والاعتداء والفساد في الأرض، وقام صلى الله عليه وسلم بأدائها خير قيام، فعندما صدع بالحق، ودعا قومه إلى عبادة الله وحده، وسفه أحلامهم، وفنَّد آلهتهم التي كانوا عليها عاكفين، ويعبدها آباؤهم، ونهاهم عما كانوا عليه من تبعتهم لآبائهم المنحرفين عن الحق والعاكفين على عبادة الأصنام والأوثان، استشاطوا عليه غضباً، وناصبوه العداء، وتمادوا في باطلهم وقالوا: لن نترك ما كان عليه آباؤنا، بل بدأوا يعارضونه أشد المعارضة، ووضعوا في سبيله الأشواك، والعقبات، وآذوه هو وأصحابه أشد الأذى، وضيقوا عليهم خناق الحياة، وقد أُمِرَ النبي وأصحابُه بكف اليد، وإقامة الصلاة، والمضيِّ في عمل الدعوة والهداية والإصلاح، صابراً على الأذى والقسوة، فاحتمل الرسول صلى الله عليه وسلم الأذى في سبيل ربه، وواصل دعوته إلى الله ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، حتى تآمر العدو لقتله، ولكن كل ذلك لم يفُتّ في عضده، ولم يثن همته، ولم يضعف عزيمته، بل استمر في عمله الدعوي صابراً محتملاً للأذى، ولما صعب القيام بالعمل الدعوي، وساء الوضع أشد سوءاً، وأصبحت حياته

www.abulhasanalinadwi.org

مهددة، وتمت المؤامرة لقتله في مكة، وفي جانب آخر انتشر الإسلام في معظم قبائل بلدة قريبة من بلدته، وهي بلدة " يثرب " التي سميت فيما بعد بـ" المدينة " وقوى بها أمره، ووعد أعيان تلك المدينة بنصرة الرسول وحمايته، مهما كلف ذلك من الثمن، هاجر الرسول من مكة إلى المدينة التي قبل رؤساء عدد من قبائلها الإسلام ووعدوه بالنصرة، وعرضوا عليه أن ينتقل إليهم في المدينة، فقد وفى أهل المدينة بما وعدوه من نصرة الإسلام ونبيه، وفاء كاملاً، ولم يألوا جهداً في نصرة النبي، بل جعلوه حاكم المدينة وأميرهم، واستماتوا في اتباعه حتى في أصعب الأوضاع وأقسى الظروف، وكانت هذه المرحلة مرحلة ثالثة من حياته الطيبة الطاهرة.

وكان معظم سكان المدينة قد دخلوا في الإسلام، وقبلوا تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم، وأقروا باتباع أمر الله ورسوله، أما المؤمنون في مكة فقد كان عددهم أقلّ من غيرهم، ولم يكن شملهم جامعاً، وظلوا يواجهون الظلم والعدوان من قبل أهلها الكفرة الطغاة طيلة ١٣ سنة، فهاجروا إلى المدينة التي كانت أصبحت مقراً لهم آمناً، فحصل لهم الأمن بانضمامهم إلى أبنائها المسلمين، واتحدوا فيما بينهم، فأصبحوا أمة واحدة مستقلة، وقام لهم نظام ديني واجتماعي بقيادة نبيهم صلى الله عليه وسلم، وكانت أحكام الحياة والأوامر التربوية تأتيه من عند الله بواسطة الوحي، وكان يتلقاها، ويعمل بها بنفسه ثم ينفذها على أصحابه في المدينة، وكان سكان المدينة قبل هجرة الرسول وأصحابه إليه منقسمين في قبائل متحاربة، متخاصمة، وكان الصراع بينهما قائماً على أشده، ولكن حياتهم تغيرت بفضل الإسلام وأصبحوا به إخوة متحابين، ونبذوا اختلافاتهم وراءهم ظهرياً،

www.abulhasanalinadwi.org

وأصبحوا يداً واحدة، ولما هاجر إليها المسلمون من أهل مكة اتخذوهم إخوة، وأشركوهم في أموالهم، وبيوتهم، وأراضيهم، وآووهم ونصروهم، وسمي مسلمو مكة "المهاجرون" ومسلمو المدينة " الأنصار" فأصبحوا أمة واحدة، وكانت في المدينة جالية اليهود، لم تقبل الإسلام، ولم تؤمن بالرسول، بل انفصلت وعاندت، ولكن عاهدهم الرسول صلى الله عليه وسلم، معاهدة التعايش السلمى.

وقام في المدينة المنورة بعد تحوُّل غالبية سكانها مسلمين، مجتمع إسلامي منضبط بضوابط إسلامية، اتحد فيه سكان المدينة الأصليون الأنصار والمهاجرون إليها من مكة كأعضاء جسد واحد، بتأثير الوحدة الإيمانية، وبذلك أصبح المجتمع حاملاً للقيم الإسلامية، والمبادئ الإسلامية بقيادة النبي الخاتم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان مصطبغاً بالصبغة الإسلامية، وتعاليم النبي كانت منفذة فيه، وسارية المفعول، وكان المسلمون يتبعون رسولهم في كل شأن من شؤونهم، وهو يربيهم تربية، ويعلمهم تعليماً، ويزكيهم تزكية، وهم يبنون سيرهم وأخلاقهم على التربية النبوية المثالية، وفي جانب آخر لما رأى كفار مكة أن المسلمين قد هاجروا إلى المدينة، واتحدوا مع سكانها المسلمين فتكونت لهم قوة كبيرة، وحصل لهم مقر آمن، ولم يعد التغلب عليهم أو وضع حدٍّ لنفوذهم المتزايد سهلاً، بدأوا يخططون للحرب والقضاء عليهم في عقر دارهم المدينة؛ بقوة عسكرية، وقمعهم قمعاً نهائياً، وأدرك الرسول هذا الخطر فأمر أصحابه بالتهيؤ لمواجهته، ولم يزل يستطلع أخبار الأعداء في مكة وما يحيكون من مؤامرات ودسائس ضد المسلمين؛ ليتخذ تدابير لمقاومتها وإفشال مخططات الأعداء.

www.abulhasanalinadwi.org

وكان المسلمون في هذه المرحلة (عشر سنوات) في المدينة مكلفين بالقيام بأداء أنواع من المسئوليات والواجبات، كما كانوا يواجهون محناً وابتلاءات وشدائد، فكان من مسئولياتهم إيصال الرسالة الإلهية إلى الناس، وهي مهمة الإسلام الأساسية الأصيلة، وكانت تقتضي أن تؤدَّى بالموعظة الحسنة، وبعاطفة النصح وحب الإنسانية، كما أن هذه المهمة الدعوية لم تكن تخص منطقة واحدة، ولم تكن محلية ومحدودة، بل كانت واسعة وعالمية، تشمل الإنسانية جمعاء؛ لأنه صلى الله عليه وسلم كان نبياً عالمياً، أُرْسِلَ لكافة الناس، فكانت رسالته عالمية، غايتها إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن الظلمات إلى النور، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، فكانت الحاجة إلى الخروج من المدينة إلى مناطق وقبائل أخرى لدعوتهم إلى الله، ودينه الإسلام، كما كان الرسول العظيم يؤدب أصحابه ويربيهم تربية علمية ودينية وخلقية؛ ليتكون منهم مجتمع إسلامي فاضل متصف بأكرم الصفات الإنسانية وأفضلها، ويكون غاية في الخلق والسلوك الإنساني الحسن؛ لأن الإسلام قد جاء ليعلم الإنسان لئلا يكون عبداً لهواه فحسب، بل يكون عبداً شكوراً لأنعم ربه، ومتصفاً بالصفات الإنسانية الكريمة والسيرة الإنسانية الصالحة، وكذلك كانت الحاجة إلى إنشاء نظام اجتماعي للمسلمين في المدينة لتكون الحياة الاجتماعية منضبطة، وحياة تعاون على البر والفضيلة، ثم يساعد هذا النظام الاجتماعي في مواجهة أخطار الأعداء ومخططاتهم، واتخاذ تدابير ووسائل دفاعية إذا اقتضت الظروف، فقد ساعد هذا النظام الاجتماعي الإسلامي في مقاومة عدد من حملات الأعداء العسكرية، وإفشال مخططاتهم ومؤامراتهم الماكرة، ودحر جيوشهم المدججة.

www.abulhasanalinadwi.org

وقد أعطى الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم القرآنَ المجيد المشتمل على الكلام الإلهي المقدس ؛ ليهديه ويرشده في القيام بهذه المهمة الدعوية ، فكان يستهدي بهديه ، ويستنير بنوره ، ويعمل بما يوحى إليه من أوامر ربه ، ويدعو أصحابه للعمل بها ، وينفذها ويطبقها على حياته هو وحياتهم ، ولم يكن منهج دعوته مجرد أمر ونهي أو قول ، بل كان يشاركهم عملياً في كل ما يأمرهم به من أمور الدين وأحكامه ، ويتحدث معهم بغاية من اللطف والمحبة واللين ، ويقدم أمامهم أسوة عملية من حياته الشخصية للدعوة إلى الخير والحق ، ونشر الفضيلة ، فيؤثر هذا المنهج النبوي الكريم على أصحابه تأثيراً حسناً ، فيستميتون في اتباعه وطاعته ، ويفدونه بمهجهم وأرواحهم ودمائهم ، فكانوا رهين إشارته ، كما كانوا يحفظون في ذاكرتهم ويعون كل ما يسمعون من أقوال نبيهم ، وما يرون ويشاهدون من أفعاله ، ثم بلغوا ما سمعوا منه إلى من أتى بعدهم ، فبذلك أصبحت حياتُه المباركة وسيرتُه الطيبة النموذجية بجوانبها المختلفة ؛ الفردية منها والاجتماعية ، محفوظة مدونة للأجيال القادمة ، كما تيسر الاستهداء والاستنارة بكتاب الله الذي كان قد تمَّ نزوله من قبل ، بعد ما تمَّ تدوينه وكتابته في المصحف ، فتقررت حياته المباركة دستور الحياة للمؤمنين إلى يوم القيامة ، وقد أمر الله ذلك في كتابه العزيز : " لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا "[الأحزاب : ٢١] فلابد من معرفة هذه الأسوة المحمدية الحسنة والتأسي بها واختيارها في الحياة لكل من يؤمن بالله ، وباليوم الآخر ، ويريد الفوز في الحياة بعد الممات ، ويريد أن يزين حياته بذكر الله وعبادته وطاعته .

www.abulhasanalinadwi.org

فنظراً إلى ذلك قد سعى أصحاب العلم من المسلمين لنشر سيرته المباركة وأحوالها وشمائلها المدونة بأوسع نطاق بغاية من الدقة والأمانة في كل عصر ومصر؛ ليستفيد منها، ويستهدى بهديها ويستنير بنورها الأجيال القادمة إلى أن يرث الله الأرض.

إن أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأحواله وسيرته المباركة التي يجب على الأمة الإسلامية الاستفادة منها إلى يوم القيامة، تحتوي على جانبين: أحدهما تعاليمُه وإرشاداتُه التي وجهها إلى أصحابه في مناسبات مختلفة، وهي تسمى في المصطلح "الحديث النبوي" وآخرهما أحوالُه وأفعالُه التي عمل بها بنفسه، وهي تسمى "السيرة النبوية" وقد حفظ أصحابُه ووعوا هذين الجانبين من حياته المباركة وبلغوهما إلى من أتى بعدهم من المؤمنين، ثم بلغ هؤلاء المؤمنون إلى من أتى بعدهم، واستمرت هذه السلسلة، تدون وتسجل حياته الطيبة بجوانبها المختلفة في الكتب والأسفار.

وإن هذه السيرة النبوية المباركة تشتمل على أحوال مختلفة، ومرَّ صاحبها بمراحل مختلفة، وظروف مختلفة، ومنها مواجهة الأعداء الذين كانوا أكبر بكثير من المسلمين في العدد، والعدة، والعتاد، والقوة الحربية، وهم الذين بدأوا الحرب، ولم يقصروا في القضاء على هذه الجماعة المؤمنة الوليدة القليلة العدد والعتاد، برجلهم وخيلهم، وكانت الحروب من قبلهم مفروضة على المسلمين، وكانت الأخطار تهدد كيانهم كل وقت، فاضطر المسلمون إلى مواجهتهم بنفس القوة، واستخدموا ما وجدوه من سيوف وأسلحة أخرى لم يحصلوا عليها إلا قليلاً، في مقاومة الأعداء، ثم استغل المؤرخون الحاقدون المعاندون الذين لم يرضوا بالإسلام، هذه الحروب والمواجهات المسلحة التي قام بها النبيُّ وأصحابُه

www.abulhasanalinadwi.org

للدفاع عنهم، أسوأ استغلال، واتهموه بالظلم وسفك الدماء، مع أنه لم يكن أيُّ إجراء من إجراءاته الحربية لفرض السيطرة، ونيل الغلبة والحكم في البلاد، بل كانت كلها لنشر الخصال الحميدة، وتبليغ أحكام رب العالمين إلى الناس الضالين عن الحق، فاضطر إلى ردِّ كيد الأعداء، أو قمع الشر، أو منع حملات الأعداء على المسلمين، أوإذا أحس بخطر وقوع هجوم من جهة على المدينة أو المسلمين في مكان آخر، وكلما انتصر في حرب أو غزوة عفا وصفح عن الأسرى من الأعداء، وعاملهم معاملة الرحمة والشفقة حتى مع ألد أعدائه.

وكل محاولة وجهد يقوم به إنسان لمواجهة الخصم في سبيل الحفاظ على ما يراه حقاً، يسمى مجاهدة وجهاداً، ومعناه بذل الجهد والسعي لمواجهة الخصم، فبذل المؤمنين جهدهم لمواجهة شر الباطل وردِّه ومواجهة من يعاندون ويعارضون الجهود التي بذلها المسلمون للدفاع عن الحق وإعلاء كلمته، وتنفيذه، ونشر الخير والفضيلة، ومنع الشر والرذيلة، يسمى جهاداً، والجهاد في الإسلام بهذا المعنى مقيَّد بأن يكون لطلب رضا ربهم، ولا يكون لنيل غرض شخصي أو مادي، أو لمجرد مصلحة ذاتية، و يتحمل المسلمون فيه كل ما يعتريهم من أذى وتضحية بالنفس والنفيس، سواء أكانت مثل هذه الجهود في حالة السلم والأمن أم في حالة الحرب والمواجهة، ولكن المعاندين للإسلام شرحوا كلمة الجهاد شرحاً خاطئاً مضللاً، إنهم قرروا معنى الجهاد استخدام القوة لطلب السيطرة المادية وحدها على بلد، أونيل الغلبة على شعب من الشعوب، ولكسب متاع دنيوي، وهذا تقرير خاطئ منهم، افتعله الحاقدون للإسلام، اتهموا في كتبهم الإسلام بتهمة الإرهاب والعنف، ووصفوه بدين السيف، مع أن الله لم يأمر المؤمنين بأن يقاتلوا إلا من يقاتلونهم،

www.abulhasanalinadwi.org

وأن تكون نيتهم ابتغاء مرضاة ربهم، وأن لا يمسوا بريئاً بسوء، ولا يقاتلوا لكسب السمعة والغلبة والحكم في العالم، بل يجب عليهم أن يقاتلوا لنصرة الحق وصيانته إذا اقتضت الظروف، وإذا لم تستدع الأوضاع الحرب فعليهم أن يسلكوا طريق المصالحة والمسالمة والتعايش السلمي، فقدم الرسول وأصحابه نموذجاً مثالياً للتعامل الإنساني والسلوك الإنساني الحسن مع الأعداء في سائر الحروب والغزوات، وعددُ القتلى القليل جداً في هذه الغزوات خير دليل على ذلك.

وفي القرون المتأخرة قصَّر بعض الحكام المسلمين في الالتزام بالمبادئ الإسلامية المقررة والأخلاق الإسلامية، لمصالحهم السياسية الشخصية، ولكنهم بالرغم من ذلك لم يهلكوا من الأعداء إلا عدداً ضئيلاً، بينما أهلك الأعداء عدداً أكبر من المسلمين، وقد اعترف بذلك الأعداء بأنفسهم، واعترافاتهم محفوظة في كتب التاريخ، وعلى كل، فإن ظلم أحد الحكام المسلمين فهو عمله الشخصي، وليست له صلة بالإسلام ونبي الإسلام، وكل من يطالع السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي بذهن مفتوح منصف بعيداً عن العصبية والحقد والعداوة، فإنه يعترف بأخلاق المسلمين العاملين بالمنهج النبوي وسلوكهم الحسن ومواقفهم الإنسانية الرحيمة، وتعاونهم على البر والتقوى واستمساكهم بمكارم الأخلاق، ولكن المؤرخين المعاندين للإسلام قد شوهوا صورة الإسلام والمسلمين المشرقة، وطمسوا معالم حكمهم العادل، ومسخوا تاريخهم المشرق، وعرضوا السيرة النبوية وتاريخ الإسلام بأسلوب معاند ومضلّ، يسبّب حدوث أخطاء الفهم في النفوس والأذهان، فنشأت فجوة عميقة بين المسلمين وغير المسلمين، فتمس الحاجة إلى عرض

www.abulhasanalinadwi.org

صورة الإسلام الصحيحة الصادقة لإزالة ما علق بالأذهان من شكوك ومفاهيم خاطئة بشأن الإسلام ونبيه العظيم في هذا العصر.

(٢)

فتحقيقاً لهذا الغرض: غرض إزالة المفاهيم الخاطئة عن الإسلام ونبيِّه وعرض السيرة النبوية العطرة، بدأ التأليف والتصنيف حول السيرة النبوية بجوانبها المختلفة، وإنها حاجة إنسانية قصوى؛ لتتجلى الصورة الحقيقية الصادقة الصافية المشرقة للإسلام والمسلمين ونبي الرحمة، وتزول الشكوك والشبهات وأخطاء الفهم من النفوس والأذهان، وتدرك حقيقة الإسلام وصدقه وعدله، فاعتنى العلماء بتدوين سيرة الرسول، وتأليف الكتب حولها حسب الضرورة واقتضاء البيئة والطبيعة السائدة في عصورهم.

بدئ هذا العمل الجليل في العهد الأموي؛ فلما كانت أيام أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، فإنه أحبَّ أن يدون في التاريخ كتابٌ، فاستقدم عبيد بن شرية الجرهمي من صنعاء، فكتب له كتاب الملوك وأخبار الماضيين، ثم اتجه بعد هذا أكثر من واحد من العلماء إلى علم التاريخ من ناحيته الخاصة لا العامة، وهي سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولعلهم وجدوا في تدوين ما يتعلق به صلى الله عليه وسلم شيئاً يحقق ما في أنفسهم من تعلق به، وحبّ لتخليد آثاره، ولم يبدأ هذا العمل في العهد النبوي مخافة أن تختلط السيرة بالقرآن الكريم، الذي كان بدأ تدوينه وكتابته في المصحف في عصر الخلفاء الراشدين، ثم بدأ تدوين الأحاديث النبوية، فمنعوا في البداية من تدوين السيرة مخافة أن تختلط أجزاؤها بأجزاء القرآن الكريم، وظلوا متورعين أيام عمر بن عبد العزيز، وبعد مضيِّ قرن لما زال الخوف

www.abulhasanalinadwi.org

من اختلاط القرآن بالحديث والسيرة بكونه محفوظاً في صدور مئات من النفوس ومدوناً في المصحف بعناية الخليفة الثالث بتدوينه، بدأ عملُ تدوين السيرة، فجاء أكثر من واحد من العلماء، ودونوا في السيرة كتباً.

بدأ أولاً تدوين الأحاديث التي جمعها بعض الصحابة الكرام عن السيرة النبوية، ومن أبرزهم: عبد الله بن العباس، والبراء بن عازب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأنس بن مالك، وجابر بن عبد الله، رضي الله عنهم أجمعين، وأما من أتوا بعدهم من التابعين الذين ركزوا عنايتهم على تدوين السيرة النبوية، ورواياتهم محفوظة في كتب السيرة، فنذكر منهم فيما يلي:

عروة بن الزبير (م٩٤هـ)، وأبان بن عثمان (م١٠٥هـ)، ووهب بن منبه (م١١٠هـ)، وعاصم بن قتادة (م١١٩هـ)، وشرحبيل ابن سعد (م١٢٣هـ)، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري (م١٢٤هـ)، وعبد الله بن أبي بكر بن حزم (م١٣٥هـ)، وهؤلاء الأربعة الأخيرة ممن عنوا بأخبار المغازي وما يتصل بها.

ثم جاء بعدهم موسى بن عقبة (١٤١هـ)، ومعمر بن راشد (م١٥٠هـ)، ومحمد بن إسحاق (م١٥٢هـ)، وزياد البكائي (م١٨٣هـ)، ومحمد بن عمر الواقدي صاحب المغازي (م٢٠٧هـ)، وأبو محمد عبد الملك بن هشام (م٢١٣هـ)، ومحمد بن سعد صاحب الطبقات الكبرى (م٢٣٠هـ) وابن حزم صاحب جوامع السيرة (م٤٥٦هـ) وتناول هؤلاء جوانب السيرة المختلفة بالشرح والتفصيل، أو الاختصار، أو النظم ليسهل حفظها[١].

---

[١] مقدمة سيرة ابن هشام: ١/ ٥- ٨.

www.abulhasanalinadwi.org

وقد جمع الإمام البخاري أهم الروايات والأحاديث التي تتعلق بالسيرة النبوية، وهي تتطابق مع شروطه ومقاييسه لصحة الحديث، وشرح الحافظ ابن حجر العسقلاني كتاب المغازي من صحيح البخاري، فجاء شرحه كتاباً مستقلاً في السيرة، ووضع الإمام مسلم في صحيحه باباً خاصاً بالسيرة باسم "الجهاد والسير".

وقد اعتنى أصحاب السير الأوائل بالمغازي، أي جمعوا الروايات والأخبار التي تتعلق بالجهاد والغزوات، ولكن في القرن السابع والقرن الثامن الهجري بدأ تدوين سائر أحوال السيرة النبوية وما يتصل بها، وألفوا فيها كتباً مفصلة مرتبة منسقة، وفاق منهم ابن إسحاق والسهيلي، وقد عُدَّ ابن إسحاق إمام الدور الأول لتدوين السيرة، واعترف المتأخرون بفضله وسبقه، وأخذوا منه، ونقلوا رواياته في كتبهم، ثم اختصر ابن هشام سيرة ابن إسحاق، وشرح السهيلي سيرة ابن هشام. نذكر فيما يلي عدداً من كتب السيرة:

١. جوامع السيرة النبوية للعلامة علي بن أحمد بن حزم الأندلسي المتوفى سنة ٤٥٦هـ.

٢. الدرر في اختصار المغازي والسير للإمام يوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبي المتوفى سنة ٤٦٣هـ.

٣. الروض الأنف لعبد الرحمن السهيلي المتوفى سنة ٥٨١هـ.

٤. عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير لابن سيد الناس البصري الشافعي المتوفى سنة ٧٣٤هـ.

٥. زاد المعاد في هدي خير العباد للعلامة ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هـ.

٦. الفصول في سيرة الرسول للحافظ ابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤هـ.

www.abulhasanalinadwi.org

٧. إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون (السيرة الحلبية) لعلي بن برهان الدين المتوفى سنة ٩٧٥هـ.

٨. المواهب اللدنية بالمنح المحمدية لأحمد بن محمد بن أبي بكر خطيب القسطلاني.

وقد ذكر ابن جرير الطبري والحافظ أبو شجاع شيرويه في كتبهما التاريخية سيرة الرسول بشيئ من التفصيل والاستفاضة.

وفي سنة ١٤١٨هـ ألف الدكتور الشيخ صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي بمشاركة لجنة مكونة من ٣١ عالماً نابغاً في علوم التاريخ والأنساب، كتاباً ضخماً دسماً حول السيرة النبوية باسم "نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم" وهو بمثابة دائرة معارف في موضوع السيرة، وما يتصل بها.

وأما اللغة الأردية، فهي أغنى لغات العالم الإسلامي بعد اللغة العربية في موضوع السيرة النبوية، وهي تحتوي على أقوى وأجمل ما كتب فيها في العصر الأخير، وتستمر الجهود وتتواصل في التأليف في مجال السيرة وعرضها بنطاق واسع، ومن أشهر الكتب المؤلفة حول السيرة باللغة الأردية:

١. نشر الطيب في ذكر النبي الحبيب للعلامة أشرف علي التهانوي المتوفى سنة ١٣٦٢هـ، صدرت طبعته الأولى بلكناؤ سنة ١٣٣٣هـ.

٢. رحمة للعالمين للقاضي سليمان المنصورفوري، طبع سنة ١٩٢٠م، وقد نقل إلى العربية.

٣. سيرة النبي للعلامة شبلي النعماني المتوفى سنة ١٣٣٢هـ والعلامة السيد سليمان الندوي المتوفى سنة ١٣٧٣هـ.

٤. أصح السير للشيخ أبي البركات عبد الرؤف الدانافوري، طبع سنة ١٣٥١هـ.

www.abulhasanalinadwi.org

٥. سيرة المصطفى للشيخ محمد إدريس الكاندهلوي (م١٣٩٤هـ).
٦. النبي الخاتم للعلامة مناظر أحسن الكيلاني (م١٣٧٥هـ).
٧. نبي العالم للشيخ عبد الصمد الرحماني (م١٣٩٣هـ).
٨. محمد رسول الله للشيخ محمد ميان (م١٣٩٥هـ).
٩. محسن الإنسانية للأستاذ نعيم الصديقي.
١٠. سيرة سيد الكون للعلامة أبي الأعلى المودودي (م١٣٩٩هـ).
١١. السيرة النبوية[١] للعلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي (م١٤٢٠هـ).
١٢. هادي العالم للشيخ محمد ولي رازي.

قد ألف كل مؤلف كتابه في السيرة حسب اقتضاء عصره وحاجته، ولكل من هذه الكتب مكانته و أهميته وفائدته، وكلها تحقق الغرض والحاجة.

(٣)

أشار عدد من الفضلاء وكرام الأصدقاء عليَّ أن أؤلف ـ رغم قلة بضاعتي في العلم ـ كتاباً في السيرة النبوية، يعرض السيرة بجوانبها المختلفة بأسلوب سهل سائغ وبشكل عملي، روعيت فيه عقلية الجيل المعاصر، وذوقه، ومستوى فهمه ونفسيته، وما جدَّ من مستجدات وحاجات، وأسلوب كتابي ومنهج علمي، فتهيَّبتُ في البداية الكتابةَ في السيرة النبوية والتأليف فيها، وكنت أستعظمُها وأستصغر نفسي، نظراً إلى عظمة الموضوع وأهميته، وضخامة المسئولية، ثم شرح الله صدري لأن أنال سعادة خدمة الموضوع الحامل للقداسة والمحبوبية، وإن بذل

[١] - ألفه الشيخ الندوي في اللغة العربية ونال قبولاً وتقديراً في العالم العربي وأدرجته بعض الجامعات والحركات في مناهجها، ثم نقله الكاتب الإسلامي محمد الحسني إلى الأردية وقد نالت الترجمة الأردية أيضاً قبولاً كبيراً في الأوساط العلمية والدعوية.

www.abulhasanalinadwi.org

الوقت وتحريك القلم في هذا الموضوع المقدس لا يخلو من بركة وسعادة وإن كان بدون جدارة وصلاحية، فجمعتُ همتي، وعزمتُ على الكتابة في موضوع السيرة النبوية، وقد ساعدني في هذا العمل المبارك عدد من كرام الفضلاء والأصدقاء فلهم شكري وتقديري، أخص بالذكر منهم شقيقي العزيز الأستاذ محمد واضح رشيد الحسني الندوي (رئيس الشئون التعليمية لندوة العلماء) وقد أفادني بآرائه القيمة السديدة، والعزيز بلال عبد الحي الحسني الندوي، وكذلك أشكر جميع من أعانوني – مهما كان نوع ذلك، – في تأليف هذا الكتاب، أخص بالذكر منهم العزيز محمود حسن الحسني الندوي (الباحث بدار عرفات براي بريلي) والعزيز محمد وثيق الندوي (محاضر كلية اللغة العربية وآدابها بدار العلوم لندوة العلماء) وقد ساعدني العزيز محمد وثيق الندوي في مراجعة المصادر والمظان، ونقل المواد وتنسيقها، والتقاط المعلومات المفيدة من كتب التاريخ والسيرة، وسعى سعياً بليغاً في إخراج هذا الكتاب وطبعه، فساعدني مساعدة علمية وعملية، والمؤلف شاكر لمساعدته ومعترف لجهوده وإخلاصه، فجزى الله الجميع خير الجزاء.

كتبه

محمد الرابع الحسني الندوي

يوم الجمعة ١٨/ربيع الآخر ١٤٢٩هـ

٢٥/أبريل ٢٠٠٨م

www.abulhasanalinadwi.org

www.abulhasanalinadwi.org

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الأول

تمهيد وتوطئة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد بن عبد الله الأمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الغر الميامين أجمعين، ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين، و بعد.

أبو البشر آدم عليه السلام:

جعل الله تعالى، وهو خالق سائر الأكوان، الأرضَ والسموات، ثم خلق الخلق، وأسكن في الأرض والسموات المخلوقات التي تعمرها، وتنتفع بما فيهما من نعم وآلاء، وأسباب، وجعل الإنسان من بين هذه المخلوقات أكرم وأشرف: " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً " (الإسراء: ٧٠). خلقه الله تعالى من طين بأن جعل أصله آدم من تراب، ثم خلق منه زوجه ليتنسل منهما النسل الإنساني، وتتكون الأسرة الإنسانية، ثم انتشرت ذريتهما في الكون كله تدريجياً، ثم فوّض إلى المخلوق الإنساني مسئولية القيام بعمارة الأرض، وجعل في الأرض كل ما يحتاج إليه الإنسان في قضاء الحياة، وإدارة شئونها، ووهب الله الإنسان صلاحيات ومواهب ممتازة، وميزه من بين المخلوقات الأخرى بميزة العقل ليوجد ما يحتاجه، ثم علّمه طريق الإيجاد والصنع والإبداع، وأخبره بأنه أوتي هذه الأشياء كلها والحياة في الدنيا ليستمتع بها، ولكن

www.abulhasanalinadwi.org

لابُدَّ له أن يعيش على وجه الأرض كإنسان صالح مطيع، ويقضي الحياة وفق أحكام الله ربِّه؛ يشكره، ويعبده، فإن شكره ليزيدَنَّه، وإن عصى وكفر وانحرف عن جادة الحق فإن عذابه لَشديد.

خلق الله تعالى الإنسان الأول آدم عليه السلام وأسكنه في الجنة(١) وهي أكرم مكان للراحة والنعمة، وقد خلق قبله الجان(٢) وأسكن منهم إبليس الذي كان عبداً صالحاً متعبداً في الظاهر، في الجنة، جزاء لعمله الصالح وتعبُّده، ولكن لما خلق الله آدم وكرَّمه، حسده إبليس، بل قال مستكبراً متعالياً: لماذا خلقت هذا المخلوق وكرَّمته؟ وأنا خير منه لأنك خلقتني من نار، وخلقته من طين، حتى لما أمر اللهُ بالسجود لآدم سجد له المخلوق السماوي الملائكة، ولكن إبليس أبى واستكبر، فطرده الله لعصيانه واستكباره من الجنة مذموماً مدحوراً، ولعنه إلى يوم الدين، فحلف إبليس بأن ينتقم لهذا الصغار والإهانة، وكان قد قال الله لآدم وزوجته حواء أن تسكنا في الجنة بعد أن أخرج منها إبليس وطرد، وكُلا من ثمارها من أيِّ مكان شئتُما، فأباح لهما الأكل من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة عيَّنها لهما، ونهاهما عن الأكل منها ابتلاءً وامتحاناً، فعند ذلك حسدهما إبليس وسعى في الوسوسة والمكر والخديعة لهما، فقال لهما لإغرائهما بالأكل من الشجرة الممنوعة: مانهاكما ربُّكما عن الأكل من هذه الشجرة إلا كراهية أن تكونا مَلَكين، أو تصبحا من المخلَّدين في الجنة، وحلف لهما بالله على ذلك، حتى خدعهما بما غرَّهما به من القسم بالله، فعصيا ربَّهما وأكلا من الشجرة، فغضب الله على أنهما لم يمتنعا عما نهاهما من تلك الشجرة، فهبطهما من الجنة وأخرجهما من سماء القدس

(١) تاريخ الأمم والملوك لمحمد بن جرير الطبري: ١/ ٨٩، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم.
(٢) البداية والنهاية لابن كثير: ١/ ٥٥.

www.abulhasanalinadwi.org

إلى الأرض، بعدما اعترفا بالخطيئة، وتابا من الذنب، وطلبا من الله المغفرة والرحمة، ولكن إبليس لم يتب، بل تمادي في غيِّه وتكبُّره، فطرده الله من الجنة صاغراً معيباً مطروداً من رحمته، وقال: لأملأن جهنم من أطاعك وتبعك(١). وقد ذكر القرآن الكريم هذه القصة فيقول: " وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ " (الأعراف: ١٠- ٢٥.

وكان آدم عليه السلام قد تاب من الذنب بغاية من الإلحاح

١- تاريخ الطبري: ١/ ٩٤- ٩٦، والكامل في التاريخ لابن الأثير: ١/ ٢٣- ٢٦.

www.abulhasanalinadwi.org

والابتهال، فتاب الله عليه وعفا عنه، ولكن الله أراد بعدما ظهر من آدم عليه السلام من عصيان ونسيان، أن يبلو إطاعته ومدى استسلامه لأمر الله، فأسكنه هو وذريته على الأرض ليثبتوا طاعتهم لربهم وانتهاءهم عما نهاهم عنه، بعملهم واتباعهم لأوامر ربهم، ويثبتوا أنهم مستحقون للعودة إلى الجنة بأعمالهم الصالحة، وكذلك أمر الجان بذلك(١) وهذا الابتلاء يستمر إلى أن تقوم الساعة، ليبلو أيُّهم أحسن عملاً.

التوجيه الديني بصورة النبوة:

منذ بدء العمران الإنساني في الأرض، عمرتها أنسال إنسانية متتابعة، واتبعت أوامر ربها الله، والتزمت بشريعة الخير والصلاح التي فيها الصفات الإنسانية الكريمة التي فرضها الله تعالى للإنسان من بين المخلوقات الأخرى الساكنة في الأرض، ثم بدأ الضعف في أخلاق الإنسان وصفاته، وبدأ الانحراف عن المبادئ الرفيعة التي تجعل الإنسان أفضل من المخلوقات الأخرى، وبدأ الإنسان يُؤْثِرُ رغباته الأرضية وملذاته الدنيوية على الصلاح الخلقي والديني، والالتزام بالمبادئ الإنسانية الرفيعة، ويقصِّر في طاعة ربِّه وعبادته، والشكر على آلائه، ويخالف أوامره إذا تعارضت مع هواه، فأرسل الله إليهم عباده الصالحين لهدايتهم، وهم يسمون "الأنبياء" فلم يزل هؤلاء الأنبياء يأتون إلى الشعوب المنحرفة عن جادة الحق في مختلف بقاع الأرض، وفي مختلف الأزمان؛ يدعو كل منهم قومه إلى الله بأساليب مختلفة، ويمنعهم عن غيِّهم، والاستمرار في ضلالهم، ويعلمهم طريق الحق والخير بغاية من النصح والحرقة والهمّ.

كان أول الأنبياء أبو البشر آدم عليه السلام، قد جعله الله نبياً

١- الكامل في التاريخ: ١/٣٨.

www.abulhasanalinadwi.org

لهداية ذريته ودعوتهم إلى الصراط المستقيم، وجادة الحق، وبذل السعي لإبقائهم على عبادة الله وشريعته الحقة، فلم يزل ذريته ملتزمين بالطريقة التي هداهم إليها أبوهم النبيُّ آدم عليه السلام، ولكن لما بدأ فيهم الانحراف عن جادة الحق، وانتشر فيهم الفساد بمرور الزمن، وباختلاف الأنسال ابتعث فيهم الأنبياء حسب الضرورة واقتضاء الظروف(١) فقال عز وجل: "وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ" [فاطر: ٢٤].

وقد ذكر الله تعالى عدداً من الأنبياء بأسمائهم في القرآن الكريم كمثال، وترك الآخرين لم يذكرهم إلا قال: بعث في كل أمة نذيراً. وأما الأنبياء الذين ذكرهم الله في القرآن الكريم، فمنهم نوح عليه السلام؛ إنه بعث بعد آدم بقرون، في قومه الذين كانوا يغلون في تعظيم صلحائهم وتقديس كبرائهم، بأن جعلوا صوراً لهم، ونحتوا تماثيلهم كذكرى لهم، ثم بدأوا يعبدونها ويدعونها تاركين إلههم الحقيقي وراءهم ظهرياً، وفي جانب كانوا يرتكبون معاصي وسيئات وأعمالاً وجرائم(٢) ولبث فيهم نوح عليه السلام ألف سنة إلا خمسين عاما؛ يدعوهم إلى سواء السبيل حسب الإمكانيات المتاحة له، ولكن لم يؤمن منهم ولم يصلح إلا قليلاً، ولما يئس النبيُّ من صلاحهم وعودتهم إلى الحق، دعا الله أن يعاقبهم ويعذبهم، فاستجاب الله لدعائه، وقرر إهلاك قومه بالطوفان، فأمر نبيَّه نوحاً قبل إرسال الطوفان أن يصنع سفينة بأعين ربه العظيم وبحفظه ورعايته، لينجيه هو والمؤمنين به من الطوفان الذي سيحل بالقوم الكافرين، فقال عز وجل: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ

١- نفس المصدر.
٢- البداية والنهاية: ١/١٠١.

www.abulhasanalinadwi.org

وَهُمْ ظَالِمُونَ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ" [العنكبوت: ١٤- ١٥](١).

ثم تنسَّل من الذين أنجاهم الله من الطوفان، وعمر ذريتهم الأرض(٢) وقد ذكرهم الله في كتابه القرآن الكريم، كما ذكر أقوام عدد من الأنبياء بعد نوح(٣) الذين بعثوا في الأقوام الساكنة في المناطق حول المنطقة العربية، وعندما عصوا أنبياءهم وتمردوا عليهم وتجاوزوا الحدَّ في الظلم والطغيان أخذهم الله بالعذاب، ومن هذه الأقوام قوم عاد الذي كان يسكن بشرقيِّ اليمن، وقد تركوا عبادة خالقهم ومالكهم الحقيقي الله رب العالمين، وعكفوا على عبادة الأصنام والأوثان حسب هواهم، كما كانوا يظلمون الضعفاء، ويستكبرون ويتكبرون في البلاد، يعيثون فيها مفسدين، ويمارسون أعمالاً سيئة، فأرسل الله إليهم أخاهم هود لإصلاحهم وهدايتهم، ولكنهم تمادَوا في غيِّهم وتمرَّدوا، واستهزؤوا بنبيهم، وجحدوا بآيات ربهم، وعصوا رسولهم، واتبعوا كل جبار عنيد، فأخذهم الله بالعذاب الشديد(٤).

وذكر الله بعد قوم عاد، قوم ثمود الذين كانوا يسكنون في المنطقة الجبلية بشماليِّ الحجاز، أرسل إليهم أخاهم صالحاً، وكان قومُه ينحتون من الجبال أنواعاً من الأصنام والتماثيل، ويعبدونها ويدعونها غير الله، ويظلمون الضعفاء، ويمارسون الفحشاء والمنكرات، فدعاهم ونصحهم، ولكنهم كفروا بربهم، ولم يقبلوا دعوة رسوله، واستمروا على ضلالهم وظلمهم، ثم خلق الله ناقة آية لهم، فقال الرسول

---

(١) الكامل في التاريخ: ١/٦٧- ٧٣، والبداية والنهاية: ١/١٠٠- ١٢٠.
(٢) الكامل في التاريخ: ١/٧٩.
(٣) نفس المصدر: ١/١٠٤.
(٤) نفس المصدر: ١/٨٥- ٩٣، والبداية والنهاية: ١/١٢١- ١٣٠.

www.abulhasanalinadwi.org

صالح: يا قومي: هذه الناقة معجزة لكم، وعلامة على صدقي، فدعَوها تأكُلْ وتشربْ في أرض الله، فليس عليكم رزقها، ولا تناولوها بشيء من السوء فيصيبكم عذاب عاجل لا يتأخر عنكم، ولكنهم لم يقبلوا قوله، فذبحوها، فأخذهم الله بالعذاب، فأصبحوا هامدين لا حراك بهم، يقول القرآن الكريم: " وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ "(الأعراف: ٧٣) ونجى الله تعالى صالحاً ومن آمن به، ثم تنسَّل من هؤلاء الصالحين الناجين، وانتشر ذريتهم في الأرض وعمروها، حتى بدأ فيهم أيضاً الانحراف عن جادة الحق بمُضيِّ الوقت وتبدُّل النسل، فعمَّ فيهم الظلم والكفر والشرك والسيئات الأخرى الشديدة، فأرسل الله إليهم رسلاً تترى لهدايتهم وإصلاحهم، ومن هذه الأقوام المنحرفة الضالة قوم لوط وقوم مدين، كفرت هذه الأقوام كلها بأنبيائها ورسلها الهداة، وجحدت بآيات ربها وتمرَّدت، وتمادَتْ في الغيِّ والضلال، فأُبيدت وأُهْلِكت.

كان قوم لوط يسكن في جزء من أجزاء فلسطين؛ كانوا يعملون السيئات، وكانت عادتهم الشنيعة إتيان الرجال وعمل الفاحشة، حتى بلغت بهم الوقاحة إلى أن يأتوا الرجال وهم يعلنون، ولا يستحيون، وكذلك كانوا يمارسون منكرات وجرائم بشعة، ومعاصي شديدة، فأرسل الله إليهم أخاهم لوطاً، فنصحهم وسعى لهدايتهم، ولكنهم لم يؤمنوا به ولم يقبلوا دعوته ونصيحته، فأخذهم الله بالعذاب الأليم وأهلكهم بأن أرسل عليهم حجارة صلبة شديدة من نار وطين، متتابعة

www.abulhasanalinadwi.org

معلمة بعلامة([1]).

وكان قوم مدين (قوم شعيب)يسكن في منطقة الحجاز الشمالية، كانوا يشركون بالله، وينقصون المكيال والميزان، ولا يوفونهما بالقسط، ويبخسون الناس أشياءهم، ويعيثون في الأرض فساداً، فأرسل الله إليهم أخاهم شعيباً([2]) فسعى لإصلاحهم وهدايتهم، ولكنهم لم ينتهوا عما نهوا عنه، وتمرَّدوا، فأهلكهم الله بالصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين.

ثم ورد ذكر الأمة المصرية في القرآن الكريم بعد ذكر قوم مدين، وقد بغى وعاث فرعون وقومه في مصر فساداً، ومارسوا الظلم والاعتداء، والقتل بحق بني إسرائيل، وهم كانوا في الأقلية، كان يُقْتَلُ كل مولود يولد في بني إسرائيل بأمر فرعون، إذا كان ذكراً، ويستحيى إذا كان أنثى، ليستخدمها قوم فرعون في بيوتهم، وكان بنو إسرائيل يُظلمون ويُقهرون، وكان فرعون يدعى الألوهية فيقول: أنا ربكم الأعلى، ويكره الناسَ على السجود له وعبادته، ويقول بصراحة ووقاحة: وما لكم من إله غيري، فاعبدوني، فنصحه موسى عليه السلام ومنعه، وظل يدعوه إلى الله رب العالمين، حتى إذا لم يرتدع عن غيِّه وضلاله واستكباره وظلمه، أخذه الله بعذاب غير مردود، فأغرق هو وملأه جميعاً في اليَمِّ، وبذلك تحرَّر بنوإسرائيل من ظلمه، وأنعم الله عليهم وفضلهم على العالمين.

ولكن بني إسرائيل انحرفوا بعد زمن عن طريقة أنبيائهم، وتركوا دعوتهم ونبذوها وراءهم ظهرياً، حتى أشركوا بالله، وأصروا على غيِّهم وضلالهم، وانغمسوا في المساوئ الخلقية والمعاصي والجرائم، وحرفوا الكلم عن مواضعها، فأذاقهم الله العذاب بأيدي

[1] الكامل في التاريخ: ١/١١٨- ١٢٢، والبداية والنهاية: ١/١٧٩- ١٨٣.
[2] الكامل: ١/١٥٧- ١٥٩، والبداية والنهاية: ١/١٨٣- ١٩٥.

www.abulhasanalinadwi.org

الطغاة، ووقعوا في مصائب وشدائد بما كسبته أيديهم، ولكنهم لم يمتنعوا عن أعمالهم السيئة وظلمهم البواح، بل تجرأوا على قتل الأنبياء، وخططوا المؤامرة الشنيعة لإعدام عيسى وشنقه[1] ولكن الله أفشل خطتهم الماكرة الشنيعة وردَّ كيدَهم إلى نحورهم.

هذه الأمثلة لأقوام عديدة ورد ذكرها في القرآن الكريم، مع أن هناك أقواماً كثيرة ظهرت على وجه الأرض، عاشت، وبغت، وطغت في الأرض، واستبكرت، ثم أبيدت وأهلكت بأعمالها السيئة ومعاصيها الشديدة.

كان بنو إسرائيل في مصر والشام، وقد بلغوا في الظلم والفساد كل مبلغ، وفي جانب آخر كانت الأقوام والأمم الأخرى التي تسكن في مناطق مختلفة في العالم، اتخذت آلهة كثيرة، تعبدها وتدعوها دون الله رب العالمين، وكانت ترتكب معاصي وجرائم أخرى، وتمارس الظلم والاعتداء، وسفك الدماء، وتفشت فيها الأمراض الخلقية، فكانت غارقة في الشرك والكفر وا لفساد الخلقي من أخمص القدمين إلى مفرق الرأس، فغضب الله عليها غضباً شديداً، وأوقف سلسلة بعثة الأنبياء والرسل، ولعله أراد أن يرى لأيٍّ حد ينحطُّ الإنسان ويتدنى، فلم يرسل بعد رفع عيسى عليه السلام، نبياً إلى ستة قرون، وترك الأمم تسفل وتنحطُّ إلى حضيض الرذالة والفساد، فكانت الإنسانية في هذه القرون الستة فريسة للأهواء والعادات الجاهلية، والتقاليد الجائرة، وأصبحت مكروهة مذمومة، وفسد الإنسان فساداً كبيراً، وعمت الأحوال الدنيئة، وانتهاكات سيئة في الحياة الفردية والجماعية حتى كاد الله يقضي على النسل الإنساني قضاءاً نهائياً جزاء لجرائمه ومظالمه، كما

[1] الكامل في التاريخ: ٣١٨/١.

www.abulhasanalinadwi.org

يبدو من الحديث النبوي الذي جاء فيه: "إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا بعض أهل الكتاب"(١).

ولكن رحمة الله غلبت على نقمته، وأتاح للإنسان فرصة أخيرة للعودة إليه، فبعث خاتم أنبيائه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بشيراً ونذيراً، وقد بشر به الأنبياء السابقون وبشرت الكتب السماوية المنزلة عليهم كالتوراة والإنجيل، ببعثته في آخر الزمان عندما تلفظ الإنسانية نفسها الأخير، ويفقد الإنسان جدارته بالبقاء على الأرض، وينسى الناس خالقهم. يقول الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي:.

" فإن عالم القياس والتخمين ظلام في ظلام " ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ "(النور: ٤٠) وإن النبوة هي النور الوحيد في هذه الظلمات المتراكمة، والمنبع الوحيد لعلم الله المحكم وأمره المبرم، والنبي هو المتصل بهذا المنبع، والواسطة بين الحق والخلق في الهداية" وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى " (النجم: ٣- ٤) وإن محمداً هو آخر المتصلين بهذا المنبع وخاتم الأنبياء والمرسلين الذي نسخ الله به الأديان، ونصبه إماماً لكل زمان ومكان، وهو أجمعهم لصفات النبوة والكمالات البشرية، ومعاني الحسن والإحسان، وهو المثل الكامل للبشر في كل عصر ومصر، ودواء لكل داء، فلا يتم الإيمان بالله ولا يمكن الوصول إليه إلا بالإيمان بالرسل عامة وبمحمد خاصة وذلك قوله " محمد رسول الله"(٢).

وقد بشر به عيسى عليه السلام باسم أحمد، ثم أخرجه الله من أفضل وأكرم نسل العرب في الشرق الأوسط، وكانت هذه الأمة

---

١ مسند الإمام أحمد.

٢ الطريق إلى المدينة، ص: ٧٩، المجمع الإسلامي العلمي، لكناؤ، الهند، ٢٠٠٦م.

www.abulhasanalinadwi.org

العربية أمية تسكن في أرض قاحلة في جزيرة العرب، ومصونة من المساوئ الحضارية للأقوام المتمدنة وأبعادها السيئة، وكانوا أميين، وغير متمدنين، ولكن كانوا على الفطرة[١] وكانت لوحات قلوبهم وأذهانهم صافية خالية من آثار الأمم المتمدنة، وكانوا جديرين كل الجدارة لحمل المسئوليات العظيمة، وقد أراد الله أن يفوض إلى هذا النبي الخاتم مسئولية هداية العالم البشري كله، ليس للعرب فحسب، وحمل الرسول هذه المسئولية الضخمة والمهمة العظيمة الجليلة، وقام بجهود متناهية لإصلاح الناس، وتبصيرهم بأسباب كرامة الإنسان، فتكلل سعيه بالنجاح، وصلحت الأوضاع صلاحاً، ونجت الإنسانية التي كانت متدلية منحطة وكادت تهلك بكاملها لعصيانها لربها، من الهلاك، وحدث انقلاب عظيم، وبدأ عهد جديد في التاريخ الإنساني، وقام مجتمع إنساني فاضل، ليكون نموذجاً للناس، و هادياً لهم إلى الحق والخير، وأعطى محمد صلى الله عليه وسلم خصائص جليلة، وصفات عظيمة، وصلاحيات فائقة، وقدرات متميزة، وكفاءات نادرة، فأصبح رحمة للعالمين، وأنقذ العالم من الهلاك، وأدى هذه المسئولية الضخمة بغاية من الصبر والحكمة، والهمّ والتدبير الدقيق، والسلوك الحسن، فوضع الله في مهمته الدعوية تأثيراً عظيماً لا يوجد له نظير، وبارك في عمله، فبفضل بعثته ورسالته حدث انقلاب تاريخي عظيم في الأوضاع، تحولت الحياة من الفساد إلى الصلاح، ومن الشر إلى الخير، وانتقلت الإنسانية من فصل كله جدب، وخريف وسموم وحميم، إلى فصل كله ربيع وأزهار، واطلع الإنسان على طعم جديد لم يألفه، وذوق لم يجربه، وهيام لم يعرفه من قبل، ولم يكن هذا

[١] البداية والنهاية: ١/١٩٥.

www.abulhasanalinadwi.org

الانقلاب محدوداً في الجزيرة العربية، بل تخطاها إلى العالم كله، فخرجت الحياة الإنسانية من الحالة التي مقتها الله، إلى الحالة التى أحبها ورضي بها، وأعلن في رجال فاقوا في نيل رضا ربهم حتى حسدتهم الملائكة: رضي الله عنهم ورضوا عنه.

مهمة النبي ورسالته:

دعا سائر الأنبياء والرسل؛ من النبي الأول آدم إلى النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم، إلى نبذ الإشراك بالله، وإلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، لأن الله هو الذي لا إله إلا هو، وهو الذي خلق هذا الكون، وهيأ فيه جميع الأسباب التي يحتاج إليها الإنسان، وسهل له الحصول عليها ليستخدمها ويستفيد منها كل الاستفادة، فعقيدةُ التوحيد قوام الحياة الإنسانية، وليس للإنسان أن ينسى خالقه وربَّه والمحسن إليه، ويدعو غيره، ويذل نفسه بإخضاع جبهته أمام الحيوانات والجمادات، ويعبد كل ما يحس فيه قوة لجلب المنفعة أو دفع المضرة، ويقول: فلان ينصرنا، وفلان يحقق حاجتنا، وفلان يحسن إلينا، وفلان يرزقنا، وفلان يمطر، وفلان يمرض، وفلان يشفي، ويرجع الفضل والمنّ إلى الذي لا يستطيع أن ينفع حتى نفسه، ويطلب منه ويسأله حاجته كلها، فكيف يرضى الله المالك الخالق الحقيقي الذي أنعم على الإنسان كل ما يفتقره، بل خلقه نفسه ويرزقه، بأن يشرك به غيره في ألوهيته وربوبيته، وخلاقيته وقدرته المطلقة، لإن الشرك لظلم عظيم، يغفر الله كل ذنب إلا الشرك، فالشرك أبغض إليه، وأشد مقتاً.

فمنع سائر الأنبياء والرسل والمصلحين، قبل كل شئ، من الشرك، ولم يألوا جهداً في استئصال شأفة الوثنية، واجتثاثها من جذورها، بحيث لا يبقى لها عين ولا أثر، وفي ترسيخ عقيدة التوحيد في

www.abulhasanalinadwi.org

أعماق النفس الإنسانية ترسيخاً، وغرس ميل إلى إرضاء الله وعبادته، وخدمة الإنسانية، والانتصار للحق، وما زالوا يدعون إلى إصلاح ما وقع من فساد وسوء في الأخلاق والحياة الإنسانية والسلوك الإنساني، في مختلف بقاع الأرض، فمثلاً عمّ في قوم الانحراف الخلقي وممارسة الجنس مع الإشراك بالله، كما وقع في قوم لوط، فمنع النبي لوط عليه السلام قومه من هذه السيئات، وعمَّ في أمة وبقعة بَخسُ الحقوق، ونقصُ المكيال والميزان، كما وقع في قوم مدين، فنهى النبي شعيب عليه السلام قومَه من هذا الظلم، وانتشر في قوم الظلمُ على الضعفاء والاستكبارُ والتكبُّر والاستعلاءُ على الخالق الحقيقي كما وقع في قوم فرعون في مصر، فبعث النبي موسى عليه السلام فيهم، فمنعهم مما كانوا عليه من ظلم وعُلُوٍّ في الأرض، وأنذرهم من عذاب الله الشديد، ونهى عن الشرك، فدعا جميعُ الأنبياء والرسل إلى عقيدة التوحيد الخالص والعبودية الخالصة لله وهو خالق الأكوان كلها وصانعُها وربُّها، ونهوا عن الشرك، والظلم، والفساد في الأرض، ودعوا إلى الالتزام بالصفات الإنسانية الكريمة التي يتميَّز بها الإنسان عن المخلوقات الأخرى، ويكون باختيارها صالحاً لأداء الأمانة العظيمة الجليلة التي حملها الإنسان وأبت السموات والأرض أن يحملنها.

www.abulhasanalinadwi.org

الباب الثاني

وضع العالم في القرن السادس المسيحي

كان بُعِث نبي الله عيسى عليه السلام في بني إسرائيل قبل مولد الرسول الأعظم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بست مائة سنة، وقد خلقه الله تعالى كمعجزة بدون أب، لإبراز أهميته ومكانته بين الأنبياء، ثم جعله الله تعالى نبياً ليقوم بإصلاح ما أفسده المفسدون في بني إسرائيل، وما كان شاع فيهم من ظلم، وقسوة، وانحراف عن الصراط المستقيم، وانحلال خلقي، وسوء النظام، وعسف الحكام، ولكن عارضه بنو إسرائيل وعصوه، ووضعوا عقبات في سبيل دعوته إلى الله، وظلوا يتمادون في غيّهم وضلالهم، ويكفرون ما أنعم الله عليهم من نعم عظيمة، وآلاء جسيمة، ثم بعث الله تعالى بعده بست مائة سنة محمداً صلى الله عليه وسلم نبياً.

وكانت هذه الفترة التي لم يبعث فيها نبيّ من الأنبياء، من أشد الفترات التي مرت بها الإنسانية ظلاماً وانحطاطاً، ومن أحط أدوار التاريخ ديناً وخلقاً، كانت الإنسانية تعاني فوضى عامة في سائر شؤون حياتها، وكانت الجاهلية بأنواعها وألوانها مهيمنة على العقائد، والأفكار، والتصورات، والنفوس، ومناهج الحياة المتبعة في تلك الفترة، وأصبح الجهل والهوى، والانحلال والفجور، والتجبُّر والتعسُّف من أبرز ملامح المنهج الجاهلي المهيمن على دنيا الناس(١) واختار الإنسان بإشراف

---

١ - انظر: الغرباء الأولون، لسلمان العودة ص: ٥٧

www.abulhasanalinadwi.org

الطبقات المتمدنة في تلك الفترة الحالكة منهجاً مغايراً للفطرة التي فطر عليها، وجالباً لسخط الله وغضبه، ونبذ أحكام الله وراءه ظهرياً، وقد وصل وضع بني إسرائيل ذروته في الكفر والعناد، والجحود والطغيان، وكانوا أولاد الأنبياء، وأنعم الله على آبائهم نعماً سابغة ظاهرة وباطنة، فحرّفوا في كتاب الله المنزل عليهم، وبدّلوا الكلم حسب أهوائهم، واختاروا ما شاءت نفوسهم واشتهت.

وكانت للدولة الرومية في الجزء الغربي للعالم جولة وصولة، فأصبحت مسرح الفوضى والانحلال والاختلال وسوء النظام، وعسف الحكام، ووصلت في التبذّل إلى أحطّ الدرجات، وأصبح الهمُّ الوحيد للناس في الدولة الرومية اكتساب المال من أيّ وجه، ثم إنفاقه في التظرُّف والترف وإرضاء الشهوات، وبلغت الفحشاء والمنكرات والأثرة الجامحة والظلم والعدوان والأوبية الخلقية الأخرى غايتها.

وكان الجزء الشرقي للعالم المتمدن الذي كان يتكوّن من إيران والمناطق الواقعة في الشرق، الحقل القديم لنشاط كبار الهدامين الذين عرفهم العالم، وكان أساس الأخلاق متزعزعاً مضطرباً منذ عهد عريق في القديم، وكانت الملوكية الظالمة بجنب الوثنية الطاغية قائمة على قدم وساق، وكان الناس في هذه المناطق منغمسين في الظلم والاعتداء، والمساوئ الاجتماعية والمنكرات الخلقية الشنيعة.

كانت هذه الفترة من أشد الفترات التي مرّت بها الإنسانية ظلمة وانحطاطاً، وأبعد من كل أمل في الخير والفضيلة، وكانت هذه القرون مسرحاً للجهل الفاضح، والوثنية، والهمجية، والقسوة، والجور الاجتماعي، الذي ليس له نظير في التاريخ الإنساني الطويل، فكانت هذه الفترة الحالكة وصمة عار على جبين الإنسانية.

www.abulhasanalinadwi.org

نذكر فيما يأتي وضع العالم كله قبل البعثة المحمدية بشيء من التفصيل : .

وضع الدول الأوربية

كانت الوثنية شائعة في هذه الدول في البداية ، كانت الأمم الأوربية في هذه الدول تعيش في ظلام الجهل والأمية والشرك ، وكانت بعيدة عن الفضيلة والأخلاق ، ثم قبلت المسيحية ؛ ولكن لم تزل تشتد هذه المساوئ والمنكرات الخلقية عبر العصور. يقول روبرت بريفولت (Robert Briffault) :

" لقد أطبق على أوربا ليل حالك من القرن الخامس إلى القرن العاشر ، وكان هذا الليل يزداد ظلاماً وسواداً ، وقد كانت همجية ذلك العهد أشد هولاً ، وأفظع همجية من العصر القديم ؛ لأنها كانت أشبه بجثة حضارة كبيرة قد تعفّنت ، وقد انطمست معالم هذه الحضارة ، وقضي عليها بالزوال ، وقد كانت الأقطار الكبيرة التي ازدهرت فيها هذه الحضارة ، وبلغت أوجها في الماضي ، كإيطاليا وفرنسا ، فريسة الدماء والفوضى والخراب "([1]) .

وأما المسيحية بعد عيسى عليه السلام في هذه الدول الأوربية فقد امتحنت - رغم اختيار مواطنيها لها كديانة - بتحريف الغالين ، وتأويل الجاهلين ، ووثنية المتنصرين ، وأصبح كل ذلك ركاماً دفنت تحته تعاليم المسيح البسيطة ، واختفى نور التوحيد وإخلاص العبادة لله وراء هذه السحب الكثيفة.

يتحدث كاتب مسيحي فاضل عن مدى تغلغل عقيدة التثليث في

---

[1] - Robert Briffault : the making of humanity p:١٦٤. نقلاً من كتاب "السيرة النبوية" للشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي ص : ٣٩ ، ط : دار القلم ، دمشق ٢٠٠٦م.

www.abulhasanalinadwi.org

المجتمع المسيحي منذ أواخر القرن الرابع الميلادي فيقول:

"تغلغل الاعتقاد بأن الإله الواحد مركّب من ثلاثة أقانيم في أحشاء العالم المسيحي وفكره، منذ ربع القرن الرابع الأخير، ودامت كعقيدة رسمية مسلمة، عليها الاعتماد في جميع أنحاء العالم المسيحي، ولم يرفع الستار عن تطوّر عقيدة التثليث وسرها إلا في النصف الثاني للقرن التاسع عشر الميلادي"([1])

وضع آسيا الجنوبية:

المجوس

كانت دولتهم قائمة في إيران منذ عصر قديم، وقد حكموا على نحو ثلث الكرة الأرضية المعمورة، واستتب لهم الأمن بالحكم، وبالأمن مالوا إلى السكون والدعة والبذخ والترف، وقد أضعف الترف عقولهم، وأفسد قلوبهم، وأعمى أبصارهم، وزلزل أركان الدولة.

وقد قضى دين "ماني" قضاءاً باتاً على الدستور القديم، وأورث في طبائع الناس القلق والفوضى، وقد أعلن "مزدك" مبدأ شيوع المرأة والذهب والأرض، فكثر الظلم، والفواحش والمنكرات، والتمرّد والتهتّك، فانتهكت الأعراض، وعمّ خلع العذار، والفسق والفجور، حتى أن الأبناء عشقوا أمهاتهم، وراحت الأميرات صواحب العرش والسلطة ضحايا العواطف الجنسية البهيمية لضباط الجيش، وأعجب الناس بأدلة تزويج المحرمات الأبدية مكان المحصنات، واعتبر التعفف والطهر والعفة والعصمة شيئاً قذراً للرجل والمرأة، وخادم كفور مثل "فرهاد" صار منافساً لمليكه، وابن غاو مثل "شيرويه" عقر بطن أبيه، ثم

---

[1] - دائرة المعارف الكاثوليكية الجديدة مقال التثليث المقدس ١٤/٢٩٥ نقلاً عن السيرة النبوية للشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي ص: ٢٥، ص" دار القلم دمشق، ٢٠٠٦م .٥.

www.abulhasanalinadwi.org

تملك "شيرين" وجندي فاسد مثل "بهرام جوبين" قد اصطلى بنار غرام الملكة بوران دخت"[١].

البوذية :

أما الهند التي كانت تقع بجنب الإمبراطورية الساسانية الإيرانية، وتتميز بحضارتها الخاصة، ونظام حكمها الغريب، فقد امتحنت بوثنية متطرفة، وشرك عظيم، وكانت في أحط أدوارها ديانة وخلقاً واجتماعاً، وتعاني وضعاً مأساوياً.

"قبل المسيح بستة قرون ظهرت البوذية، واختار بوذا [٢] لغة "بالي" ومنع تعليم السنسكريتية وتعلّمها.

وبحلول البوذية محل الديانة الفيدية انعدمت كتب الديانة القديمة حتى لم يبق أحد ممن يعلمها.

وقد ناظرهم شنكرا أشاريه، وأثبت فضله العلمي، ولكنه مات في سن الثالثة والثلاثين أو السابعة والثلاثين، ولكن استعادت السنسكريتية بجهوده مكانتها في البلاط الملكي؛ ولكنها منيت بالغلو الشعري والاستغراق، وأسدل ستار الاستعارة على الحقائق والوقائع.

ومن الكتب القديمة كتاب "مها بهارت" وهو الآخر لم يسلم من تصرف الناس، فقد قيل إن نحو عشرين ألف عبارة "شلوك" أضيفت إلى هذا الكتاب بتزوير.

---

[١] رحمة للعالمين للقاضي محمد سليمان المنصورفوري، ٣/٨٤، الدار السلفية، ممبائ، الهند. وانظر التفصيل في الطبري: ٢/١٣٦.

[٢] - كان اسم بوذا الأصلي "سدهارتها" والاسم العائلي "غوتم" ولقبه التعظيمي "بدها" وهو الذي تحول بالعربية إلى "بوذا" ومعناه "أيقظ" ولد في كبل وشتو نيبال من بطن مايا في بيت سرودتا وكان أبوه حاكماً لقوم "ساكيها" تزوج بوذا امرأة تسمى "سبودا" فولدت له ابنا سماه "راهولا" ترهب بوذا في سن التاسعة والعشرين، وكانت ولادته ٥٦٠ ق م، وتوفي وهو ابن ثمانين سنة، ويعد من كبار العالم.

www.abulhasanalinadwi.org

وقد استمرت قوة الديانة البوذية ونفوذها إلى عهد الملك " أشوكا" ثم دبّ إليها الانحطاط، ولم تكن مبادئها تصلح أن تساير العالم المتمدن، وجماعة الفقراء "بهكشو" التي أعدّتها الديانة البوذية هي التي دفعتها إلى الانحطاط والانهيار، وخروجها من البلاد، وكذلك سعت ديانة "بوران" في إخراجها أيضاً.

وبعد الديانة البوذية ساءت حالة البلاد كثيراً، فعمّ الفجور والفواحش وعشرات من الفرق والطوائف، مثل جكرانت، دام مارغي، سهسر بهك، درشنان مكتي، شاكت، ننوارك آوك، رام أياسك دندي، ظهرت، فقضت على الأخلاق والحضارة وحولتهما رماداً.

وكانت هذه الفرق مسيطرة على الهند كلها، وهي أضفت على الخمر والميسر و الفاحشة لباس الديانة وقدسيتها.

وفي مثل هذه الحالة وصل دعاة الإسلام من السند والشمال الغربي وجنوب الهند، فعرَّفوا البلاد بالحقائق والمعارف، فأدرك أهل البصيرة وضعهم السيء، فدخل أغلبهم الإسلام، وبقي من بقي على الهندوكية ([1]).

يقول المؤرخون:

"أما البوذية الديانة المنتشرة في الهند وآسيا الوسطى، فقد تحولت إلي وثنية تحمل معها الأصنام حيث سارت، وتبني الهياكل، وتنصب تماثيل بوذا حيث حلت ونزلت، ولم يزل العلماء يشكون في إيمان هذه الديانة ومؤسسها بالإله الخالق للسماوات والأرض، ولا يجدون ما يثبت ذلك، ويحارون في قيام هذه الديانة العظيمة بغير الإيمان بالله فيها".

"و أما البرهمية - دين الهند الأصيل - فقد امتازت بكثرة المعبودات

---

[1] - رحمة الله للعالمين للقاضي محمد سليمان المنصور فوري ٣/٨٣-٨٤.

www.abulhasanalinadwi.org

والآلهة والإلهات، وقد بلغت الوثنية أوجها في القرن السادس، فبلغ عدد الآلهة في هذا القرن ٣٣٠ مليون[١]، وقد أصبح كل شئ رائع، وكل شئ هائل، وكل شئ نافع، إلهاً يعبد، وارتقت صناعة نحت التماثيل في هذا العهد، وتأنق فيها المتأنقون [٢].

الدولة الرومانية والدولة الإيرانية:

قد استعرض الإمام العلامة أحمد بن عبد الرحيم المعروف بـ شاه ولي الله الدهلوي المتوفى ١١٧٦هـ الوضع السائد في الإمبراطورية الرومانية الشرقية الممتدة من الجانب الغربي للهند إلى شرق الغرب، والإمبراطورية الإيرانية الساسانية الممتدة من سوريا إلى إسبانيا قبل البعثة المحمدية، استعراضاً علمياً؛ فكتب يقول:

"اعلم أن العجم والروم لما توارثوا الخلافة قروناً كثيرة، وخاضوا في لذة الدنيا، ونسوا الدار الآخرة، واستحوذ عليهم الشيطان، تعمّقوا في مرافق المعيشة وتباهوا بها، وورد عليهم حكماء الآفاق؛ يستنبطون لهم دقائق المعاش ومرافقه، فما زالوا يعملون بها، ويزيد بعضهم على بعض، ويتباهون بها حتى قيل إنهم كانوا يعيرون من كان يلبس من صناديدهم منطقة أو تاجاً، قيمتها دون مائة ألف درهم، أولا يكون له قصر شامخ، وآبزن وحمام وبساتين، ولا يكون له دواب فارهة، وغلمان حسان، ولا يكون له توسّع في المطاعم، وتجمّل في الملابس، وذكر ذلك يطول. وما تراه من ملوك بلادك يغنيك عن حكاياتهم، فدخل كل ذلك في أصول معاشهم، وصار لا يخرج من قلوبهم إلا أن تمزع، وتولد من ذلك داء عضال دخل في جميع أعضاء المدينة، وآفة

---

[١] - راجع الهند القديمة لمؤلفه آر سي دوت (RC.Dutt) ٢٧٦/٣ والهندوكية السائدة لمؤلفه (L.S.S.O. Malley) ص: ٦-٧.

[٢] - السيرة النبوية للشيخ الندوي ص: ٢٧-٢٨.

www.abulhasanalinadwi.org

عظيمة لم يبق منهم أحد، من أسواقهم ورستاقهم، وغنيهم وفقيرهم، إلا قد استولت عليه، وأخذت بتلابيبه، وأعجزته في نفسه، وأهاجت عليه غموماً وهموماً لا أرجاء لها.

وذلك أن تلك الأشياء لم تكن لتحصل إلا ببذل أموال خطيرة، ولا تحصل تلك الأموال إلا بتضعيف الضرائب على الفلاحين والتجار وأشباههم والتضييق عليهم، فإن امتنعوا قاتلوهم وعذبوهم، وإن أطاعوا جعلوهم بمنزلة الحمير والبقر، يستعمل في النضح والدياس والحصاد، ولا تقتنى إلا ليستعان بها في الحاجات، ثم لا تترك ساعة من العناء حتى صاروا لا يرفعون رؤوسهم إلى السعادة الأخروية أصلاً، ولا يستطيعون ذلك، وربما كان إقليم واسع ليس فيهم أحد يهمُّه دينُه، ولم يكن ليحصل أيضاً إلا بقوم يتكسبون بتهيئة تلك المطاعم والملابس والأبنية وغيرها، ويتركون أصول المكاسب التي عليها بناء نظام العالم.

وصار عامة من يطوف عليهم يتكلفون محاكاة الصناديد في هذه الأشياء، وإلا لم يجدوا عندهم حظوة، ولا كانوا عندهم على بال، وصار جمهور الناس عيالاً على الخليفة؛ يتكففون منه تارة على أنهم من الغزاة والمدبرين للمدينة، يترسمون برسومهم، ولا يكون المقصود دفع الحاجة؛ ولكن القيام بسيرة سلفهم، وتارة على أنهم شعراء جرت عادة الملوك بصلتهم، وتارة على أنهم زهاد وفقراء يقبح من الخليفة أن لا يتفقد حالهم، فيضيق بعضهم بعضاً، وتتوقف مكاسبهم على صحبة الملوك والرفق بهم، وحسن المحاورة معهم، والتملّق منهم، وكان ذلك هو الفن الذي تتعمق أفكارهم فيه، وتضيع أوقاتهم معه، فلما كثرت هذه الأشغال تشبح في نفوس الناس هيئات خسيسة، وأعرضوا عن

www.abulhasanalinadwi.org

الأخلاق الصالحة" (١).

الجزيرة العربية :

أما العرب الذين آمنوا في الزمن القديم بدين إبراهيم عليه السلام، فقد انغمسوا في الوثنية، وتمادوا في الشرك، رغم إدعائهم بأنهم أتباع الدين الإبراهيمي ؛ ولكن لم تتسرب إليهم الأدواء الخلقية التي تأتي بها الحضارة، لبعدهم عن العلم، فكانوا من هذه الناحية على الفطرة والبداوة، وكانت ألواح قلوبهم صافية، ومتمسكين بتقاليد أسرهم وعاداتها أشد تمسُّك، ويعتبرون طريقة آبائهم أصلاً، لا ينحرفون عنه قيد شعرة، وكانوا أصحاب إرادة قوية، وأصحاب صراحة وصرامة، وكانوا واقعيين جادين، إذا قبلت أذهانهم شيئاً تمسّكوا به، و يبذلون أرواحهم ومهجهم رخيصة في الذود عن عزهم ونخوتهم، ويقتلون ويُقتلون، وكانوا مشركين وثنيين، وعاملين بكل ما ساد وعمَّ في مجتمعهم، من ظلم، وسفك دم، ومن تقاليد وحشية، وعادات جاهلية، وانغمسوا في الوثنية وعبادة الأصنام بأبشع أشكالها ؛ فكان لكل قبيلة أو ناحية أو مدينة صنم خاص، بل لكل بيت صنم خصوصي، وساءت أخلاقهم، فأولعوا بالخمر والقمار، وبلغت بهم القساوة والحمية المزعومة إلى وأد البنات، وشاعت فيهم الغارات وقطع الطريق على القوافل .....

ومما لا شك فيه أن الوثنية كانت منتشرة في العالم المعاصر كله، كانت الدنيا كلها من البحر الأطلسي إلى المحيط الهادئ، غارقة في الوثنية، وكأنما كانت المسيحية والديانات السامية والديانة البوذية تتسابق في تعظيم

---

١ - حجة الله البالغة للشاه ولي الله الدهلوي ص: ١/ ٢٤٠ - ٢٤٢ دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٩٩٧م.

www.abulhasanalinadwi.org

الأوثان وتقديسها، وكانت كخيل رهان تجري في حلبة واحدة (١).

الفساد العالمي:

وبالجملة، فقد كانت الإنسانية في عصر البعثة في طريق الانتحار، وكان الإنسان في هذا القرن قد نسي خالقه، فنسي نفسه ومصيره، وفقد رشده، وقوة التمييز بين الخير والشر، والحسن والقبيح، وكان الناس في شغل شاغل، وفكر ذاهل، لا يرفعون إلى الدين والآخرة رأساً، ولا يفكرون في الروح والقلب، والسعادة الأخروية، وخدمة الإنسانية، وإصلاح الحال لحظة، وربما كان إقليم واسع ليس فيه أحد يهمُّه دينُه، ويعبد ربَّه، لا يشرك به شيئاً، ويتألم للإنسانية ومصيرها البائس، وصدق الله العظيم: ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [الروم: ٤١].

وكتب الإمام شاه ولي الله الدهلوي بعد استعراض الأحوال الدينية والاجتماعية والحضارة قبل البعثة وهو يلقي الضوء على الحاجة إلى نبي عالمي:

" فلما عظمت المصيبة، واشتد هذا المرض، سخط عليه الله والملائكة المقربون، وكان رضاه تعالى في معالجة هذا المرض بقطع مادته.

فبعث نبياً أمياً، صلى الله عليه وسلم، لم يخالط العجم والروم، ولم يترسم برسومهم، وجعله ميزاناً يعرف به الهدى الصالح المرضي عند الله من غير المرضي، وأنطقه بذمِّ عادات الأعاجم، وقبح الاستغراق في الحياة الدنيا والاطمئنان بها، ونفث في قلبه أن يحرم عليهم رؤوس ما اعتاده الأعاجم، وتباهوا بها كلبس الحرير، والقسي والأرجوان، واستعمال أواني الذهب والفضة، وحلي الذهب غير

---

١ - راجع السيرة النبوية للشيخ الندوي ص: ٢٨ ـ ٢٩. والبداية والنهاية ٢/١٩٠ـ ١٩٣.

www.abulhasanalinadwi.org

المقطع، والثياب المصنوعة فيها الصور، وتزويق البيوت، وغير ذلك، وقضى بزوال دولتهم بدولته، ورياستهم برياسته، وبأنه هلك كسرى فلا كسرى بعده، وهلك قيصر فلا قيصر بعده" (١).

الحاجة إلى نبي أعظم:

إن المرحلة التي كاد أن يدخل فيها العالم الإنساني في منتصف القرن السادس الميلادي، كانت مرحلة الالتقاء والتقارب بين الأرجاء المختلفة للمعمورة، والاستفادة من التجارب العلمية والعملية أكثر فأكثر، فبعث الله النبي الأخير خاتم رسله ليقوم بمعالجة تلك الأوضاع الفاسدة وإصلاح الأحوال الاجتماعية والدينية المنحطة، وإنقاذ البشرية المحتضرة من الهلاك والدمار، وأعطاه الكتاب السماوي الخالد "القرآن" ليصبح هادياً جامعاً للإنسان إلى يوم القيامة، وتكفل الله نفسه بحفظه فقال: " لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ " (فصلت: ٤٢) ليبقى القرآن يهدي الناس للتي هي أقوم، بجنب تعاليم النبي المرسل الباقية إلى يوم القيامة، لتسلك الأمة المسلمة الصراط المستقيم في ضوء هدايتها بدون تعثر، ولا التفات يميناً وشمالاً، ولا ينغلق عليها الطريق السوي، وليهلك، من هلك عن بينة ويحي من حي عن بينة، فيهتدي من أراد الهداية الحقة وسعى لها، ويضل من اختار الضلال وتمادى فيه.

وقضى الله تعالى حسب إرادته وقدرته بأن تبتدئ هذه المرحلة الجديدة التي لا يعلمها إلا الله، بهذا النبي الخاتم حامل النبوة الأخيرة والرسالة الأبدية الدائمة الخالدة إلى أن يرث الله الأرض، ثمّ تنهض بعده أمته بإيصال هذه الرسالة إلى العالم كله، فاختار العالم الإنساني

---

١ - حجة الله البالغة للشيخ شاه ولي الله الدهلوي، باب إقامة الارتفاقات وإصلاح الرسوم ص ١/٢٤٢.

www.abulhasanalinadwi.org

بفضل الكتاب الإلهي الذي جاء به النبي العالمي الخاتم، وتعاليمه، وسيرته المثالية الطيبة، وطريقته المستقيمة القويمة، ذلك الاتجاه الذي كان نقطة انطلاق العلم والمعرفة في الدنيا، فأصبح منهجه ونظامه عالمياً، وهذا النظام العالمي ليس ذلك النظام العالمي الذي وضعته القوى الاستعمارية العالمية للسيطرة على العالم، وسمته نظاماً عالمياً حسب مطامعها الاستعمارية التوسعية، بل إن هذا النظام العالمي كان نظاماً نبوياً إسلامياً عالمياً، يدعو إلى نشر الخير والفضيلة، ومنع الشر والرذيلة، والمساواة بين الغني والفقير، والقوي والضعيف، وإعطاء كل ذي حق حقه، حاكماً كان أو محكوماً، سيداً كان أو مسوداً، ويدعو هذا النظام النبوي الإسلامي الناس كافة إلى عبادة الله وحده، وقضاء الحياة حسب أوامره ونواهيه بطريقة واحدة، وقد جاء النبي الخاتم بهذا النظام العالمي الشامل الجامع من عند الله إلى عباده أجمعين، وهو صورة صادقة لهذه الآية القرآنية : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ.

www.abulhasanalinadwi.org

جزيرة العرب قبل البعثة

يدل هذا الاستعراض الموجز للأوضاع الفاسدة والأحوال المنحطة والظروف القاسية قبل البعثة على أن العرب كانوا يعيشون في البادية والصحراء المحرقة والأرض القاحلة حياة تقشف وجلادة، بعيدين عن العلم والحضارة، وإن المسئولية مسئولية الهداية التي فوضت إلى النبي الخاتم المبعوث كانت ذات أهمية عظيمة، لا يستطيع أن يحملها إلا الرجل العظيم، ذو همة عالية، ونفس طموح، وإرادة قوية، وصلاحية إنسانية وروحية عليا، كان من مسئوليته أن يقوم بإزالة العادات المتجذرة في العرب الذين كانوا أميين، بعيدين عن المدنية والحضارة، وكانوا مغاوير حرب، وأحلاس خيل، وأصحاب جلادة، يجازفون بحياتهم ولذاتهم لأمر تافه، ثم إعدادهم وتربيتهم على الصفات القيادية العليا ليقوموا بعد تلقّى الدعوة المحمدية بإبلاغها إلى أبعد أنحاء العالم، وإنقاذ البشرية المحتضرة، وهداية الأمم الأخرى بما فيها من أمم راقية متمدنة كانت تعتبر الأمة العربية متخلّفة منحطّة حضارة واقتصاداً، لا تعبأ بها ولا تقيم لها وزناً ولا قيمة، فبعث النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم ليقوم بأداء هذه المسئولية الضخمة التي كانت عملاً عظيماً، غاية الصعوبة والخطورة، واختار الله لحمل هذه المسئولية العظيمة سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم، ثم هداه وعزره بوحيه في كل مرحلة، ويعلم الله تعالى، وهو خالق الكون والخلق كله، من يستطيع من عباده أن يؤدي المسئولية الملقاة على عاتقه إلى أي حدّ، وكان هذا النبي الخاتم

www.abulhasanalinadwi.org

فرداً من أفراد الأمة العربية ؛ ولكن اختاره الله واصطفاه منهم بعلمه، يقول الله تعالى : (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .)

وعلى كل حال، فلا بد قبل ذكر هذا النبي العظيم ومآثره الخالدة أن تعرف قومه الذي بعث فيه، والبيئة التي نشأ فيها، والمنطقة التي انطلقت منها دعوته ؛ لتظهر أهمية عمله العظيم وقيمته .

العمران البشري في جزيرة العرب:

كان العرب من أولاد البقية الباقية من قوم نوح الذين أهلكهم الله لكفرهم وظلمهم، بل إن العمران الإنساني في الدنيا بعد نوح ـ عليه السلام ـ ينحدر إلى هؤلاء البقية من أولاده، يتبيّن من دراسة التاريخ أن أولاد نوح ـ عليه السلام ـ كانوا ثلاثة وهم: سام، وحام، ويافث، وينحدر النسل الإنساني إلى هؤلاء الباقين، وانتشر وسكن أولاد سام، وهو أبو العرب وفارس والروم، في العراق وجزيرة العرب ومصر، وهي تسمى الشرق الأوسط، وسكن أولاد حام في إفريقيا والمناطق الجنوبية الأخرى، وسكن أولاد يافث في المناطق الشمالية والشرقية من العالم .

ومن أولاد سام: إرم، انتشرت ذريته في مختلف مناطق جزيرة العرب، وبُعِثَ فيهم رسل وأنبياء، دعوهم إلى توحيد الله وعبادته، ولكنهم عصوا رسلهم، ولم يتبعوا ما جاؤوا به من عند ربهم من تعاليم وأحكام، فسخط الله وغضب عليهم، وأهلكهم بإنزال عذاب عليهم شديد.

ومن ولد أرفخشذ بن سام قحطان، وسكنت قبيلة قحطان اليمن في جنوب الجزيرة العربية، والعراق، ومن أولاد قحطان انحدرت أسرة إبراهيم التي سكنت العراق، وبعث فيهم إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لإصلاحهم ودعائهم إلى عبادة الله وحده(١).

١ - الكامل في التاريخ ١/٧٨.

www.abulhasanalinadwi.org

إبراهيم الخليل وذريته:

كان إبراهيم الخليل عليه السلام من ولد أرفخشذ بن سام بن نوح ([1]) ولد لأب ذي جاه ومكانة سامية في الكلدانيين بالعراق، وكانوا يعبدون الكواكب السبعة([2]) وكان إبراهيم الذي أزال الله به تلك الشرور، وأبطل به ذلك الضلال، وآتاه رشده في صغره، وابتعثه رسولاً واتخذه خليلاً في كبره، كان يكره وثنية أسرته وشركها، ويتعجب أنهم كيف يرون الكواكب إلههم، ويبنون الأصنام كعلامات للكواكب يعبدونها، وكيف تكون هذه الكواكب آلهة وإن كانت عالية في السماء. ففكر إبراهيم الخليل عليه السلام أولاً في الكواكب، ثم في القمر، ثم في الشمس، ولكن لم يطمئن قلبه ولم يرض، بل أدرك وأيقن أن الله أكبر من كل ذلك، فدعا الله ربَّه، وأظهر براءته، فقال: "إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ" [الأنعام: ٧٨ـ ٧٩]. فاستقامت وجهته، وأناب إلى ربِّه، وبرىء من دين قومه([3]) وجعله الله نبياً لهداية قومه، فدعا قومه إلى توحيد الله وعبادته([4]) وكسر الأصنام التي يعبدها قومُه، ولما رأى القوم ما صنع بأصنامهم، فراعهم ذلك فأعظموه، وقالوا: من فعل هذا بآلهتنا؟ إنه لمن الظالمين، ثم أجمعوا في إبراهيم، وقالوا: حرقوه وانصروا آلهتكم، ولكن الله عصمه ولم تمسسه النار بسوء، بل أصبحت له برداً وسلاماً بإذن الله، ثم هاجر إبراهيم من

---

[1] - البداية والنهاية ١/١٢٩، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. المجلد الأول للدكتور جواد علي.

[2] - البداية والنهاية: ١/١٤٠.

[3] - الكامل في التاريخ ١/٩٥- ٩٦.

[4] - نفس المصدر.

www.abulhasanalinadwi.org

وطنه إلى الشام، وأقام بفلسطين، وكان معه ابن أخيه لوط، وظل كلاهما قائمين بالدعوة إلى الله (١).

وولد لإبراهيم إسحاق (٢) وولد لإسحاق يعقوب(٣) الذي كان اسمه إسرائيل، وسكنت ذرية يعقوب في الشام أولاً، ثم في مصر، وولدت زوجة إبراهيم هاجر إسماعيل، فجاء إبراهيم بولده الرضيع إسماعيل وأمه هاجر، وأسكنهما بمكة بواد غير ذي زرع، لم يكن به ماء، ولا أنيس، بإذن ربّه(٤) ثم وصلت إلى هذا الوادي قبيلة جرهم من أولاد قحطان باليمن، وسكنت به، فكانوا معها حين شبّ إسماعيل، وماتت هاجر، فتزوج إسماعيل امرأة من جرهم، فتعلم العربية منهم هو وأولاده، فهم العرب المتعربة، وتفرّقت فروع ذرية إسماعيل في نجد والحجاز وغيرهما، فبدأ عمران مكة بإسماعيل عليه السلام، وقد كان أسكنه مع أمه أبوه إبراهيم في صغره بأرض قاحلة بإذن ربه، وكان ذلك تضحية عظيمة قدمها إبراهيم عليه السلام بوضع ابنه الرضيع وزوجته بدون سند موثوق به، بأرض قاحلة، لم يكن فيها ماء، ولا أنيس، ولا شجر، وكانت خالية من العمران، وامتثل أمر به بدون تردّد، وكانت هذه المنطقة القاحلة هي التي وصل إليها آدم عليه السلام ووضع بها أساس مسجد اندرس فيما بعد، وعفا رسمه وأثره، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه التضحية العظمية الخالدة بقوله: " رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ

---

١ - نفس المصدر.
٢ - البداية والنهاية: ١/١٦٠ .
٣ - الكامل في التاريخ: ١/١٠٢
٤ - نفس المصدر.

www.abulhasanalinadwi.org

لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ، رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ، رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ " [إبراهيم: ٣٧- ٤٠].

وقد عاش ولده الرضيع وأمُّه بهذه الأرض القاحلة الخالية بفضل الله ومنّه عليهما، ولما بلغ ابنه إسماعيل السعي، أمر الله إبراهيم بذبحه، فامتثل إبراهيم أمر ربّه، واستسلم إسماعيل لهذا الأمر ورضي به، ووضع إبراهيم السكين على حلق ابنه المطيع البار، ولكن الله فداه بذبح عظيم، وصانه، لأن الله أراد أن يمتحنه، فأرسل كبشاً من الجنة فذبحه إبراهيم مكان ولده، فقد صدق إبراهيم في عمله، ونال رضى ربه فاتخذه الله خليلاً ([1]).

ثم أمر الله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام ببناء الكعبة في المكان الذي بدأ فيه آدم عليه السلام بناء المسجد، فكان أول بيت وضع للناس في الأرض؛ ليعبدوا الله فيه، وجعله الله مركزاً عالمياً خالداً إلى يوم القيامة ليكون مركز التوحيد الخالص لله، والدين الحق، ولم يزل يزداد أولاد إسماعيل حتى انتشروا في مختلف المناطق في الجزيرة العربية، ومن سكنوا في مكة قاموا بصيانة بيت الله العتيق.

ثم بارك الله في ذرية إسماعيل حتى كان منهم عدنان، وكثر أولاد عدنان، واشتهر منهم معد ونزار، واشتهر من أولاد معد مضر وربيعة، وسكن أولاد ربيعة نجد، وبقي أولاد معد في مكة، ونبغ من أولاد مضر فهر بن مالك، وسمى أولاد فهر بن مالك بن النصر قريشاً، وغلب هذا الاسم على جميع الأسماء، واشتهرت هذه القبيلة

[1] - الكامل في التاريخ ١/١١٢.

www.abulhasanalinadwi.org

بـ"قريش" وتولت أمر بيت الله، وكان بيت الله مقدساً ومحترماً لدى جميع العرب، يأتون إليه من كل فج عميق، يقيمون به ويحجّون حوله، وكانت قريش تتولى رفادتهم وضيافتهم، وتكفل الله بحفظ هذا البيت، و بحفظ هذا البيت العتيق لم تزل مدينة مكة محفوظة مصونة عبر العصور والدهور (١).

مكة المكرمة:

كانت مكة قبل إقامة إسماعيل بها أرضاً قاحلة(٢) تقع في واد محصور بين جبال جرداء، ليس فيه ما يعيش عليه الناس، من ماء، وزرع، وميرة، وكانت مسيل ماء المطر بعد نزوله، ثم تتحول بعد غور الماء وجفافه وادياً جافاً لا يجري فيه الماء، ولكن موقع مكة يحمل خصائص منفردة؛ فكانت مختارة ومنتخبة من قبل الله منذ بدء العمران الإنساني على الأرض، وكان الإنسان الأول آدم عليه السلام قد وضع أساس مسجد بها لعبادة الله تعالى، تقول بعض المصادر التاريخية إن آدم وحواء، بعد هبوطهما من السماء إلى الأرض، قد سكنا في أنحاء هذه المدينة، كما تقع مكة في وسط المعمورة، فلذلك تحمل مكة في وسط العمران الإنساني في الدنيا نفس تلك المكانة والأهمية التي يحملها الناف في الجسم الإنساني، وأصبح بذلك مهوى ومركزاً للعالم الإنساني، وجعله الله تعالى مركزاً لعبادته؛ يتوجه إليه المصلون في كل مكان في الدنيا، ويقع في مركزه بيت الله العتيق الذي وضع كأول بيت في الأرض لعبادته، ويطوف حوله الحجاج (٣).

---

١ - الروض الأنف ١/٧ـ ٨ وراجع: البداية والنهاية ١/١٦٣ـ ١٦٤، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، المجلد الأول.

٢ - البداية والنهاية: ١/١٥٤.

٣ - انظر للتفصيل: تاريخ مكة للأزرقي: ١/٣٨ والمفصل في تاريخ العرب قبل

www.abulhasanalinadwi.org

وبعث الله سبحانه وتعالى في مكة نبيه الخاتم الذي تبقى شريعته وتعاليمه إلى يوم القيامة، من أكرم أسرة كانت محترمة في سائر مناطق العرب، ومن أعز وخير فرع كان محطّ احترام وتقدير لدى فروع نفس هذه الأسرة، وكان عمران مكة المكوّن من قبيلة قريش يعتبر عمراناً منظماً مشتملاً على نظام جمهوري قوي يقوده جدّ سيِّدنا محمد صلى الله عليه وسلم، قصي بن كلاب، وكان هناك نظام قوي منسق لحلّ الشؤون الدينية والدنيوية، كانت مناصبه ومسئولياته موزعة على مختلف فروع قبيلة قريش، فأصبح بذلك نظاماً جمهورياً، وكان يتميز وينفرد من بين الأنظمة المعاصرة الأخرى، بينما كانت الدكتاتورية والملوكية سائدة في الشعوب الراقية المتمدنة آنذاك، فوضعت قريش في تلك الفترة نظاماً متقناً؛ نظام الشورى والجمهورية الحقة، إن كانت دائرته محدودة، ولكنه كان أهمّ وأقوى من النظم الأخرى من ناحية منهجه، وحافظ أولاد قصى على هذا النظام الاستشاري، وكان منزل قصي مركز هذا النظام، فحلّ مكان البرلمان المعاصر، وكانت من مسئوليات هذا النظام ومناصبه: الحجابة، والرفادة، واللواء، والسقاية، والندوة، وتوراث أجداد الرسول صلى الله عليه وسلم هذه المناصب، وقاموا بأداء حقّها خير أداء، جمع القلوب والنفوس على حُبِّهم وتقديرهم واحترامهم في سائر جزيرة العرب(١) وشرُف عبد المطلب جد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قومه شرفاً ما لم يبلغه أحد من آبائه، أحبّه قومه وعظم خطره فيهم، بخدماته المنفردة، وأدى مسئولياته على أحسن طريق وأقومه.

بئر زمزم واكتشافها:

ومما سعى عبد المطلب جدّ الرسول صلى الله عليه وسلم للقيام

الإسلام للدكتور جواد علي.

١ - أنساب الأشراف لبلاذري: ١٢-٦٤.

www.abulhasanalinadwi.org

به، حَفْرُ بئر زمزم حسب الرؤيا التي أُريها عبد المطلب في حفر زمزم، التي تراكم عليها التراب، وأصبحت مغطاة بسبب ترك الناس إيّاها وغفلتهم عنها، فلما بُيّن له شأنها، ودُلّ على موضعها وعرف أنه صدق غدا بمعوله ومعه ابنه الحارث بن عبد المطلب، فلما بدا له الطيُّ (١) كبّر، ولما رأت قريش أنه قد أدرك حاجته، وحاز بذلك مكرمة عظيمة في قومه، فقاموا إليه، فقالوا: يا عبد المطلب! إنها بئر أبينا إسماعيل، وإن لنا فيها حقاً، فأشركنا معك فيها، قال: ما أنا بفاعل، إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم، وأُعْطِيتُه من بينكم، فقالوا له: فأنصفنا، فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها، قال: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه، قالوا: كاهنة بني سعد هذيم، قال: نعم! وكانت بأشراف الشام، فركب عبد المطلب ومعه نفر من بني أبيه من بني عبد مناف، وركب من كل قبيلة قريش نفر، فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق إلى الشام، فني ماء عبد المطلب وأصحابه، فظمئوا حتى أيقنوا بالهلكة، فلطف الله به ومن معه بتفجير ماء عذب من تحت خف راحلته، فكبّر عبد المطلب وأصحابه، ثم نزل، فشرب، وشرب أصحابه، واستقوا حتى ملئوا أسقيتهم، ثم دعا القبائل من قريش فقال: هلمُّوا إلى الماء، فقد سقانا الله، فاشربوا واستقوا، فجاؤوا، فشربوا واستقوا، ثم قالوا: قد والله قضي لك علينا يا عبد المطلب، والله لا نخاصمك في زمزم أبداً، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة لهو الذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشداً، فرجع، ورجعوا معه، ولم يصلوا إلى الكاهنة وخلوا بينها وبينه (٢).

---

١ - الطيُّ: الحجارة التي طوي بها البئر.

٢ - السيرة النبوية لابن هشام ص ١/١٤٣- ١٤٥ والكامل في التاريخ ص: ٢/١٢-١٤

www.abulhasanalinadwi.org

هذا هو عبد المطلب الذي تولى في أواخر عمره كفالة النبي الخاتم وتربيته، ثم بهذا النبي الخاتم حصلت له سعادة جعلت مكة المكرمة وبيت الله العتيق فيها مركزاً عالمياً وخالداً لعبادة الله إلى يوم القيامة، ويقول الله عزوجل: "إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ" [آل عمران: ٩٦].

ثم أعطى الله تعالى حفيده اليتيم محمداً صلى الله عليه وسلم منصب النبي الخاتم، وفوّض إليه مسئولية هداية الناس إلى الصراط المستقيم، وبيان الدين الحنيف الذي جاء به إبراهيم عليه السلام من عند ربه الله تعالى، وقدّم في سبيله تضحية مثالية غالية نادرة عظيمة بإسكان ابنه الرضيع الحبيب وأمّه في أرض قاحلة لا ماء فيها ولا بشر، وكان قد نسيه أولاده، أوتناسوه، ونبذوه وراءهم ظهرياً، تحقيقاً لأهوائهم ومصالحهم المادية، وأسدلوا عليه حجباً سميكة، واتخذوا من دون الله الأوحد الفرد الصمد آلهة لا تحصى.

موقع مكة والمناخ الطبيعي:

تقع مكة المكرمة التي كانت منطلقاً للدعوة إلى الحق ومسقط رأس النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم، في واد غير ذي زرع محاط بجبال ذات شعاب تحيط بالوادي إحاطة كاملة، وارتفاع مكة من سطح البحر نحو ٣٥٠ قدم مربع، وعرض البلد ٢١ درجة في الشمال، وطول البلد ٥، ٣٩ درجة في الشرق، وتقع في الشرق على بعد ٧٥ كلو متراً من ساحل البحر، ومن أسمائها: مكة، بكة، أم القرى، والبلد الأمين، وإن الوادي الذي تقع فيه مكة، ذو حجارة وضيق، وتمتد مكة على مساحة أميال من الشرق إلى الغرب، وعرض البلد ميلان، ويقال للوادي: الأبطح والبطحاء، وإن وادي مكة محاط بسلسلتين جبليتين ممتدتين من الغرب إلى الشرق،

www.abulhasanalinadwi.org

إحداهما شمالية، وثانيهما جنوبية، ويقال لهما الأخشبان (١).

وليس في مكة نبع للماء إلا زمزم، وكانت الزراعة فيها مفقودة لقلة الماء، وقد تمّ في العهد الأخير إيصال أنهار إلى المدينة من الخارج، فتوفر بذلك الماء في المدينة، وبدأت الزراعة، وغرست الأشجار والأعشاب، وقد كان شُقَّ في العهد العباسي نهر من قرب الطائف إلى مدينة مكة، ويسمى نهر زبيدة، وكان حفر بأمر زبيدة والدة الخليفة العباسي الأمين، ثم لم يزل يتطور ويتقدم، واختيرت الآن وسائل وأسباب أخرى حديثة متطورة لتوصيل الماء، مما سهل نظام الماء، وارتفعت مشكلة الماء، وكانت في الماضي تتجمع مياه السيول في مكة لوقوعها في الوادي، ويغرق الحرم الشريف في الماء، وقد بنت الحكومة سداً قبل المعلاة تفادياً لمشكلة تجمُّع المياه فيه، كما بُنيت مصاريف للمياه تحت الأرض لصرف مياه الفيضانات والبواليع إلى المسفلة خارج المدينة.

المناخ:

يضرب الحر شديداً بمكة ويقل بها البرد لكونها محاطة بالجبال، ومناخ المدينة يكون شديد الحرارة في الصيف، ولا تنزل الأمطار إلا في موسم الشتاء، وبقدر ضئيل، فيبتدئ موسم الصيف من مارس إلى أواخر أكتوبر، وأطيب الرياح ريح " الصبا " أو" القبول " وهي تهبّ من جانب البحر، ثم " الشمول " وهي أيضاً تأتي من البحر، وأشدّ الرياح حرارة " الدبور ".

ويقال لجبالها "جبال فاران " ويقال إن هذا الاسم منسوب إلى الملك فاران بن عمرو بن عمليق.

وكان الناس في مكة يعيشون في الخيام، ولما رجع قصي بن

---

١ - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٤/ ٧.

www.abulhasanalinadwi.org

كلاب من الشام قبل الهجرة بقرنين بدأ بناء المنازل والبيوت بمشورته، ونظمت أمور مكة الاجتماعية، ووزعت المسئوليات والمناصب، وتملك قصي بن كلاب على قومه وأهل مكة، وزادت بذلك أهمية قريش، وكانت سائر المناصب والمسئوليات من السقاية، والرفادة، والندوة، واللواء، والحجابة، والسدانة، موزعة بين رجال من قريش، أقرت لهم بالفضل وحصافة الرأي، ولم تزل مكة تترقى منذ مجيئ الإسلام، وأصبحت الآن مركزاً للعالم الإسلامي، وتحتل مكانة عظيمة من بين مدن العالم الكبرى، وهي مركز اليابسة في الكرة الأرضية(١).

وثنية العرب:

لم يكن أهل مكة في البداية وثنيين، بل كانوا متمسكين بدين إبراهيم الخليل عليه السلام، وبدين جدهم إسماعيل، متمسكين بالتوحيد، وبعبادة الله وحده، وكان دين قبيلة جرهم اليمنية ثم خزاعة اللتين استوطنتا مكة، يختلف عن دين أولاد إسماعيل، ولم تكن الوثنية في أولاد إسماعيل حتى كان عمرو بن لحى الخزاعي، فكان أول من غيّر دين إسماعيل، فنصب الأوثان، وأحدث في الحيوانات من التعظيم والتقديس والتسييب والتحرّم ما لم يأذن به الله، ولم تعرفه شريعة إبراهيم الخليل، وكان قد خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره، فرأى أهلها يعبدون الأصنام، ففتن بها، وجلب بعضها إلى مكة، فنصبها، وأمر الناس بعبادتها وتعظيمها، وكان يقال لهذا الصنم"هبل" وكان بشكل الإنسان، ثم بدأ أهل مكة يعتبرونه تدريجياً، أكبر الأصنام في مكة وأهمّها، وينصبون أصناماً أخرى في أماكن مختلفة إلى أن صاروا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم، حتى خلفوا خلفاً نسوا ما كانوا عليه، وعبدوا

---

١ - للاطلاع على أحوال العرب الدينية راجع: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، المجلد السادس.

www.abulhasanalinadwi.org

الأوثان، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم من الضلالات.

كان أهل مكة يعتقدون أن هذه الأصنام عباد الله الصالحون، المقربون إليه، وشركاء له في أمره، فيعظمونها بشكل العبادة، يعقدون بها الآمال، وينذرون لها النذور، ويطلبون منها العون، ويستغيثون بها لحلّ مشاكلهم، ويظنون أن هذه الأصنام تنصر كما ينصر الله، ثم عمّت عبادة الأصنام كل دار من دور مكة، حتى نصبوا الأصنام في الكعبة، يقول عبدة الأصنام: لا نعتبر هذه الأصنام إلهاً حقيقياً، بل نعتبرها آلهة صغاراً، كما يعيّن الملك ضباطاً وأمراء للقيام بتأدية المسئوليات والشؤون المختلفة، هؤلاء الآلهة يعينون الإله في القيام بالأمور، وبالتقرب إليهم نحصل على الزلفى والتقرب إلى الله، ويشفعون لنا عند الله، فبهذا الطريق يسهل أمرنا، ولا نحتاج إلى السؤال من الإله الأكبر، وكانوا يجعلون الأصنام علامة لشخصية كبيرة، ويكتفون بعبادتها بينما إن عبادة غير الله وإشراك أحد في عبوديته وقدرته لشرك عظيم، لأن الله تعالى لم يترك الخلق بعد خلقه، ولم يفوض أمره إلى أحد، بل الله هو الذي خلق الخلق، وهو يدبر الأمر، يحيي ويميت، يرزق ويمنع، والأرض والسماوات مسخرات بأمره، لا شريك له في الخلق والأمر، فعّال لما يريد، يستجيب لدعاء عبده، وإن الإشراك بالله لظلم عظيم، ويمقته مقتاً، وحرّم الله الشرك، وبشر بعذاب أليم، وقد دعا كل نبي من آدم إلى النبي الخاتم، قومه إلى التوحيد الخالص، ومنعهم من الشرك، وأنذرهم، و حارب حتى فارق إبراهيم الخليل والده، ووطنه، وراحته ومكانته في قومه للتوحيد الخالص، وفي آخر المطاف قرّر الله تعالى أن يبعث النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم ليقوم بدعاء قومه أولاً والأمم الأخرى ثانياً، إلى التوحيد الخالص وعبادة الله وحده.

كانت قريش تعبد أصناماً، ولكن تعتبر "هبل" ممثلاً للإله في

www.abulhasanalinadwi.org

الأرض، وتعتقد أنه ذو قوة ونفوذ، فتلجأ إليه وتسأله كل ما تحتاج إليه من حاجياتها الكبرى، كما تعتبره إلهاً خاصاً وأكبر، وبالإضافة إلى ذلك اتخذوا إسافاً ونائلة على موضع زمزم، ينحرون عندهما، وأما أصنام العزى ومنات واللات فكانت العزى منصوبة بنخلة على بُعْدٍ من مكة، وكانت منات منصوبة على ساحل البحر من ناحية المشلّل بقديد، وكانت للأوس والخزرج ومن دان ديدنهم من أهل يثرب، وكانت اللات لثقيف بالطائف، وعلاوة على ذلك كان لكل بيت صنم خاص به، ونصبوا صنماً في جوف الكعبة حتى بلغ عدد الأصنام المنصوبة في الكعبة ٣٦٠ صنماً، وفيهم مع ذلك بقايا من عهد إبراهيم، يتمسكون بها، من تعظيم البيت، والطواف به، والحج والعمرة، والوقوف على عرفة والمزدلفة، وهدى البدن، والإهلال بالحج والعمرة ([1]).

وبالجملة فتحول العرب من التوحيد إلى الوثنية، وابتعدوا عن دين إبراهيم الحنيف، ثم أدخلوا في حياتهم ما اشتهته أهواؤهم من تقديس وتعظيم وعبادة الله لغير الله، واعتقدوا في الحيوانات عقائد عجيبة، وكانوا يخصصون بعض الحيوانات باسم البحيرة، والسائبة، والوصيلة والحامي، ولا ينتفعون بها، و يهملونها، وقد ذمّ القرآن الكريم هذ العمل الشنيع فقال:

مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ [المائدة: ١٠٣]([2]).

ولا شكّ في أن أشعة الهداية الإلهية كانت قد بدأت قبل البعثة تنتشر في جزيرة العرب، وإن كانت ضئيلة، فقد رفض كل من قس بن ساعدة،

---

[1] - سيرة ابن هشام ١/ ٧٧ـ ٨٥ وراجع للتفصيل: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/ ٢٢٧ـ ٢٨٩ وكتاب "الأصنام" للكلبي، وبلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب للآلوسي ٢/ ٢٠٠ـ ٢١٥.

[2] - سيرة ابن هشام ١/ ٨٩ـ ٩٠.

www.abulhasanalinadwi.org

وورقة بن نوفل، وعبد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نوفل، الوثنية، وتفرّقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية، فأما ورقة ابن نوفل وعثمان بن الحويرث فتنصّرا، وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه، فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان، ونهى عن قتل المؤدة وقال: أعبد رب إبراهيم، وبادى قومه بعيب ما هم عليه (١).

حالة العرب الخلقية وطبيعتهم وذوقهم:

كان العرب لا يستحيون من الزنا والفجور، بل يفتخرون بأفعالهم القبيحة، ويذيعونها في أشعارهم وكلامهم، وكانوا يستعملون الخمر والمسكرات الأخرى، ولم يكونوا يندمون على ما يصدر منهم من الأعمال القبيحة في حالة السكر.

كانوا يربّون القينات للرقص والغناء، وكان كسبهن بالزنا والغناء كسباً طيباً عند أصحابهن، وسبايا الحرب تتحول عندهم إلى القينات، ولم يكن للمرأة أن تحلب ماشية، ولو فعلت امرأة ذلك لهانت الأسرة كلها، ومالُ الميراث كان خاصاً للرجال البالغين، وكانت النساء والأولاد يحرمون تركة أقاربهم، وقريبُ الزوج المتوفى يلقي رداءه على الأرملة، فتصير زوجة له، طوعاً أو كرهاً، وهكذا كان الابن يملك أمه غير الحقيقية، وكانت النساء يخرجن سافرات على المجامع العامة، ولم يتحرزن من كشف ما خفي من الجسم لعامة الناس، وكان الرجال والنساء يشمون بالنيل، والنساء يصلن شعورهن ويتفلجن أسنانهن، ويأخذن طرق الزينة حتى يحسبهن الناس شابات.

وكان الأشراف منهم يئدون بناتهم، أو يلقونهم في البئر العميقة، ويفتخرون بهذا الصنيع، ويرونه أمارة الشرف، ولم تكن قاعدة

---

١ - نفس المصدر ١/٢٢٢-٢٢٣.

www.abulhasanalinadwi.org

للزواج، ولا طريقة للتفريق بين المحارم وغيرهن من النساء.

وكان الميسر شغلهم الشاغل، وبيوتُ الكبار والأعلام كانت بمثابة المقامر العامة، وكان هناك اعتقاد شائع عن الأرواح الخبيثة، وكان الناس يؤمنون بأن هذه الأرواح تتصرف في الإنسان، وكانت هناك آلهة خيالية وهمية، وكانت لهم أشكال مخترعة، وأوثان منحوتة، يعبدونها في معابدهم، وكان لكل قبيلة صنم خاص، يرونه مالكاً لمصيرهم، ولو قام عداء بين قبيلة وأخرى، لتعدى ذلك إلى الأصنام، وكانت عادة الرهان شائعة بينهم، يراهنون بين ثلاثة أو سبعة فرس، وكان الخلاف ينشأ أحياناً في ترتيب الفرس فيؤدي إلى حرب تستمر سنوات.

وكان تحرير العبيد مفخرة، ولكن حق التملك يستمر ثابتاً للسيد، وكان له أن يبيع أو يهب هذا الحق.

وكانت الأصنام والأرواح تعبد، ويسجد لها، وتنذر النذور والقرابين، وكانوا يذبحون لها، أول نتاج الإبل والبقر والغنم، ويخصصون أحسن قطعة من الأرض الزراعية للأصنام، فلو أتلفت آفة من الأرض أو السماء إنتاج هذه القطعة عوضوا بإنتاج قطعة أخرى من الأرض، وكانوا يشربون دماء المواشي، عند الجوع والقحط، ويأكلون لحوم الحيوان بعد قطعها منه، وهو حي، ويتطيرون بحركات الحيوان وأصواتهم، ويرقون، ويعلقون التمائم، وهكذا سيطرت الأوهام على أفكارهم وعقولهم.

وكانوا يحبون الثأر والحقد، فيثأرون لما وقع قبل جيل أو جيلين، ويرون ذلك شجاعة.

وكانوا يتلقون الفواحش والقبائح من الأمم المجاورة لهم بسرعة، وكانوا يغالون في الفخر بالأنساب، وكانت كل قبيلة تحتقر قبيلة أخرى، وكان هذا الاحتقار يؤدي أحياناً إلى العداء والمنافرة والحرب.

www.abulhasanalinadwi.org

وكانت تقاليد الأسرة مسيطرة عليهم أكثر من الدين والقانون، وكانت حرية الرأي تختفي لدى التقاليد.

وكانت القبائل تحالف الأمم المجاورة، للقضاء على أعدائها، وتحتال لغزو فارس والروم والحبش لبلادهم(١).

لماذا بعث محمد صلى الله عليه وسلم في مكة مركز العرب؟

إن العرب ما كان ينقصهم العقل، وحصافة الرأي، وقوة الفهم، والتجربة في حياتهم العامة، بالنسبة إلى الآخرين، ولكنهم لغياب التعليم فيهم كانوا بعيدين عما يحصل بالتعليم والعلم، ويعتمدون في إدارة شؤونهم على ما يحصل لهم من معلومات بتجاربهم ومشاهداتهم، محصورين في منطقة واسعة قاحلة، ولم تؤثر فيهم مدنية أو نظرية، فقد اقتضت حكمة الله أن تطلع هذه الشمس التي تبدد الظلام، وتملأ الدنيا نوراً وهداية، من أفق جزيرة العرب الذي كان أشد ظلاماً، وكان أشد حاجة إلى هذا النور الساطع، وقد مكّنهم الله من الوصول إلى منصب الهداية والوصاية على البشرية بعد ما هداهم الله إلى الصراط المستقيم، لسلامة طبعهم وعلو همتهم.

وقد اختار الله العرب ليتلقوا هذه الدعوة أولاً، ثم يبلغوها إلى أبعد أنحاء العالم، لأن ألواح قلوبهم كانت صافية، لم تكتب عليها كتابات دقيقة عميقة، يصعب محوها وإزالتها، شأن الروم والفرس، وأهل الهند الذين كانوا يتيهون، ويزهون بعلومهم وآدابهم الراقية، ومدنياتهم الزاهية، وبفلسفاتهم الواسعة، فكانت عندهم عقد نفسية وفكرية، لم يكن من السهل حلّها، أما العرب فلم تكن على ألواح

---

١ - رحمة للعالمين للقاضي محمد سليمان المنصورفوري، ٣/٧٣ـ ٧٥، وراجع للتفصيل: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، المجلد الرابع، فصل "المجتمع العربي" وفصل "الحياة اليومية".

www.abulhasanalinadwi.org

قلوبهم إلا كتابات بسيطة خطتها يد الجهالة والبداوة، ومن السهل الميسور محوُها وغسلُها، ورسم نقوش جديدة مكانها، وبالتعبير العلمي المتأخر كانوا أصحاب الجهل البسيط الذي تسهل مداواته، بينما كانت الأمم المتمدنة الراقية في هذا العصر مصابة بالجهل المركب، الذي تصعب مداواته وإزالته، وكانوا على الفطرة وأصحاب إرادة قوية ، إذا التوى عليهم فهم الحق حاربوه، وإذا انكشف الغطاء عن عيونهم أحبوه، واحتضنوه، واستماتوا في سبيله(١).

وكان العرب بمعزل عن أدواء المدنية والترف التي يصعب علاجها، والتي تحول دون التحمُّس للعقيدة والتفاني في سبيلها .

وكانوا أصحاب صدق وأمانة وشجاعة، ليس النفاق والمؤامرة من طبيعتهم، وكانوا مغاوير حرب، وأحلاس خيل، وأصحاب جلادة وتقشف في الحياة، وكانت الفروسية هي الخلق البارز الذي لابد أن تتصف به أمة تضطلع بعمل جليل، لأن العصر كان عصر الحروب والمغامرات والفتوة والبطولة .

وكانت قواهم العملية والفكرية ومواهبهم الفطرية مذخورة فيهم، لم تستهلك في فلسفات خيالية وجدال بيزنطي عقيم، ومذاهب كلامية دقيقة، وحروب إقليمية سياسية، فكانت أمة بكراً دافقة بالحياة والنشاط والعزم والحماس .

وقد تجلى هذا الصدق في العزم، والجد في العمل، وروح الامتثال للحق، في الجملة التي تؤثر عن عقبة بن نافع القائد العربي المسلم؛ فقد خاض المحيط الأطلسي بجيشه وخيله، ثم قال: "يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك"(٢).

---

١ - السيرة النبوية للشيخ أبي الحسن الندوي ص: ٤٥ .

٢ - الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤/٤٦، والسيرة النبوية للشيخ الندوي ص: ٤٧ .

www.abulhasanalinadwi.org

الباب الثالث

النسب الزكي، الولادة، النشأة والتربية

أصل العرب :

لم يبق على وجه الأرض بعد طوفان نوح ـ كما ذكرت فيما سبق ـ إلا ذرية نوح عليه السلام، الذين نجّاهم الله من الطوفان، ويقال: إن العرب كلهم من سام أحد أولاد نوح عليه السلام، وكان لسام أولاد، ولكن المؤرخين لم يذكروا منهم إلا اثنين، وهما إرم أو آرام، وأرفخشذ ([1]). فهما اللذان انتشر أولادهما في جزيرة العرب، وعمروها وحكموها، وقد عاشت عدة أجيال من ذرية إرم في جزيرة العرب قروناً، وأحرزت تقدماً، وكانت لها جولة وصولة، ولكن لم تزل ترتكب سيئات ومعاصي وآثاماً، فأصابتهم نقمة من الله مما اقترفوه من شرك، وعصيان، وتمرُّد، وتجبُّر، وظُلم، وأرسل الله إليهم أنبياء ورسلاً، لإصلاحهم وهدايتهم، ولكن لما بلغ السيل الزبى، وطمّ الوادي أنزل الله عليهم عذاباً شديداً، فهلكوا عن بكرة أبيهم، ولم يبق لهم عين و لا أثر، ويقال لهم: الأمم البائدة، ومن أشهرهم عاد، وثمود، وجرهم، وطسم، وجديس، وعبد ضخم، والعمالقة، اندرست معالمها واضمحلت وانقرضت من الوجود قبل الإسلام، ويقال في العمالقة إن فراعنة مصر كانوا منهم، وقد انتقلوا من شمال

---

[1] - مروج الذهب، دار المعرفة، لبنان بيروت ٢٠٠٥م، والكامل في التاريخ ٧٨/١.

www.abulhasanalinadwi.org

جزيرة العرب إلى مصر.

من أولاد أرفخشذ تفرعت عدة فروع، ومنها الفرع القحطاني، الذي سكن جنوب جزيرة العرب، ومن الفرع الثاني إبراهيم ولوط عليهما السلام وذريتهما، وسكن أولاد إبراهيم بجنوبي العراق، شاعت فيهم أنواع من الشرك، واختاروا ألواناً من عبادة النجوم، فبعث إبراهيم، فدعا إلى التوحيد الخالص، وعبادة الله وحده، ومنع من عبادة النجوم، وسمي ذرية ابنه إسحاق " إسرائيل". وأولاد ابنه إسماعيل الذي أسكنه بواد غير ذي زرع بأمر ربه، سكنوا مكة، وكان ولده الثالث "مدين" الذي سكن أولاده جنوب الشام، وسمي موطنهم "مدين".

فمن أقدم سكان جزيرة العرب، المنحدرون من صلب ذرية إرم، ثم أولاد يعرب بن يشجب بن قحطان وهم يسمون بالعرب القحطانية، ويعرفون بعرب الجنوب، ثم الأنسال التي تتصل بإبراهيم عليه السلام، وسكن أولاد ابنه إسماعيل مكة في وسط جزيرة العرب وما يجاورها، وهم عرب الشمال، وسكن أولاد مدين في القسم الشمالي من الحجاز، وبعد أجيال ولد عدنان في ذرية إسماعيل، ومن عدنان كانت قبائل العرب وبطونها، فقد جاء بعد عدنان ابنه معد، ثم نزار، ثم جاء بعده ولداه مضر وربيعة ([1]).

فيقال للأنسال الآرامية التي بادت، وانطمست معالمها، وأتى عليهم الدهر، بعد أن أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، لظلمها وشركها: "الأمم البائدة" ويقال للعرب القحطانية وهم المنحدرون من صلب يَعْرُب ابن يَشْجُب بن قحطان "العرب العاربة" أي أصل العرب، ويقال للعرب

---

[1] - راجع للتفصيل سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب للسويدي البغدادي، ونهاية العرب بأنساب العرب للقلقشندي، والكامل في التاريخ، وسيرة ابن هشام.

www.abulhasanalinadwi.org

العدنانية وهم أولاد إسماعيل "العرب المستعربة" أي الذين دخل عليهم دم ليس عربياً، ثم تمّ اندماج بين هذا الدم وبين العرب.

قبيلة قريش:

أسكن إبراهيم الخليل عليه السلام ابنه الأكبر إسماعيل عليه السلام، مع أمّه هاجر، في مكة المكرمة، وبني بها الكعبة المقدسة التي يقال إنها أول بيت وضع في الكرة الأرضية، وكان قد دعا إبراهيم ربّه أن يكون هذا البيت مركز التوحيد، ويظل أمناً دائماً، وأن يسلم أولاده من عبادة الأصنام والأوثان، وأن يعطف إليهم القلوب، ويهوي إليهم الأفئدة، ويسوق إليهم الرزق الكريم، ويجبي إليهم ثمرات كل شيء في هذا المكان القاحل، ويوفّق ذريته لصيانة هذا البيت العتيق، ويوفق سائر المؤمنين للعبادة فيه، فتحقق كل ذلك، وتقبل الله دعاء نبيه إبراهيم الخليل، فأصبح هذا البيت مناراً للهدى، ومثابة للناس وأمناً، ونقطة انطلاق لدعوة التوحيد، والحنيفية السمحة، والدين الخالص، وكان قد اتفق كافة سكان الجزيرة العربية على عظمة هذا البيت وقداسته، فيأتون إليه من مختلف أطراف الجزيرة ونواحيها، يطوفون به، ويعبدون فيه ربّهم، وسُمِّي هذا العمل التعبدي الحجّ، فأصبحت مكة المكرمة بذلك بلداً مقدساً لدى الجميع، وقع حبُّها وعظمتها في سويداء قلوبهم، وتولّت قريش أمر هذا البيت العتيق، فعظم بذلك شأن قريش، وظهر فضلها على غيرها من القبائل، واجتمعت القلوب على احترامها وتعظيمها، فبهذا الحب الغامر والاحترام العظيم كانت تسافر قبيلة قريش إلى مناطق مختلفة بدون خطر وخوف، وكانت قريش على اتصال دائم بمختلف القبائل بفضل هذه المكانة المركزية التي كانت تحظى بها، وكانت ترحل إلى الشام واليمن، فتلتقي بسكانهما ويجري بينها وبينهم التبادل

www.abulhasanalinadwi.org

التجاري، وتنال منهم الاحترام والتقدير، فأقرّ العرب لقريش بعُلُوّ النسب، والسيادة، وفصاحة اللغة، ونصاعة البيان، وكرم الأخلاق، والشجاعة والفتوة، وذهب ذلك مثلاً لا يقبل نقاشاً ولا جدلاً.

وبالجملة، فكان أهل قريش أكثر قدرة من غيرهم على فهم قضايا الحياة وحلّها، واستجابة حاجاتها ومتطلباتها، وكانوا أصحاب خبرة وتجربة رغم أنهم كانوا أميين، باحتكاكهم بأهل الحضارة واختلافهم إليهم، وتنقُّلهم في البلدان الراقية المتمدنة حينذاك، وتعتبرهم الأمم الأخرى متمدنين، وأصحاب فضل وكرم، وذكاء وفطانة، وخبرة وتجربة.

ونبغ فيهم قصي بن كلاب، وعظم شأنه، وتملك على قومه، وأهل مكة، فأصبح حاكماً على مكة، أي عمدة مكة بالمصطلح الجمهوري اليوم، بفطانته، وقوة فهمه، وصلاحيته للسيادة، وكانت فوضت إليه الحجابة، والسقاية، والرفادة، والندوة، واللواء، وكان أمره في قومه في حياته، ومن بعد موته، كالدين المتبع، لا يُعمل بغيره، ثم انقسمت المناصب والمسئوليات بعد موته، فكان في بني هاشم بن عبد مناف الرفادة والسقاية التي يتوارثونها حتى وصلت إلى أبي طالب عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبالرفادة والسقاية انتشر صيتهم في جزيرة العرب، وعمَّ فضلهم، فكانوا محطة أنظار العرب، فيكرمونهم ويحسنون مثواهم، لأن بني هاشم يحسنون رفادة الحجاج القادمين من مختلف أنحاء العرب إلى مكة، فكسبوا القلوب، وحازوا ثقتهم وعطفهم.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذه النعمة العظيمة والمكانة المرموقة التي كانت قريش تتمتع بها في كتابه المجيد بقوله ﴿لإِيلَافِ قُرَيْشٍ،

www.abulhasanalinadwi.org

إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ، فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ، الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ١ـ ٤].

فقد نال أهل قريش بسبب كونهم خدمة بيت الله العتيق والقائمين بأموره، عزاً وشرفاً، ومكانة مرموقة في سائر العرب، ونال بنو هاشم من قريش بضيافتهم السخية للحجاج عزاً أكثر ومكانة كبرى، وأكرمهم الله بالإضافة إلى هذا الصيت الحسن والسيادة الدنيوية، بخصال حميدة، وسجايا كريمة، وخلال مجيدة، ميّزتهم عن غيرهم، وفي نهاية المطاف اصطفى الله منهم نبيَّه الخاتم محمداً صلى الله عليه وسلم، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى هاشماً من قريش، واصطفاني من بني هاشم" (١).

نسبه الزكي:

يبدأ نسب النبي الخاتم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من ولد إبراهيم الأكبر إسماعيل عليهما السلام وكان إبراهيم عليه السلام من أحبِّ الأنبياء عند الله، وأعطاه ربُّه مكانة عالية مرموقة من بين الأنبياء الآخرين، تقديراً لتضحياته العظيمة التي كانت تفوق تضحياتهم في سبيل الدعوة إلى الله، فاتخذه الله خليلاً كما ورد في القرآن الكريم ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾[النساء: ١٢٥]، وقد نال أولاده أيضاً تلك المحبوبية والرضى الذي دعا إبراهيم لينال ذريته، فتقبل الله دعاءه بشرط أن هذا الرضى لا يناله إلا الذين يسلكون على الدرب المستقيم، ويعملون الصالحات، ويتبعون أوامر ربِّهم. ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ

---

(١) - رواه مسلم، وراجع للتفصيل سيرة ابن هشام: ١/١٠٨ـ ١٣٨، والبداية والنهاية: ٢/٢٠٠ـ ٢١٠.

www.abulhasanalinadwi.org

فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ [البقرة: ١٢٤] ، وجاء في موضع آخر : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ ، رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٥ ـ ٣٧].

ومن التضحيات النادرة العظيمة التي قدّمها إبراهيم عليه السلام لنيل رضا ربّه ، إسكانُه ابنه الرضيع وأمّه هاجر في مكان قاحل ، لم يكن فيه ماء ولا شجر ، ولا أنيس فيه ولا مؤنس ، ولا سند فيه ولا عضد ، وكان خالياً من أسباب العيش الرئيسية ، ثم استجابتُه المخلصة لأمر ربِّه بذبح ابنه العزيز الأثير عندما بلغ السعي ، ولكن أنجى الله إسماعيل عليه السلام ، وأخرج من ذريته النبي الأخير محمداً صلى الله عليه وسلم .

فجعل الله النبوة والرسالة في ولدي إبراهيم : إسماعيل وإسحاق ، وولد لإسحاق يعقوب ، وكان نبياً ، ومن أولاده يوسف ، وكان نبياً ، وأخرج من أولاد إسماعيل بصفة خاصة النبي الخاتم محمداً صلى الله عليه وسلم الذي بعث في زمن ظهر فيه الفساد في البر والبحر ، وكانت الإنسانية متدلية ، تمر بأحطّ أدوار التاريخ ، ففوض الله إليه مسئولية إنقاذ البشرية المحتضرة وإسعادها ، وإحقاق الحق ، وإبطال الباطل .

وولد هذا النبي الخاتم من ذرية إسماعيل عليه السلام ، يصل نسبه الزكى بأخاير الآباء والأمهات ، إلى إسماعيل عليه السلام ، فلم يزل ينقله الله بالآباء الأخاير والأمهات الطواهر أمة فأمة ، وقرناً فقرناً ، حتى استخرجه في خير أوان ، وأفضل زمان ، من أثبت محاتد أرومات البرية

www.abulhasanalinadwi.org

أصلاً، وأعلى ذوائب نبعات العرب فرعاً، وأطيب منابت أعياص قريش مغرساً، وأرفع ذرى مجد بني هاشم سمكاً.

وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد ابن عدنان (١).

عدنان

ينتهي نسب عدنان إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقال ابن القيم - رحمه الله - بعد ذكر النسب إلى عدنان: "إلى هذا معلوم الصحة، متفق عليه، بين النسابين، ولا خلاف البتة، وما فوق عدنان مختلف فيه، ولا خلاف بينهم أن عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام(٢). ونبغ في أولاد عدنان، مضر وربيعة، سكن أولاد مضر في الجانب الغربي من جزيرة العرب: الحجاز، وسكن ربيعة في الجانب الشرقي من نجد، ونبغ في أولاد مضر، إلياس وقيس، ونبغ في أولاد إلياس، كنانة، واشتهر أولاده ببني كنانة، ونبغ في أولاد كنانة، النضر، وفي أولاده فهر، وسمي أولاد فهر بن مالك بن النضر قريشاً، وغلب هذا الاسم على جميع الأسماء، وأقاموا بمكة، ونبغ في أولاد فهر، قصي بن كلاب، وكان أمر مكة بيد خزاعة في ذلك الحين، وكانت سدانة البيت فيهم إلى أن عظم شأن قصي بن كلاب، وظهر فضله، فانتقلت إليه وانضمت له قريش، وأجلوا خزاعة من مكة، وتمَّ له أمر مكة، وكان سيداً مطاعاً، كانت إليه حجابة البيت، وعنده مفاتيحه، فلا يدخله أحد إلا

١- سيرة ابن هشام ١/١-٢ وسائر كتب السيرة والتاريخ والأنساب مثل أنساب الأشراف للبلاذري بتحقيق: الدكتور محمد حميد الله، والبداية النهاية: ٢/٢٥٢-٢٥٩

٢- زاد المعاد ١/٧١

www.abulhasanalinadwi.org

بإذنه، وسقاية زمزم، والرفادة، والندوة التي يجتمعون فيها للمشورة والرأي واللواء في الحرب، فحاز شرف مكة كلها، ونظّم أمر مكة تنظيماً، ووزّع المسئوليات على القرشيين المقيمين بمكة.

وانتشر أولاد قيس في أجزاء الحجاز الأخرى، مثل الطائف، وأجزاء من مكة، سكن ثقيف منهم في الطائف، وهوازن في المناطق الواقعة بين الطائف ومكة، وتنبَّل في أولاد قصي، عبد مناف، وولد لعبد مناف أربعة أولاد: المطلب، نوفل، عبد شمس، وهاشم، وكان هاشم أكبر أبناء والده عبد مناف، وكان كبير قومه، وكانت عنده السقاية والرفادة، وهو والد عبد المطلب، جدّ الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد ولى عبد المطلب السقاية والرفادة بعد عمّه المطلب بن عبد مناف، وشرُف في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه، وأحبّه قومُه لخصاله الكريمة، وعظم خطره فيهم، وولد لعبد المطلب عشرة أولاد، فيهم عبد الله والد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وأولاده الآخرون فهم: أبو طالب(عبد مناف) الزبير، حمزة، العباس، أبو لهب (عبد العزى) الحارث، حجل، المقوم، ضرار، واشتهر منهم أبوطالب في قومه، ونال الظهور والنبوغ، وهو الذي تمتّع الرسول بحمايته ومعونته بعد وفاة جدّه عبد المطلب، ودخل العباس وحمزة في الإسلام، وساعدا الرسول، وأما أبو لهب فهو في البداية آسى الرسول، ولكن لما أعلن الرسول دعوته إلى الله، تنكر له، وعاند أشد المعاندة (١).

عبد الله

وأمّا عبد الله والد الرسول صلى الله عليه وسلم، فإنه لم يعش طويلاً، ولكن نال مكانة الشرف والعز، وممّا يميِّزه ويفضِّله على إخوته

١- الروض الأنف: ١/٨، الكامل في التاريخ: ٢/٣٣، البداية والنهاية: ٢/١٩٣-١٩٨، السيرة النبوية لابن حجر: ١/٢٠٢.

www.abulhasanalinadwi.org

أن عبد المطلب كان قد نذر حين لقي من قريش ما لقي، عند حفر زمزم: لئن آتاه الله عشرة أولاد، وبلغوا أن يمنعوه لينحرن أحدهم عند الكعبة، فلما توافى بنوه عشرة، وعرف أنّهم سيمنعونه، جمعهم، ثم أخبرهم بنذره، فأطاعوه، وقالوا: كيف نصنع؟ قال: ليأخذ كل رجل منكم قدحاً ثم يكتب فيه اسمه، ثم ائتوني ففعلوا، فدخل بهم على هبل في جوف الكعبة، فخرج القدح على عبد الله، وأخذ عبد المطلب المدية ليذبحه، فقامت إليه قريش من ناديها فمنعوه، فقال: كيف أصنع بنذري؟ فأشاروا عليه: أن ينحر مكانه عشراً من الإبل، فأقرع بين عبد الله وبينها، فوقعت القرعة عليه، فاغتم عبد المطلب، ثم لم يزل يزيد عشراً عشراً، ولا تقع القرعة إلا عليه، إلى أن بلغ مائة، فوقعت القرعة على الإبل، فنُحِرت عنه. (١).

وحصل بذلك المماثلة بين إسماعيل عليه السلام وبين عبد الله والد الرسول، كان قد أراد إبراهيم عليه السلام أن يذبح ابنه إسماعيل بأمر ربِّه، بل ذبحه بعلمه، ولكن منعه الله منه وأرسل من الجنة كبشاً فذبحه مكان ابنه، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أنا ابن الذبيحين" (٢). يعني إسماعيل عليه السلام وأباه عبد الله، ففدى عبد المطلب ابنه بمائة من الإبل، فجرت الدية في قريش والعرب مائة من الإبل، وفدى الله إسماعيل بذبح عظيم بإرسال كبش من الجنة، وترك عليه في الآخرين.

وكان نسب عبد الله ذا خصائص منفردة، ومشتملاً على الشخصيات الممتازة ذات السجايا الكريمة، بالنسبة إلى أنداده من

١- سيرة ابن هشام ١/١٥١-١٥٥.

٢- رواه الحاكم في مستدركه بلفظ أن أعرابياً قال للنبي: يا ابن الذبيحين كما في كشف الخفا عن المقاصد.

www.abulhasanalinadwi.org

قريش ؛ لأن حلقات سلسلة نسبه من أوله إلى آخره، كريمة نجيبة، وكان آباؤه وأجداده أصحاب كرامة، ونجابة، وأخلاق نبيلة، وعزّ وجاه، وقوة وشوكة، وكان العرب يفتخرون بعُلوّ أنسابهم وكرمها، ويعتبرون علو نسب الرجل، بأفراده النابغين، الممتازين بمكارم الأخلاق، وأنبل الشيم، وأشرف القيم، وأكرم المثل، وعظائم المآثر، وعزائم الأمور، وكان عبد الله يملك بالإضافة إلى هذه المنقبة العظيمة، خصائص شخصية، من كرم الطبع، والمتانة، والوقار، والنبل، وخصال إنسانية أخرى، تفضله على معاصريه، وتزوّج بآمنة بنت وهب بن عبد مناف ابن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، وهو يومئذ سيد بني زهرة، نسباً وشرفاً، وكانت آمنة يومئذ أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً (١).

فيدل نسبه الشريف دلالة واضحة على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان نجيب الطرفين، أوسط قومه نسباً، وأعظمهم شرفاً ؛ من قبل أبيه وأمه صلى الله عليه وسلم، وصدق الله عُلُوَّ مكانته نسباً وخُلقاً بأن اصطفاه الله للنبوة والرسالة، وربَّاه على خلق عظيم " وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ". " اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ "(الأنعام: ١٢٤).

مولده

ولم يلبث أبوه أن توفي بعد أن حملت به آمنة، ودفن بالمدينة عند أخواله بني عدي بن النجار، فإنه كان قد ذهب بتجارة إلى الشام، فأدركته منيته بالمدينة، وهو راجع إلى مكة، وترك هذه النسمة المباركة في بطن زوجته الطاهرة، وكأن الله قد أراد أن يتولى بحكمته ورحمته تربية هذا الجنين الطاهر، وتأديبه وإعداده لإخراج البشرية من الظلمات إلى النور.

١- سيرة ابن هشام ١/١٥٦.

www.abulhasanalinadwi.org

ولد الحبيب المصطفى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول عام الفيل (١٧/أبريل ٥٧٠م) (١). ولما وضعته أمُّه صلى الله عليه وسلم، أرسلت إلى جدِّه عبد المطلب، أنه قد ولد لك غلام، فأته، فانظر إليه، فأتاه، فنظر إليه، وحمله ودخل به الكعبة، وقام يدعو الله ويحمده، وسمّاه محمداً (٢) فقام جدُّه عبد المطلب بكفالته وتربيته خير قيام، وكان به حفياً، يجلسه على فراشه في ظل الكعبة، ويلاطفه، فلم يشعر صلى الله عليه وسلم بفقد أبيه إلا شعوراً عقلياً وتقليدياً.

رضاعته

أرضعته ثويبة جارية عمِّه أبي لهب بضعة أيام، ثم التمس عبد المطلب لحفيده اليتيم مرضعاً من البادية على عادة العرب، وكان العرب يؤثرون البادية لرضاعة الأطفال، ونشأتهم الأولى؛ لِمَا في هواء البادية من الصفاء والإنعاش، وفي أخلاق البادية من السلامة والاعتدال، والبعد من مفاسد المدنية، ولأن لغة البادية كانت سليمة أصيلة، بالنسبة إلى المدينة، وتنشئةُ الأولاد في البادية ليمرحوا في كنف الطبيعة، ويستمتعوا بجوِّها الطلق، وشعاعها المرسل، وهوائها المنعش، أدنى إلى تزكية الفطرة، وإنماء الأعضاء والمشاعر، وإطلاق الأفكار والعواطف، فكان العرب يتجهون إلى البادية لتكون عرصاتها الفساح مدارج طفولتهم، ويتعلم أولادها فصاحة الأعراب، وخشونة الحياة في البادية، ويستنشقوا هواءها وعبيرها صافياً بلا كدر.

كانت قبيلة هوازن على بعد من شمال مكة، في المنطقة التي تقع

١- السيرة النبوية في فتح الباري لابن حجر العسقلاني ١/٢١٢.

٢- البداية والنهاية ٢/٢٦٦.

www.abulhasanalinadwi.org

بين مكة والطائف، وكانت لقبيلة بني سعد منها شهرة في المراضع، وفي الفصاحة، وكانت مرضعاتها يَقْدَمْنَ مكة مرَّة في السنة، يلتمسن بها الرضعاء ثم يرجعن، ومعهن رضعاء، يكفلن بتربيتهم وتنشئتهم سنتين، أو أكثر، ويأخذن على ذلك مالاً من آبائهم أوأولياء أمورهم؛ ليكون ذريعة لكسب الرزق.

فقدمَتْ مكة عام مولد الرسول، نسوة من بني سعد، وفيهن حليمة السعدية مرضعة الرسول، يلتمسن بها الرضعاء، وكان العام عام جدب، هم في ضيق وشدة، وعُرِضَ الرسول صلى الله عليه وسلم على جميع المراضع، فزهدن فيه، وذلك لأنهن كن يرجون المعروف من أبي الصبي، فقلن: يتيم! وما عسى أن تصنع أمُّه وجدُّه، وكانت حليمة السعدية تأخرت عن الركب؛ بسبب ضعف راحلتها وهزالها، فما بقيت امرأة قدمت مكة إلا أخذت رضيعاً، رجت المعروف من أبيه، غير حليمة، وهي لم تجد رضيعاً، يكون أبوه ثرياً، فرجعت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فأخذته، وما حملها على أخذه إلا أنها لم تجد غيره، ولكن لما رجعت به إلى رحلها، لمست البركة بيدها، فكان لكل شيء في رحلها شأن غير الشأن، ورأت البركة في اللبان والألبان، والشارف والأتان، وكل يقول: لقد أخذت يا حليمة، نسمة مباركة، وحسدتها صواحبها، تحدث حليمة السعدية هذه القصة فتقول:

"إنها خرجت من بلدها مع زوجها، وابن لها صغير ترضعه، في نسوة من بي سعد بن بكر، تلتمس الرضعاء، قالت: وذلك في سنة شهباء لم تُبق لنا شيئاً، قالت: فخرجت على أتان لي قمراء، معنا شارف لنا، والله ما تبضّ بقطرة، وما ننام ليلنا أجمع، من صبينا الذي معنا؛ من بكائه من الجوع، ما في ثديي ما يغنيه، وما في شارفنا ما

www.abulhasanalinadwi.org

يغذيه، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتاني تلك، فلقد أدمتُ بالركب، حتى شق ذلك عليهم ضعفًا وعجفاً، حتى قدمنا مكة، نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عُرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه؛ إذا قيل لها: إنه يتيم، وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: يتيم! وماعسى أن تصنع أمه وجده، فكنا نكرهه لذلك، فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غيري، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبنَّ إلى ذلك اليتيم فلآخذنَّه، قال: لا عليك أن تفعل، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة، قالت: فذهبت إليه فأخذته، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره، قالت: فلما أخذته، رجعت به إلى رحلي، فلما وضعته في حجري، أقبل عليه ثدياي؛ بما شاء من لبن، فشرب حتى روي، وشرب معه أخوه حتى روي، ثم ناما، وما كنا ننام معه قبل ذلك، وقام زوجي إلى شارفنا تلك، فإذا إنها لحافل، فحلب منها ما شرب، وشربت معه حتى انتهينا رِيًّاً وشبعاً، فبتنا بخير ليلة، قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: تعلَّمي والله يا حليمة، لقد أخذت نسمة مباركة، قالت: فقلت: والله إني لأرجو ذلك. قالت: ثم خرجنا وركبت (أنا) أتاني، وحملتُه عليها معي، فو الله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حمرهم، حتى إن صواحبي ليقلن لي: ياابنة أبي ذؤيب، ويحك! اربَعي علينا، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟ فأقول لهن: بل والله، إنها لهي هي؛ فيقلن: والله إن لها لشأناً، قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمي تروح عليّ حين قدمنا به معنا

www.abulhasanalinadwi.org

شِبَاعاً، لُبَّناً، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرُعيانهم: ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعاً؛ ما تبضُّ بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعاً لبناً، فلم نزل نتعرَّف من الله الزيادة والخير، حتى مضت سنتاه، وفصلتُه، وكان يشبُّ شباباً لا يشبُّه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جَفْراً، قالت: فقدمنا به على أمه ونحن أحرص شيء على مُكْثِه فينا؛ لما كنا نرى من بركته، فكلمنا أمّه وقلت لها: لو تركت بُنَيَّ عندي حتى يغلُظ، فإني أخشى عليه وباء مكة، قالت: فلم نزل بها حتى ردَّته معنا".

قالت: فرجعنا به، فو الله إنه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيه لفي بَهْم لنا خلف بيوتنا، إذ أتانا أخوه يشتدُّ، فقال لي ولأبيه: ذاك أخي القرشي؛ قد أخذه رجلان، عليهما ثياب بيض، فأضجعاه، فشقّا بطنه، فهما يسوطانه. قالت: فخرجت أنا وأبوه نحوه، فوجدناه قائماً منتقعاً وجهه. قالت: فالتزمته والتزمه أبوه، فقلنا له: مالك يا بنيَّ؟! قال: جاءني رجلان، عليهما ثياب بيض، فأضجعاني وشقّا بطني، فالتمسا فيه شيئاً؛ لا أدري ما هو. قالت: فرجعنا به إلى خِبائنا.

قالت: وقال لي أبوه يا حليمة، لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب؛ فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به، قالت: فاحتملناه، فقدمنا به على أمّه، فقالت: ما أقدمك به يا ظئر، وقد كنت حريصة عليه، وعلى مكثه عندك؟. قالت: فقلت: قد بلغ الله بابني وقضيت الذي عليّ، وتخوّفتُ الأحداث عليه، فأديته إليك، كما تحبين، قالت: ما هذا شأنك، فاصدقيني خبرك، قالت: فلم تدعني حتى أخبرتها، قالت: أفتخوفت عليه الشيطان، قالت: قلت نعم؛ قالت: كلا، والله

www.abulhasanalinadwi.org

ما للشيطان عليه من سبيل، وإن لِبُنَيَّ لشأناً، أفلا أخبرك خبره، قالت: قلت: بلي؛ قالت: "رأيت حين حملتُ به، أنه خرج مني نور أضاء لي قصور بصرى، من أرض الشام، ثم حملتُ به، فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخفَّ عليّ، ولا أيسر منه، ووقع حين ولدتُه وإنه لواضعٌ يديه بالأرض، رافعٌ رأسه إلى السماء، دعيه عنك وانطلقي راشدة"[١].

يتبيَّن من هذه القصة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد عاش في بني سعد موفور الصحة، ومصوناً من حالات الصبا اللاهية العابثة المستهترة، ونشأ على خلال الجدّ، والحزم، والاتزان، والرجولة، والشجاعة والشهامة، والصبر والتحمُّل، والحلم والأناة، والرأفة والرحمة، بعيداً عن أدران القسوة والكبر والغرور، فقد شارك إخوته من الرضاعة في رعي الغنم، وقد ساعده ـ صلى الله عليه وسلم ـ رَعْيُ الغنم في حياته المستقبلية، عندما بلغ العاشرة من عمره، واحتاج إلى كسب الرزق، فرعى الغنم لأهل مكة على قراريط، ورَعْيُ الغنم لم يكن سبب ذلٍّ وهوانٍ لدى الشباب في المجتمع الجاهلي، وخاصة إذا كان يسد الحاجة، ويكفي المؤنة، فسعى الرسول لكسب رزقه بكدِّ اليمين، وعرق الجبين، مستغنياً عما في أيدي الناس، ومعتمداً في معيشته على جهده الشخصي، أو مورد شريف لا استجداء فيه، حتى لا تكون عليه لأحد من الناس منَّة، أو فضل في دنياه، فيعوقه ذلك من أن يصدع بكلمة الحق في وجهه، غير مبال بالموقع الذي قد يقع من نفسه.

وعمُّه أبو طالب الذي تولى رعايته بعد وفاة جدِّه عبد المطلب لم يكن مرفه الحال، أو صاحب ثروة كبيرة، وكذلك لم يكن رعيُ الغنم خاصاً به ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل رعى كل نبي الغنم، ففي الحديث

---

[١] سيرة ابن هشام: ١/١٦٢- ١٦٥.

www.abulhasanalinadwi.org

الصحيح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم". فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة"[١]. وقد رعى موسى عليه السلام الغنم، ثم كان في رعي الغنم للنبي صلى الله عليه وسلم دربة ومران على سياسة الأمم، وقد أرادت حكمة الله تعالى أن ينشأ رسوله على صفات؛ تؤهله وتهيئه للقيام بعمل الدعوة، وهداية الناس وقيادتهم؛ لأن الغنم من الأنعام التي لا ترعى مجتمعة، بل تفترق، وتفرُّ يميناً وشمالاً، فرعاية الغنم تتيح لوناً من التربية النفسية من الصبر والحلم، والأناة والرأفة والرحمة، وتهيئ الدربة على قيادة البشر وإرشاده وتوجيهه إلى اتجاه واحد، والأنبياءُ والرسلُ بحاجة إلى هذه الدربة والمران في دعوة أقوامهم إلى الله وحده، وإرشادهم إلى الصراط المستقيم.

وفاة والدته ورعاية جدِّه:

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أمِّه آمنة بنت وهب، وجدِّه عبد المطلب بن هاشم، في كلاءة الله وحفظه، يُنبتُه الله نباتاً حسناً؛ لما يريد به من كرامته، فلما بلغ الرسول ست سنين توفيت أمُّه بـ "الأبواء" بين مكة والمدينة؛ كانت قد قدمت به على أخواله من بني عدي بن النجار، تُزِيْرُه إياهم، فماتت وهي راجعة إلى مكة، بعد قضاء أشهر في المدينة، ودفنت بـ "الأبواء". وكانت معها أم أيمن، فرجعت به ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد حرم عطف الأب وحنان الأم، إلى مكة وسلّمته إلى جده عبد المطلب، وكان رئيس أهل مكة، فحاطه بالرعاية والتربية؛ بغاية من العطف والحنان والشفقة، وكان به حَفِياً. كان يؤثره على أبنائه، وكان يحبُّه

---

[١] رواه البخاري برقم ٢٢٦٢، وابن ماجه برقم ٢١٤٩.

www.abulhasanalinadwi.org

حباً عظيماً، ثم توفي عبد المطلب، والنبي صلى الله عليه وسلم في الثامنة من عمره، فأوصى جدُّه به عمَّه أبا طالب، فكفله عمُّه وحنا عليه ورعاه.

فنشأ النبي يتيماً؛ حرم عطف الأب قبل مولده، ثم ماتت أمُّه، وهو ابن ست سنين، ثم حرم حنو جدِّه، وهو في الثامنة من عمره، فذاق كأس الحزن والمرارة مرة بعد مرة، وكانت هذه المصائب الجسام، التي أصابته صلى الله عليه وسلم، تحدياً كبيراً له في الصبا[١] ولكن أرادت حكمة الله أن ينشأ رسوله يتيماً، تتولاه عناية الله وحدها، بعيداً عن الذراع التي تمعن في تدليله، والمال الذي يزيد في تنعيمه، حتى لا تميل نفسه إلى مجد المال والجاه، وحتى لا يتأثر بما حوله من معنى الصدارة والزعامة؛ فتلتبس على الناس قداسة النبوة بجاه الدنيا، وحتى لا يحسبوه يصطنع الأولى ابتغاء الوصول إلى الثاني[٢].

في كفالة أبي طالب:

كفله بعد وفاة جدِّه، عمُّه أبو طالب؛ فحاطه بالعناية التامة، وكان له في الحنو والشفقة كالأب الشفوق، وكان أكثر حدباً عليه منه على بنيه، وكان أبو طالب يسافر إلى خارج مكة للتجارة، وكانت التجارة الشغل الاقتصادي لأهل مكة، فخرج أبو طالب مرة في ركب تاجراً إلى الشام، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ذاك ابن اثنتي عشرة سنة، فتعلَّق بعمِّه، فرقَّ له، واصطحبه في هذه الرحلة، تنازلاً إلى إصراره، رغم صغره، فسافر إلى الشام في رحلة تجارية،

---

[١] ابن الأثير في أسد الغابة: ١/١٥، إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، وطبقات ابن سعد: ١/١١٨- ١١٩.

[٢] السيرة النبوية للدكتور على محمد الصلابي ١/٦٠، وانظر للتفصيل: فقه السيرة للبوطي، ص٤٦.

www.abulhasanalinadwi.org

وشاهد أساليب التجارة؛ بل حصلت له خبرة وتجربة في هذا المجال، كما أثبت جدارته لذلك برحلته التجارية على رغبة من خديجة بنت خويلد إلى الشام، فكانت رحلته التجارية ناجحة.

فإن نظرة على ذلك العهد؛ عهد النشأة، تبيّن أن الرعاية الإلهية تتولاه وتحوطه، فنشأ ـ صلى الله عليه وسلم ـ قويّ الإرادة، ماضي العزيمة، غير معتمد على أحد في شئونه، ولم يتلق أو يتلقن من مفاهيم الجاهلية وأعرافها شيئاً، إنما كان يتلقى من لدن الحكيم الخبير، والله سبحانه وتعالى هو الذي تولى رعايته وتأديبه، فلذلك لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم مضطرب البال، قلقاً، رغماً من فقد أبويه، وضيق العيش، بل نشأ متصفاً بصفات الصبر، والتحمُّل، والثقة بالنفس، والاعتزاز بها، وعلو الهمة، والفتوة، والرجولة، والشهامة، والصدق، والأمانة، والوفاء، والشجاعة، والنبل، وتكونت شخصيته العظيمة من النشأة على طراز فريد، أعجب به الناس، وكانوا يتوسمون فيه خيراً ونبلاً من صباه لسلوكه المتميز الفريد.

فشبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، والله تعالى يكلؤه، ويحفظه من أقذار الجاهلية، وعاداتها؛ لما يريد به من كرامته ورسالته، حتى بلغ أن كان رجلاً، وأفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم حسباً، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأشدهم حياءً، وأبعدهم من الفحش والبذاءة، حتى ما أسموه في قومه إلا الأمين؛ لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة(١).

يعصمه الله سبحانه وتعالى من أن يتورط فيما لا يليق بشأنه، من

١ سيرة ابن هشام ١/١٨٣.

www.abulhasanalinadwi.org

عادات الجاهلية وما لا يرون به بأساً، ولا يرفعون له رأساً، وكان واصلاً للرحم، حاملاً لما يثقل كواهل الناس، مكرماً للضيوف، وعوناً على البرّ والخير، والفضيلة والحق، وكان يأكل من نتيجة عمله، ويقنع بالقوت.

نشأته وتكوينه الخلقي

بُعِثَ النبي الخاتم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد بعثة عدد لا يحصى من الأنبياء والمرسلين إلى أقوام لا تعدُّ، ولم تقبل رسالات أنبيائها، ولم تؤمن بهم؛ بل ظلّت عاكفة على عاداتها الوثنية، وعاضة عليها بالنواجذ، وتابعة لأهوائها، ورغباتها الجامحة، ولم تغيِّر من حياتها شيئاً، حتى توقفت سلسلة النبوة، ولم يبعث الله تعالى نبياً في مدة ستة قرون، تسمى الفترة، وترك الأمر بيد الإنسان أن يبحث بنفسه عن الحق، ويهتدى إلى الصراط السوى؛ بعقله وسعيه، ولكن الأوضاع لم تزل تفسد حتى بلغت في الفساد ذروته، وتعمقت جرثومة الفساد في المجتمع الإنساني، فمقت الله العرب والعجم، وكان أن يستأصلهم، ولكن أراد الله سبحانه أن يرحم البشرية، ويكرم الإنسانية بإرسال نبي عالمي عظيم يقوم بإصلاح الناس وهدايتهم بطريق جامع شامل، وأكثر تأثير، ولا تكون مهمته مقتصرة على شؤون الحياة الدينية، بل تكون مهمته جامعة شاملة، ويسعى لجعل جميع شعب الحياة، الدينية منها والمادية، تابعة لرضى الله وحكمه، وقد بعث قبله رسلاً في الأمم الغابرة، كانت مهماتهم ورسالاتهم مقتصرة على أقوامهم وأوطانهم وأزمانهم، وكلما اقتضت الظروف، بعث نبي، وكلما عصى القوم نبيه، بل تصدوا لقتله، غضب الله عليهم وسخط، فأهلكهم بعصيانهم، وخلص وطهر الدنيا من ظلمهم.

www.abulhasanalinadwi.org

واستمرت سلسلة النبوة والرسالة، ثم جاءت الفترة؛ حتى بدأ في القرن السادس الميلادي عهد بلغ فيه الفساد نهايته، وساد الظلم، وانتشر الشرك، ونسي أو تناسى الإنسان خالقه رب العالمين في جانب، وفي جانب آخر كانت الحضارة الإنسانية بعد مرورها بالتجارب الإنسانية وويلاتها، وفشلها وعجزها، تدخل في مرحلة جديدة، وهي عهد عموم العلم والتعليم، وظهور النظام العالمي الشامل للحياة الإنسانية، وكانت الحياة الإنسانية في أحط أدوار التاريخ خلقاً وديناً، وتجلب سخط الله وغضبه، وكاد أن يدمر الله العالم تدميراً كليا للقضاء على هذا الفساد العالمي، أو يمهل مرة أخرى برحمته وكرمه أن يصلح الإنسان مسار حياته، ويهتدى إلى الصراط المستقيم.

فكانت الحاجة إلى نبي مرسل؛ يقوم بتأدية المسئوليات المتنوعة، في الظروف المتنوعة، ويبلغ الرسالة المفوضة إليه، إلى العالم كله، ويؤدي الأمانة على أحسن طريق وأكمله، وقد أُحْكِمَتْ تربيتُه أقوى الإحكام، وأجيد تشكيل خصائصه الإنسانية أتمَّ الإجادة، ويكون بريئاً ومنزهاً من أثر التعليم المادي والحضارة المادية الجامحة، ولم تؤثر فيه فلسفات ولا حضارات، لا أهواء ولا مطامع، ويكون لوح قلبه وعقله صافياً وخالياً من تعليم الإنسان، بل تتولاه الرعاية السماوية والتربية الإلهية؛ ليكون قادراً على الاضطلاع بمسئولية النبوة والرسالة الجامعة العالمية، التي لا تُتَصوَّرُ مسئولية أخرى، أعظمَ منها وأكملَ.

فاصطفى الله تعالى محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصانه من شرك الجاهلية، ونزعات الشباب ودواعيه البريئة التي تنزع إليها الشبوبية بطبعها؛ ولكنها لا تلائم وقار الهداة، وجلال المرشدين، وعصمه مع ذلك من جميع مظاهر الانحراف، ومن كل ما لا يتفق

www.abulhasanalinadwi.org

ومقتضيات الدعوة التي هيّأه الله لها، فهيأ الله له جميع الأسباب والبيئة التي ساعدت في تأهيله لحمل مسئولية النبوة والرسالة، فبعثه الله بذلك نبياً ذا خصائص جامعة كاملة ومتنوعة، وجعل فيه سمات متميزة كانت تقتضيها مسئولية النبوة والرسالة، وتوفرت له أسباب النشأة المطلوبة، وتكونت شخصيته الجامعة العظيمة في ظل التربية الإلهية، ونحن نشاهد هذه الملامح البارزة في سيرته الطيبة المطهرة ـ على صاحبها ألف ألف تحية وسلام ـ فأصبح أسوة حسنة دائمة، و هادياً مثالياً لجميع شعب الحياة البشرية؛ الفردية منها والجماعية، والفطرية منها والحضارية.

وإن الرسالة التي حمل عبئها محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم تحتوي على الأوصاف الحميدة، والخصال الطيبة الطاهرة على المستوى الفردى في جانب، وفي جانب آخر تشتمل على خصائص جامعة وصلاحيات متنوعة شاملة، تشمل جميع مجالات الحياة على المستوى العالمي. وإن الجانب الفردي كان يشمل السلوك الحسن، والخلق العظيم، ومقتضيات الحياة الاجتماعية، وتدبير الحكومة والمجتمع، والتعامل الاجتماعي، والعلاقات بين الإنسان والإنسان، وشئون السياسة والاقتصاد، والعلم والحكمة، والأمور الأخرى، وكانت فيه صلاحية موفورة لتنظيم هذه الأمور والجوانب، وجعلها تابعة لرضى الله رب العالمين وأمره، فتقرّر بذلك نظام سماوي للشريعة الجامعة بين الدين والدنيا، كان من المقرّر إيصالُه إلى مستوى الكمال والشمول، وكان المقصود من ذلك ـ لإكمال الدين عليه صلى الله عليه وسلم ـ إعلانَ شريعة؛ تكون جامعة، كاملة، خالدة، عالمية، باقية إلى يوم القيامة، إنها تقدر على حلّ سائر القضايا والمشاكل الدينية والمادية، والاجتماعية والفردية، والخلقية والحضارية، وسدّ حاجيات الحياة البشرية ومقتضياتها

www.abulhasanalinadwi.org

المتجددة، وتقديم حلول ناجعة للأوضاع الناشئة عن الجهود العلمية، وعلى مسايرة ركب الحضارة والتقدم العلمي، كما تراعى الطبائع والأذواق البشرية من أول يومها، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فأصبحت بذلك شريعة جامعة خالدة للنوع البشري كله.

وإن شرائع الأقوام والأمم الغابرة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، كانت محدودة، وخاصة بقوم دون قوم، ومقتصرة على زمن دون زمن، ومنطقة غير منطقة، ولم تكن جامعة وشاملة، ولكن العهد الذي كان يبدأ بالبعثة المحمدية، كان عهد التقارب والالتقاء والتواصل بفضل ظهور الاكتشافات العلمية والتقدمات الحضارية، رغم ما يوجد في العالم آنذاك من فروق إقليمية وإثنية وجغرافية، واختلاف الفصول والمواسم، والصيف والشتاء، وطول الليل والنهار وقصرهما. فروعيت سائر هذه الفروق والاختلافات في الشريعة المحمدية؛ كما روعي التنوع الثقافي والاجتماعي والإقليمي، والتعدد الحضاري، وتقدِّم هذه الشريعة الجامعة التي أتى بها محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، قانوناً عادلاً، ونظاماً قوياً لمقاومة القوى المعاندة والطاغية، إذا اقتضى إنشاء نظام الحياة المؤسسة على القيم الإنسانية العليا والأحكام الإلهية، وحياة التقوى.

وكان ذلك العهد عهد انتشار العلم؛ بل كان أصبح العلم حاجة الإنسان، ولعل ذلك هو السبب في نزول أول وحي إلهي بلفظ "اقرأ" كما تتضح منه أهمية القلم ودوره في نشر العلم، فكان العهد الجديد عهد العلم، والبعثة المحمدية هي التي وجّهت العلم إلى الوجهة الصحيحة، بل نشرت العلم في العالم كله، وقضت على الأمية والجهالة، يقول الله تبارك وتعالى: " اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق

www.abulhasanalinadwi.org

الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم". [اقرأ: ١- ٨].

فتدل هذه الآية الكريمة على أهمية العلم وحاجة الإنسان إليه، ووسيلة العلم هو القلم، كما جاء التأكيد الشديد على ربط العلم باسم الله رب العالمين، وقد كان العلم متحرراً، ولم يكن مربوطاً باسم الله، فلذلك حدث في الناس انحرافٌ خلقيٌّ، وتحرُّرٌ، وفسادُ حضارةٍ ومدنيةٍ، وبالإضافة إلى ذلك تشير هذه الآية الكريمة إلى أن الإنسان يفسد ويعلو في الأرض، ويطغى ويتمرَّد، وتميل نفسه إلى الظلم والاعتداء عندما تحصل له القوة والثروة، فَأُنْذِرَ الإنسان أن ربّه سيحاسبه في الآخرة على ما يفعله في الدنيا، وإليه المصير، "كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى، إن إلى ربك الرجعى:. [علق: ٦- ٨].

وكل من يتابع التاريخ الإنساني يصادف أن عهد العلم الذي بدأ بمجيئ الإسلام، وعاد إلى مساره الصحيح بتوجيهه، قاد المسلمون فيه مسيرة العلم على المستوى الدولي، ونشروه في العالم كله، ووسّعوا دائرته، ورقّوه، وبحثوا عن آفاق ومجالات جديدة للعلم، وأحرزوا قصبات السبق فيها، وخدموا العلم خدمة لائقة، ونفعوا الإنسان؛ بإنتاجاتهم الفكرية، واكتشافاتهم العلمية، وإبداعاتهم العقلية، وتقدماتهم الحضارية في جانب، وفي جانب آخر ربطوا العلم باسم رب العالمين، وجعلوه وسيلة البناء والإصلاح، والصلاح الإنساني، ونشر الفضيلة، بدل الهدم والتدمير، والإفساد والتضليل، ودعا الإسلام إلى الإضافة إلى العلم والارتقاء به، والانتفاع به في صالح الإنسان؛ بالبحث والتحقيق، والتدبر وإعمال الفكر فيه بصورة مستمرة، ونهى عن استخدامه في الأغراض الظالمة، وفيما يجرُّ ويلات ودماراً للإنسان،

www.abulhasanalinadwi.org

بينما ألحقت الأقوام الأخرى بالإنسان أضراراً بالعلم، وجعلوه وسيلة لإنكار الإله، والنكران والطغيان، والتمرُّد على خالق الكون، والهدم والتدمير؛ فجعلوا منه القنابل المدمرة، والأسلحة الفتاكة للإنسانية، واستخدموه في تضليل الأذهان، وتزوير الأفكار، وتكذيب الحقائق والثوابت، ونشر الإلحاد والزندقة، والإباحية والرذيلة.

وبالجملة فإن الشريعة المحمدية شريعة العلم، وروعيت فيها جميع المقتضيات الإنسانية مراعاة كاملة، وقرَّرت العلم وسيلة لمعرفة الإله، وخدمة الخلق، ونظمت الثروة، وقررت أصول ومبادئ وطرق كسبها وإنفاقها، وبينت أن الإنسان ليطغى ويتمرَّد، وخاصة إذا حصلت له الثروة والقوة، وينحرف عن جادة الحق؛ لا يلتزم بالدين، ولا يُقِرُّ بالإله، بل يظن أنه كسب هذه الثروة بجدِّه وعقله، وله الخيار في التصرُّف فيها كيف يشاء، وفيما يشاء، فإن الدين القيم الذي جاء به محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، يرشد الإنسان في كل ما يهمُّه في الحياة، ويوجِّهه إلى الحق، وسواء السبيل في سائر مجالات الحياة، توجيها جامعاً، ويهدى هذا الدين إلى الفلاح الحقيقي في الدنيا والآخرة، وحياةُ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الطيبة المباركة، هي أحسن مظهر للدين وأكمله، وأسوة حسنة للإنسان في جميع شعب الحياة إلى أن يرث الله الأرض.

شخصية عظيمة ذات خصال سامية

اختار الله عز وجل نبيَّه الخاتم محمداً صلى الله عليه وسلم لحمل عبء النبوة العظيمة الذي لم يكن أحد يستيطع أن يحمله، فميزه بمزايا فريدة، وزكّاه تزكية ظاهرة وباطنة، ورافقته التربية الإلهية من صغره إلى أن بلغ أشدَّه، ونشّأه على أقوم الخصائص السلوكية والآداب الخلقية وأحسنها، ليقوى لاحتمال أعباء النبوة الجليلة، وقد مرّ رسول

www.abulhasanalinadwi.org

الله صلى الله عليه وسلم ؛ من خلال الظروف القاسية وشدائد الحياة ؛ نجادها ووهادها ، وأحوال العسر التي ساعدته في مواجهة الأوضاع الشديدة ، والصبر على الآلام والمصائب ، وشقّ الطريق المناسب للمضيّ قدماً في مهمته الدعوية ؛ بإرادة قوية ، وهمة عالية ، فأولاً أصيب باليتم ، وهو جنين في بطن أمّه ، فشعر بالحرمان الأبوى بعد ميلاده ، ثم توفيت أمُّه ، وهو في السادسة من عمره ، بينما كان مئات من أترابه ومعاصريه يحظون بحنان الوالدين وعطفهما ، وإن الفاجعة الآتية من وفاة الوالدين تسبب الاضطراب الذهني ، والشعور بالحرمان ، والهوان والضعف للصبيان ، ثم توفي جده العطوف ، وهو في الثامنة من عمره ، ولا يستطيع ولد صغير أن يتحمل هذه الفواجع ؛ من فقد عطف الأب ، وحنان الأم ، وشفقة الجدّ ، بل ينكسر قلبه ، ويقلقه الشعور باليتم ، ويطارده الحرمان الأبوي ؛ لا يقرّ له قرار ، ولا يهدأ له بال ، وينغلق عليه طريق العيش الكريم ، والنجاح في الحياة ، فيهجم عليه اليأس والقنوط من كل جانب ، ولكن من يصبر على هذه الفواجع المتتابعة ، ويتحمّل الآلام والمصائب ؛ بسمو النفس ، وعلوّ الهمة الموهوبة ، تحصل له القدرة على مواجهة الظروف القاسية ، ويتربى على أعلى درجات الصبر لاحتمال الشدائد ، ويتمكن من شقّ طريق النجاح في المستقبل حسب رغبته وحاجته ؛ من خلال أحلك الظروف المعقدة ، وقد منح الله عزّ وجلّ نبيَّه الحبيب محمداً صلى الله عليه وسلم هذه الصلاحية والقدرة بصفة خاصة ، وتولّى رعايته وتأديبه ؛ لكي ينشأ قويَّ الإرادة ، وماضي العزيمة ، فنشأت فيه الهمة والقوة والصلاحية الكاملة لفهم الأوضاع والأحداث ، فهماً صحيحاً ، ومعالجة مقتضيات الحياة معالجة ناجعة على أحسن طريق وأجداه ، ومكافحة تحديات

www.abulhasanalinadwi.org

العصر والحياة على أقوم أسلوب وأنفعه، فاختار ـ صلى الله عليه وسلم ـ مبكراً طريق حياة الشرف والعز، والكسب النزيه، وسمو النفس وعلو الهمة، وعاش عيشاً كريماً نزيهاً؛ بالرغم من الأوضاع الحالكة.

فكان منذ صباه يكره ما كان يروج في بيئته؛ من عادات جاهلية، وانحراف في الأخلاق والعقيدة؛ من عبادة للأصنام والأوثان، وحضور حفلات الغناء واللهو والمجون، وكان يدرك إدراكاً تامّاً أن الناس يتطلعون إلى حياة العزّ والحمية والغيرة، ويحملون أوصافاً كريمة؛ من الشجاعة والهمة، والجود والبذل، ونجدة الملهوف، والفروسية والفتوة، والمروءة، في جانب، ولكنهم في جانب آخر يعبدون الأصنام والتماثيل التي صنعوها بأيديهم من أجل تحقيق عاطفتهم الدينية، ويدعونها ويلجأون إليها في حاجاتهم، ويعقدون بها الأماني والآمال، كما تعقد بإنسان حيٍّ، بل أكبر منه قوة وقدرة، وكان محمد صلى الله عليه وسلم يرى أنه من التناقضات العجيبة أن الإنسان قد بلغ في الشعور بعظمته وفضله، بل في الشعور بالتفوُّق والغلبة قمة عالية في جانب، وفي جانب آخر قد انحط إلى حد أنه يخضع أمام الأصنام المصنوعة من التراب أو المنحوتة من الصخور الجامدة، ويُذِلُّ نفسه إذلالاً، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يبتعد عن هذه الأعمال المنحطة السافلة الذليلة، ولا تميل نفسه إليها، بل تنفر منها وتأباها، ولذلك كان قبل نزول الوحي عليه من السماء، وإتيان التوجيه والهداية من فاطر الكون وخالق السماوات والأرض، خطر بباله أن يخرج من مكة ويبعد حتى تحسر عنه البيوت، ويفضي إلى شعاب مكة، وبطونها وأوديتها، وكان يخلو بغار حراء، فيمكث فيه ليالي متواليات، يتحنث

www.abulhasanalinadwi.org

فيه ويتعبد، ويفكر في أسرار الكون والحياة، بعيداً مما كان يراه من جهل وجاهلية، وخرافة ووثنية، وذل وإهانة لكرامة الإنسان.

حلف الفضول:

شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حلف الفضول، وكان سببه أن رجلاً غريباً من "زبيد" قدم مكة ببضاعة، فاشتراها منه العاص ابن وائل السهمي أحد أشراف قريش، فحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الزبيديُّ أشرافَ قريش، فأبوا أن يعينوه على العاص بن وائل لمكانته، وانتهروه، واستغاث الزبيديُّ أهل مكة، واستعان بكل ذي مروءة. فكان غريب أجنبي يسلبه حقه ذو مكانة وقوة، ويظلمه، فهاجت الغيرة في رجال من ذوي المروءة والفتوة، فاجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان، وتحالفوا ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم؛ حتى يؤدي إليه حقّه، ثم مشوا إلى العاص بن وائل، فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها إليه(١).

وقد اشترك الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحلف الذي تمَّ عقده لإيتاء المظلوم حقّه، ومنع الظالم من ظلمه، وإقرار الأمن، واحترام الحقوق والكرامات، وحماية الغرباء والوافدين إلى مكة؛ من التجار والصناع، وكان صلى الله عليه وسلم يشترك في سائر أعمال الخير، ويتعاون مع قومه فيها، وكان أهل مكة يثقون بأمانته غاية الثقة، ويأتمنون به، فيضعون عنده أماناتهم.

تجارته لخديجة وزواجه منها:

كانت خديجة بنت خويلد أرملة، ذات شرف ومال، وامرأة تاجرة؛ كانت تصدر البضائع وتوردها، وكانت بعد وفاة زوجها أبي هالة

---

(١) الكامل في التاريخ: ٤١/٢، وسيرة ابن كثير: ٢٥٧/١.

www.abulhasanalinadwi.org

تشعر بمسيس الحاجة إلى رجل أمين صادق، تستأجره ليتجر بمالها، ويسافر مع غلامه ويراقبه، فلما بلغها عن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، عرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشام تاجراً، وتعطيه أفضل ما تعطيه غيره من التجار، فقبل، وسافر معه غلامُها، وقدما الشام، وباع رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم سلعته التي خرج بها، واشترى ما أراد من السلع، فلما رجع إلى مكة باعت خديجة ما أحضره لها، فتضاعف مالها.

فكأن خديجة قد اختبرت عن ذلك الطريق صدق حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وكرم أخلاقه ونصيحته، وصلاحيته العملية؛ وعلاوة على ذلك حدّثها غلامُها عن سماحته، وشمائله الكريمة، وأمانته، وحذقه في التجارة، وكبر شأنه في هذه الرحلة، فعرضت عليه نفسها، وكانت قد رفضت طلب كثير من أشراف قريش، وكانت إذ ذاك في الأربعين من سنِّها، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الخامسة والعشرين من سنِّه، فكانت أكبر منه خمسة عشر عاماً، وكانت عرضت عليه نفسها لِمَا سمعته عن عظم أمانته، وكريم أخلاقه، وكذلك قبل الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتزوج من خديجة، ويجعلها شريكة حياته، ولم يبال بما كان بينهما من تفاوت في العمر، وآثر ما كانت تمتاز به؛ من عزّ وشرف ونبل في قومها، وكانت من سيدات قريش، وفضليات النساء رجاحة عقل، وكرم خلق، فتزوج منها، وكان زواجه منها أول زواج، بينما لا يتزوج امرؤ ممن تكون أكبر منه سِنّاً، ولكنه لم تمتد عيناه إلى الجمال الظاهر الفاتن، أو ما يموج حوله من تيارات فاسدة، وشهوة وشباب؛ بل كانت طبيعته السليمة العفيفة تميل إلى الأخلاق والنبل والشرف، فرضي بهذا الزواج بطيب النفس، فأصبح بعد زواجه

www.abulhasanalinadwi.org

منها صاحب أهل، وبدأت حياته العائلية، وكان كلاهما يكفي بعضهما حاجة بعض، فهيأ الله لخديجة من يقوم بشؤون تجارتها خير قيام، وكانت خير زوج له؛ تناسبه، وتؤازره، وتخفف عنه ما يصيبه، وتعينه على حمل تكاليف الرسالة، وتعيش همومه، وكانت بينهما مودة، وعاشا الحياة بغاية من الألفة والمؤازرة، وقدَّما نموذجاً صالحاً مثالياً للحياة العائلية، كما كان معروفاً بالصدق والصلاح والأمانة بين الناس.

وحصل لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد زواجه من خديجة مزيد من الخيارات في التجارة، وبالتالي زال عنه ما يهمُّه في كسب القوت والمال، وانقطع إلى ذكر الله تعالى وعبادته؛ بعيداً مما كان يروج في البيئة المكية من ضلال وجهالة ووثنية، وكان يخلو غالباً بمكانٍ خالٍ بعيدٍ عن العمران وصخبه، يتعبد؛ بالتفكُّر في بديع ملكوت السموات، والنظر في آياته الكونية الدالة على بديع صنعه، وعظيم قدرته، ومحكم تدبيره، وعظيم إبداعه، وكان قد حصل له غلام من خديجة اسمه زيد ابن حارثة، فكان خير مربٍّ له، فأعتقه الرسول صلى الله عليه وسلم بعاطفة إنسانية، وتبناه على الطريقة الرائجة في ذلك العهد.

كفالته لعلي بن أبي طالب:

وبعد ما حصلت له سعة في المعيشة، اشتد شعوره بضيق عمِّه الشفيق الكريم أبي طالب، فاقترح على عمِّه العباس أن أبا طالب كثير الأولاد، ولا يستطيع تحمُّل نفقتهم لضيق يده، فعلينا أن نتكفل ولدين من عياله على الأقل، وبذلك نخفف عنه ما يكابده من مشقة وصعوبة في كفالة أولاده، فرضي العباس بهذا الاقتراح، وتكفَّل بأحد أولاد أبي طالب، وهو عقيل، وتكفّل الرسول علياً، وكان عليٌّ أصغر منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثلاثين سنة، ويكون هذا التفاوت في العمر بين

www.abulhasanalinadwi.org

الوالد وولده بصفة عامة، وكان في السنة الخامسة من عمره عندما تكفّل به، وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الخامسة والثلاثين من عمره، فعاش معه عليٌّ كولده، كما اعتنى به كابن عمِّه، اعتناء كبيراً، وأدَّبه فأحسن تأديبه.

بناء الكعبة المشرفة

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذهب إلى الكعبة المشرفة بعاطفته الدينية، ليعبد الله فيها على الطريقة المأثورة عن أجداده بناة الكعبة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، قدر معرفته لها، وكان ينفر عن عبادة الأصنام الرائجة في مجتمعه، فكان يعبد ربه كما يعلم بعيداً عن عبادة الأصنام، فبينما هو كذلك إذ شعر الناس بإعادة بناء الكعبة ومرمتها، وكانت الكعبة غير مسقفة، وكانت رضماً مفرق القامة، فكانت في حاجة إلى تجديد بنائها لِمَا أصابها من حريق وسيل جارف، صدع جدرانها لوقوعها في سهل الأرض، فهمّهم أمرُها، فأرادوا هدمها ليرمموها ويسقفوها، وعلمت قريش أن البحر قد رمى بسفينة إلى جدّه لرجل من تجار الروم، فتحطمت، فأخذوا خشبها، فأعدوه لتسقيفها، وشاركت سائر القبائل من قريش في نقل الحجارة، ورفعها؛ لكون الكعبة مركزاً مقدساً للعبادة، وقد شارك النبي صلى الله عليه وسلم وعمُّه العباس في بناء الكعبة، وكانا ينقلان الحجارة، وكان صلى الله عليه وسلم في السنة الخامسة والثلاثين من عمره، كان يحمل الحجارة على كاهله إلى البنيان، فكدحت كاهله، فلما بلغ البنيان موضع الركن اختصموا في الحجر الأسود؛ كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، وكادوا يقتتلون فيما بينهم؛ لنيل هذا الشرف، مكثوا على ذلك أياماً، ثم اتفقوا على أن أول من يدخل من باب المسجد، يقضي بينهم، فحصل للرسول هذا الشرف؛ شرف فصل

www.abulhasanalinadwi.org

الخصومة، ووقف القتال المندلع بين قبائل قريش، فكان أول داخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا، هذا محمد، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال: "هلموا ثوباً، فأتوه به، فأخذ الحجر ووضعه فيه بيده، ثم قال: "لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعاً" ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده ثم بني عليه(١).

وهكذا درأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الحرب من قريش بحكمة ليست فوقها حكمة، وطمأنهم ومنعهم من أن تختلف بينهم الرماح والسيوف من أجل نيل شرف وضع الحجر موضعه، كما كانت تنشب الحرب في أهون من هذا بكثير في الجاهلية، فزادت مكانته بينهم بهذا الفصل، فصل الخصومة، وقد كانوا يحترمونه ويكرمونه لأمانته وصدقه، و صفاء طبيعته، وطهارة نفسه، فحاز مزيداً من ثقة الناس به، وجعلوا يلجاؤن إليه في أهم شؤونهم.

التربية الإلهية

وكانت قد وجدت فيه هذه الصفات الإنسانية العليا طبيعياً، واختار بعضاً منها لسلامة طبعه، وسمو نفسه، وعلو همته، كما أثرت فيه خصائص أسرته السامية، تم قويت فيه هذه الصفات الإنسانية المثالية وبلغت كمالها وجمالها بمروره من خلال ظروف الحياة القاسية الشديدة التي واجهها منذ صغره.

وعلى كل، فساعدت الظروف القاسية وشدائد الحياة وصعابها التي مر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ صغره في سبيل اختيار

---

(١) سيرة ابن هشام: ١/١٩٢- ١٩٧، أسد الغابة: ١/١٧، الكامل في التاريخ: ٢/٤٥، تاريخ الطبري: ٢/٢٩٠، البيهقي في الدلائل: ٢/٥٦، الطبراني في الأوسط برقم: ٢٤٤٢، والحاكم: ١/٤٥٨- ٤٥٩، وعبد الرزاق: ٥/١٠٠- ١٠١.

www.abulhasanalinadwi.org

حياة العزيمة والهمة، والاستقامة في السلوك والأخلاق رغم حرمانه من أقرب محبيه، واختار الخصائص الإنسانية السليمة بعيداً عن العادات والمقابح التي يقع فيها الشباب المتحررون، وكان ذلك فضل الله عليه ولطفه به، فشبّ محفوظاً بعين الله، بعيداً عن عادات الجاهلية وأقذارها، وسلك مسلك الخير والفضيلة بتوفيق الله وعنايته به، وكانت قد تقررت مشيئة الله تعالى أن يجعل أحداً من أفراد هذه البيئة الحرة العابثة، نبياً صادقاً متصفاً بالصفات الإنسانية العليا والخصائص الإنسانية الكبرى، ومكارم الأخلاق ليكون داعيا إلى دين الله الحق، وهادياً ومرشداً إلى يوم القيامة، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك، فحينما فتر الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فترة حتى شق ذلك عليه فأحزنه فجاءه جبرئيل عليه السلام بسورة الضحى؛ يقسم له ربُّه - وهو الذي أكرمه بما أكرمه - ما ودعه وما قلاه، فقال تعالى:.

"وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ "(١).

صحبة أبي بكر الصديق:

وكان أبو بكر الصديق رجلاً مألفاً إليه صلى الله عليه وسلم، وأحبّ من بين أنداده في قومه قريش، وكان ذا خلق ومعروف، ورجلاً شريفاً، وذا نبل ومروءة، فلذلك نشأت بينهما صلة الحبّ والمؤانسة، وقويت هذه الصلة والصداقة، حتى أصبحت هذه الصداقة فيما بعد نموذجاً مثالياً للصداقة والحبّ، ولما أعلن الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(١) سيرة ابن هشام: ١/٢٤١.

www.abulhasanalinadwi.org

عن نبوته، أسلم أبو بكر، وأظهر إسلامه ومسّك بما جاء به صلى الله عليه وسلم؛ لم يتخلف عنه حتى في أشد المواقف، واصطبغ بصبغته، واطمأن به قلبه وعقله، ولم يتزلزل إيمانه إلى آخر حياته(١).

في غار حراء

وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل بعثته يقلق مما كان يراه حوله في مجتمعه من جهل وجاهلية، وانحطاط وفوضى في الأخلاق والدين، ويفكر ما هذا كله؟ وإن الإنسان يبتعد عن إنسانيته... فكان بأحاسيسه هذه يخرج إلى الخلاء، ويقضي ساعات خالياً بنفسه في غار خارج العمران، ومن الظاهر أن هذه الخلوة وميله إلى قضاء الوقت في الغار بعيداً عن أنظار الناس، كانت للبحث عن الحقيقة، والتأمل والتدبر في هذا الشأن، وكان هذا التدبر والتفكر نتيجة أحاسيسه العميقة، هذا وفي جانب آخر قرّر الله تعالى أن يبعث نبياً ليقوم بإصلاح ما فسد، وما انتشر في إنسان ذلك العهد في العالم كله؛ من سيئات ومنكرات، ومعاصي، وكفر وعصيان، واصطفى لهذه المهمة العظيمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فبدأت تظهر تباشير الصبح وطلائع السعادة بدنوّ أوان البعثة، فكان صلى الله عليه وسلم ـ حين أراده الله بكرامته وابتداه بالنبوة ـ يخرج من مكة ويبعد حتى تحسر عنه البيوت، ويفضي إلى شعاب مكة، ويطوف أوديتها، فلا يمرُّ بحجر ولا شجر إلاّ قال: السلام عليك يا رسول الله، فيلتفت حوله عن يمينه وشماله وخلفه، فلا يرى إلاّ الشجر والحجارة(٢)، فمكث رسول الله كذلك؛ يرى ويسمع، ما شاء الله أن يمكث، ثمّ كرمه الله بالنبوة وهو في الأربعين في عمره وهو سن النضج والكمال خَلقاً وخُلقاً.

---

١ المواهب اللدنية للقسطلاني ص: ٣٨.

٢ السيرة النبوية لابن إسحاق: ١/١٩١، وسيرة ابن هشام: ١/٢٣٤.

www.abulhasanalinadwi.org

الباب الرابع

بداية نزول الوحي، البعثة، والدعوة

كان سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بلغ الأربعين من عمره، وكان يخلو في "غار حراء" بنفسه، ويتفكر في هذا الكون وخالقه، وكان تعبُّده في الغار يستغرق ليالي عديدة، حتى إذا نفد الزاد؛ عاد إلى بيته، فتزوَّد لليالي أخرى، وفي نهار يوم الإثنين من شهر رمضان جاءه جبرئيل لأول مرَّة داخل غار حراء فوق جبل النور، وبلَّغ إليه أول رسالة سماوية، بدأ بها عهدُ النبوة، وقد ابتدأت هذه الرسالة السماوية بذكر العلم، وكان أمِّياً لم يدرس على الطريقة الرائجة للتعليم، فأكد الوحي الأول على ربط العلم باسم الله تعالى، وكان العلم قبل ذلك منفصلاً عن ذكر الإله.

ولما نزل عليه الوحي الإلهي خاف على نفسه في البداية؛ لأنه كان يحمل ثقلاً خاصاً لكونه حاملاً للسمو السماوي والعظمة الإلهية، فشعر الرسول صلى الله عليه وسلم بعظمة هذا الوحي وسموِّه، حتى بدأ يفكر كيف يحمله، وكيف يقوم بأداء حقِّه، ولكن الله تعالى الذي حمَّله هذه المسئولية العظيمة الجليلة، كان يعلم أنه قد تمَّ بناء شخصيته العظيمة، وتربيته تربية محكمة لائقة بحمل هذه المسئولية العظيمة، بل أصبح بفضل التربية الإلهية قادراً على أن يؤدي حقَّه أحسن تأدية وأكملها.

نزول الوحي في رمضان

نزل هذا الوحي الأول في ٢٧ / رمضان، وكان بألفاظ الله، وتقرّر أول آية لسورة " اقرأ " من بين سور القرآن الكريم، وكان في هذا

www.abulhasanalinadwi.org

الوحي أَمْرٌ بالقراءة، وإشادةٌ بالقلم، وكان صلى الله عليه وسلم أمِّياً؛ لا يعلم القراءة والكتابة. أمر بـ "اقرأ" وكان هذا الأمر بالقراءة مشفوعاً بالأمر بربط العلم باسم الإله، والإيمان بأنه ربك الأكرم، ثم استمر نزول هذا الوحي حتى اكتمل وأصبح الكتاب: "القرآن"، وكان ينزل الوحي من السماء مشتملاً على ما يحتاجه الإنسان المسلم من توجيهات وتعاليم، وعلى ما تقتضيه ظروف المسلمين من هداية وإرشاد فيما يهمُّهم، وتكوَّنت منها الشريعة الإسلامية، وعلاوة على هذا الوحي القرآني يأتيه الوحي بطريق الرؤيا الصالحة[1] وأحياناً يأتيه جبرئيل ويبلِّغه رسالة ربِّه بألفاظه، وبذلك بدأت سلسلة نزول الوحي، وتأتي إليه التوجيهات الربانية بشأن القيام بمسئولية العبادة، وتبليغ الرسالة.

تروي عائشة رضي الله عنها قصة نزول الوحي فتقول:

" أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي، الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء، فيتحنَّث فيه الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزوَّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطَّني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني، فقال: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ" (العلق: ١- ٥).

[1] صحيح مسلم بشرح الإمام النووي: ١٥/٣٦، كتاب الفضائل.

www.abulhasanalinadwi.org

فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال: زملوني، زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة، وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة: كلا، والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق" (١).

بين يدي ورقة بن نوفل

ثم قامت خديجة فجمعت عليها ثيابها، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وهو ابن عمِّها، وكانت له خبرة بالديانات وتاريخها، والنبوات وسننها، ومعرفة بأهل الكتاب الذين عندهم أخبار الأنبياء وعلمهم، فأخبرته ما أخبرها به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فقال ورقة بن نوفل: " والذي نفسي بيده إنك لنبيُّ هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى، وإن قومك سيكذبونك، ويؤذونك، ويخرجونك، ويقاتلونك " ثم أمَّنه، وقال: " وستواجه العراقيل والعقبات فلتثبت".

وتعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال ورقة بن نوفل: إنهم سيخرجونك، لأنه كان يعرف منزلته عند قريش، فلا ينادونه ولا يخاطبونه إلا بـ"الصادق" وبـ" الأمين". فقال متعجباً: "أو مخرجيَّ هم؟" قال ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عاداه الناس وحاربوه، وإن أدركت ذلك اليوم وطالت بي الحياة، أنصرك نصراً مؤزراً"(٢). ثم لم يَنْشَبْ ورقة أن توفي، وفتر الوحي.

---

(١) أخرجه البخاري، باب كيف بدأ الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم برقم: ٣، ومسلم برقم: ١٦، ومسند أحمد: ٣٣٣/٦، وتاريخ الطبري: ٢٩٩/٢.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢٣٨/١، بتصرف يسير، صحيح البخاري، باب بدء الوحي، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي.

www.abulhasanalinadwi.org

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمّياً، فلذلك لم يكن له علم بأهل الكتاب، وما ورد في الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء السابقين من بشارات بنبوته. ولأجل ذلك لما نزل عليه الوحي خشي على نفسه، واعتبر ما رآه في غار حراء شيئاً جديداً وغريباً، ولكن العلماء من اليهود والنصارى في عصره كان لهم علم بنبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكانوا يجدون في التوراة والإنجيل من صفته وصفة زمانه ما ينطبق على نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويجدونه مكتوباً عندهم في كتبهم المقدسة، كما كان لورقة بن نوفل علم بهذه البشارات والتصريحات؛ فلما جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبره بأنه نبي هذه الأمة، ولقد جاءه الناموس الأكبر، وقال: اثبت وابشر، إنه لملك، وهذا شيطان.

بشارات وردت في الكتب المقدسة السماوية:

وردت في إنجيل يوحنا، الباب الرابع عشر، بشارة نبوته:

" وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معزّياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد "(١٤- ١٦).

"وأما المعزّي الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي، فهو يعلّمكم كل شئ، ويذكّركم بكل ما قلته لكم" (١٤- ٢٦).

"ومتى جاء المعزّي الذي سأرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذي من عند الأب ينبثق، فهو يشهد لي" (١٥- ٢٦).

"لكني أقول لكم الحق، إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزّي، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم، ومتى جاء ذاك يبكّت العالم على خطيّة، وعلى برٍ، وعلى دينونة، أما على خطيّة فلأنهم لا يؤمنون بي، وأما على برّ فلأني ذاهب إلى أبي ولا ترونني

www.abulhasanalinadwi.org

أيضاً، وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين. إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن، وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية، ذاك يمجّدني" (١٥- ١٦)([1]).

وتؤيد ذلك الآيات القرآنية التالية:

"الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" (آل عمران: ١٥٧).

وورد في موضع آخر من القرآن الكريم:

"وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ"(الصف: ٦).

وإن الصفات التي عددها عيسى ابن مريم عليه السلام للنبي الآتي بعده، لتصدق على محمد صلى الله عليه وسلم مائة في المائة([2]).

ويثبت من خلال دراسة ما ورد في كتب السير والتاريخ الموثوق

---

[1] إنجيل يوحنا، الكتاب المقدس أي كتاب العهد القديم والعهد الجديد، Arabic Bible, ١٠/٥/٩٨, Published by: TBS, Tyndale House, Dorset Road, London, SW١٩ ٣NN, England, Printed in England by Clays Ltd, St Ives plc.

[2] انظر للتفصيل إلى كتاب" سيرة النبي" للعلامة سيد سليمان الندوي، المجلد الثالث، ص: ٤٣٣.

www.abulhasanalinadwi.org

الوالد وولده بصفة عامة، وكان في السنة الخامسة من عمره عندما تكفَّل به، وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الخامسة والثلاثين من عمره، فعاش معه عليٌّ كولده، كما اعتنى به كابن عمِّه، اعتناء كبيراً، وأدَّبه فأحسن تأديبه.

بناء الكعبة المشرفة

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذهب إلى الكعبة المشرفة بعاطفته الدينية، ليعبد الله فيها على الطريقة المأثورة عن أجداده بناة الكعبة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، قدر معرفته لها، وكان ينفر عن عبادة الأصنام الرائجة في مجتمعه، فكان يعبد ربه كما يعلم بعيداً عن عبادة الأصنام، فبينما هو كذلك إذ شعر الناس بإعادة بناء الكعبة ومرمتها، وكانت الكعبة غير مسقفة، وكانت رضماً مفرق القامة، فكانت في حاجة إلى تجديد بنائها لِمَا أصابها من حريق وسيل جارف، صدع جدرانها لوقوعها في سهل الأرض، فهمّهم أمرُها، فأرادوا هدمها ليرمموها ويسقفوها، وعلمت قريش أن البحر قد رمى بسفينة إلى جدّه لرجل من تجار الروم، فتحطمت، فأخذوا خشبها، فأعدوه لتسقيفها، وشاركت سائر القبائل من قريش في نقل الحجارة، ورفعها؛ لكون الكعبة مركزاً مقدساً للعبادة، وقد شارك النبي صلى الله عليه وسلم وعمُّه العباس في بناء الكعبة، وكانا ينقلان الحجارة، وكان صلى الله عليه وسلم في السنة الخامسة والثلاثين من عمره، كان يحمل الحجارة على كاهله إلى البنيان، فكدحت كاهله، فلما بلغ البنيان موضع الركن اختصموا في الحجر الأسود؛ كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، وكادوا يقتتلون فيما بينهم؛ لنيل هذا الشرف، مكثوا على ذلك أياماً، ثم اتفقوا على أن أول من يدخل من باب المسجد، يقضي بينهم، فحصل للرسول هذا الشرف؛ شرف فصل

www.abulhasanalinadwi.org

نجد لك في التوراة نعتك وصفتك ومخرجك، وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وإنك رسول الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: أقيموا هذا من عند رأسه ولوا أخاكم(١).

وعندما ينشب صراع أو قتال بين العرب واليهود يقول اليهود للعرب متوعدين: أنه قد أظل زمان يظهر فيه نبي، ونقاتلكم معه، وتحصل لنا الغلبة والسيطرة عليكم، وقد أشار القرآن إلى ذلك فيقول:.

" وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ"(البقرة: ٨٩).

وقد وردت في عدة مواضع من القرآن التشنيع والتقريع على اليهود على كفرهم وانحرافهم عن إيمانهم السابق.

"وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ" (البقرة: ١٤٤)، و"الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ" (البقرة: ١٤٦)، "الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ" (الأنعام: ٢٠).

بشارات في الفيد بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم

ولقد وردت صفات سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في كتب الهندوس المقدسة وخاصة الفيد ومنها:

١) يحمد محمد ويمدح ويكون محبوباً لدى الجميع (رك فيد: ١- ٣١- ٣).

٢) يستخدم محمد الإبل للسفر والركوب (اتهروفيد: ٢/١٢٧- ٢٠).

٣) يؤتى محمد العلم الإلهي (رك فيد سنهتا: ٣/١٣- ١).

٤) يكون محمد أجمل ممن تلد النساء، ويدعو إلى العلم (رك فيد:

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة.

www.abulhasanalinadwi.org

٢/٣- ٢).

٥) ينقذ محمد الناس من الآثام (رك فيد: ٤/١٠٦- ١).

٦) يسمى محمد باسم محمد من بين أسمائه في الدنيا (اتهروفيد: ٣/١٢٧- ٢٠).

٧) يكون محمد صاحب عشرة سبحات (اتهروفيد: ٣/١٢٧- ٢٠)

٨) يكون محمد صاحب عشرة آلاف بقرة (اتهروفيد: ٣/١٢٧- ٢٠).

٩) يثنى على محمد (رك فيد: ٣/١٣- ١).

١٠) يقوم بثورة شاملة في المجتمع، ويقضي على السيئات (بكهوت بران ١٢، اسكند، ١٢ دهيائي، ٢١ شلوك).

١١) إذا تمس رائحة "كلكي" الناس تصفو قلوبهم من الأنجاس، (بهكوبران ١٢، اسكندر، ١٢ دهباى، ٢١ شلون).

١٢) يبعث النبي الآخر هادياً للعالم.

فكل من له إلمام بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحياته الطيبة يعترف أن الصفات المذكورة أعلاه لتصدق بمعنى الكلمة على محمد صلى الله عليه وسلم، لا غير.

الشريعة المحمدية وصلتها الوثيقة بالعلم والقلم

كان الوحي الأول المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بـ"اقرأ باسم ربك" إشارة واضحة إلى أن الدين الحق، والدعوة إليه، وتعليمه وشرحه مرتبط ارتباطاً قوياً عميقاً بالعلم والقلم. كان الإنسان قبل البعثة المحمدية يستخدم العلم والقلم لإشباع الغرائز، وتحقيق شهوات النفس وأهوائها، وإبداء الشعور بالكبرياء والاستعلاء، وإظهار العظمة والغطرسة، وتسخير كفاءاته وقدراته لنيل رغباته الدنيوية، وإخضاع الضعيف لأمره، وإبراز تفوُّقه وطاقته، فحوَّلت البعثة المحمدية

www.abulhasanalinadwi.org

اتجاه العلم والقلم من الفساد والدمار إلى الصلاح والبناء، وعلمت الإنسان أن يجعل العلم والقلم وسيلة العمل بالأحكام والتعاليم الإلهية، ووسيلة الإرشاد والإصلاح، والدعوة إلى الخير والفضيلة، ووسيلة الهداية التي ألقيت مسئوليتها عليه بصفته خليفة الله في الأرض.

وكذلك يدل الوحي الأول على أن النبي الأمي الذي لم يكن يعلم القراءة والكتابة على الطريقة الرائجة حينذاك؛ بل ربّاه ربُّه الله وأدّبه بطريقة خاصة فأحسن تأديبه، لم يبعث معلماً لقوم أمي مثله، بل كانت بعثته عالمية شاملة؛ بعث ليكون معلم النوع البشري كله، بل إنه هو معلم كبار العقلاء وخبراء العلم في العالم، وإنه بعث ليبلغ رسالة ربِّه إلى سائر الناس، ويهديهم في كلِّ ما يهمُّهم في دينهم ودنياهم، للتي هي أقوم، وبذلك أصبح الوحي المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم متلواً (القرآن) كان أو غير متلو (الحديث) مصدراً ومنبعاً للعلوم والمعارف التي فيها خير الإنسان وصلاحه، كما أصبح هذا الوحي الإلهي بمثابة نور لكل من يتوخى البحث والتحقيق من حملة الحق والإرشاد، ودافعاً وحافزاً للهمم والعزائم للمضي قدماً في مجال العلم والتحقيق، فتفجرت بفضل هذا الوحي الإلهي ينابيع العلم والهدى والإنسانية، لا يوجد لها مثيل في التاريخ الإنساني كله، ولم يكتف المسلمون بالتراث العلمي القديم، بل أضافوا إليه إضافات قيمة دسمة، وهذبوه ونقحوه وطوروه، ثم اخترعوا علوماً جديدة لم تكن من قبل، ثم ظهرت في هذه العلوم تحقيقات نادرة، وإبداعات باهرة، واكتشافات علمية عجيبة، واختراعات دقيقة وبديعة، تزدان بها الإنسانية وتفتخر بها، ونشأت علوم جديدة ومتنوعة، تتصل بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف؛ كعلوم القرآن، وعلم التفسير،

www.abulhasanalinadwi.org

وعلوم الحديث، وألفت مكتبات ضخمة في هذا المجال، فبذلك أصبحت الأمة المحمدية أمة العلم بالإضافة إلى كونها أمة الدعوة والهداية للإنسانية وإسعادها.

وقد هدى الوحي الإلهيّ الأول المنزَّل على رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمنين به إلى طريق في العلم قد تقرّر ضماناً لفلاح الإنسانية وسعادتها، و بربط "اقرأ" بـ"اسم ربك" تبيَّنت الحقيقة الأساسية وهي أن القراءة والتعليم مرتبط بالرب خالق الكون، ويقتضي ذلك من الإنسان أن يربط كل ما يناله من علوم ومعارف، أو يقوم به من تحقيقات وبحوث، باسم خالقه الله رب العالمين؛ لئلا يضلّ الطريق، ولا يغويه غاو، وذاك أن الإنسان مركب من عناصر مختلفة: عنصر الرضي والسخط، وعنصر الرغبة والحب، وعنصر الكراهية والعداء، ويخطئ ويصيب، وقد يختار وجهة غير راشدة، ولكنه عندما يربط علمه بخالقه رب العالمين يكون محفوظاً ومصوناً من الخطأ والزلل، والزيغ والضلال، وكذلك يطلع على حقائق لا يعلمها إلا الله، ولا يستطيع أحد غيره أن يعلم الإنسانَ إياها، وهذه الحقائق الغيبية لا تحصل إلا بالوحي الإلهي، هذا، وفي جانب آخر جعل الله القلم وسيلة لكسب العلم ونشره، والقلمُ خير وسيلة لصيانة العلم وبقائه، والاستفادة منه إلى أن يرث الله الأرض.

فبذلك يتفرع من العلم فرعان: أحدهما فرع العلم المادي الذي يتعلق بالمطالب الدنيوية والحاجات المادية، وقد حثَّ خالقُ الكون الإنسانَ على كسب هذا العلم المادي، وأما الفرع الثاني فإنه هو العلم الأخروي الذي يرشد الإنسان في الدنيا الفانية الزائلة إلى طرق وأعمال تساعده في نيل رضي ربِّه في الحياة الأخروية الأبدية الدائمة الباقية، والعلمُ المادي يناله الإنسان ويرقّيه ويستفيد منه في حياة الدنيا بعقله وتجاربه، والعلمُ الأخروي

www.abulhasanalinadwi.org

الهادي إلى حياة الآخرة التي تخفي على الإنسان في الدنيا، لا يحصل إلا بفضل الله ومشيئته، والله يعلّم عبده هذا العلم عن طريق النبوة والرسالة، أو إرسال أنبياء ورسل عبر العصور والدهور، وقد ختم سلسلة النبوة بإرسال محمد كخاتم النبيين، لن يبعث بعده نبيٌّ إلى يوم القيامة، وجعله الله نبياً خاتماً، وهادياً ومعلماً لهذا العلم الأخروي الجامع الواسع الأطراف الذي يكمن فيه فلاحُ الإنسان في الدنيا والآخرة.

وقد علّم الله نبيَّه محمداً هذا العلم العظيم بإنزال القرآن المجيد عليه، وبالوحي إليه، وفرض الله على الإنسان بعد تعليمه هذا العلم، أن يعمل به ويقضي الحياة في ضوئه، كما قرّر الله أن يبقى هذا العلم إلى يوم القيامة، وبيَّن أن كل من يعمل به يجد الجزاء الأوفى، ومن لا يعمل به سيجزى جزاء سيئاً، ويعذَّب عذاباً أليماً، ولذلك كتب الله على الإنسان أن يتعلم من هذا العلم الديني الذي أتى به النبي، ما يعينُه على التجنُّب من أعمال تجلب سخط الله وغضبه، وعلى القيام بأعمال تجلب رضي الله ورحمته، وهذا ما يسمى بـ " الشريعة "، ولم يزل يعلم الله تعالى عباده هذا العلم الإلهي عن طريق إرسال أنبياء ومرسلين؛ ولكن كانت نبوتهم محدودة، وخاصة بمنطقة دون منطقة، وقوم دون قوم، وكانت الشرائع تنسخ، ولكن محمداً صلي الله عليه وسلم هو النبي الخاتم والرسول العالمي الذي تقرَّرت شريعتُه شريعة جامعة عالمية شاملة ودائمة باقية إلى يوم القيامة، وهي للبشرية جمعاء، وللعالم كله، ولكافة الأقوام والملل، والشعوب والأمم.

الشريعة الشاملة الأبدية

فإن الشريعة التي أتى بها محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، أصبحت شريعة دائمة باقية إلى أن يرث الله الأرض، وجعلت لكافة

www.abulhasanalinadwi.org

الناس في مشارق الأرض ومغاربها، في سائر العصور والأمصار، على السواء، وجميع الناس فيها سواسية؛ لا تمييز بينهم على أساس اللون أو الوطن أو الجنس أو اللغة، وبذلك جعل الله نبيَّه محمداً خاتم الأنبياء والرسل، وجعل شريعته كاملة جامعة لا يجري فيها زيادة أو نقصان، ونِيْطَ بقاءُ الشريعة الإلهية وصيانتها بهذه الشريعة الكاملة، ولذلك فرض على الإنسان أن يعرفها ويطبقها على حياته، وإن الشريعة التي أتى بها محمد صلى الله عليه وسلم لا تختلف في أساسها وأصلها عن الشرائع السابقة التي أنزلت على النبيين السابقين، فبذلك ليست بدعاً، أو أمراً جديداً، بل إنها حلقة أخيرة متممة لسلسلة النبوة والرسالة، إلا أن الشرائع السابقة كانت خاصة بعصر دون عصر، ومنطقة دون منطقة، وقوم دون قوم، وأن الشريعة التي أنزلت على محمد صلى الله عليه وسلم هي شريعة كاملة شاملة عالمية لكافة الناس في كل عصر ومصر، لتساير ركب الحضارة والتقدم، وتقدم حلولاً ناجعة للقضايا والمشاكل والأزمات التي تواجه الإنسانَ، وتصلح للقيادة والسيادة، وتهدي الإنسان المؤمن بها في كل ما يهمُّه في شئون حياته الفردية، والاجتماعية، والسياسية، والدينية، والحضارية.

مبادئ الشريعة المحمدية

١. المحور الأساسي المشترك الذي تدور حوله الشريعة المحمدية وتشاركها فيه الشرائع السابقة كلها، هو مبدأ التوحيد الذي يتطلب منا أن نؤمن بأن الله تعالى هو الذي خلق الإنسان والجان، والمخلوقات الأخرى كلها، وهوالذي يرزقهم، وهو الذي جعل السموات والأرض، وخلق الكون ويدبر الأمر فيه، فالإيمان به وإخلاص العبادة له واجب لا يصِحُّ الإعراض عنه بأي حال من الأحوال، والإشراكُ به

www.abulhasanalinadwi.org

والعبادةُ لغيره والسجودُ والخضوعُ لأحد سواه ظلم لا يغفر، وعمل يجلب سخط الله وغضبه، ولم يأذن الله بأن يشرك أحد في عبوديته وألوهيته وربوبيته وقدرته وخلقه، هذا هو التوحيد الخالص الذي دعا إليه سائر الأنبياء والمرسلين في عصورهم، وقد أمروا بذلك في الكتب المنزلة عليهم، أو الوحي المنزل إليهم بغاية من الأهمية والقوة، فكلٌّ كتاب من الكتب الأربعة السماوية: التوراة الذي أوتي موسى، والإنجيل الذي أوتي عيسى، والزبور الذي أوتي داود، والقرآن الذي أنزل على محمد ـ صلى الله عليهم وسلم ـ يدعو إلى التوحيد الخالص لله رب العالمين بكل طريق يفهمه مخاطبُه.

٢. المبدأ الثاني هو الإيمان بالأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله إلى عباده في فترات التاريخ المختلفة؛ ليعلموهم أوامر خالقهم ونواهيه، لأنهم لا يقولون إلا ما يوحى إليهم ولا يفعلون إلا ما يؤمرون به، فتعاليمُ كل نبي هي الرسالة الإلهية المنزلة إليه من عند الله، فيبلغها إلى قومه الذين أرسل إليهم، ويقول: إني رسول الله إليكم ولا أقول إلا ما أوحى إليَّ ربي اللهُ، فاتبعوا ما جئت به إليكم من عنده، فالإيمان بالرسل هو المحور الثاني للشريعة الإسلامية.

٣. المبدأ الثالث هو الإيمان باليوم الآخر، وهو أن نؤمن بأن هذه الحياة الدنيا تفنى وتزول، ثم تبدأ الحياة الأبدية الدائمة، وهي دار القرار والبقاء، ينتقل إليها كل إنسان لا محالة، ويجد فيها جزاءه قدر عمله في الدنيا حسب تعاليم النبي المرسل إليه.

٤. المبدأ الرابع هو الإيمان بملائكة الله، وقد خلقهم الله تعالى لعبادته، وهم مخلوق سماوي يسكنون في السماء، لا يراهم الإنسان، وهم في أغلب الأحيان ينزلون إلى الأرض بشكل غير مريئ، ويبلغون

www.abulhasanalinadwi.org

رسالات ربهم إلى الأنبياء، وهم يفعلون ما يؤمرون، ولا يعصون أمر ربِّهم، ويسبحون باسم ربهم كل وقت، ولا يفترون عن عبادته ولا يستكبرون.

٥. المبدأ الخامس هو أن نؤمن بأن الله هو الذي خلق سائر المخلوقات والكائنات، ولم يخلقهم عبثاً؛ بل خلقهم لغرض معين، كان قد تقرَّر قبل خلقهم، كما كان قد تقرَّر كيف يقضون حياتهم في الأرض، فكل شيء؛ خيراً كان أو شراً، يقع كما يريد الله، ويسمى ذلك الإيمانُ بقدر الله؛ خيره وشره، ثم تكون بعد هذه الحياة الدنيا الفانية حياة الآخرة الباقية التي يجد فيها الإنسان جزاء ما عمله في الحياة الدنيا، ويجزى جزاء حسناً أو جزاء سيئاً حسب عمله.

هذه هي المبادئ والأسس للدين التي يسمى العمل بها وفق تعاليمها وأحكامها "الشريعة" وهي التي عبر عنها القرآن بالإسلام، وهو مقبول عند الله ومقرر من عنده، فقال: "إِن الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ" فالدين هو الإسلام.

ويعبر الإيمان بالمبادئ والأسس المذكورة أعلاه بالعبارة التالية:

"آمنت بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره من الله تعالى، والبعث بعد الموت".

وبعد الإيمان بهذه المبادئ والأسس تأتي مرحلة ا لعمل بها وتطبيقها على الحياة عملياً، وهذا ما يسمى بالشريعة التي تبين طرق قضاء الحياة في الدنيا وفق أحكام الله وأوامره، والشريعة تشتمل على توجيهات وتعليمات منزلة على النبي عن طريق الوحي، وكل نبي ورسول يعلم الإنسان ما يتطلب منه ربُّه الله من عبادة وشكر على ما أنعم به عليه، والسلوك الحسن مع الآخرين، كما يعلمه طرق نيل نعم الله والاستفادة منها، وطرق اتباع

www.abulhasanalinadwi.org

أحكام الله، ولا يقول نبي إلا ما يوحى إليه، فبهذا الطريق يجمع الدين الإسلامي الذي أكمل على النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم، بين العلم والعمل معاً، لا يفرق بينهما.

رسالة التوحيد للإنسانية جمعاء

قد قام أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام وهو من أجلّ وأعظم أفراد أسرة محمد صلي الله عليه وسلم قبل مولده بقرنين ونصف أو ثلاثة قرون، بتأسيس حركة التوحيد العالمية، وقد مرّ في هذا السبيل بأقسى مراحل الابتلاء والمحنة، وقدم تضحيات مثالية خالدة في سبيل نيل رضا ربّه، وكان إبراهيم عليه السلام قد أدرك التوحيد في صباه لفطرته السليمة الزكية، ودعا إلى التوحيد الخالص، ونبذ الشرك مدوياً مجلجلاً، ولم يبال بما واجهه من جفوة وقسوة وشدة من قبل قومه، وهجرة الوطن العزيز الحبيب والولد الرضيع الحبيب والزوجة الوفية الحبيبة، وقد ذكر كل ذلك في مواضع متعددة من القرآن الكريم: "وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ" (الأنبياء: ١٥- ٥٣).

ثم بارك الله تعالى في أسرته الكريمة، وأنعم عليها نعماً كثيرة، ووضع في نسل ابنه إسحاق النبوة والرسالة، فبعث الله في أسرته أنبياء ورسلاً، قاموا بالدعوة إلى التوحيد الخالص، وقاوموا الطاغوت والشرك، ونالت أسرته بفضل النبوة والرسالة مكانة مرموقة، وعزاً وشرفاً، ولكن حين استشرى الفساد في نسل إسحاق الذي عرف بـ" بنو إسرائيل" لعدوانه وعصيانه و انحرف بنو إسرائيل عن التوحيد، وضلوا الصراط المستقيم ضلالاً بعيداً، بعث الله تعالى في أولاد إسماعيل بن

www.abulhasanalinadwi.org

إبراهيم عليهما السلام محمداً بصفته نبياً عالمياً خاتماً، وأوصاه أن يسلك طريق إبراهيم الذي جعل الله من نسله أنبياء ورسلاً، دعا كل منهم إلى التوحيد والوحدانية في عصره، ودعا قومه إلى الله رب العالمين، كما أوصى بها إبراهيم بنيه: وقد جاء في القرآن الكريم:

"وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ" (البقرة: ١٣٢).

كان إبراهيم عليه السلام قد ركّز جل عنايته على هذه الدعوة دعوة التوحيد، ونذر لها حياته كلها، وسقاها بمهجته ودمه، ودعا إليها قومه ليل نهار، وسراً وعلانية، ونصحهم، وتحمَّل المشاق والمصائب، وقدَّم تضحيات جليلة عظيمة في سبيل التوحيد، وجدَّد بناء الكعبة المشرفة في مكانها المقرر من عند الله في مكة المعظمة؛ لتكون نقطة انطلاق لدعوة التوحيد، وترتفع منها راية التوحيد عالية مرفرفة، وتكون مناراً للهدى ومثابة للناس وأمناً، وأسكن في أرض مكة القاحلة الجدبة ابنه الحبيب الرضيع إسماعيل مع أمِّه هاجر، وقد أصبح ابنه هذا فيما بعد ذريعة لنشر التوحيد في أرجاء المعمورة كلها، فانصرف أولاده إلى عبادة الله وحده، وقد عاهدوا الله أنهم يدعون الناس إلى التوحيد الخالص، وينشرون الحق، ويتواصون به، وظلوا متمسكين بهذه الدعوة، متمسكين بالتوحيد، وبعبادة الله وحده، حتى ظهر فيهم رجل (يقال له عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي) تأثر بعبادة الأصنام خلال رحلاته إلى العراق والشام، فرأى أهلهما يعبدون الأصنام، ففتن بها، فجلب بعضها إلى مكة، ونصبها، وأمر الناس بعبادتها وتعظيمها، فانتشرت الوثنية في مكة، وأغرق أهلها في الوثنية، وأولعوا بالأصنام، وجرى حبُّها منهم مجرى الدم، فكان في جوف الكعبة وفنائها

www.abulhasanalinadwi.org

ثلاثمائة وستون صنماً، واستمرت هذه الحالة حتى بعث الله تعالى فيهم رسولاً منهم ليعلمهم ويزكيهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور، واصطفى لهذه المهمة الجليلة محمداً صلى الله عليه وسلم الذي أكمل الله عليه دينه، وأتم عليه نعمته، وهي النبوة والرسالة، وجعل أمته مسئولة عن إبلاغ الدعوة إلى الأجيال القادمة إلى يوم القيامة، ونيطت بها مهمةُ الدعوة إلى العقيدة الصحيحة السليمة، والتوحيد الخالص، وعبادة الله وحده، والابتعاد عن الأصنام والأوثان التي صنعوها بأيدهم، كما أمر أتباع محمد صلى الله عليه وسلم بأن يعلموا الناس أن أمر سائر الأكوان بيد الله، وهو الذي خلقهم وخلق السموات والأرض وما فيهما، ولم يخلقهم عبثاً، بل خلقهم ليعبدوه مخلصين له الدين، ويطيعوه في كل شأن، وكلُّ من ينحرف عن طريقه المستقيم يجد في الآخرة عذاباً أليماً، ويحاسب حساباً عسيراً.

وكان أهل مكة قبل البعثة المحمدية قد ضلوا الطريق المستقيم، وحادوا عن طريق التوحيد، وكانت الأوضاع الفاسدة في أشد حاجة إلى من يقوم بإصلاحها وإسعاد البشرية التائهة، فاختار الله تعالى محمداً ليكون نبياً مرسلاً، وكان قد دعا إبراهيم عليه السلام جدُّ أهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم، يتلو عليهم آياته، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويزكيهم، فتقبل الله دعاءه، واختار بعد فترة طويلة محمداً كنبي مرسل، وأعلن أنه لا نبي بعده إلى يوم القيامة، فمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو النبي الخاتم أرسل للناس كافة، ولسائر العصور والأمصار، ولجميع الأمم والأقوام والملل، فيتبين من ذلك أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو امتداد لنبوة جدِّه إبراهيم، وتجديد لدعوته، وطريقهما واحد وهو الدعوة إلى التوحيد. وقد أكمل الله كتابه المنزل

www.abulhasanalinadwi.org

على محمد صلى الله عليه وسلم تدريجياً، وكان جبرئيل عليه السلام ينزل عليه بالتوجيهات الربانية والأوامر والآيات الإلهية كما تقتضى الظروف والحاجة، حتى اكتمل في ٢٣ سنة، ويحتوي هذا الكتاب العظيم بالإضافة إلى تعاليم العمل الصالح وتوجيهاته على قصص وأحوال للأنبياء تبين ما تعرضت له الأقوام السابقة من عذاب، للإشراك بالله وعصيان أمره، ومخالفة أنبيائه المرسلين، فإن يرتكب أهل مكة والقبائل العربية أعمالاً تسخط الله فإن عذاب الله الشديد ينزل عليهم، فعليهم أن يعتبروا بما نزل على الأقوام السابقة بسبب الكفر والشرك من عذاب ونكال، وعقابات شديدة، ويطيعوا النبي المرسل إليهم، ويعودوا إلى الحق، ويصلحوا أنفسهم بتوجيه النبي الخاتم الذي عرفوا خلقه المثالي، وأمانته، وصدقه من قبل.

القرآن المجيد

إن هذا الكتاب المقدس "القرآن المجيد" المحتوى على ذكر أحوال الأقوام الغابرة، وبيان حقيقة التوحيد والشرك، والفرق بين الخير والشر، بأسلوب مؤثر مقنع، أنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بلسان عربي مبين، كان يفهمه العرب، فتأثروا به بمجرد سماعه، واستيقنوا أن محمداً وهو أمي لا يستطيع أن يأتي بمثل هذه المبادئ والحقائق من عند نفسه، وفوق ذلك يحمل هذا القرآن بلاغة عالية، وفصاحة نادرة، لا يستطيع الإنسان أن يعارضها، ولا يقدر عليها، فهذا الكتاب العظيم في الواقع منزَّل من عند الله إلى الأرض، وبذلك تقرَّر أن هذا الكتاب الخارج عن طاقة البشر معجزة منحها الله نبيه الخاتم محمداً، ليعلم الناس أن الرسول لا ينطق عن الهوى، بل يقول ما يوحى إليه، وإن الكتاب الذي يقدمه هو فوق طاقته وصلاحيته، وهو دليل على أن كل ما يقوله

www.abulhasanalinadwi.org

الرسول، يأتيه من السماء، كما يدل على أن هذا الكتاب وحى يوحى إليه، وكان آية منه، آية من آيات الله، ومعجزة باهرة، وقد أثبتت ذلك الوقائع أيضا، فكل من سمع هذا الكلام الرباني بذهن مفتوح وبدون تعصب تأثر به وآمن به، فكان معظم الداخلين في الإسلام في مكة ممن آمنوا بمجرد سماع آيات من القرآن الحكيم.

دعوة إصلاح العقائد الباطلة

كانت مكة مكاناً مركزياً ومقدساً في الجزيرة العربية كلها، كما كانت نقطة اتصال في العالم، فكان أهلها أحق من غيرهم لأن يُدْعَوْا إلى الدين الحق أولاً، ثم تنطلق منها الدعوة الحقة إلى أرجاء المعمورة كلها، وكان العمل الدعوى في مكة ذا أهمية قصوى، لكونها منطقة رئيسية، ولأن العالم كله يتأثر بما يقع فيها، فنظراً إلى هذه الأهمية القصوى للعمل الدعوي عكف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على القيام بالدعوة إلى الله بكل ما أمكنه سراً وعلناً، وليلاً ونهاراً، يدعو الناس أن يؤمنوا بالله ا لواحد، ويهجروا عبادة الأصنام، ويقول لهم: إن هذه الآلهة لا تضر ولا تنفع شيئا، ويقول: إنى رسول الله إليكم، فآمنوا بي، وأنا خاتم الأنبياء، ولا نبي بعدي، وعليكم أن تؤمنوا بالبعث بعد الموت، وبعد فناء الحياة الدنيا تكون حياة الآخرة، فخذوا أهبتكم لها، وإن الدنيا مزرعة الآخرة[1] وتحصدون في الآخرة ما تزرعونه في الدنيا، أي تجزون في الآخرة ما تعملون في الدنيا.

وكان كفار مكة والمشركون يعتقدون بوجود الملائكة والجن، ولكنهم يقولون: الملائكة بنات الله؛ كأنهم يعتقدون أن الملائكة يملكون

---

[1] السيرة الحلبية: ٤٦١/١، ط: شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر ١٩٦٤م.

www.abulhasanalinadwi.org

القوة والقدرة والتصرُّف في العالم، كما يفعل الله، ويقدسونهم كما يقدسون الله، ويقولون في الجن: إنهم أرواح خبيثة، فيعقدون بها الرجاء والخوف، ويعظمونها لنيل رضاها ويطلبون منها العون، وغير ذلك يعتقدون بها خرافات وعقائد فاسدة، ملكت عليهم نفوسهم وقلوبهم، فقام النبي الخاتم محمد صلي الله عليه وسلم بإصلاح هذه العقائد الفاسدة بشأن الملائكة والجن، وعلم أهل مكة أن الملائكة مخلوق من مخلوقات الله الأخرى، وهم يحتاجون إلى أحكام الله، ويفعلون ما يؤمرون ولا يعصون، ولكنهم مخلوق لا تراه الأنظار، ولا تبصره الأبصار، وقررهم الله أن يعبدوه ولا يعصوا ما يأمرهم، والجن مخلوق كالإنسان، وكتب عليهم كالإنسان أن يعبدوا الله ولا يخالفوا أوامره، وجعل الله الإنسان أشرف المخلوقات، وجعله أفضل أفراد البشر، وأكرم وأشرف من بين سائر المخلوقات([1]).

دعوة إلى الأخلاق ورسالة للإنسانية

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم بالإضافة إلى دعوة أهل مكة إلى إصلاح العقائد، يدعوهم إلى مكارم الأخلاق، والفضائل الإنسانية، ويركز على اختيار الصفات النبيلة، والاتصاف بكريم السجايا والشيم؛ من المؤاساة والمؤازرة، والتضامن والتعاون، والأخوة والمحبة، والامتناع عن إيذاء الآخر، وتجنب سائر الأعمال التي تسبب الفساد والتحارب، والصراع والدمار، والرحمة والعطف على الناس، والسلوك الحسن، والعفو والصفح، والصبر والحلم، والأناة والتحمل، ويقول: الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى، ارحموا من في الأرض، يرحمكم من في السماء". ودعا الرسول إلى التوجيهات

[1] ذكر ذلك الترمذي في سننه والحاكم في مستدركه وأحمد في مسنده.

www.abulhasanalinadwi.org

والتعاليم الإلهية التي اشتمل عليها القرآن أو ما أوحي إليه مباشرة، وذكّرهم بما ورد في القرآن من أحوال للأمم السابقة، وتعاليم للأنبياء المرسلين إليها، عبر العصور والدهور، وما وقع معها لعصيانها للتوحيد، وعبادة الله وحده، ثم الدعوة إلى الأخلاق الإنسانية الفاضلة، فيقول القرآن الكريم في سورة الإسراء:

"وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُورًا وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ

www.abulhasanalinadwi.org

مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا" (الإسراء: ٢٣- ٣٩).

هذه هي التوجيهات الربانية والتعاليم الإلهية التي وجهها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في صورة "الإسلام" إلى أهل مكة، ثم دعا العرب إلى اختيارها، ثم حملوا مسئولية إبلاغها إلى الأجيال القادمة إلى يوم القيامة.

لُقِّنُوا بأن الإسلام يتكون من العقيدة والعمل، وقد سبق ذكر العقيدة، وقد ذكرتُ ضمن العمل بالعقيدة، أربعة أعمال، فالإسلام يشتمل على خمسة أركان، أولها: العقيدة وهي تشتمل على الإيمان بالتوحيد والرسالة والآخرة، والإيمان بالكتب السماوية والملائكة والقدر خيره وشره، وأما بقية الأركان الأربعة التي تشمل الصلاة والصيام، والزكاة، والحج، فقد بينها الحديث النبوي الشريف التالي:.

"بني الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة وحج بيت الله وصوم رمضان"(١).

وبين النبي الخاتم أن هذه الأعمال هي أعمال أساسية للعبادة والطاعة، ويجب بالإضافة إلى ذلك أن يحلّى العبد حياته بالصفات الطيبة، والأخلاق الفاضلة المرضية، ويتجنب السيئات والمنكرات، ويتحاشى عن الظلم والاعتداء.

هذه هي الدعوة الإسلامية الحقة التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله إلى عباده، وهي دعوة دائمة أبدية باقية إلى يوم القيامة، وأعلن أن السعادة والفوز الحقيقي لا يتأتى للعبد إلا بالعمل بالتعاليم الإلهية التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم، ولن يُقْبَلَ منه

(١) صحيح البخاري رقم: ٨، ومسلم رقم: ١٦.

www.abulhasanalinadwi.org

أي دين إلا الإسلام، فقال عز وجل:

"إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ" (آل عمران: ١٩).

وجاء في مكان آخر:

"وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ" (آل عمران: ٨٥).

فيتبين من ذلك كله أن النجاة والسعادة الدائمة تكمن في العمل بتعاليم الإسلام وتوجيهاته وأحكامه، وكل من يبتغ غير الإسلام دينا آخر لينال الفلاح أو السعادة في الآخرة، فلن يصل إلى ما يتوخاه، ويذهب مسعاه سدى، ويكون خائباً وخاسراً، وقد بلغ الرسول هذه التعاليم والتوجيهات إلى كل من أمكن إيصالها إليه، وقدم أسوة عملية لما جاء به قدر استطاعته؛ من تعاليم وأحكام إلهية، فهذه التعاليم الإلهية والتوجيهات الربانية والأسوة النبوية تشمل سائر جوانب الحياة الإنسانية، وتحيط بها، وهذه التعليمات الإلهية والنبوية منزلة من الله الذي يحيط علمه بسائر حاجات الإنسان وطبائعه إحاطة كاملة، فإن الأحكام أو الشريعة التي قررها الله بالوحي إلى نبيه، قد روعيت فيها مراعاة تامة لمصالح الإنسان ومقتضياته، لأنه هو رب العالمين، وهو الذي خلق الخلق كله، وهو خبير بطبائع الإنسان وحاجاته، وهو الرحمن الرحيم، فقال: "أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ" (الملك: ١٤).

هذه هي التعاليم الإلهية التي بدأ بها الإسلام، وأمر أتباع الإسلام والمؤمنون به أن يسلكوا مسلكه، وينهجوا منهجه إلى يوم القيامة، ولا ينحرفوا عنه قيد شعرة.

وعلى كل حال، فإن سلسلة بعثة الأنبياء والمرسلين التي بدئت لإيصال الدعوة والرسالة الإلهية إلى عباد الله في الأرض قد أكملت

www.abulhasanalinadwi.org

على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، واختتمت عليه سلسلة النبوة، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونشر الدعوة التي ألقيت عليه مسئوليتها، وتحمّل في سبيلها الشدائد والصعاب، وقاسى المحن والابتلاءات، وقدم تضحيات عظيمة حتى انتشرت الدعوة الإلهية، وألقى الإسلام بجرانه، فدخلوا فيه أفواجاً، وقد ضرب الرسول مثلاً عالياً للصبر وتحمُّل الأذى، ومؤاساة الإنسان، وطلب الخير له، والحلم والأناة، والحكمة والاستقامة، وكلٌّ من قبل الإسلام واتبعه تحلى بهذه الصفات العظيمة، وائتسى بأسوة نبيه، وكان قد قرر الله تعالى أن يتم هذا الأمر، وأن النبي وأتباعه سيمرون في سبيل إبلاغ هذه الدعوة، من خلال المحنة والشدة والجفاء، كما قرر أن البعثة المحمدية ليست لإصلاح أهل مكة ونواحيها فحسب، بل بعث النبي العالمي لإصلاح العالم كله ووعده الله بنصره وحمايته على القيام بهذا العمل الدعوي، يقول: "إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ" (محمد: ٧).

فعلى المستوى الفردي واجه النبي الخاتم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومتبعوه أنواعاً من الأذى والتعذيب والقسوة، في سبيل الدعوة إلى الله في مكة، وقضوا ثلاث عشرة سنة في المحنة والبلاء، ثم انتقلوا من مكة إلى المدينة التي كانت تدعى "يثرب" للقيام بالعمل الدعوى على المستوى الاجتماعي، وجعل الله المدينة المنورة مركزاً للدعوة الإسلامية لهجرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومتبعيه إليها، وتعاون أهلها المثالي مع العاملين في مجال الدعوة فانتشر الدعاة منها إلى مختلف أرجاء المعمورة؛ ليخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ونظام الطاغوت إلى نظام الرحمن، ومن الظلمات إلى النور، واستمر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ومتبعوه في عملهم الدعوي جاهدين

www.abulhasanalinadwi.org

باذلين، حتى إذا قرب أجل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو قد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، والمسئولية التي نيطت به نحو هداية الإنسان إلى الهدف المقرر لخلقه، وهو إخلاص العبادة لله تعالى، قال الله: "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا" (المائدة: ٣).

نزول سورة المدثر

فتر الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فترة من الزمن، حتى شق ذلك عليه، فأحزنه، فجاء جبرئيل وبدأت سلسلة نزول الوحي، فيقول صلى الله عليه وسلم وهو يحدث عن فترة الوحي:

"بينا أنا أمشي؛ إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرُعبت منه، فرجعت، فقلت: زملوني! فأنزل الله تعالى: "يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ" (المدثر: ١- ٥)، فَحَمِيَ الوحي وتتابع[١].

فبينت هذه الآيات: لا ترعب يا محمد ولا تقعد حائراً محزوناً ومذعوراً من عبء هذه الرسالة، بل انهض بما كلفت من تبليغ رسالات ربك، وامض قُدُماً إلى غاية ما أمرت به غير عابئ بما يعترض عليك من عقبات، مهما يكن شأنها، فقيل له: كبر ربك ولا تعظم أحداً سواه، وسبح بحمده، وتجنب الرجز، وابتعد عن المنكر والسيئات، وانظر إذا نفخ في صور القيامة، يكون ذلك اليوم عسيراً على المنكرين للحق والكافرين به، فحمل عليك عبء الرسالة والنبوة، الذي لم يحمل على أحد من الأنبياء في الشمول والسعة، ثم تتابع وبدأ ينزل القرآن[٢].

---

[١] البخاري ومسلم ١٦١.

[٢] تاريخ الطبري ٢/٣٠٥. زاد المعاد ٣/١٢.

www.abulhasanalinadwi.org

أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم منصب النبوة العظيم، وألقيت عليه مسئولية هداية الإنسان؛ التي كانت أوسع وأجمع وأشمل من المسئوليات التي ألقيت على الأنبياء السابقين تجاه الحياة والإنسان والكون، وجعله الله خاتم الأنبياء والمرسلين، وقرّر أن الطريق الأقوم للعمل بالحق والدعوة إليه، هو الطريق الذي سلكه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وبيَّنه في ضوء ما أوحى إليه من الله تعالى؛ من مبادئ وأصول وأحكام، ووعد الله نبيَّه بأن مساعيه لتتكلَّل بالفوز والنجاح، وتؤتي أكلها بإذن الله، وتخضع الدنيا كلها لدينه الإسلام، وأمته المحمدية، ولكن قبل تحقُّق هذا الوعد، لابدَّ من مواجهة المحنة والابتلاء والشدائد والصعاب، والقيام بالدعوة إلى الحق في أرض قاحلة جدبة، والصبر على الأوضاع القاسية باستقامة مثالية، وإيمان راسخ لا تزعزعه الجبال الراسيات، ولا تزلزله الزلازل العاتية حتى يجئ الإذن من الله تعالى بالردِّ على ظلم المعاندين.

وكانت أرسلت هذه الرسالة السامية إلى محمد صلى الله عليه وسلم بالوحي إليه بواسطة جبرئيل أحد الملائكة وهم مخلوق نوراني وسماوي، وكانت ذات عظمة وقداسة، وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشراً، فشعر الهيكل الإنساني بثقل الرسالة وضخامتها، وتزلزل جسمه، وأصيب بالرعب والحزن مما سمع ورأى، وكانت هذه الرسالة الخاصة رسالة إلهية، والوحي الإلهي يحمل سمواً وعلواً عظيماً لا يتحمله الإنسان إذا نزل عليه مباشرة، فإذا نزل عليه مباشرة فإنه يخر صريعاً ويتحول رماداً، أو يموت تحت ثقله، فلذلك ينزل به الملك إلى النبي، وكان الوحي في هذه الصورة أيضاً يحمل ثقلاً عظيماً، فلذلك إذا نزل الوحي عليه كرب لذلك وتربَّد وجهه، وتفصَّد جبينه عرقاً،

www.abulhasanalinadwi.org

وأحياناً يثقل عبء الوحي حتى تشعر ناقتُه بالثقل إذا كان راكباً عليها، وينزل الوحي عليه، فكان يحرك به لسانه ليعجل به فقال الله له: "لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ" (القيامة: ١٦- ١٩).

فإذا كان يأتي إليه جبرئيل يصغي إلى ما يتلو عليه، ثم يعي ما قال له، يروى عن عائشة رضي الله عنها أن الحارث رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: "أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليَّ، فَيُفْصَمُ عنِّي وقد وَعَيْتُ ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً، فيكلمني، فأعي ما يقول"(١).

وتقول عائشة رضي الله عنها في رواية لها: "ولقد رأيته ينزل الوحي عليه في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصَّد عرقاً(٢).

تواصل الوحي بعد الفترة واستمرَّ نزوله مدة ٢٣سنة، تنزل الآيات والتوجيهات الإلهية بما يقتضيه عمل الدعوة ومقتضيات الحياة، ثم تحفظ وتكتب في الصحف، وكانت ألفاظه كمعانيه إلهية، ووعد الله بحفظه إلى يوم القيامة، لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، ويكون مصوناً ومحفوظاً من كل زيادة أو نقص، وتقرر القرآن الكريم دستور الحياة الحاملة للإيمان والعمل الصالح، ويقال لهذا الوحي الوحي المتلو، يعني الوحي الذي أنزله الله على نبيه بألفاظه وكلماته، وتلاوته عبادة سواء بالعين كانت أو باللسان، وأما القسم الثاني للوحي فهو وحي غير متلو؛ يأتيه بواسطة الملك، أو بالرؤيا الصادقة أو إلقائه في روعه، وكانت معانيه إلهية؛ ولكن ألفاظه ليست إلهية، ولذلك كان هذا الوحي الثاني لا يحمل

---

(١) البخاري ومسلم: ٨٧/٢٣٣٣.

(٢) البخاري كتاب بدء الوحي، وطبقات ابن سعد ١٩٧/١- ١٩٨.

www.abulhasanalinadwi.org

ثقلا ولا ضغطاً، كما يحمل الوحي الأول ثقلا وشدة، ويكون الوحي غير المتلو أيضا يشتمل على أحكام الله، ويشرح الوحي الأول القرآن، ويبين مسائل أخرى للحياة وشئونها، ويقدم توجيهات رشيدة؛ تظهر بقول النبي وكلامه، أو عمله بها، ويحمل هذا الوحي أهمية الحكم الإلهي ومكانته؛ لكونه منزلاً من عند الله تعالى، وقد صدقه القرآن بأنه وحي إلهي أوحى إليه صلى الله عليه وسلم: "وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى" (النجم: ٣- ٤).

بداية الدعوة إلى الحق

قام النبي صلى الله عليه وسلم بعد تلقى النبوة من الله، يدعو إلى الله، وشمر عن ساق الجِدِّ للدعوة؛ يعلم الناس حقائق الدين الحق، ويدعوهم إلى العمل بما جاء به إليهم كنبي مرسل من الله، فقال: "يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا" فعارضه الذين اتخذوا الخشب والحجر والشجر آلهة من دون الله، يعبدونها حسب زعمهم لأن الدعوة وجهت سهامها إليهم مباشرة، ويقول الرسول: يا أيها الناس لماذا تعبدون ما لا ينفع ولا يضر، ولا يجيب، ولا ينطق، ولا يفهم، وتشركونه بالله؟ هذا من سخف القول، ومما لا يقبله العقل، وقال: "إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ" لأبلغكم رسالات ربكم الله، أن اعبدوا الله الذي ربي وربكم فأين تذهبون؟ واتبعوا أمري وأنا أنصحكم لما فيه خيركم، وأدعوكم إلى الطريق الصحيح للعمل، واختيار الأخلاق الحسنة، والشخصية المثالية المرضية عند ربكم، ولا أقول لكم إلا ما يوحى إلي من الله ربكم، وأهديكم للتي هي أقوم وأعود إليكم بالخير (١).

---

(١) راجع للتفصيل: سيرة ابن هشام ١/٢٤٢- ٢٦٢، وطبقات ابن سعد ١/١٩٩، والسيرة النبوية للذهبي ١/٨١، والسيرة الحلبية ١/٤٦٢.

www.abulhasanalinadwi.org

إسلام خديجة وأبي بكر وعلي وزيد بن حارثة رضي الله عنهم

وكان طبيعياً أن يبدأ الرسول صلى الله عليه وسلم دعوته بأسرته وأهل وطنه، فبدأ بأهل بيته، وأصدقائه وأقرب الناس إليه، فآمنت به زوجته خديجة بنت خويلد، وصدقت بما جاءه من الله، ووازرته على أمره، وكانت أول من آمن بالله وبرسوله وصدق بما جاء منه، وبعد إسلامها دخل ابن عمِّه علي بن أبي طالب في الإسلام، ثم أسلم زيد ابن حارثة، ثم أسلم أقرب أصدقائه أبو بكر بن أبي قحافة[١].

وبعد نزول أول الوحي الإلهي بدأ الرسول دعوته سراً فيمن يتوقع أن يقبلوا دعوته من أقاربه والمتصلين به، فدخل عدد من الناس في الإسلام وكان قليلاً[٢].

ولما أسلم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، أظهر إسلامه، ودعا إلى الله وإلى رسوله، فأسلم بدعائه عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وأبو عبيدة بن الجراح، والأرقم بن الأرقم، وعثمان بن مظعون، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وسعيد بن زيد، وخباب ابن الأرت، وعبد الله بن مسعود، وعمار بن ياسر، وصهيب رضي الله عنهم أجمعين[٣].

فبذلك بدأ يزيد عدد الداخلين في الإسلام تدريجياً؛ ولكن العمل الدعوى في هذه المرحلة البدائية كان سرياً لضرورة فرضها الواقع.

صلوات العشي والإبكار

افترضت الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم أول ما

---

[١] سيرة ابن هشام ١/٢٤٠- ٢٤٩.

[٢] الكامل في التاريخ: ٢/٦٠.

[٣] سيرة ابن هشام ١/٢٥٠.

www.abulhasanalinadwi.org

افترضت عليه ركعتين ركعتين كل صلاة، وكان يصليها سراً وخفية، وكانت صلاة قبل غروب الشمس، وصلاة قبل طلوعها[١] وكانت هذه الصلاة وفق الدين الإبراهيمي الحنيف، وتؤدى لوجهة بيت المقدس.

دار الأرقم

واتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم بعد دخول عدد من الناس في الإسلام دار الأرقم مقراً لدعوته الحقة الربانية، وكانت دار الأرقم متصلة بجبل الصفا، يتجمع فيها المسلمون، ويتلقون عن الرسول كل جديد من الوحي، ويستمعون له وهو يذكرهم بالله، ويتلو عليهم القرآن، لا يعلم عنها سواهم أحد من الناس.

إعلان الدعوة جهاراً على جبل الصفا

استمر النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته يستقطب عدداً من الأتباع والأنصار من أقاربه وأصدقائه، وكان يخفي أمره، ومضى على ذلك ثلاث سنوات، ثم أمره الله تعالى بإظهار دينه، وبصدع ما يؤمر وقال: "فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ" (الحجر: ٩٤)، وقال: "أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" (الشعراء: ٢١٤- ٢١٥)، "وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ" (الحجر: ٨٩)، فبدأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعوته علانية، وجمع عشيرته وقبيلته وفق الطريقة المعروفة المألوفة لدى أهل مكة لإنذار الناس من خطر عظيم، فصعد على جبل الصفا ونادى بأعلى صوته "يا صباحاه" فلم تتأخر قريش في تلبية هذا النداء، واجتمعوا إليه، فلما اجتمعوا إليه قال الرسول صلى الله عليه وسلم: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل، تريد أن تغير عليكم، صدقتموني؟

[١] سيرة ابن هشام: ٢٤٣/١.

www.abulhasanalinadwi.org

فقالوا: نعم، وأنت ترى ما لا نراه وراءنا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد في الحياة الأخروية التي آتاني ربي علمها من عنده (فيحلُّ بكم هذا العذاب الشديد إذا لم تختاروا التوحيد) فسكت القوم، ولكن استشاط بعضهم غضباً، فقال عمُّه أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، أ لهذا جمعتنا؟ وكذلك عنَّف أبو جهل في القول.

ولما أظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوته للإسلام، وصدع بالحق كما أمره الله تعالى، عاداه سفهاء قومه، وبدأوا حرباً غير معلنة ضده، كانت من جهة واحدة(١) لأنه أمره الله تعالى بكفِّ اليد، والصبر على أذاهم ومعاداتهم؛ لئلا يظن القوم أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يريد الزعامة أو الحكومة عن طريق دعوته هذه، بل ليعلموا أن غرضه من هذه الدعوة الموجهة إليهم هو الإصلاح والدعوة إلى عبادة الله وحده، وإتباع أمره، وذاك أن من يريد الزعامة أو الحكومة لا يقول إلا ما يرضى الناس، ويكسب تأييدهم وودَّهم، ولكن النبي لا يقول في دعوته إلا الحق، مهما كان كلف، أويصبح جميع الناس أعداء له، فكان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أراد أن ينصحهم ويعلمهم ما فيه خيرهم، ليعلموا ما هو الخير وما هو الشر، ولكنهم لم يلتفتوا إلى دعوته أي التفات، بل تمادوا في غيِّهم، وتمرَّدوا على معاداته حتى تحولت معاداتهم له حرباً موجهة إليه من جهة واحدة.

استمراره في الدعوة

وبعد ذلك بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الناس بصورة عامة، ويعرض نفسه في المواسم إذا كانت، على قبائل العرب،

(١) راجع للتفصيل: البخاري ومسلم، وطبقات ابن سعد ١/٢٠٠، الكامل في التاريخ ٢/٦٠، فتح الباري ٨/٥٠٣، والسيرة النبوية لابن حجر ١/٣٩٢- ٣٩٧، وسيرة ابن هشام ٢٦٢- ٢٦٤.

www.abulhasanalinadwi.org

يدعوهم إلى الله، ويخبرهم أنه نبي مرسل، ويعلمهم التوحيد، وصنع المعروف، وحسن العمل، ويمنعهم من السيئات، والمنكرات، والظلم والاعتداء، ويفند عبادة الأحجار والأشجار والأصنام، ويقررها معصية وعملاً غير مُجْدٍ، ويلقن الناس أن ينزهوا الله من كل عيب ونقص، ويعتقدوا اعتقاداً جازماً أن الله هو الذي خلق السموات والأرض، وجعل الشمس والقمر، وجعل النجوم والأجرام السماوية الأخرى، صغيرة كانت أو كبيرة، كلهم يحتاجون إليه وهم فقراء إليه، ولله الحق أن يقبل الدعاء أو يرده، وهو يشفي المريض، ويحقق الأماني والآمال، ولن يفعل أحد شيئاً إلا بمشيئته وإذنه حتى أن الأنبياء والملائكة لا يستطيعون أن يعصوا أمره ويخالفوه، وكانت مواسم عكاظ ومجنة وذي المجاز مشهورة، يفد إليها الناس من أماكن بعيدة، ويحضرونها، فكان الرسول يأتي إليها ويلتقي بكل من يفد إليها، ويدعوه إلى الإسلام والتوحيد(١).

يقول القاضي محمد سليمان المنصورفوري :.

"وبعد ذلك بدأ النبي صلى الله عليه وسلم الدعوة العامة، فكان يذهب إلى كل ناد ومجتمع وطريق، ويدعو إلى التوحيد، وينهى عن عبادة الأوثان والأحجار والأشجار، وعن قتل الأولاد، والزنا والميسر، ويطالب الناس بأن يطهروا أجسامم من النجاسة، وثيابهم من الأقذار، وألسنتهم من الفحش، وقلوبهم من المعتقدات الكاذبة، ويسمع القرآن كل من يقابله في طريق، أو سوق، أو مجلس، فقد طاف الرسول سائر الأماكن العامة والأسواق المشهورة والمواسم، ووطئ

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد ٢١٦/١، وسنن الترمذي، ومستدرك الحاكم، ومسند الإمام أحمد. ورحمة للعالمين للقاضي محمد سليمان المنصورفوري، المجلد الأول.

www.abulhasanalinadwi.org

أودية بطحاء، يدعو الناس إلى الله، وكل ذرة من ذرات سوق عكاظ وورقة من ورقات الطائف تشهد بذلك".

مخالفة قريش له

ولما أظهر الرسول صلى الله عليه وسلم الدعوة للإسلام، وصدع بالحق، كما أمره الله تعالى، لم يبعد منه قومه، ولم يردُّوا عليه، حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما طال ذلك أعظموه وناكروه، وأجمعوا خلافه وعداوته، وقد كانوا يصفونه بالأمانة والصدق، ويعتبرونه من أعظم أفراد أسرتهم، يكرمونه حتى لقبوه بـ "الصادق الأمين" ولم يزالوا يعتبرونه صادقاً وصالحاً بعد صدعه بالحق ومخالفة آلهتهم، فإذا قال هذا الصادق الأمين والرجل الصالح الكريم المعروف فيهم بصدق القول وكريم الأخلاق، قولاً جديداً يقبله العقل، ويطمئن إليه القلب، فكان لابد لهم أن يصدقوه فيما يقول، ويُقِرُّوا ما جاء به إليهم، اعتماداً على صدقه وأمانته؛ لأنه لم يقدم أمامهم إلا ما كانوا يقرونه ويعتقدونه، وتقبله عقولهم، وكان أصله موجوداً في أذهانهم، وذاك لأنهم كانوا يعتبرون إبراهيم عليه السلام إماماً لهم، ويعملون ببعض تعاليمه فيما بعد، ولم يجئ إليهم الرسول المبعوث إليهم بشئ جديد؛ بل جدَّد دين جدِّه الأكبر، ودعاهم إلى نفس العقيدة والأعمال الصالحة التي دعا إليها النبي الأعظم إبراهيم عليه السلام، فدعاهم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، الذي كانوا يدعونه الصادق الأمين، إلى هذا الدين وذكَّرهم بأن الصورة الحقيقية الصادقة للعقيدة التي توارثوها عن جدهم الأكبر إبراهيم عليه السلام، هي التوحيد الخالص الذي شوهوه، وأدخلوا فيه الشرك على مجرد الوهم والخطأ في الفهم الصحيح للعقيدة.

وكانت قريش تعتقد في الواقع أن الله تعالى هو الرب الأكبر؛

www.abulhasanalinadwi.org

ولكنهم تأثروا بالأفكار المستوردة من خارج مكة، فبدأوا يشركون بالله الآخرين في صفاته وذاته، فمثلاً يقولون: إن الملائكة بنات الله، وبدأوا يعظمون من دون الله بعض كبار الشخصيات المحترمة لديهم بعدما أشركوهم بالله في صفاته؛ بل جعلوهم آلهة، حتى تطوَّر هذا التعظيم إلى السجود لهم وعبادتهم، ولكن لماذا لم تؤمن قريش برسالة محمد؟ وكانوا يصفونه أميناً صادقاً ورجلاً صالحاً، ذا صفات عالية، فإذا دعاهم هذا الأمين الصادق إلى نفس الدين الذي دعا إليه جدُّهم إبراهيم عليه السلام، وكذلك دعاهم محمد صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان باليوم الآخر حيث يجد الإنسان جزاء ما عمله في الدنيا من خير أوشر، ولكنهم لم يؤمنوا به بينما يقتضي العقل أن يقروا بما يدعوهم إليه الصادق الأمين ولا ينكروه.

ولكن قريش أنكرت دعوة محمد صلى الله عليه وسلم تعصباً للآلهة التي توارثوا عبادتها من آبائها كابراً عن كابر، بينما رفض كثير من الناس دعوته ولم يؤمنوا به حسداً من أنفسهم لما كان يتمتع به من مكانة عظيمة مرموقة، وشعبية كبيرة في الناس، حتى لم يكونوا أن يستمعوا إلى ما يقوله، فضلاً عن قبول دعوته، وقالوا: من أنت؟ ومن أعطاك حق أن تنصحنا ولست سيدنا؟ ولا يحق لأحد أن يوجه إلينا النصيحة إلا من يكون سيداً فينا، فله الحق أن ينصحنا، ولا نعبد إلا ما وجدنا عليه آباءنا، ولا نسك إلا المسلك الذي سلكه أسلافنا، ولما أصر الرسول على دعوتهم إلى الله، وقال: إني رسول الله إليكم، وجئت إليكم بنفس الدين الذي جاء به جدكم الأكبر إبراهيم عليه السلام، وقد أمرني ربِّي أن أتبعه "فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" (آل عمران: ٩٥). اشتدوا في الإنكار والرفض، وتمادوا في غيِّهم، ولم يكونوا مستعدين للتنازل عما توارثوها من عادات وتعاليم

www.abulhasanalinadwi.org

من آبائهم ؛ بل كانوا يعدون التنازل عنها وتركها خلافاً لنخوتهم وحميتهم الجاهلية ويقولون: كيف نترك ما كنا عليه؟ وكيف نترك تلك العقيدة التي نحن عاكفون عليها من ذي قبل؟ بالرغم من كل ذلك كانت الطبيعة العربية ساذجة بسيطة ومعترفة بالحقيقة، فلذلك كلما سنحت لهم - رغم تمرُّدهم وعنادهم - فرصة للاستماع إلى آيات القرآن الكريم مباشرة أو كلام النبي بذهن مفتوح قبلوه وآمنوا به ؛ لأن أذهانهم وأذواقهم اللطيفة تدرك بمجرد سماع الآيات أن هذا الكلام ليس بكلام البشر، فإذا سمعوه بذهن مفتوح قبلوه، وقالوا: إن هذا الكلام فوق صلاحية البشر لا يستطيعه الإنسان ؛ بل هو منزل من السماء فيقبلونه ويؤمنون به(١).

ابتلاء المؤمنين

لم يزل يزيد عدد الداخلين في الإسلام تدريجياً ؛ فمنهم من آمن بالله ورسوله متأثراً بإعجاز الكلام الإلهي، ومنهم من قبل الإسلام متأثراً بأخلاق الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وصدقه وإخلاصه في العمل، ومنهج دعوته المؤاسي الناصح، ومنهم من اعتنق الإسلام لتجربته الشخصية لأمانته وصدقه في القول والعمل، فدخل في الإسلام رغم محاربة المخالفين والمانعين للحق، ولكن الداخلين في الإسلام يواجهون أشد الأذى والمعاناة، والقسوة والشدة، والظلم والاعتداء لمحاربة المعاندين الشديدة، الأمر الذي يختبر معدنهم ويبلو صبرهم وقوة احتمالهم للشدائد، وكان قد أمرهم الله ربُّهم أن يكفوا أيدهم، ويصبروا على أذاهم، ويقيموا الصلاة، ويستيعنوا بالصبر والصلاة، وكانت طبيعة العرب طبيعة سفك الدماء والقتل والفتك بأمر تافه، وشربوا على ناجذ القتال، ولم يكونوا يعرفون معنى الانهزام أو

(١) سيرة ابن هشام: ١/٢٩٣- ٣١٥.

www.abulhasanalinadwi.org

الخضوع مهما كلف ذلك، ولكنهم رغم ذلك قمعوا طبيعتهم الجاهلية، وتغلبوا عليها بفضل تربية الرسول، وتمسكوا بالصبر إذا أمروا بالصبر على أذية الأعداء(١).

ولكن لم تزل عداوة أهل مكة مستمرة، واشتد ظلمهم على المسلمين، وتفننوا فيه، واختاروا أساليب مختلفة في إيذائهم، حتى بلغ منهم العذاب كل مبلغ، فجاء صحابي وهو خباب بن الأرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكاه ما لقيه المسلمون من المشركين من قسوة وشدة شديدة؛ روى الإمام البخاري عن خباب بن الأرت قال: "شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، قلنا له ألا تستنصر لنا؟! ألا تدعو الله لنا؟!. قال: كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه، فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه. ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون". (٢).

إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم

كان كفار قريش وفي مقدمتهم رؤساؤهم مثل أبي جهل، وأبي لهب، وأسود بن عبد يغوث، ووليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، ونضر بن الحارث، ومنبه بن حجاج، وعقبة بن أبي معيط، وحكم بن أبي العاص، يضعون الأشواك على طريق الرسول صلى الله عليه وسلم، ويستهزؤن به حينما يصلي، ويغمزونه بالقول، ويطرحون سلا

---

١ السيرة الحلبية: ٢/٣٤٢- ٣٤٨.

٢ البخاري رقم: ٣٦١٢، و السيرة الحلبية: ١/٤٨٣.

www.abulhasanalinadwi.org

الجزور على عنقه، وهو ساجد، ويربطون الثوب على عنقه فيخنقونه خنقاً شديداً، ويرمونه بالسحر والشعر والكهانة والجنون. وقد أغروا بالرسول سفهاءهم؛ فكذبوه وآذوه، ويسخرون من القرآن حينما يتلوه في الصلاة، ويسبون من أنزله ومن أنزل عليه[١]، وتفننوا في إيذائه، وذهبوا فيه كل مذهب.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: "بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي عند الكعبة، وجمع قريش في مجالسهم، إذا قال قائل منهم (وهو أبو جهل): ألا تنظرون إلى هذا المرائي؟. أيُّكم يقوم إلى جذور آل فلان، فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها، فيجئ به، ثم يمهله حتى إذا سجد، وضعه بين كتفيه، فانبعث أشقاهم (وهو عقبة بن أبي معيط) فلما سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وضعه بين كتفيه، وثبت النبي ساجداً، فضحكوا حتى مال بعضهم إلى بعض من الضحك، فانطلق منطلق إلى فاطمة، فأقبلت تسعى وثبت النبي ساجداً حتى ألقت عنه، وأقبلت عليهم تسبُّهم"[٢].

وكان أبو لهب عمُّ النبي من أشد الناس عداوة له، وكذلك امرأته أم جميل من أشد الناس عداوة له، فكانت تسعى بالإفساد بينه و بين الناس بالنميمة، وتضع الشوك في طريقه والقذر على بابه، وقد بلغ من أمر أبي لهب أنه كان يتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأسواق والمجامع ومواسم الحج، ويكذبه حينما يدعو الناس إلى الله، ومرة ذهب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى سوق ذوالمجاز، فجعل يقول للناس:

---

[١] انظر: البخاري: ٦٨٦، مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٣٠٢/٤، وطبقات ابن سعد ٢٠٠/١، وسيرة ابن هشام ٢٨٩/١.

[٢] البخاري، باب الطهارة والصلاة والجزية والجهاد ٥٢٠، ومسلم: ١٧٩٤، والسيرة الحلبية ٤٩٩/١.

www.abulhasanalinadwi.org

قولوا: لا إله إلا الله، فكان أبوجهل يلقى عليه التراب ويقول للناس: لا تقتربوا منه، إنه يريد أن تتركوا عبادة اللات والعزى(١).

وبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي محيط فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولوى ثوبه من عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه فأخذ بمنكبيه ودفعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله وقد جاءكم بالبينات"(٢).

قصة إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي

كان الطفيل بن عمرو الدوسي رئيس قبيلة الدوس، يحدث قصة إسلامه:

"إنه قدم مكة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بها، فمشى إليه رجال من قريش، - وكان الطفيل رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً - فقالوا له: يا طفيل! إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا، قد أعضل بنا، وقد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر، يفرق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئاً.

قال: فوالله مازالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمنه، حتى حشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفاً، فرقاً من أن يبلغ شيء من قوله وأنا لا أريد أن أسمعه، قال: فغدوت إلى المسجد، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي عند الكعبة، قال: فقمت

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/٢٣.

(٢) البخاري باب ما لقي الرسول وأصحابه من المشركين، وسيرة ابن هشام ١/٢٨٩، والسيرة الحلبية: ١/٤٧٢.

www.abulhasanalinadwi.org

منه قريباً، فأبى الله **إلا** أن يسمعني بعض قوله، قال: فسمعت كلاماً حسناً، قال: فقلت في نفسي: وأثكل أمي، والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى عليَّ الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول! فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته، وإن كان قبيحاً تركته.

قال: فمكثت حتى انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته فاتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه، فقلت: يا محمد: إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا، للذي قالوا، فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك، فسمعته قولاً حسناً، فأعرض عليَّ أمرك، قال: فعرض عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام، وتلا عليَّ ا لقرآن، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه قال: فأسلمت وشهدت شهادة الحق[1]. وبإسلامه انتشر الإسلام في قبيلته دوس؛ لأنه كان سيد قومه كما قوى به أمر الإسلام.

فكل من سمع شيئاً من القرآن بعيداً عن العصبية والحقد، أو التقي به، تغيَّر رأيه وتحوَّل موقفه من العداوة إلى القبول، واعتنق الإسلام، وبذلك لم يزل يدخل الناس في الإسلام تدريجياً، وأما الذين كانوا يعدون رؤساء وأسياداً في قبيلة قريش، أو يعتبرون أنفسهم كراماً وذوي مناصب عالية، فإنهم يستنكفون أن يخضعوا لأحد غيرهم من قبيلتهم، ويرضوا بشيء يكون دون مكانة الرياسة والسيادة، فلا يقبلون الإسلام، بل يتحولون أعداء ألِدَّاء[2].

اعتداء قريش على المسلمين

فانقسمت قريش إلى عاملين، عامل كان يقبل إلى الإسلام

---

[1] سيرة ابن هشام: ١/٣٨٢- ٣٨٣.

[2] انظر مثال ذلك في سيرة ابن هشام: ١/٣١٥.

www.abulhasanalinadwi.org

ويعتنقه يوماً بعد يوم، وعامل كان يحارب الإسلام ومعتنقيه لحميته الجاهلية ونخوته الزائدة، وحسداً وعداوة، فيصبون جام غضبهم على كل من أسلم واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويعذبون من استضعفوا منهم ويذيقونهم أنواعاً وألواناً من التعذيب، وينكلون بهم؛ ليفتنوهم عن عقيدتهم وإسلامهم، وليجعلوهم عبرة لغيرهم، وينفسوا عن حقدهم وغضبهم بما يصبونه عليهم من العذاب، حتى تضاعف أذى قريش للمسلمين، وبلغ إلى ذروة القسوة والعنف حتى مات عدد منهم لما أصيبوا من الظلم والقسوة(١).

كان بلال حبشياً وعبداً لأمية بن خلف، ولما اتصل بعلم أمية أن عبده بلالاً قد قبل الإسلام فاستشاط غضباً، وجعل يعذبه أشد التعذيب، كان أمية يربط الحبل في عنقه، فيمسك الصبيان هذا الحبل ويطوفون في جبال مكة مع بلال، وكان الحبل يؤثر في عنقه، وكان يلقيه على الرمل المحرق، وتوضع الصخرة العظيمة الساخنة على صدره، وكانوا يشدون يديه ثم يضربونه بالعصا، وكان يوقف في الشمس المحرقة، ويجاع، ولكن بلالاً كان يصبر على هذا الأذى ويقول: أحد أحد(٢).

وكان في هذه المحنة القاسية حتّى مرَّ به أبو بكر الصديق يوماً، فقال لأمية بن خلف: ألا تتقى الله في هذا المسكين؟ حتى متى؟ قال: أنت الذي أفسدته فأنقذه مما ترى، فقال أبو بكر: أفعل، عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى على ذلك، أعطيكه به، فقال: قد قبلت، فقال هو لك، فأعطاه أبو بكر رضي الله عنه غلامه ذلك، وأخذه فأعتقه(٣).

---

١ نفس المصدر ٣٢٠.

٢ نفس المصدر ٣٢٠.

٣ نفس المصدر: ١/٣٢٠، ومدارج النبوة ٢/٥٠ ورحمة للعالمين للقاضي سليمان المنصورفوري: ١/٥٠.

www.abulhasanalinadwi.org

وأسلم عمار وأبوه ياسر وأمه سمية، فآذاهم أبو جهل بطرق شتى، وبالغ حتى رآهم النبي وهم يعذبون فقال: اصبروا يا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة، وطعن أبو جهل سمية بحربة في فرجها فقتلها.

وكان أبو فكيهة (واسمه أفلح) قد ربطوا رجله بالحبل يجرونه في أرض ذات حجارة(١).

وكان خباب بن الأرت يخمشون وينتفون شعر رأسه، ويلوون عنقه، ويكوون جسده بالأحجار المحرقة.

ولم يكن موقف قريش هذا مع العبيد والضعاف فقط؛ بل كانوا يعذبون أبناءهم وأقاربهم من المسلمين بهذه القسوة والبربرية.

لما بلغ خبر إسلام عثمان بن عفان عمه حكم بن أبي العاص بن أمية كان يلفه في الحصير ويجمر من تحته(٢)

وأسلم مصعب بن عمير فأخرجته أمه من البيت وطردته(٣).

وكانت قريش تلف بعض الصحابة في جلود البقر والجمل وترميهم، وكانت تلبس بعضهم درعاً من الحديد ثم تلقيهم على الحجارة الحامية (٤).

هذا، وفي جانب آخر كان الرسول صلى الله عليه وسلم يلقنهم بالصبر على الأذى والابتلاء، وكف اليد، والعكوف على العبادة؛ لأن الله تعالى أمر نبيه أن يقول لأتباعه: "كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة".

فأخبروا بواسطة نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم بأن الغرض الأساسي من النبوة والرسالة الإلهية هو إفهام الناس ودعوتهم إلى

---

١ الكامل في التاريخ: ٦٩/٢، وإعجاز التنزيل: ٥٣.

٢ طبقات ابن سعد: ٣٧/٣.

٣ نفس المصدر: ٨٣/٣، والاستيعاب: ٢٨٨/١.

٤ رحمة للعالمين للقاضي سليمان المنصورفوري، ٥٢/١.

www.abulhasanalinadwi.org

اعتناق الدين الحق، بلطف ومودة، وصبر على الأذى، وإعراض عن المعاندين؛ لأنهم إن قاموا بالردِّ على مخالفتهم، واتخذوا إجراءات انتقامية ضدهم، يزدهم ذلك غياً وتمرداً وعناداً، وكذلك لم تكن في ذلك الوقت للمسلمين قوة تمكنهم من أخذ الثأر أو مواجهتهم وجهاً لوجه، ولو ردُّوا على ظلمهم بقوة وشدة لتوقف وتأخر عمل الدعوة الوليدة التي تقتضي الأناة والحلم والنصح واللين، ولا تنتشر بالجبر والإكراه، واشتد الغضب والعداوة بينهم، وبدأت المواجهة الدامية، ولذلك كله أمروا منذ بداية الأمر بأن يقوموا بعمل الدعوة إلى الله بالصبر، وتحمل الأذى، والعفو عمن ظلم، ويرتقبوا الفرجة والنصر من الله، ويكتفوا بالدعاء ويستنصروه.

وعلى كل حال؛ فإن الدعوة الربانية التي جاء بها سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان غرضُها الأصيل هو السعي البليغ لهداية الناس، وإصلاح عقيدتهم وسلوكهم، وإخراجهم من ظلمات الشر والكفر إلى نور التوحيد والعبادة الخالصة لوجه الله، وقد اختار المسلمون هذا الأسلوب الدعوي وتمسَّكوا به قدر استطاعتهم، وكانوا يصبرون على أذى قريش في سبيل الدعوة إلى الحق؛ لم تزلزل أقدامهم المحن والشدائد، بل زادتهم إيماناً، وكفُّوا أيديهم، وكانت الأوضاع في مكة أيضاً تقتضي الحكمة والصبر والأناة والحلم، والمسلمُ يعتقد أن الشدائد والمحن ـ مهما كانت قاسية وشديدة ـ هي غمرات ستنجلي وسحب ستتبدد، بل تفنى بفناء هذا العمر القصير، وبعد الممات تبدأ الحياة الباقية الدائمة حيث يجد الإنسان جزاه الأوفى؛ فإن كان عمله في الدنيا صالحاً ووفق أمر الله ورسوله يكن جزاؤه خيراً ـ مهما كان لونه أو وطنه أو جنسه ـ وإن كان عمله غير صالح يكن جزاؤه شراً له، وإن

www.abulhasanalinadwi.org

تحمَّل الأذى في سبيل الدعوة إلى الحق جزاه الله جزاء أوفى، بل زاده أجراً وثواباً قدر محنته في سبيل ربه، ويكون هذا الجزاء دائماً باقياً؛ لأن الحياة الآخرة تكون دائمة باقية، فيجد الإنسان المؤمن خير الجزاء وأوفاه وأكرمه؛ لصدقه وثباته في المحنة والابتلاء في سبيل ربه.

فجملة القول إن المسلمين في العهد المكي؛ عهد الظلم والاعتداء والتعذيب، أمروا بكفِّ اليد والصبر على كل ما يعتريهم من أذى ومحنة، والعفو عمن ظلم، والاستمرار في الدعوة إلى الله بهداية رسولهم العظيم وتوجيهه، فقد مرُّوا بمحن شداد، ومصائب جسام، وجلت منها القلوب، وبلغت القلوب الحناجر، وفي جانب ترافقهم رحمة الله الواسعة بأشكال تزيد القلوب إيماناً ويقيناً، وتطمئن النفوس الوجلة، فكان نصر الله حليفهم، وتفرج الآيات القرآنية عنهم، وتسليهم وتضع البلسم الشافي على جروحهم الغائرة، فكانت هذه الآيات القرآنية تصدق نبوة محمد ودينه الإسلام الذي جاء به من عند ربه في جانب، وفي جانب آخر تقوى المسلمين، وتربط على قلوبهم، وتمنحهم قوة وثباتاً في الإيمان، وتشحذ هممهم وعزائمهم، وتبشرهم بعاقبة حسنة كلما زاد شعورهم بالقسوة والشدة من قبل الأعداء.

لجان الإيذاء المنظمة

ولما رأى أهل قريش أن كل ما يلاقي النبي والمسلمون من الأذى والظلم، لا يؤثر فيهم ولا يمنعهم، بل يزيدهم إيماناً، التجأوا إلى جهود جماعية، وكونوا لجاناً عديدة، تتولى مهمة إيذاء الرسول والمسلمين، فتكونت لجنة رأسها أبو لهب، وأعضاؤها ٢٥/نفراً من رؤساء مكة.

والسؤال المطروح أمام اللجنة هو ما حكاه ابن هشام: ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سن فيهم، وقد

www.abulhasanalinadwi.org

حضر الموسم فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فاجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا، فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً. قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقول به، قال: بل أنتم فقولوا أسمع، قالوا: نقول: كاهن، قال: لا. والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه، (ينبغي أن لا نقول ما يجعل قبائل العرب يظنون فينا الكذب) قالوا نقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته، قالوا: فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر، قالوا: فنقول: الساحر، قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم ـ فأين هو من أوضاعهم النحسة وعاداتهم القذرة؟ ـ قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق، وإن فرعه لغدق، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه أن تقولوا: ساحر، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته[1] فتفرقوا عنه وهم متفقون على أن يضايقوا محمداً صلى الله عليه وسلم ويسخروا منه ويؤذوه بالاستخفاف والاستهزاء، ويؤذوا من آمن به وصدقه غاية الإيذاء.

رؤساء قريش مع أبي طالب

وأكثرت قريش ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بينها،

[1] ابن هشام ١/ ٢٧٠، الشفا للقاضي عياض ١٢٩.

www.abulhasanalinadwi.org

فتذامروا فيه، وحضَّ بعضُهم بعضاً عليه. ومشوا إلى أبي طالب مرة أخرى، فقالوا: يا أبا طالب! إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وقد رجوناك أن تنهى ابن أخيك، فلم تفعل، فإنا والله لا نصبر أكثر مما صبرنا على شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين، وانصرفوا.

فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا خذلانه، فبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له:

"يا ابن أخي! إن قومك قد جاؤوني، فقالوا لي كذا وكذا، فأبق عليَّ وعلى نفسك، ولا تحملني مالا أطيق".

فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه فيه بداء، أنه خاذله ومسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه. فقال:

"يا عم! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته".

واستعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى، ثم قام، فلما ولى ناداه أبو طالب فقال: أقبل يابن أخي، فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: اذهب يابن أخي، فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً[1].

ما دار بين عتبة وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في عمله الدعوي مشمراً عن ساق الجد، صابراً على أذى قريش، وما تجرأت قريش على قتله؛ لما كان يحظى به من حماية أبي طالب، ومكانة أسرة عبد مناف لدى

[1] سيرة ابن هشام: ١/٢٦٥- ٢٦٦.

www.abulhasanalinadwi.org

قريش، ولكن تفننوا وقسوا في إيذائه، ولم يراعوا فيه إلاً ولاذمة، وتخطوا حدود الإنسانية؛ كانوا يطرحون الأشواك على طريقه حتى تجرح قدميه، في ظلمة الليل، ويرمون القذر عند بابه، حتى يتأذى ويتشوش قلبه، ويصفونه بكلمات نابية، ويسبونه، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم استمر في عمله رغم كل ذلك، فحارت قريش في أمره؛ بماذا يفعلون؟ وكيف يمنعون، ورأت أن أصحاب رسول الله يزيدون ويكثرون، ولا تؤثر فيهم أي حيلة وتعذيب، كما حارت لماذا يتحمَّل الرسول صلى الله عليه وسلم هذه المشاق القاسية والأذى والإهانة؟ ولم تدرك، وكان العقل الإنساني يقول إن احتمال هذه المصائب، وكسر النفس، والمجازفة بالنفس لا يكون إلا لنيل غرض مادي كبير، أو كسب السمعة والثروة، أو مكانة سامية في القوم، فظنت قريش كذلك، فجاؤوا إلى عتبة بن ربيعة، وكلموه، وقالوا أن يأتي الرسول صلى الله عليه وسلم، فيكلمه، ويعرض عليه أموراً، لعله يقبل بعضها، فيعطونها، ويكف عنهم.

فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السطة(١) في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً، تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها. قال: فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: قل يا أبا الوليد، أسمع، قال: يابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت

(١) السطة: الشرف. وفي سائر الأصول: "البسطة".

www.abulhasanalinadwi.org

تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا[1] تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع[2] على الرجل حتى يداوى منه أو كما قال له. حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه، قال: أ قد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع مني، قال: أفعل، فقال "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ" (الفصلت: ١- ٥). ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة، أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها، فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك.

ما أشار به عتبة على أصحابه

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ماوراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفتيموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فمُلْكُه مُلْكُكم، وعزُّه عزُّكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا

[1] الرئي (بفتح الراء وكسرها): ما يتراءى للإنسان من الجن.

[2] التابع: من يتبع الناس من الجن.

www.abulhasanalinadwi.org

أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم[١].

ما فعل قريش بأبي بكر رضي الله عنه

قام أبو بكر يوماً في الناس، يدعو إلى الله وإلى رسوله، وثار المشركون على أبي بكر، فوطئ، وضرب ضرباً شديداً، وجعل عقبة ابن ربيعة يضربه بنعلين مخصوفتين، يحرفهما بوجهه حتى ما يعرف وجهه من أنفه.

وحملت بنو تميم أبا بكر، وهم لا يشكون في موته، وتكلم آخر النهار، فقال: ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه، ودنت منه أم جميل وهي ممن أسلم، فسألها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: هذه أمك تسمع. قال: فلا شيء عليك منها، قالت: سالم صالح، قال: فإن لله عليَّ ألا أذوق طعاماً ولا شراباً أو آتي الرسول صلى الله عليه وسلم، فأمهلتا حتى إذا هدأت الرجل، وسكن الناس، خرجتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتاه، ورقَّ له رسول الله صلى الله عليه وسلم رقة شديدة، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمِّه، ودعاها إلى الله، فأسلمت[٢].

إسلام حمزة رضي الله عنه

مرّ أبوجهل برسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم عند الصفا، فآذاه وشتمه، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه، والتضعيف لأمره، فلم يكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومولاة لعبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة في مسكن لها تسمع ذلك، ثم انصرف عنه، فعمد إلى ناد من قريش عند الكعبة، فجلس معهم، فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه

[١] سيرة ابن هشام: ١/٢٩٣- ٢٩٤.

[٢] سيرة ابن كثير ١/٤٣٩- ٤٤٩، والإصابة ١/٤٢.

www.abulhasanalinadwi.org

أن أقبل متوشِّحاً قوسه، راجعاً من قنص له، وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم، وكان أعز فتى في قريش، وأشد شكيمة. فلما مر بالمولاة، وقد رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته، قالت له: يا أبا عمارة، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفاً من أبي الحكم بن هشام: وجده هاهنا جالساً فآذاه وسبَّه، وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه، ولم يكلمه محمد صلى الله عليه وسلم.

فاحتمل حمزة الغضب؛ لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى ولم يقف على أحد، مُعِدّاً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به، فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم، فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة، ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه، أقول ما يقول؟ فرد ذلك عليَّ إن استطعت. فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإني والله قد سَبَبْتُ ابن أخيه سباً قبيحاً، وأسلم حمزة رضي الله عنه، فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عز وامتنع، وأن حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه(١).

وقوي الإسلام بإسلام حمزة؛ لأنه كان ذا قوة وشكيمة، كان كفار مكة وقريش يخافونه ويهابونه، ومع ذلك كان الرسول حريصاً على أن يكسب الإسلام مزيداً من القوة، ولذلك دعا رسول الله: اللهم أيِّدِ الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب، فاستجاب الله لدعائه في حق عمر رضي الله عنه.

---

(١) سيرة ابن هشام: ١/٢٩١- ٢٩٢.

www.abulhasanalinadwi.org

إسلام عمر بن خطاب رضي الله عنه

قال ابن إسحاق: لما قدم عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة على قريش، ولم يدركوا ما طلبوا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وردَّهما النجاشي بما يكرهون، وأسلم عمر بن الخطاب، وكان رجلاً ذا شكيمة لا يرام ما وراء ظهره، امتنع به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبحمزة حتى غلبوا قريشاً، وكان عبد الله بن مسعود يقول: ما كنا نقدر على أن نصلي عند الكعبة، حتى أسلم عمر ابن الخطاب ، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة، وصلينا معه، وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحبشة.

وكان من خبر إسلامه أن أخته فاطمة بنت الخطاب كانت قد أسلمت وأسلم بعلها سعيد بن زيد، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر، لهيبته وشدته على الإسلام والمسلمين، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة يقرئها القرآن، فخرج عمر يوماً متوشِّحاً سيفه، يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورهطاً من أصحابه، قد ذُكِرَ له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند "الصفا" فلقيه نعيم بن عبد الله، فقال له: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمداً هذا الصابئ، الذي فرق أمر قريش، وسفّه أحلامها، وعاب دينها، وسبّ آلهتها، فأقتله، فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض، وقد قتلت محمداً! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال: وأي أهل بيتي؟ قال: ختنك وابن عمك سعيد بن زيد ابن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما، وتابعا محمداً على دينه، فعليك بهما.

www.abulhasanalinadwi.org

قال: فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه، وعندهما خباب بن الأرت ومعه صحيفة فيها: "طه" يقرئهما إياها، فلما سمعوا حسَّ عمر، تغيَّب خباب في مخدع لهم، وأخذت فاطمة الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما، فلما دخل قال: ما هذه الهينمة التي سمعت؟ قالا له: ما سمعت شيئاً، قال: بلى والله، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه، وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة لتكفه عن زوجها، فضربها فشجها، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه: نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع مابدا لك. فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ماصنع، وتوقف وقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرءون آنفاً، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد، وكان عمر قارئاً، فلما قال ذلك، قالت له أخته: إنا نخشاك عليها، قال: لا تخافي، وحلف لها بآلهته، فلما قال ذلك، طمعت في إسلامه، فقالت له: يا أخي، إنك نجس، على شركك، وإنه لا يمسها إلا الطاهر، فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة، وفيها: "طه". فقرأها، فلما قرأ منها صدراً، قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه!.

فلما سمع ذلك خباب خرج إليه، فقال له: يا عمر، والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصَّك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيِّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام، أو بعمر بن الخطاب، فالله الله يا عمر. فقال له عند ذلك عمر: دلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم، فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا، معه فيه نفر من أصحابه.

فأخذ عمر سيفه فتوشّحه، ثم عمد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته، قام

www.abulhasanalinadwi.org

رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنظر من خلل الباب فرآه متوشّحاً السيف، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فزع، فقال: يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف، فقال حمزة بن عبد المطلب: فأذن له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان (جاء) يريد شراً قتلناه بـ سيفه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ائذن له، فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقيه في الحجرة، فأخذ حجزته، أو بمجمع ردائه، ثم جبذه (به) جبذة شديدة، وقال: ما جاء بك يابن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة، فقال عمر: يا رسول الله، جئتك لأومن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله، قال: فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عمر قد أسلم.

وعزَّ المسلمون في أنفسهم حينما أسلم عمر، وقد أسلم حمزة من قبل، وعرفوا وقع ذلك في نفوس الكفار، من قريش وأثره في حياة مكة، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ينتصفون بهما من عدوهم، و لم يكونوا على خطأ، فلم يستثقل المشركون إسلام أحد، ولم يحسبوا له حساباً، مثل ما فعلوا عند إسلام عمر. فأعلن عمر إسلامه، وشاع ذلك في قريش، فقاتلوه وقاتلهم حتى يئسوا منه" (١).

هجرة المسلمين إلى الحبشة:

ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء، وأنه لا يقدر أن يمنعهم، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض

---

١ سيرة ابن هشام: ١/٣٤٢- ٣٤٦.

www.abulhasanalinadwi.org

الحبشة، فإن بها ملكاً، لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه.

فخرجت عند ذلك جماعة مضطهدة من المسلمين إلى أرض الحبشة، فكانت أول هجرة في الإسلام، وكانوا عشرة رجالاً وأربع نسوة، فيهم عثمان بن عفان، فأمّروه عليهم.

ثم خرج جعفر بن أبي طالب وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة، منهم من خرج بأهله، ومنهم من خرج بنفسه، وكان جميع من هاجر إلى أرض الحبشة، ثلاثة وثمانين رجلاً[1].

تعقيب قريش للمسلمين

وقد طلبت قريش هؤلاء المهاجرين ولكنهم قد مضوا قبل وصولها، ولما رأت قريش أن هؤلاء المسلمين المهاجرين قد أمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة، وأنهم قد أصابوا داراً وقراراً، ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جلدين إلى النجاشي، فيردهم عليهم، ليفتنوهم عن دينهم، ويخرجوهم من دارهم التي اطمأنوا بها وأمنوا فيها، فبعثوا عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص بن وائل، وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقته مما يستطرف من متاع مكة، وقدما على النجاشي، وقد استمالا البطارقة وأرضياهم بهداياهم، وتكلما في مجلس الملك فقالا: إنه لجأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاؤوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إليك أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم؛ لتردهم إليهم، فهم أبصر بهم وأقرب إليهم، وقالت البطارقة حوله: صدقا أيها الملك، فأسلم إليهما، فغضب النجاشي، وأبى أن يقبل كلامهم، ويسلم من لجأ إليه وإلى بلاده،

[1] سيرة ابن هشام: ١/٣٢١- ٣٢٣.

www.abulhasanalinadwi.org

وحلف بالله وأرسل إلى المسلمين، فدعاهم ودعا أساقفهم، وقال للمسلمين: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم؟ ولم تدخلوا في ديني ودين أحد من هذه الملل؟.

فقام جعفر بن أبي طالب وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال للنجاشي: أريد أن أوجه إليهما أسئلة، فاطلب منهما أيها الملك الأجوبة عنها.

١. أ عبيد نحن أم أحرار؟ فإن كنا عبيداً أبقنا من أربابنا فارددنا إليهم.

فسأل النجاشي عمرو بن العاص: أ هؤلاء عبيد لأحد؟

قال عمرو بن العاص: ليسوا بعبيد، بل أحرار.

٢. قال جعفر للنجاشي: سلهما أيها الملك هل أهرقنا دماء بغير حق فيقتص منا؟ هل أخذنا أموال الناس بغير حق فعلينا قضاؤها؟

قال النجاشي لعمرو بن العاص: هل قتل هؤلاء أحداً بدون حق؟

قال عمرو بن العاص: لا، بل لم يسفكوا قطرة دم فضلاً عن القتل.

٣. قال جعفر للنجاشي: سلهما هل لهما علينا دين، وإن كان علينا دين فنحن مستعدون لردّه وأدائه.

قال النجاشي لعمرو بن العاص: هل فرّ هؤلاء بمال، فأنا ضامن لما أخذ من مالكم وأؤدى غرامته.

قال عمرو بن العاص: لا، هؤلاء لم يأخذوا قيراطاً من مال أحد.

فقال النجاشي لوفد قريش: فبماذا تطالبون؟

قال عمرو بن العاص: كنا نحن وهؤلاء على دين واحد، ظللنا متمسكين به، وتركه هؤلاء، وابتدعوا ديناً جديداً لا نعرفه نحن ولا آباؤنا.

قال النجاشي للصحابة: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ودين أحد من هذه الملل؟

www.abulhasanalinadwi.org

فقام جعفر بن أبي طالب وقال:

"أيها الملك! كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيئ الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، أمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة، والزكاة، والصيام، ـ فعدد عليه أمور الإسلام ـ فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث".

" فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك".

وسمع النجاشي كل ذلك في هدوء ووقار، ثم قال: هل معك مما جاء به صاحبكم من الله من شيء؟ قال جعفر: نعم: قال النجاشي: فاقرأه عليَّ، فقرأ جعفر عليه صدراً من: "كهيعص" (مريم: ١) فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكى أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم.

ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة، ثم أقبل على رسولي قريش، فقال: "انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما". وقال للمسلمين: أقيموا في بلدنا حيث شئتم، لا خطر

www.abulhasanalinadwi.org

لكم، ولكم الأمان.

ثم غدا رسولا قريش على النجاشي من الغد، وقال عمرو بن العاص: أيها الملك! إنهم ليقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فأقبل الملك على المسلمين فقال: ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟.

قال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه ما جاء به نبينا، وهو عبد الله، ورسوله وروحه، وكلمته، ألقاها إلى مريم العذراء البتول، فضرب النجاشي بيده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً، ثم قال: والله ما زاد عيسى ابن مريم على ما قلت مقدار هذا العود، وقال: محمد صلى الله عليه وسلم هو الرسول الذي بشر به عيسى وإني أحمد الله على أن وجدت زمنه.

وردّ المسلمين ردّاً كريماً وأمنهم، وخرجا من عنده مقبوحين، فأقام المسلمون بخير دار مع خير جار(١).

في شعب أبي طالب

فلما رأت قريش أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يزيدون رغم ما يعانون من الإيذاء الشديد والمعارضة القاسية، وقد نزلوا بلداً أصابوا به أمناً وقراراً، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم، وأن عمر قد أسلم، فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وجعل الإسلام يفشو وينتشر في القبائل، أرادوا أن يقاطعوا المسلمين، ويجعلوهم محرومين محبوسين محصورين؛ لا يساندهم أحد، لحصرهم في شعب، فاجتمعوا وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب على أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم، ولا

---

(١) سيرة ابن هشام: ١/٣٣٤- ٣٣٨، والكامل في التاريخ: ٢/٨١.

www.abulhasanalinadwi.org

يكلموهم، ولا يجالسوهم، حتى يسلموا إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم، وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم ابن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي.

فلما فعلت قريش ذلك انحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب، فدخلوا معه في شعبه الذي كانت تسكن فيه أسرة أبي طالب، وخرج من بني هاشم أبو لهب بن عبد المطلب، وكان مع قريش، وأقام بنو هاشم على ذلك حتى جهدوا من ضيق الحصار، وأكلوا أوراق السمر، وأطفالهم يتضاغون من الجوع، حتى يسمع بكاؤهم من بعيد. وقريش تحول بينهم وبين التجار، فيزيدون عليهم في السلعة أضعافاً، حتى لا يشتروها، وتفرح قريش بذلك، يقول سعد بن أبي الوقاص: لقد جعت حتى أني وطئت ذات ليلة على شيء رطب فوضعته في فمي وبلعته، وما أدرى ما هو إلى الآن.

وكانت قريش في ذلك الحصار الخانق بين راض وكاره، فترق لهم قلوب الكارهين ويرثون لهم، ويوماً خرج أبو جهل فلقى حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد، معه غلام يحمل قمحاً يريد به عمته خديجة بنت خويلد زوجة الرسول، وهي معه في الشعب، فتعلق به وقال: أتذهب بالطعام إلى بني هاشم؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة، فجاءه أبو البختري بن هاشم بن الحارث بن أسد وكان كافراً، فقال: مالك وله؟ فقال: يحمل الطعام إلى بني هاشم، فقال له أبو البختري: طعام كان لعمته عنده بعثت إليه فيه، أ فتمنعه أن يأتيها بطعامها. خل سبيل الرجل.

ومكث الرسول مع أسرته على ذلك نحو ثلاث سنوات، لا يصل

www.abulhasanalinadwi.org

إليهم شئ إلا سراً، ممن أراد صلتهم من قريش، ورسول الله على ذلك يدعو قومه ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً وبنو هاشم صابرون محتسبون(١).

واشتد الحصار على الصحابة، وبني هاشم، وبني المطلب، حتى اضطروا إلى أكل ورق الشجر، وحتى أصيبوا بشظف العيش، وشدته، إلى حدٍّ أن أحدهم يخرج ليبول، فيسمع بقعقعة شيئ تحته، فإذا هي قطعة من جلد بعير، فيأخذها، فيغسلها، ثم يحرقها، ثم يسحقها، ثم يستفُّها، ويشرب عليها الماء، فيتقوى بها ثلاثة أيام، وحتى لتسمع قريش صوت الصبية يتضاغون من وراء الشعب من الجوع(٢).

إنهاء الحصار

فلما كان رأس ثلاث سنين، قيَّض الله سبحانه وتعالى لإنهاء المقاطعة ورفع الحصار الظالم أناساً من قريش، من أهل المروءة والضمائر، في مقدمتهم هشام بن عمرو الهاشمي، وزهير بن أبي أمية المخزومي، والمطعم بن عدي، وزمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، فاجتمعوا وتعاقدوا على نقض الصحيفة، فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، فقام زهير بن أبي أمية وأقبل على الناس، فقال: إنا نأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى، لا يبتاعون، ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة، فقال: أبو جهل وكان من ناحية المسجد، كذبت والله لا تشق، فقال: زمعة ابن الأسود: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حين كتبت، فقال أبو البختري: صدق زمعة، لا نرضى ما كتب فيها، ولا نقرُّ به، فقال المطعم بن عدي: صدقتما، وكذب من قال غير ذلك، نتبرأ إلى الله

---

(١) سيرة ابن هشام: ١/ ٣٥٠- ٣٥٤، وزاد المعاد: ٣/ ٣٠- ٣١ والسيرة النبوية للذهبي: ١/ ٢٢١.

(٢) حلية الأولياء ترجمة رقم٧، والغرباء الأولون ص: ١٤٨ وفقه السيرة النبوية للغضبان ص: ١٨٠.

www.abulhasanalinadwi.org

منها، ومما كتبت فيها، وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك، وفي جانب آخر كان أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا طالب: يا عم إن ربي الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش، فلم تدع فيها اسماً هو لله إلا أثبتته فيها، ونفت منه الظلم والقطيعة والبهتان، فقال: أ ربُّك أخبرك بهذا؟ قال: نعم! قال: فوالله ما يدخل عليك أحد، ثم خرج إلى قريش فقال: يا معشر قريش: إن أخي أخبرني بكذا وكذا، فهلم صحيفتكم، فإن كان كما قال ابن أخي فانتهوا عن قطيعتنا، وانزلوا عما فيها، وإن يكن كاذباً دفعت إليكم ابن أمي، فقال القوم: رضينا، فتعاقدوا على ذلك، فقام المطعم بن عدي إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها، كما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم، فلبس المطعم بن عدي، وعدي بن قيس، وزمعة بن الأسود، وأبو البختري، وزهير بن أبي أمية السلاح، ثم خرجوا إلى بني هاشم وبني المطلب، فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم ففعلوا، فلما رأت قريش ذلك سقط في أيديهم.

ومكث الرسول صلى الله عليه وسلم وبنو هاشم في الشعب ثلاث سنوات، ثم خرجوا منه(١).

عام الحزن

وبعد انفكاك الحصار لم يمتنع أهل قريش من إيذاء الرسول وأصحابه، بل اشتد أذاهم، وزاد شرهم وعنادهم، ومما زاد الرسول صلى الله عليه و سلم قلقاً، وفاة عمه الرؤوف أبي طالب، الذي كان يحوطه، ويغضب له، وينصره، ووفاة زوجته أم المؤمنين السيدة خديجة، التي كانت تؤاسيه وتعاضده وتفرج عنه وتسليه، وهما من عرفنا من حسن الصحبة والوفاء والنصر والتائيد، فبموت أبي طالب

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٣٧٤- ٣٧٧، والسيرة النبوية لابن كثير: ٢/٤٣- ٦٩، وطبقات ابن سعد ١/٢٠٨- ٢١٠.

www.abulhasanalinadwi.org

الذي أعقبه موت خديجة رضي الله عنها في السنة العاشرة من النبوة، تضاعف الأسى والحزن على الرسول صلى الله عليه وسلم؛ بفقد هذين الحبيبين اللذين كانا دعامتين من دعائم دعوته في أزماتها. فقد كان أبو طالب السند الخارجي الذي يدفع عنه القوم، وكانت خديجة رضي الله عنها السند الداخلي الذي يخفف عنه الأزمات والمحن، فتجرأ كفار قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونالوا منه ما لم يكونوا يطمعون فيه في حياة أبي طالب، وابتدأت مرحلة عصيبة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، واجه فيها كثيراً من المشكلات، والمصائب، والمحن، والفتن، حينما أصبح في الساحة وحيداً لا ناصر له إلا الله، ومع هذا؛ فقد مضى الرسول صلى الله عليه وسلم في إيصال دعوة ربه إلى الناس كافة، على ما يلقى من الخلاف والأذى الشديد، وتحمل من ذلك ما تنوء الجبال بحمله.

في الطائف

ولما تتابعت المصائب وتكاليف الفتن والمحن على الرسول صلى الله عليه وسلم واشتد انصرافهم عن الإسلام وزهدهم فيه، أراد أن ينال حماية رجل عظيم ذي نفوذ وقوة، يحميه وينصره في تبليغ رسالة ربه، وكان له أمل في أهل الطائف، ولا غرابة في ذلك، فإنه رضع في بني سعد وهم بمقربة من الطائف، وفيهم مراضعه وحواضنه، وكانت الطائف تلو مكة في الأهمية، واتساع العمران، ورفاهية السكان، كان عددٌ من الشخصيات العظيمة المؤثرة في قبيلة ثقيف في الطائف، فأراد الرسول أن يخرج إليه، ولما قدم عمد إلى نفر من ثقيف، هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليل، ومسعود، وحبيب بن عمرو بن عمير، فجلس إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام، والقيام معه على

www.abulhasanalinadwi.org

من خالفه من قومه، ولكن خاب مسعاه، وقد أراد الله أن يمتحن هناك أيضا صبره واستقامته وتحمله للأذى، فكان ردُّهم شر ردٍّ، ولم يستجيبوا لدعوته، حتى لم يعاملوا معه معاملة العرب المعروفة مع الغرباء في الجاهلية، ولم يستعدوا لحمايته نظراً إلى موقف قريش المعاند، وقال أحدهم وهو يمرط ثياب الكعبة: إن كان الله أرسلك؛ وقال الآخر: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك، وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول، كانت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك، ولم يكتفوا بذلك، بل استهزؤوا به، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونه ويصيحون به، حتى رموه بالحجارة، فدميت رجلاه وسالت منهما الدماء، فعمد إلى ظل نخلة خارج المدينة وهو مكروب فجلس فيه(١).

إسلام عداس

وكان هنا حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وهما فيه، فلما رآه، وما لقي، تحركت رحمهما ومروءتهما، فدَعَوَا غلاماً لهما نصرانياً، يقال له عداس، فقالا له: خذ قطفاً من العنب، فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه، ففعل عداس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال له: كل، فلما وضع الرسول صلى الله عليه وسلم فيه يده، قال: باسم الله، ثم أكل، فنظر عداس في وجهه، ثم قال: والله إن هذ الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ومن أي البلاد أنت يا عداس، وما دينك؟ قال: نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله صلى الله

(١) سيرة ابن هشام: ٤١٩/١، والسيرة الحلبية ٥٢/٢.

www.abulhasanalinadwi.org

عليه وسلم: ذاك أخي، كان نبيّاً وأنا نبي، فأكب عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ يقبل رأسه ويديه وقدميه، وأسلم.

ولما جاءهما عداس قالا له: ويلك يا عداس، مالك تقبل رأس هذ الرجل ويديه وقدميه؟. قال: يا سيدي ما في الأرض شئ خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي، قالا له: ويحك يا عداس، لا يصرفنَّك عن دينك، فإن دينك خير من دينه، ولكن عداس لم يلتفت إلى قولهما ولم يعبأ به(١).

تضرع ودعاء

ثم عمد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ظل شجرة من عنب، فجلس فيه، هو وصاحبه زيد بن حارثة ريثما يستريحان من عنائهما وما أصابهما، ثم توجه، وهو في غمرة من الأسى والحزن، والآلام النفسية، والجسمانية، إلى ربه بهذا الدعاء الذي يفيض إيماناً ويقيناً، ورضاً بما ناله في الله، فقال: "اللهم! إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين! أنت ربُّ المستضعفين، وأنت ربِّي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهَّمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك، الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو يحل عليَّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك(٢).

فجاشت رحمة الله لما أصاب حبيبه في الغربة من الأذى والجفاء والقسوة، وأرسل إليه ملك الجبال، يستأمره أن يطبق الأخشبين عليهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج من

---

(١) سيرة ابن هشام: ١/٤٢١.

(٢) سيرة ابن هشام: ١/٤١٩- ٤٢٠.

www.abulhasanalinadwi.org

أصلابهم من يعبد الله وحده، ولا يشرك به شيئاً[١].

ولم يرض الرسول صلى الله عليه وسلم بإبادة القوم واستئصالهم، بل آثر البقاء والعفو راجياً أن يخرج من أصلابهم من يقوم بعبادة الله، ولم يدع عليهم، وأظهر لهم الشفقة والرحمة، وأعرض عما لحق به من معاناة شديدة.

عودته من الطائف

وانصرف الرسول صلى الله عليه وسلم من الطائف ولم يجيبوه إلى ما دعاهم إليه؛ من تصديقه ونصرته، وصار إلى الحراء، والدخولُ في مكة لم يكن أمراً هيناً ولا آمناً، لعودته من الطائف خائباً، ولم ينجح في نيل حماية رجل خارج مكة، فيساوره الخوف مما تفعله قريش معه عندما يرجع إليها وهو خائب مطرود، ففكر في نيل جوار أحد رؤساء مكة الغالبين؛ لأن دخول رجل في جوار أحد الأقوياء كان يمنعه ويحميه كما فعل أبو بكر عندما امتنع من الهجرة، ودخل في جوار ابن الدغنة، فاختار الرسول صلى الله عليه وسلم الدخول في جوار المطعم بن عدي الذي كان رجلاً شريفاً وكريماً، فدخل مكة في جوار المطعم بن عدي.

وقد وفر جوار المعطم بن عدي وحمايتُه رأفة وصيانة للرسول صلى الله عليه وسلم، حتى اشتد أذى قريش وأصبحوا أشد ما كانوا عليه من خلاف وعداء وسخرية واستهزاء، واستمروا في إيذائه، بل صعَّدوا عملياتهم القاسية الظالمة، وتجرأوا على إيذائه بعد وفاة أبي طالب الذي كان وجوده ردءاً له قوياً وسياجاً له منيعاً، يقيه من أذى قريش، ولما توفي أبو طالب انهار هذا الحاجز ونال الرسول صلى الله عليه وسلم من الضرر الجسدي الشيئ الكثير.

---

[١] زاد المعاد: ٣/٣١- ٣٢، وصحيح البخاري ٣٢٣١، ومسلم: ١٧٩٥، وانظر: سيرة ابن كثير ٢/١٤٩- ١٥٣، وطبقات ابن سعد ١/٢١٢.

www.abulhasanalinadwi.org

إسلام الجن

لما انصرف الرسول صلى الله عليه وسلم من الطائف راجعاً إلى مكة، حين يئس من ثقيف حتى إذا كان بنخلة، قام في جوف الليل يصلي، فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تعالى، وكانوا سبعة نفر من جن أهل نصيبين، فاستمعوا لتلاوة الرسول صلى الله عليه وسلم، فلما فرغ من صلاته ولّوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا، وأجابوا إلى ما سمعوا، فقصّ الله تعالى خبرهم على النبي صلى الله عليه وسلم: فقال: "وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ" (الأحقاف: ٢٩- ٣٠).

فكان خبر إسلام الجن تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك الوضع القاسي المكفهر؛ لما أصابه في الطائف من جروح رفض وطرد، وأُخْبِرَ الرسول إذا كان أهل ا لطالف رفضوا دعوته وأهانوه وفق الله نفراً من الجن إلى قبول دعوته، ويدل هذا الحادث على سعة الرسالة المحمدية وقبولها عند الله، وعالميتها وآفاقيتها، فانتقلت الدعوة التي رفضها أهل الطائف الذين اختاروا موقفاً عنيداً ومهيناً إلى عالم آخر، وهو عالم الجن، فتلقوا دعوة النبي ومضوا بها إلى قومهم، فأصبح في عالم الجن دعاة يبلغون دعوة الله: "يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ" (الأحقاف: ٣١)[1].

---

[1] زاد المعاد: ٣/٣٢.

www.abulhasanalinadwi.org

الباب الخامس

حدث الإسراء والمعراج، بيعة العقبة، الهجرة إلى المدينة المنورة

كانت الثقة بالله تعالى، والوعد الإلهي بالنصر، والعصمة من الناس، وتحسين الوضع في المستقبل، البلسمَ الشافي لما يصيب الرسول صلى الله عليه وسلم؛ من مخالفات شديدة، ومعاناة قاسية، وأذى قاصم، وجراح نفسية وجسدية، يلحقها به المشركون؛ ولكنه بالرغم من إيمانه القوى بنصر الله، يشعر لكونه إنساناً بقلق في خاطره، وبثقل على نفسه، كان يؤمن بأن كل ما يتعرض له ويصيبه، هو من عند الله، فقسوة الأوضاع وشدتها، أو أسباب التسلية والاطمئنان منوطة بالقدر الإلهي، فكان من القدر الإلهي أن يمرَّ الرسول صلى الله عليه وسلم بمرحلة الشدائد والمحن والمعاناة؛ لكي تزيد قلبه ثقة وإيماناً بنصر الله له، وهمته وعزمه قوة وصلابة ومضاء في سبيل الدعوة إلى الحق.

وعلى كل حال، فلما بلغت همَّتُه العالية وعزمُه القوي إلى النهاية في القوة والسمو والصلابة، وترسَّخ في قلبه الإيمانُ الجازم بالفتح الرباني والنصر الإلهي، ولم يفتَّ في عضده وفاةُ عمِّه الشفيق أبي طالب أكبر حُمَاتِه، الذي كان يدافع عنه ويمنعه، ووفاةُ زوجته التي كانت تؤازره وتؤاسيه، وهو ماض في طريقه، صابر لأمر ربه، ولم يلحق به ضعف في إيمانه المحكم القوي، وعمله الدعوي المستمر المتواصل، لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا حرب محارب، ولا كيد مستهزئ، مع ما يقلق

www.abulhasanalinadwi.org

خاطره بصفته بشراً من قسوة الظروف وشدة الأذى، أراد الله تعالى أن يتيح لرسوله صلى الله عليه وسلم فرصة الاطلاع على المظاهر الكبرى لقدرته، وعلى ما يقع في الآخرة، وعلى مكانته عند الله، بطريق الإسراء والمعراج؛ ليكون ذلك جبراً لخاطره، وتقوية لعزمه وهمته، وتسلية لقلبه، كما فعل الله مع خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وذلك عندما قدم إبراهيم عليه السلام التضحية الغالية المثالية بأعز وأحب متاع عنده، وهي التضحية بوطنه العزيز، والتضحية بولده الحبيب البار، والتضحية بزوجته الحبيبة؛ ابتغاء لمرضاة ربه الله، وصدق فيما ابتلاه ربُّه وامتحنه، ثم طلب من ربِّه أن يريه "كيف يحيي الموت" وقال الله: أو لم تؤمن؟ قال إبراهيم: بلى، ولكن ليطمئن قلبي" بأن كيف تحيي الموت، فأراه الله ما طلب ليملأ قلبه ثقة فيه، واستناداً إليه، حتى يزداد قوة في مهاجمة سلطان الكفار القائم في الأرض.

فلما نال الرسول صلى الله عليه وسلم المكانة السامية السامقة للإستسلام الكامل لرضا الله رب العالمين، والاتباع الكامل لأمر الله، والخضوع التام أمام قدره، ؛ خيره وشره، كرَّمه الله بأن أراه من آياته الكبرى، من رؤية الأنبياء والمرسلين، والملائكة، والسموات، والجنة والنار، ونماذج من النعيم والعذاب، ومن الدنو والقرب إلى العرش الكريم، وما أعدّ له من الأجر الجزيل الكريم، والجزاء الأوفى في الآخره، فكان الإسراء والمعراج ضيافة كريمة من الله، وتسلية وجبراً للخاطر، وتعويضاً عما لقيه في الطائف من الذلة والهوان، والجفاء والنكران.

قصة الإسراء والمعراج

ورد في الأحاديث النبوية الشريفة: بينما كان الرسول صلى الله عليه وسلم في الحطيم مضطجعاً إذ أتاه آتٍ - وهو جبرئيل عليه السلام - فقال:

www.abulhasanalinadwi.org

قم وسر معي، يدعوك ربُّك، فأسرى به من المسجد الحرام إلى بيت المقدس بالشام (فلسطين) فنزل هناك وصلى بالأنبياء إماماً، واجتمع بهم، فبذلك حصلت له مكانة سيادة الأنبياء، وشاهد ذلك بأم عينيه، ثم عرج به تلك الليلة من بيت المقدس إلى ما شاء الله من القرب والدنو، فجاء حدث الإسراء والمعراج على قدر من رب العالمين، فيعرج به من دون الخلائق جميعاً، ويكرمه على صبره وجهاده، ويلتقى به مباشرة دون رسول ولا حجاب، ويطلعه على عوالم الغيب دون الخلق كافة، ويجمعه مع إخوانه من الرسل في صعيد واحد، فيكون الإمام والقدوة لهم، وهو خاتمهم وآخرهم، صلى الله عليه وسلم.

وقد جعل الله تعالى الإنسان خلقاً يتكون من هيكل جسماني مادي؛ تلمس آثاره وتدرك بالحواس والمدارك الظاهرة، كما أودع فيها صفات ملكوتية لا يمكن إدراكها إلا بالحواس الملكوتية، ويمكن الإنسانَ أن يشاهدها أصلاً في الآخرة، ولكن الله تعالى يريها أحياناً في هذه الحياة الدنيا، وما هي هذه الأحوال التي تحمل صورتين: صورة ظاهرة مرئية يستطيع الإنسان أن يراها ويسمعها، وصورة باطنة غير مرئية لا تدركها هذه الأبصار والأسماع الدنيوية؟، فالمال الحلال مثلا يحسه الإنسان ويفهمه كالمال الحرام بحواسه الظاهرة ومداركه المادية، ولكن المال الحلال في الإطار الملكوتي يحمل كيفية طيبة طاهرة، ومال الحرام يحمل خبثاً ورائحة كريهة نتنة، وكذلك يحس الإنسان الأعمال الصالحة كالأعمال السيئة في نطاق حواسه الظاهرة والقوى الإدرا كية، ولكن تترأى في الحواس الباطنة التى حددها الأنبياء المرسلون أعمال مشقة ومصيبة وشدة، وأمثلة ذلك كثيرة في القرآن الكريم والحديث النبوي، فمثلاً الذهب والفضة المكتسبان بطريق غير مشروع، يكونان في الآخرة

www.abulhasanalinadwi.org

حيث تظهر الخصائص الباطنة، كحديد مضطرم، تكوى بهما جباه وجنوب المستفيدين منهما. "فتكوى بها جباههم وجنوبهم". وكذلك ورد في الحديث: من اغتصب شبراً من الأرض يطوق به يوم القيامة"، وكذلك يكون المال الحرام والربا كالبراز والغلاظة.

فالأعمال الإنسانية تحمل جانبين: أحدهما ظاهر مادي، وهو يحمل أطواراً ظاهرة وكيفية ظاهرة، وثانيهما باطن؛ أرسل الله رسله لبيانه، ويشاهد الإنسان ويرى آثاره في الآخرة، وقد أعطى الله محمداً صلى الله عليه وسلم علم هذا الجانب الباطن بصورة يقينية بصفته نبياً، ورغم ذلك سنح الله له فرصة لمشاهدته في الإسراء والمعراج ليزداد يقيناً وإيماناً به، فتخطى علمه نطاق علم اليقين إلى حق اليقين، فأصبح بذلك تعليمُ الرسول للحسنات وأعمال الخير أمراً مشاهداً، وكان من غرض بعثته أن يخبر الناس بأن لا يكونوا مطمئنين مقتنعين بجانب أعمالهم الظاهرة، لأن علمهم بهذا الجانب الظاهر لا يتعدى الحياة الدنيا، بل ينحصر في متاع هذه الدنيا الزائل، ثم يظهر الجانب الباطن للأعمال في حياة الآخرة التي لا تنتهي، بل تدوم وتبقى دائماً أبداً، فلا يجد الإنسان هنا ملجأ أومهرباً من العاقبة الوخيمة لهذا الجانب الباطن، فعلى الإنسان أن يسعى ويعمل في هذه الدنيا للخلاص منها والنجاح والفوز في الآخرة.

فأما الآيات والمشاهد التي شاهدها الرسول صلى الله عليه وسلم خلال الإسراء والمعراج فهي مشروحة ومبيَّنة في الأحاديث النبوية الشريفة.

ففي رواية سنن أبي داود: فمر على قوم لهم أظفار من نحاس، يخدشون وجوههم وصدورهم، فقال: من هؤلاء يا جبرئيل؟ فقال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم".

www.abulhasanalinadwi.org

وكذلك كشف للرسول صلى الله عليه وسلم في رحلة الإسراء والمعراج - كما ذكر ابن هشام في سيرته وابن كثير في تفسيره - حال كثير من الناس ؛ كحال من يأكلون أموال اليتامى بغير حق ويغصبونها ، ومن يأكل الربا ، وحال الزناة ، وحال من يترك الزكاة الواجبة عليه ، ومن يترك الصلاة ، ومن يتكلم بالفحش ، وغيرهم ، وظهرت له هذه الأحوال السيئة بأشكالها المتنوعة ، وكذلك كشفت له أحوال حسنة كحال الجنة ، وكشف له مكانه في الجنة من بعيد ، فإذا أراد أن يراه من قريب منع وقيل : كفاك هذا.

وفي ليلة المعراج أعطى الله نبيه ثلاث عطيات : أواخر سورة البقرة ؛ التي فيها بشارة لاكتمال عقائد الإسلام والإيمان ، وانتهاء دور المحنة ، وبشرت الرحمة الخاصة بأن كل فرد من أفراد الأمة المحمدية لم يشرك بالله شيئاً ، يغفر له ، وجاء النداء الرباني : فرضت على أمتك الصلاة خمسين صلاة كل يوم ، ثم خففت حتى استقرت خمس صلوات كل يوم.

وفي رواية للبخاري أنه رأى الرسول في ليلة المعراج الدجال أيضاً[1].

وقد ورد ذكر حدث الإسراء والمعراج في سورة الإسراء وسورة النجم مفصلاً.

فجاء في سورة النجم على النحو التالي :

"وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى

[1] باب بدء الخلق.

www.abulhasanalinadwi.org

عَبْدِهِ مَا أَوْحَى مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى" (النجم: ١- ١٨).

ولما رجع الرسول صلى الله عليه وسلم من رحلته الميمونة إلى مكة، غدا على قريش فأخبرهم الخبر، فأنكروه واستعظموه، وكذبوه، فلم يزدهم إلا نفوراً، وأبى الظالمون إلا كفوراً وقالوا مستهزئين: والله إن العير لتطرد، شهراً من مكة إلى الشام مدبرة، وشهراً مقبلة، أ فيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة، ويرجع إلى مكة، هذا والله الأَمْرُ البَيِّنُ. يدل ذلك على أنه كاذب، ولكن إذا سمع المؤمنون حقاً، آمنوا بذلك، وقالوا: والله لئن كان قاله لقد صدق، فما يعجبكم من ذلك؟ فوالله إنه يخبرنا أن الخبر يأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل ونهار، فلنصدقه فهذا أبعد مما تعجبون منه[١]. فزادهم إيماناً.

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: "والله لئن قاله لقد صدق، فما يعجبكم من ذلك، فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار، فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه"[٢].

إسلام أبي ذر الغفاري

كان الطريق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلى الإسلام مفروشاً بالأشواك، محفوفاً بالمخاوف والأخطار، لا يهتدي إليه الباحث

---

[١] صحيح البخاري، باب حديث الإسراء والمعراج، صحيح مسلم، كتاب الإيمان باب الإسراء برسول الله إلى السموات، السيرة النبوية للإمام الذهبي: ١/٢٤١- ٢٧٨، سيرة ابن كثير ٢/٩٦، سيرة ابن هشام: ١/٣٩٩، دلائل النبوة للبيهقي، المجلد الثاني، وطبقات ابن سعد ١/٢١٣- ٢١٦.

[٢] سيرة ابن هشام: ١/٣٩٩.

www.abulhasanalinadwi.org

عن الحق إلا إذا خاطر بنفسه، وجازف بحياته، يدل على ذلك ما حكاه ابن عباس - رضي الله عنهما - من قصة قدوم أبي ذر الغفاري إلى مكة، ولقائه للرسول صلى الله عليه وسلم، ودخوله في الإسلام، يقول:.

"لما بلغ أبا ذر مبعث النبي صلى الله عليه وسلم قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي، فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله ثم ائتني، فانطلق الأخ، حتى قدمه وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر - رضي الله عنهما - فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلاماً ما هو بالشعر، فقال: ما شفيتني مما أردت.

فتزود وحمل شنة له، فيها ماء، حتى قدم مكة، فأتى المسجد، فالتمس النبي صلى الله عليه وسلم ولا يعرفه، وكره أن يسأل عنه، حتى أدركه بعض الليل، فرآه عليّ فعرف أنه غريب، فلما رآه تبعه، فلم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء، حتى أصبح، ثم احتمل قربته وزاده إلى المسجد، وظل ذلك اليوم، ولا يراه النبي صلى الله عليه وسلم حتى أمسى، فعاد إلى مضجعه فمر به علي - رضي الله عنه - فقال: أما آن للرجل أن يعلم منزله؟ فأقامه، فذهب به معه، لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء.

حتى إذا كان اليوم الثالث، فعاد على مثل ذلك، فأقام معه، ثم قال: ألا تحدثني ما الذي أقدمك؟ قال: إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني، فعلت، ففعل، فانطلق يقفوه، حتى دخل على النبي صلى الله عليه وسلم ودخل معه، وسمع من قوله، وأسلم مكانه، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: ارجع إلى قومك، فأخبرهم حتى يأتيك أمري، قال: والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم، فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ثم قام القوم، فضربوه حتى أضجعوه، وأتى

www.abulhasanalinadwi.org

العباس، فأكب عليه، قال: ويلكم ألستم تعلمون أنه من "غفار" وأن طريق تجاركم إلى الشام عليهم، فأنقذه منهم، ثم عاد من الغد لمثلها فضربوه، وثاروا عليه فأكب العباس عليه"[١].

بدء إسلام الأنصار:

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في الموسم، فبينما هو عند العقبة، إذ لقي رهطاً من الخزرج من الأنصار، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

وكانوا جيران اليهود في المدينة، وكانوا يسمعونهم يخبرون بنبي قد أظل زمانه، فقال بعضهم لبعض: يا قوم! تعلمون والله أنه النبي الذي توعدكم به اليهود، فلا يسبقنكم إليه، فأجابوه، وصدقوه، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك[٢].

وانصرفوا راجعين إلى بلادهم، وآمنوا، وصدقوا، فلما قدموا المدينة ذكروا لإخوانهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوهم إلى الإسلام، حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم[٣].

بيعة العقبة الأولى:

حتى إذا كان العام المقبل، وافى الموسم من الأنصار، اثنا عشر رجلاً (عشرة من الخزرج واثنان من الأوس)، فلقوه بالعقبة الأولى،

---

[١] الجامع الصحيح للبخاري: "باب إسلام أبي ذر رضي الله عنه".
[٢] سيرة ابن هشام: ١/ ٤٢٨- ٤٢٩.
[٣] نفس المصدر، ص٤٢٨- ٤٢٩.

www.abulhasanalinadwi.org

فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ا لتوحيد، والتعفف من السرقة والزنى وقتل الأولاد والطاعة في المعروف.

فلما همّ القوم بالانصراف بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم مصعب بن عمير، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في ا لدين، فكان يسمى "المقرئ" بالمدينة، ونزل على أسعد بن زرارة، وكان يصلي بهم(١).

الإسلام في المدينة

وكانت بيعة العقبة الأولى في نهاية السنة الحادية عشرة من البعثة، وبعث الرسول صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير معهم إلى المدينة، فقدم مصعب المدينة، وجعل يدعوهم إلى الإسلام، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، لم يذهب جهده سدى، بل أتى سعيه بنتائج سارة؛ فبدأ الناس يقبلون إلى الإسلام، ويدخلون فيه، وأقام مصعب بمنزل أسعد بن زرارة، فكانا يقومان بالدعوة إلى ا لله، ولما بلغ عدد الداخلين في الإسلام أربعين رجلاً أقام مصعب صلاة جمعة بالمدينة، فكانت أول جمعة أقيمت بالمدينة قبل الهجرة(٢).

قصة إسلام أسيد بن حضير وسعد بن معاذ:

كان سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، سيدي قومهما من بني عبد الأشهل، وكانا على دين قومهما، فلما سمعا بمصعب بن عمير، ونشاطه في الدعوة إلى الإسلام، قال سعد لأسيد: لا أبا لك! انطلق إلى هذين الرجلين، اللذين أتيا دارنا؛ ليسفها ضعفاءنا، فازجرهما، وانههما أن يأتيا دارنا، فإنه لولا أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت،

---

(١) نفس المصدر، ص٤٣١- ٤٣٤ ملخصاً.

(٢) سيرة ابن هشام: ١/٤٣٥.

www.abulhasanalinadwi.org

كفيتك ذلك، هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدماً، فأخذ أسيد حربته، ثم أقبل عليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة، قال: هذا سيد قومه، وقد جاءك، فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه، فوقف عليهما متشتِّماً، فقال: ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا؟! اعتزلانا؛ إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب بلسان المؤمن الهادئ الواثق من سماحة دعوته: أو تجلس، فتسمع، فإن رضيت أمراً، قبلته، وإن كرهته، نكف عنك ما تكره؟

قال أسيد: أنصفت، ثم ركز حربته، وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن فقالا – فيما يذكر عنهما –: والله! لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه، وتسهله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام، وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل، فتتطهر، وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي، فقام، فاغتسل، وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً، إن اتبعكما، لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكم الآن: سعد بن معاذ.

ثم أخذ حربته، وانصرف إلى سعد، وقومه، وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد مقبلاً، قال أحلف بالله! لقد جاءكم أسيد ابن حضير بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم!!

فلما وقف على النادي، قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين، فوالله! ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما، فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حدثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة، ليقتلوه، وذلك أنهم عرفوا: أنه ابن خالتك ليخفروك(١).

(١) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبة ١/٤٤٢.

www.abulhasanalinadwi.org

فقام سعد مغضباً مبادراً تخوفاً للذي ذكر له من أمر بني حارثة، وأخذ الحربة في يده، ثم قال: والله! ما أراك أغنيت شيئاً، ثم خرج إليهما سعد، فوجدهما مطمئنين، فعرف: أن أسيداً إنما أراد أن يسمع منهما، فوقف متشتماً، ثم قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة! لولا ما بيني وبينك من القرابة، ما رمت هذا مني، أتغشانا في دارنا بما نكره؟! وكان أسعد قد قال لمصعب: لقد جاء — والله! — سيِّد من وراءه من قومه، إن يتبعك، لا يتخلف منهم اثنان، فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع؟ فإن رضيت أمراً، ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره. فقال سعد: أنصفت، ثم ركز الحربة، وجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ القرآن. وذكر موسى بن عقبة: أنه قرأ عليه أول سورة الزخرف، قالا: فعرفنا — والله! — في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه، وتسهله.

ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم، ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل، فتتطهر، وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين، فقام فاغتسل، وطهر ثوبيه، ثم تشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته، فأقبل عائداً إلى نادي قومه، ومعه أسيد بن حضير، فلما رآه قومه مقبلاً، قالوا: نحلف بالله، لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم، قال: يا بني عبد الأشهل! كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا، وأفضلنا رأياً، وأيمننا نقيبة! قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام، حتى تؤمنوا بالله، ورسوله! قال: فوالله، ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل، ولا امرأة إلا مسلماً، أو مسلمة.

www.abulhasanalinadwi.org

ورجع أسعد، ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال مسلمون، ونساء مسلمات(١).

بيعة العقبة الثانية

لجهود مصعب بن عمير الدعوية المخلصة المستمرة المستميتة انتشر الإسلام في كل بيت من بيوت يثرب، وأصبح حديث النوادي، فلمارجع مصعب إلى مكة في العام الثالث عشر من البعثة كان معه ٧٣ رجلاً وامرأتان من النساء، واجتمعوا في الشعب عند العقبة، وقد مضى ثلث الليل، وجاء الرسول صلى الله عليه وسلم ومعه عمُّه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، فبايعوا على يده على الإسلام، وطالبوا منه بالانتقال من مكة إلى المدينة، وأن يجعل المدينة مركز دعوته؛ لأن المسلمين في المدينة أصبحوا في عدد كبير، ولما سمع العباس ذلك قال: يا معشر الخزرج: إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزٍّ من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك؛ وإن كنتم ترون أنكم مُسْلِموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده، فقال الأنصار: نحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة (السلاح) ورثناها كابراً عن كابر، ونحن نعلم ما نبايعه عليه، نبايع على حرب الأحمر والأسود من الناس، وقال العباس بن عبادة بن نضلة: والله الذي بعثك بالحق: إن شئت لنميلن على أهل مكة غداً بأسيافنا؟

(١) قصة إسلام سعد بن معاذ رواها الطبري في تاريخه ٢/٣٥٧- ٣٥٩، وابن سعد ٣/٤٢٠- ٤٢١، والبيهقي في الدلائل ٢/٤٣١- ٤٣٢ والطبراني في الكبير ٢٠/٣٦٢.

www.abulhasanalinadwi.org

وأعملنا سيوفنا في أهل مكة، فقال الرسول: لم نؤمر بذلك، ثم اختار منهم تلك الليلة اثني عشر نقيباً، وكانوا من رؤساء وأعيان قبائلهم(١).

ولما استقر الإسلام في المدينة وحصلت له قوة ومنعة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار، وقال: إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها، فخرجوا أرسالاً، وما إن وصل ذلك إلى قريش حتى ثاروا غضباً وبدأوا يضعون العراقيل في سبيل الانتقال من مكة إلى المدينة، وكانوا يمتحنون المهاجرين بأنواع من المحن، وكان المهاجرون لا يعدلون عن هذه الفكرة، ولا يؤثرون البقاء في مكة، مهما دفعوا من قيمة، فمنهم من كان يضطر إلى أن يترك امرأته وابنه في مكة ويسافر وحده، كما فعل أبو سلمة، ومنهم من كان يضطر إلى أن يتنازل عن كل ما كسبه في حياته، وجمعه من ماله، كما فعل صهيب، ولم يقف بمكة مع رسول الله غير من حبس وفتن، إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر بن أبي قحافة رضي الله عنهما.

ولاقى المهاجرون مقاومة شديدة من قريش مكة، وأخذ كفار قريش سائر مال صهيب(٢).

هجرة أم سلمة:

تقول أم سلمة رضي الله عنها: لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رَحَلَ لي بعيره، ثم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج بي يقود بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة ابن عبد الله بن عمر بن مخزوم قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أ رأيت صاحبتك هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد؟ قالت:

---

١ سيرة ابن هشام: ١/ ٤٤١- ٤٤٤.

٢ سيرة ابن هشام ١/ ٤٧٧.

www.abulhasanalinadwi.org

فنزعوا خطام البعير من يده، فأخذوني منه. قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة، فقالوا: لا والله، لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا. قالت: فتجاذبوا بُنَيَّ سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة. قالت: ففرق بيني وبين زوجي وبين ابني. قالت: فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي، حتى أمسى سنة أو قريباً منها حتى مرَّ بي رجل من بني عمي، أحد بني المغيرة، فرأى ما بي فرحمني فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون (١) هذه المسكينة، فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها! قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت. قالت: ورد بنوعبد الأسد إليَّ عند ذلك ابني. قالت: فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة. قالت: وما معي أحد من خلق الله. قالت: فقلت: أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي، حتى إذا كنت بالتنعيم(٢) لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، أخا بني عبد الدار فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟ قالت: فقلت: أريد زوجي بالمدينة. قال: أو ما معك أحد؟ قالت: فقلت: لا والله، إلا الله وبُنَيَّ هذا. قال: والله مالك من منزل، فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يهوى بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط، أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري، فحط عنه، ثم قيده في الشجرة، ثم تنحى (عني) إلى شجرة، فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح، قام إلى بعيري فقدمه فرحله، ثم

---

(١) في الأصول: "ألا تخرجون من هذه... الخ".

(٢) التنعيم: موضع بين مكة وسرف، على فرسخين من مكة.

www.abulhasanalinadwi.org

استأخر عني، وقال: اركبي، فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه، فقاده، حتى ينزل بي. فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء، قال: زوجك في هذه القرية – وكان أبو سلمة بها نازلاً – فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة.

فكانت أم سلمة تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة(١).

لاقى أبو سلمة في الهجرة صعوبات شديدة، حتى حرم من زوجته كما حرمت زوجته من زوجها وفلذة كبدها، واحتملا ذلك، وقد مرَّ كل صحابي أراد الهجرة، بمثل هذه الأحوال القاسية.

مؤامرة قتل الرسول صلى الله عليه وسلم

لما لم يبق في مكة إلا قليل من المسلمين، ومن الصحابة الكبار أبو بكر، وعلي ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ حسبت قريش أن ذلك أحسن فرصة لقتل محمد صلى الله عليه وسلم.

فاجتمعوا له في دار الندوة خفية، يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، واجتمع فيها أشراف قريش، واجتمع رأيهم أخيراً على رأي أبي جهل، وهو أن يؤخذ من كل قبيلة فتى شاب صاحب جلادة ونسب، فيهاجموا رسول الله صلى الله عليه وسلم ويضربوا ضربة رجل واحد، وبذلك يتفرق دمُه في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، وبذلك ينتهي الشر المخيف الذي يتزايد كل يوم، ثم تفرق القوم على ذلك،

---

(١) سيرة ابن هشام: ١/٤٦٩- ٤٧٠.

www.abulhasanalinadwi.org

وهم مجمعون له[١].

وأخبر الله رسولَه بهذه المؤامرة، فأمر علياً بن أبي طالب أن ينام على فراشه متسجياً ببردته وقال: لن يخلص إليك شيء تكرهه.

واجتمع القوم على بابه، وهم مستعدون للوثوب والمهاجمة، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لابساً درع "الله يعصمك من الناس" وأخذ حفنة من تراب في يده، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه؛ فلا يرونه، فجعل ينثر التراب على رؤوسهم، وهو يتلو آيات من سورة يسين من أولها إلى قوله تعالى: "فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ" (الآية: ٩).

وقبل خروجه من مكة ذهب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بيت أبي بكر وقال له: أذن لي ربي بالهجرة إلى المدينة. فقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها في حديث طويل، وفيه:

"... قالت عائشة: فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر، في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنعاً، في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي! والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر! قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضي الله عنه: "أخرج من عندك"، فقال أبو بكر: إنما هم أهلك. قال: "فإني قد أذن لي في الخروج"، فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت يا رسول الله! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم، قال أبو بكر رضي الله عنه: فخذ بأبي أنت يا رسول الله! إحدى راحلتيّ هاتين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "بالثمن"، قالت عائشة رضي الله عنها: فجهزناهما أحث الجهاز، وصنعنا لهم

[١] سيرة ابن هشام ١/٤٨٠- ٤٨٢، تاريخ الطبري: ٢/٣٧١- ٣٧٢، طبقات ابن سعد ١/٢٢٧، نهاية الأرب ٦/٣٢٧، عيون الأثر ١/١٨٧- ١٨٩.

www.abulhasanalinadwi.org

سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاقين، واستأجر رسول الله وأبوبكر رجلاً من بني الديل هادِياً خريتاً، قدغمس حلفاً[1] في آل العاص بن وائل السهمي، وهو على دين كفار قريش، فأمناه، فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة، والدليل، فأخذ بهم طريق السواحل[2].

ووقف الرسول عند خروجه بالحزورة في سوق مكة وقال مخاطباً لمكة: ما أطيبك من بلد، وأحبك إلي، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك[3].

ثم لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر بغار في جبل ثور، ولما انتهيا إلى غار قال أبو بكر: مكانك يا رسول الله، حتى أستبرئ لك الغار، فدخل فاستبرأه حتى إذا كان ذكر أنه لم يستبرئ الحجرة، فقال: مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ، فدخل فاستبرأ، ثم قال: انزل يا رسول الله فنزل، ، وكمنا فيه ثلاث ليال، يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما، وهو غلام، شاب، ثقف، لقن، فيدلج من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمراً يكتادان به إلا وعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك، حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله عنه منحة من غنم، فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فيبتان في رسل —

---

[1] غمس حلفاً: أي أخذ بنصيب من عقدهم، يأمن به.

[2] " البخاري ٣٩٠٥، وأحمد ١٩٨/٦- ١٩٩، والبيهقي في دلائل النبوة ٤٧٣/٢- ٤٧٥، وعبد الرزاق في المصنف ٣٨٨/٥، والطبري في تاريخه ٣٧٥/٢- ٣٧٨.

[3] الترمذي: عن ابن عباس مرفوعاً في باب فضل مكة.

www.abulhasanalinadwi.org

وهو لبن منحتهما ورضيفهما – حتى ينعق بها عامر بن فهيرة بغلس، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث.

ولم يعلم بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد حين خرج إلا علي بن أبي طالب، وأبو بكر الصديق، وآل أبي بكر.

أما علي رضي الله عنه، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره أن يتخلف، حتى يؤدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع، التي كانت عنده للناس، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده، لِمَا يعلم من صدقه، وأمانته[١]، وكان الميعاد بين الرسول صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر رضي الله عنه، فخرجا من خوخة[٢] لأبي بكر في ظهر بيته، وذلك للإمعان في الاستخفاء، حتى لا تتبعهما قريش، وتمنعهما من تلك الرحلة المباركة[٣].

قصة سراقة بن مالك:

وقد أعلنت قريش في نوادي مكة: أنه من يأتي بالنبي صلى الله عليه وسلم، حياً، أو ميتاً، فله مئة ناقة، وانتشر هذا الخبر عند قبائل الأعراب الذين في ضواحي مكة، وطمع سراقة بن مالك بن جعشم في نيل الكسب، الذي أعدته قريش لمن يأتي برسول الله صلى الله عليه وسلم، فأجهد نفسه لينال ذلك، ولكن الله بقدرته التي لا يغلبها غالب، جعله يرجع مدافعاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما كان جاهداً عليه.

قال ابن شهاب: وأخبرني عبد الرحمن بن مالك المدلجي – وهو

---

[١] السيرة النبوية: لابن كثير ٢/٢٣٤.

[٢] الهجرة في القرآن الكريم ص٣٣٤.

[٣] خاتم النبيين، لأبي زهرة ١/٦٥٩، والسيرة النبوية، لابن كثير ٢/٢٣٤.

www.abulhasanalinadwi.org

ابن أخي سراقة بن مالك بن جعشم –: أن أباه أخبره، أنه سمع سراقة بن جعشم يقول: جاءنا رسل كفار قريش، يجعلون في رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر دية كل واحد منهما، لمن قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج، إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقة! إني قد رأيت آنفاً أسودة[١] بالساحل، أراها محمداً وأصحابه، قال سراقة: فعرفت: أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلاناً، وفلاناً، انطلقوا بأعيننا، ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت، فدخلت، فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي – وهو من وراء أكمة[٢] – فتحبسها علي، وأخذت رمحي، فخرجت به من ظهر البيت، فخططت بزُجِّه[٣] الأرض، وخفضت عاليه، حتى أتيت فرسي فركبتها، فرفعتها (أي: أسرعت بها السير) تقرب بي، حتى دنوت منهم، فعثرت بي فرسي، فخررت عنها، فقمت، فأهويت يدي إلى كنانتي، فاستخرجت منها الأزلام[٤]، فاستقسمت بها: أضرهم أم لا؟ فخرج الذي أكره، فركبت فرسي، وعصيت الأزلام، تقرب بي، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، ساخت[٥] يدا فرسي في الأرض، حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها، ثم زجرتها، فنهضت، فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة، إذا لأثر يديها عثان[٦] ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام، فخرج الذي أكره، فناديتهم

---

[١] أسودة: جمع قلة لسواد، وهو الشخص يرى من بعيد أسود، الهجرة في القرآن، ص٣٤٤.

[٢] الأكمة: وهي الرابية.

[٣] الزج: الحديدة في أسفل الرمح.

[٤] الأزلام: الأقداح التي كانت في الجاهلية، مكتوب عليها الأمر، أو النهي: افعل، أو لا تفعل.

[٥] ساخت يدا فرسي: أي: غاصت في الأرض.

[٦] عثان: أي: دخان، وجمعه عواثن على غير قياس، النهاية ٣/١٨٣.

www.abulhasanalinadwi.org

بالأمان، فوقفوا، فركبت فرسي، حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم، أن سيظهر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزآني[١]، ولم يسألاني، إلا أن قال: أخف عنا، فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة، فكتب في رقعة من أدم[٢]، ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم[٣].

خيمة أم معبد في طريق الهجرة:

وبعد ثلاث ليال من دخول النبي صلى الله عليه وسلم في غار ثور خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه من الغار، وقد هدأ الطلب، ويئس المشركون من الوصول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد استأجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر، رجلاً من بني الديل، يسمى عبد الله بن أريقط، وكان مشركاً، وقد أمناه، فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما، وقد جاءهما فعلاً في الموعد المحدد، وسلك بهما طريقاً غير معهودة، ليخفي أمرهما عمن يلحق بهم من كفار قريش[٤].

ولما خرج من منطقة بني كنانة حلفاء قريش، ودخل في منطقة خزاعة التي لم تكن من حلفاء قريش، أنهى إخفاء سفره، ولما شعر بالجوع واحتاج إلى الزاد والغذاء وقف عند خيمة في قديد[٥]، وبرز

---

[١] فلم يرزآني: أي: لم يأخذا مني شيئاً.

[٢] أدم: قطعة من جلد.

[٣] البخاري ٣٩٠٦، مناقب الأنصار، باب هجرة النبي وأصحابه إلى المدينة، ومسلم ٢٠٠٩/٩١، وسيرة ابن هشام: ١/٤٨٩- ٤٩٠.

[٤] انظر: المستفاد من قصص القرآن ٢/١٠١.

[٥] وادي قديد: موضع قرب مكة، يبعد عن الطريق المعبدة حوالي ثمانية كيلو مترات.

www.abulhasanalinadwi.org

كضيف مسافر كعادة العرب، وكانت الخيمة لأم معبد[١] وهي أخت خنيس بن خالد الخزاعي، الذي روى قصتها. يقول خالد بن خنيس الخزاعي رضي الله عنه:

"إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج من مكة، وخرج منها مهاجراً إلى المدينة، هو وأبو بكر رضي الله عنه، ومولى أبي بكر عامر بن فهيرة رضي الله عنه، ودليلهما الليثي عبد الله بن أريقط، مروا على خيمة أم معبد الخزاعية، وكانت برزة[٢] جلدة[٣] تحتبي[٤] بفناء القبة، ثم تسقي وتطعم، فسألوها لحماً، وتمراً؛ ليشتروه منها، فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك، وكان القوم مرمِلين[٥] مسنِتين[٦]، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاة في كَسْر الخيمة[٧]، فقال: "ما هذه الشاة يا أم معبد؟!" قالت: خلفها الجهد عن الغنم، قال: "فهل بها من لبن؟" قالت: هي أجهد من ذلك.

قال: "أتأذنين أن أحلبها؟" قالت: بلى بأبي أنت وأمي! نعم إن رأيت بها حلباً؛ فاحلبها!

فدعا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح بيده ضرعها، وسمى الله عز وجل، ودعا لها في شاتها، فتفاجَّت[٨] عليه، ودرَّت[٩]

---

[١] هي عاتكة بنت كعب الخزاعية.
[٢] برزة: كهلة، كبيرة السن، لا تحتجب احتجاب الشواب.
[٣] جلدة: قوية صلبة، وقيل: عاقلة.
[٤] تحتبي: أي تجلس وتضم يديها إحداهما إلى الأخرى، على ركبتيها، وتلك جلسة الأعراب.
[٥] مرملين: نفد زادهم.
[٦] مسنتين: أي: داخلين في سنة، وهي الجدب، والمجامعة، والقحط.
[٧] كسر الخيمة – بفتح الكاف وكسرها، وسكون المهملة – أي: جانبها.
[٨] تفاجت: فتحت ما بين رجليها للحلب.
[٩] درت: أرسلت اللبن.

www.abulhasanalinadwi.org

واجترَّت[١] ودعا بإناء يُرْبِضُ[٢] الرهط، فحلب فيها ثجّاً[٣] حتى علاه البهاء[٤] ثم سقاها حتى رويت، وسقى أصحابه، حتى رَوَوْا، وشرب آخرهم صلى الله عليه وسلم، ثم أراضوا[٥] ثم حلب فيها ثانياً بعد بدء؛ حتى ملأ الإناء، ثم غادره عندها، ثم بايعها، وارتحلوا عنها.

فقلما لبثت حتى جاء زوجها أبو معبد، يسوق أعنزاً عجافاً[٦] يتساوكن هزلاً[٧] ضحى، مخُّهن قليل، فلما رأى أبو معبد اللبن، عجب، وقال: من أين لك هذا اللبن يا أم معبد! والشاة عازب حِيال[٨] ولا حلوبة في البيت؟ قالت: لا والله! إلا أنه مرَّ بنا رجل مبارك، من حاله كذا، وكذا. قال: صفيه لي يا أم معبد! قالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة[٩] أبلج الوجه[١٠] حسن الخلق، لم تعبه نُحْلة[١١] ولم تزر به صَعْلة[١٢] وسيم[١٣] في عينيه دعج[١٤] وفي أشفاره وَطَفٌ[١٥] وفي صوته صَهَل[١] وفي عنقه سَطَع[٢] وفي لحيته كثاثة،

---

[١] واجترت: من الجرة، وهي ما تخرجها البهيمة من كرشها تمضغها.

[٢] يربض: يرويهم حتى يثقلوا، فيربضوا، أي: يقعوا على الأرض للنوم والراحة.

[٣] ثجاً: السيلان، ومعنى ثجاً: لبناً كثيراً سائلاً.

[٤] علاه البهاء: أي: علا الإناء بهاء اللبن.

[٥] أراضوا: أي: رووا، فنقعوا بالري، يريد شربوا مرة بعد مرة حتى رووا.

[٦] عجافاً: ضد السمن، وهو جمع عجفاء وهي المهزولة.

[٧] يتساوكن هزلاً: يتمايلن من الضعف.

[٨] عازب: بعيدة المرعى لا تأوي إلى البيت إلا في الليل، حيال: لم تحمل.

[٩] ظاهر الوضاءة: ظاهر الجمال والحسن.

[١٠] أبلج الوجه: مشرق الوجه مضيئه.

[١١] نحلة: من النحول، والدقة، والضمور، أي: أنه ليس نحيلاً.

[١٢] صعلة: صغر الرأس، وهي تعني الدقة والنحول في البدن.

[١٣] وسيم: الوسيم المشهور بالحسن، كأن الحسن صار له سمة.

[١٤] دعج: شدة سواد العين في شدة بياضها.

[١٥] في أشفاره وطف: في شعر أجفانه طول.

www.abulhasanalinadwi.org

أزجُ[٣] أقرن[٤] إن صمت، فعليه الوقار، وإن تكلم سما[٥] وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحلاهم وأحسنهم من قريب، حلو المنطق، فصل، لا هذر، ولا نزر، كأن منطقه خرزات نظم يتحدَّرن، ربع، لا بأس من طول، ولا تقتحمه العين من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظراً، وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفون به، إن قال، استمعوا لقوله، وإن أمر، تبادروا إلى أمره، محفود، محشود، لا عابس، ولا مفند.

قال أبو معبد: هو والله صاحب قريش، الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر بمكة، ولقد هممت أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً[٦].

ولم يزل يسلك بهما الدليل، حتى قدم بهما قباء، وهي تقع على بعد ثلاث كلو مترات من المدينة في الجانب الجنوبي منها، وذلك في الثاني عشر من ربيع الأول، يوم الإثنين، فكان مبدأ التاريخ الإسلامي.

---

[١] صهل: كالبحة وهو ألا يكون حاد الصوت.

[٢] سطع: طول العنق.

[٣] أزج: دقيق شعر الحاجبين مع طولهما.

[٤] أقرن: متصل ما بين الحاجبين من الشعر، أو مقرون الحاجبين.

[٥] سما: علا برأسه، أو بيده وارتفع.

[٦] مقتبس من السيرة النبوية للدكتور محمد محمد الصلابي: ٣٧٧، وانظر: طبقات ابن سعد: ١/ ٢٣٠، السيرة النبوية للأمام الذهبي: ١/ ٣٢٩، مستدرك حاكم: ٣- ٩، زاد المعاد: ٣/ ٥٦.

www.abulhasanalinadwi.org

الباب السادس

الإقامة في المدينة المنورة

إنشاء نظام اجتماعي، ومواجهة مؤامرات الأعداء

تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم للأذى القاسي، وواجه محناً وشدائد في سبيل تأدية المسئولية العظيمة التى نيطت به نحو الدعوة إلى الله وهداية البشرية، وكان يتطلب أداء هذه المسئولية صبراً عظيماً، وهمة عالية، وعزماً راسخاً، فقد قام صلى الله عليه وسلم بأدائها خير قيام في المدة الممتدة على ثلاثة عشر عاماً في مكة، وصبر هو وأصحابه المؤمنون بدعوته ورسالته على ابتلاءات ومحن شداد، واستقاموا وصمدوا في وجه الطغيان والكفر بصبر وثبات عظيمين.

المدة الممتدة على ثلاثة عشر عاماً، هي المدة التي يقضى فيها الإنسان أيام طفولته، ويتلقى تربيته الابتدائية، كما يتعرف على التجارب الأساسية للحياة العملية التي تُوَجِّهُه وترشده في حياته العملية، وتقوى صلاحية العمل في العاملين لحركة أو دعوة، وتنميها، وفي هذه المدة ينمو الإنسان وينشأ، ويتطور من مرحلة الطفولة إلى سن الرشد، فأصبحت هذه المدة مدة بداية رسالة الحق المقررة المنزلة من عند الله، وتطوُّرها من الطفولة إلى النضج والشباب، ثم بدأت مرحلة الكمال بعد مرورها من خلال المرحلة الأولى بصبر وثبات.

وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه المدة الممتدة على ثلاثة عشر عاماً، التي قضاها في مكة في إعداد نظام للعمل الدعوي

www.abulhasanalinadwi.org

والتربيــة عليــه، كان يــنفخ في المــؤمنين روح الــصبر وتحمُّــل الأذى والاستقامة، وينشئهم تنشئة كاملة على التضحية بكل رخيص وغال في سبيل نشر الدعوة إلى الله، وقد تمَّ هذا الأمر في مكة التي تقع في وسط الجزيرة العربية، وهي بمثابة نقطة مركزية محورية في عين الوسط في هذه المعمورة الأرضية، فكان الله قضى للعمل الدعوي أن يبدأ في هذه المنطقة المركزية لينمو ويترعرع، ويتقوى تحت الرعاية الإلهية والتربية الربانية، وعندما تكتمل الصلاحية العملية للقيام بهذا العمل الدعوي العظيم وتنشأ عصابة ذات عدد ملحوظ ومزودة بالتربية الإيمانية العميقة والعاطفة القوية الجياشة للتضحية بالنفس والمال في سبيل الدعوة إلى الله، وتصبح الأوضاع مضادة للعمل في نطاق مكة، ينتقل الرسول إلى مكان يستتب فيه الجو للقيام بعمل الدعوة وإنشاء النظام المطلوب ويجعله منطلقاً ومركزاً للدعوة ونشاطاتها وفعالياتها.

فحصل للرسول صلى الله عليه وسلم مكان جديد في صورة المدينة حيث استتب الجو، وتوفرت الفرص لتقوية العمل الدعوي وتعزيزه والقيام به على نطاق واسع، وجعله واسع الأطراف، وقد انتقل إليها قبل هجرته ـ صلى الله عليه وسلم ـ عدد من الصحابة؛ مهدوا الطريق، وهيأوا الأرضية والنفوس؛ لاستقباله وقبول دعوته، وكانوا قد كوَّنوا في المدينة أسرة متحابة متآخية متضامنة، وتزايد عددهم، فلما استتب الجو، واستعدت النفوس، وتوفرت الأرضية في المدينة في جانب، وفي جانب آخر رأى كفار مكة أن المسلمين قد حصلوا على مكان آمن لهم وانتقلوا إليه واستقروا به، وسينتقل الرسول أيضاً إليه عاجلاً أو آجلاً، ويواصل دعوته إلى الحق، فتآمروا للقضاء عليه، ولما تمَّ الأمر أذن الله لرسوله بأن يهاجر من مكة إلى المدينة، فخرج الرسول إلى المدينة متخفياً في ظلام الليل ناجياً من أعدائه، ويصل

www.abulhasanalinadwi.org

إليها، فأقام بها مركزاً قوياً لدعوته، وأنشأ بها نظاماً محكماً لنشر الإسلام إلى أرجاء المعمورة كلها، فأصبحت المدينة داراً وقراراً للإسلام؛ يقوى فيها الإسلام ويشق طريقه إلى الأمام، ويفتح الجزيرة، ثم يفتح العالم المتمدن.

وكان سكان يثرب (المدينة المنورة) الأصليون العرب من قبيلتي الأوس والخزرج[1] قد كان أسلم أكثرهما قبل هجرة الرسول، وانضموا إلى الأسرة الإسلامية المشتركة متضامين ومتآخين مع إخوانهم المهاجرين، فكانوا مستعدين للترحيب به والاستقبال له[2].

قدومه إلى المدينة

دخل الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة من جهة قباء، وهي قرية تقع على بعد ثلاثة أميال في الجهة الجنوبية منها وتكثر فيها جنات النخيل، وتوجد في المناطق الجنوبية منها أودية وطرائق جبلية صعبة، ووهاد ونجاد، تسمى الحرة[3] وتكون حجارة مثل هذه المناطق سوداً غير مستوية ذات جوانب حادة، يصعب السير عليها، وكانت المدينة محاطة بمناطق ذات حجارة شرقاً وغرباً وجنوباً، ولذلك لا يدخلها المسافرون الذاهبون إليها إلا من جهتها الشمالية، ولكن الرسول لم يختر هذه الجهة، ودخلها من جهتها الجنوبية، وكانت الحكمة والحيطة تقتضي ذلك، وكان الأنصار والمهاجرون ينتظرونه في هذه الجهة أيضاً، وأقام الرسول بقباء أياماً، وأسس هناك مسجداً، فكان أول مسجد في الإسلام[4].

"لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ

---

[1] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي ٤/١٢٩.
[2] سيرة ابن هشام ١/٤٩٢.
[3] المغانم المطابة في معالم طابة للعلامة مجد الدين الفيروزآبادي ١١٤- ١١٨.
[4] البداية والنهاية: ٣/١٩٦، وسيرة ابن هشام: ١/٤٩٤.

www.abulhasanalinadwi.org

رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ" [التوبة: ١٠٨].

ثم خرج الرسول صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة من قباء بعد ما قضى بها ثلاثة أيام، إلى المدينة، وأدركته الجمعة في الطريق (في بني سالم بن عوف) فصلاها في مسجدهم، فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة(١).

دخل الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة والناس يتلقونه بحفاوة بالغة واستقبال حار، ويطلب منه رؤساء القبائل الإقامة عندهم، ويقولون: أقم عندنا في العدد والعدد، والمنعة، ويمسكون بزمام الناقة، فيقول: خلّوا سبيلها، فإنها مأمورة، وكان أمر اللهُ رسوله أن ينزل في المكان الذي تبرك فيه ناقته، فكأنه مُعيَّن من الله، فلم تزل ناقته سائرة به؛ لا تمرّ بدار من دور الأنصار إلا رغبوا إليه في النزول عليهم، ويقول: دعوها فإنها مأمورة، فسارت حتى وصلت إلى دار بني مالك ابن النجار، وبركت على مكان فيه باب المسجد النبوي اليوم.

فنال هذه الكرامة أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه وبركت الناقة على باب بيته، فنزل الرسول عن الناقة وقرر النزول في بيت أبي أيوب، فاحتمل أبو أيوب رحل الرسول ووضعه في بيته(٢).

وكان من حسن المصادفة أن أبا أيوب الأنصاري من بني النجار من الخزرج وهم أخواله صلى الله عليه وسلم، وكانت والدة جده عبد المطلب من بني النجار، فبذلك كانت قرابة بينه وبين هذه الأسرة المباركة، وأحب الله أن ينزل على أخواله ليكرمهم بذلك.

بناء المسجد النبوي

ثم أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبني مسجداً في ذلك

---

(١) سيرة ابن هشام: ١/ ٤٩٤، زاد المعاد: ٣/ ٥٩، دلائل النبوة: ٢/ ٥٠٠.

(٢) سيرة ابن هشام: ١/ ٤٩٦، دلائل النبوة ٢/ ٥٠٣.

www.abulhasanalinadwi.org

الموضع الذي بركت فيه الناقة، وكان ذلك الموضع مربداً لسهل وسهيل غلامين يتيمين من بني النجار، فدعاهما وساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً، فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى الرسول أن يقبله منهما هبة، حتى ابتاعه منهما، ثم بناه مسجداً، وعمل الرسول صلى الله عليه وسلم في بناء المسجد، فكان ينقل اللبن والحجارة، واقتدى به المسلمون، وسمي هذا المسجد "المسجد النبوي" ([1]).

وشرّف الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن أعطى هذا المسجد النبوي عظمة وقداسة بأن قرر صلاة فيه خيراً من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، وبني للرسول صلى الله عليه وسلم وأهله في الجهة الجنوبية والجهة الشرقية من المسجد مساكن وحجرات، فبذلك أصبح منزله متصلاً بالمسجد النبوي([2]) ثم دفن صلى الله عليه وسلم بعد وفاته في حجرة عائشة بالمسجد النبوي الشريف.

فبذلك أصبح هذا المسجد النبوي وسيلة لإظهار عاطفة الحب له والصلاة عليه بمناسبة الصلاة فيه، فكُلّ من يسافر لأداء فريضة الحج يحضر هذا المسجد النبوي ويقدّم هدية الصلاة والسلام إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وقرّر ما بينه وبين مقبره بالمسجد روضة من رياض الجنة، الصلاة فيها كالصلاة في الجنة.

وكان قد دخل أكثر سكان المدينة في الإسلام قبل قدومه إليها، ووعدوا بحفظه ومنعه من الأعداء، وقضاء الحياة وفق تعاليم الإسلام بتوجيهه وهدايته، وبذلك بدأت مرحلة ثانية للدعوة إلى الحق، ونالت هذا الشرف شرف إيواء الحق، مدينة يثرب، وكانت يثرب في الواقع

---

[1] طبقات ابن سعد: ١/٢٣٩، وسيرة ابن هشام: ١/٤٩٦، وزاد المعاد: ٣/٦٣..

[2] طبقات ابن سعد: ١/٢٤٠.

www.abulhasanalinadwi.org

اسم جزء من أجزاء المدينة، ثم بدأت تطلق على المدينة كلها تدريجياً، ومعنى هذا الاسم ذميم يتشاءم به، لأن الثرب فساد في كلام العرب، والتثريب هو اللوم والتعيير، فغير الرسول هذا الاسم من يثرب إلى ألفاظ أخرى، فمن ذلك اليوم يقال لهذه المدينة: طيبة أو طابة أو مدينة النبي، ثم أصبحت "المدينة" اختصاراً لمدينة النبي(١).

وقبل الهجرة إلى المدينة سنحت الفرصة للطائف أن تنال هذه الشرف والكرامة إن أدرك أهلها الرؤساء حقيقة هذه الدعوة وعظمتها، وقدموا أنفسهم لنصرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وآووه عندهم، وقد سافر الرسول إليهم بغاية من المشقة والصعوبة، وسألهم النصرة والمساعدة، ولكن لم يكن من حظ هذه المدينة أن تنال هذه الكرامة والمكانة السامية، فحرم أهلها أنفسهم من هذه الكرامة لطغيانهم وعنادهم وتمردّهم، ولم يشأ الله في الحقيقة أن ينالوا هذا الشرف العظيم.

وبعد العودة من الطائف بثلاثة أعوام نالت هذه الكرامة والعز والشرف مدينةُ يثرب التي استجاب أهلها لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم إذا دعاهم إليها، ووعدوا بالتضحية بأموالهم وأنفسهم للحفاظ عليها وصيانتها ونشرها، وبذلك أصبحت يثرب "المدينة المنورة" ومركزاً وقراراً للرسول، تمكن فيه من نشر دعوته الإسلامية متمتعاً بحماية حواريه ومتبعيه الأقوياء الأوفياء البواسل المغاوير، وبدأت هذه المرحلة مرحلة توسيع نطاق الدعوة والرسالة الحقة بعدما قضى ١٣ عاماً في مكة؛ مر فيها بأقسى الأذى والظلم والعدوان.

ونال الرسول وأصحابه بالهجرة إلى المدينة خلاصاً ونجاة مما

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٤/ ١٣٠.

www.abulhasanalinadwi.org

يعانونه من أذى وجفوة وشدة في مكة التي بدأت فيها الدعوة إلى الدين الحق، كما سنحت لهم الفرصة للقيام بمسئولية الدعوة إلى الدين الحق بصورة منظمة، وبنطاق واسع لما حصل لهم من جو التعاون الأخوى والتضامن، ولكن في هذه المرحلة تحول العداء الفردي والإيذاء الفردي عداءاً جماعياً وعداوة منظمة وحرباً مخططة.

حالة المدينة الطبيعية والجغرافية

كانت المدينة تحمل أهمية خاصة من ناحية موقعها، تقع على بعد ٤٥٠ كلو متراً من مكة في الشمال، وتمتد حولها سلسلة الجبال من الجانب الغربي، وكان بحر على بعد من الجانب الآخر لسلسلة الجبال في الجانب الغربي، وكان بين الجبال والبحر مكان مستو مسطوح، كان جزءاً من تهامة من ناحية، وكانت القوافل الواردة من الجنوب تمر به متجهة إلى الشام ومصر وتركيا، وكان هذا الطريق خاضعاً لأهل المدينة لكونه قريباً من المدينة، وتقع المدينة من جهتها الشرقية في الجانب الغربي لسلسلة الجبال التي يقال لها "الحجاز"، وأراضيها تصلح للزراعة والإنتاج، وظلّ أهلها يشتغلون بالزراعة، وكانت فيها جنات من النخيل والأعناب، ولذلك كان سكانها مزارعين وفلاحين، وكانت مكة التي كانت أرضها جدبة قاحلة، عكس ذلك؛ كان أهلها تجاراً، وكانوا يسافرون بأموالهم إلى اليمن حيناً، وإلى الشام حيناً آخر، ويمرون في طريقهم إلى الشام بمقربة من المدينة، فكان الناس في جزيرة العرب يقيمون لها وزناً وأهمية، ويخافون إن سخط أهل المدينة اعترضوا القوافل التجارية، وصدّوا الطريق، ووضعوا عراقيل في وجهها، وخاصة قريش كانت تدرك خطورة ذلك؛ لأنهم كانوا تجاراً، وكانت قوافلهم التجارية غادية ورائحة بين مكة والشام، وتمر في

www.abulhasanalinadwi.org

طريقها بالمدينة، وكان الأوس والخزرج من قحطان العرب العاربة بينما كانت قريش والقبائل المتصلة بها ولاء وقرابة من نسل إسماعيل، وكان قد أوجد هذا الفرق القبلي بين مكة والمدينة نفسية متخاصمة، وعصبية قبلية(١).

الحالة الاجتماعية

كانت المدينة قبل دخول أهلها في الإسلام، وقدوم الرسول صلى الله عليه وسلم إليها، تتعرض كالقبائل العربية الأخرى للحروب الأهلية والصراعات الدموية للإبقاء على تفوقها وشوكتها القبلية، كما كانت الأوضاع المحلية تحمل تعقيدات خاصة: كانت قبيلتا الأوس والخزرج اللتان كانتا من نسل واحد، تتحاربان وتتصارعان فيما بينهما للعصبية القبلية، وكانت قبائل اليهود تسكن بجوار هاتين القبيلتين، وكانت أجنبية وافدة من الخارج لعدم كونها من العرب، وكانت نسبتها قليلة بالنسبة إلى الأوس والخزرج، كانت في كبرى القبائل اليهودية: بنوالنضير، وبنو قريظة، وبنو قينقاع، كانوا موسرين أغنياء، وكان أكثرهم يملكون عقارات عظيمة، وثروات طائلة، وكانوا يستخدمون العرب في مزارعهم وبساتينهم على الأجرة ويقرضون فقراء العرب قرضاً على الربا، ويثيرون الحروب بين الأوس والخزرج، ثم يساعدون فريقاً دون فريق، فبذلك تشتد الحروب والصراعات بين القبائل العربية، يقول الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي:

"كانت الحياة في المدينة أكثر تعقداً بالنسبة إلى مكة، والقضايا التي سيواجهها الرسول أكثر تنوُّعاً، لوجود ديانات وبيئات وثقافات مختلفة، لا يتغلب عليها، ولا يصهر المدينة كلها في بوتقة عقيدة واحدة، ودعوة

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٤/١٢٨- ١٤٢.

www.abulhasanalinadwi.org

واحدة إلا الرسول المؤيد من الله، الذي أعطاه الله الحكمة وفصل الخطاب، وقوة الجمع بين الأنماط البشرية الكثيرة، والقوى المتصارعة والأهواء المتعاكسة، وألقى عليه محبة منه، وصدق الله العظيم:

"هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" [الأنفال: ٦٢- ٦٣][1].

الإخاء العالي

هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة، واستوطنوا بها، وانضموا إلى الأنصار واتحدوا معهم، وقامت بين المهاجرين والأنصار من الأوس والخزرج أواصر دينية متينة، ونشأت بينهم الأخوة والمحبة، كل ذلك وضع حداً للصراع والعصبية الشديدة بين الأوس والخزرج من سكان المدينة، وجمعهما تحت راية واحدة، وأخضعهما تحت قيادة واحدة؛ فأصبحوا منقادين لمرشد وهاد واحد؛ وهو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبذلك قوي واستقام النظام الإسلامي للحياة الذي قدمه ووجهه - صلى الله عليه وسلم - ودعا إليه بحكمة وموعظة حسنة، فتكونت ونشأت قوة كان زمامها بيد الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان المسلمون المهاجرون من مكة من نسل إسماعيل عليه السلام، فلذلك لم تكن لهم قرابة مع الأوس والخزرج؛ بل يعدُّ بعضهم بعضاً أجنبياً وخصماً، فعالج الرسول صلى الله عليه وسلم هذا التباعد والخصومة العرقية، وآخى بينهم، وجعلهم إخوة متحابين، فحلت بينهم الأخوة والمحبة والقرابة محل التباعد والعصبية القومية والعداوة[2].

---

[1] السيرة النبوية للشيخ الندوي، ص: ١٩١.

[2] انظر: صحيح البخاري: باب إخاء النبي بين المهاجرين والأنصار، وطبقات ابن سعد: ٢٣٨/١.

www.abulhasanalinadwi.org

يقول الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي وهو يلقي الضوء على المواخاة بين المهاجرين والأنصار:

"وكان هذا الإخاء أساساً لإخاء إسلامي عالمي فريد من نوعه، ومقدمة لنهضة أمة ذات دعوة ورسالة، تنطلق لصياغة عالم جديد، قائم على عقائد صحيحة معينة، وأهداف صالحة منقذة للعالم من الشقاء والتناحر والانتحار، وعلى علاقات جديدة من الإيمان والإخاء المعنوي والعمل المشترك، وكان هذا الإخاء المحدود بين المهاجرين والأنصار طليعة وشريطة لاستئناف حياة جديدة للعالم والإنسانية"[1].

فقدم الإسلام إلى المدينة، وقبله أهلها، واتبعوا تعاليمه، فلقنهم الرسول أن يكونوا إخوة متحابين متضامنين، وينبذوا العصبية القبلية، ويختاروا المؤاساة الإنسانية، والعدل والقسط، فقامت بينهم الأخوة والمؤاساة رغم العصبية القبلية، وتحولوا إخوة، بل جعلوا المهاجرين إخوة لهم، فقام في المدينة بفضل دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ورسالته جو مثالي للأخوة والمؤاساة والتعاون والإيثار والمساواة.

موادعة اليهود

كانت القبائل اليهودية العائشة مع العرب في المدينة منحدرة من منطقة الشام أصلاً، واستوطن اليهود منطقة من المناطق العربية ذات جنات من النخيل والأعناب عملاً بالنبوءة الواردة في كتابهم بشأن بعثة

---

[1] السيرة النبوية ص: ٢٠١ للشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي، وانظر للمزيد من معرفة أحوال المدينة الجغرافية والدينية والاجتماعية: اليهود في بلاد العرب للدكتور إسرائيل ويلفنسون، وبنو إسرائيل في القرآن والسنة" للدكتور محمد طنطاوي، و تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي، ومكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول لأحمد إبراهيم الشريف، وبلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب للعلامة محمد شكري الآلوسي، ووفاء الوفاء في أخبار دار المصطفى للسمهودي، ومعجم البلدان لياقوت الحموي، والتراتيب الإدارية للكتاني.

www.abulhasanalinadwi.org

نبي في هذه المنطقة، وكانوا مختلفين عن العرب بخصالهم وطبائعهم على أساس الفرق العرقي، كما كانوا مختلفين عنهم في الدين والعقيدة، وبذلك كانوا يختلفون عن العرب أصلاً، ودیناً ووطناً، وكانوا متفوقين على العرب من الناحية العلمية والاقتصادية، ويستغلون هذا التفوُّق سياسياً واقتصادياً؛ ولكن العرب كانوا في الأغلبية بالنسبة لليهود، وكان اليهود يعتبرون العرب أذلاء على أساس تقوّقهم في العلم والمال، ويفرضون عليهم سيطرتهم الاقتصادية، ويهددونهم على أساس علمهم بأن كتبهم تخبرهم عن ظهور نبي في هذه المناطق؛ نتبعه ونقتلكم معه، ونسيطر عليكم بقيادته، ونخرجكم من المنطقة.(١)

وكان دين اليهود الدين الموسوي الذي جاء به موسى عليه السلام، وكان نبياً صالحاً، ولكنهم في المدينة والمناطق الأخرى لا يتبعونه إلا قليلاً، وقد حرّفوا في كتابهم "التوراة" ما شاءت نفوسهم، وجعلوا على أساس هذا التحريف بعض أعمالهم الباطلة صحيحة مشروعة، ويفعلون ما تشتهيه أنفسهم، ويتركون ما لا يوافق رغباتهم ومطامعهم الدنيئة.

وفي نهاية المطاف جعلهم الله مبغوضاً عليهم وملعونين؛ لتماديهم في العصيان والطغيان، ولكنهم رغم ذلك يزعمون أن النبي الآتي سيظهر من بينهم؛ لأن سلسلة النبوة كانت قائمة فيهم من مدة، وينعم الله عليهم لكونهم من ذرية إبراهيم نبي الله المقرب، ثم أصبحوا مبغوضين عند الله لكفرانهم لهذه النعمة العظيمة، وعدم تقديرهم لها حق قدرها، ولكنهم يرجون أن النبي الأخير يبعث فيهم، ونظراً إلى

(١) سيرة ابن هشام ١/٤٢٨.

www.abulhasanalinadwi.org

علامات الأماكن استوطن عدد من قبائل اليهود المدينة والمناطق الشمالية، ويترقبون ظهور النبي.

ولكن النبي المرتقب لما بعث في العرب بدلاً من اليهود، شقّ عليهم، واستثقلوه، وأنكروه، ولم يؤمنوا به، ولكن عرب المدينة الذين سمعوا اليهود يذكرون ظهور نبي، لما بلغ إليهم نبأ ظهور النبي وجدوا ما سمعوه من اليهود مطابقاً للواقع، بل وجدوا بذلك دليلاً على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فبذلك تهيأ الجو في المدينة لقبول الإسلام، وتعبد الطريق بسهولة، ثم لما قدم الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة ورأى اليهود أن معظم سكان المدينة قبلوا الإسلام وآمنوا به، أخفوا حقدهم واستنكارهم، وفي جانب آخر كان قد أدرك الرسول الأوضاع السائدة في المدينة، فرأى من المناسب أن يعاهد يهود المدينة معاهدة الأمن، لئلا يتكدر جوّ المدينة ولا يحدث الصراع والنزاع في سكان المدينة، وقبل اليهود هذه المعاهدة ورضوا بها لمصلحتهم، وكانوا في الأقلية في المدينة، وكانت المعاهدة تنص على أن يتعامل العرب المسلمون واليهود فيما بينهم تعاملاً سلمياً، دون تدخُّل في شؤون الآخرين الدينية والاجتماعية، ويساعد بعضهم بعضاً عندما يشنّ عليهم الهجوم من الخارج، وزالت بهذه المعاهدة السلمية العقبات، واستتب الجوّ لانتشار الدعوة الإسلامية في المدينة، وقيام النظام الإسلامي واختيار المنهج الإسلامي للحياة"[1].

إنشاء نظام الإسلام الاجتماعي

فقدم الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة، وآخى بين المهاجرين والأنصار، وأنشأ بإيجاد رباط الاتحاد والتعاون والأخوة بين سكان

---

[1] راجع للتفصيل: سيرة ابن هشام ١/٥٠٠- ٥٠٤.

www.abulhasanalinadwi.org

المدينة، نظاماً اجتماعياً للإسلام، حافظ فيه المسلمون على قضاء الحياة وفق الشريعة تحت إمارة الأمير، وكانت هنا مشكلة تعترض هذا النظام الجديد، وهي أن المسلمين المهاجرين من مكة كانوا ينتمون إلى وطن وقبيلة متباينين عن وطن وقبيلة المسلمين في المدينة، ووصل المهاجرون تاركين وطنهم، وما يملكونه فيه من أسباب ووسائل اقتصادية إلى هذا المكان الجديد حيث لم يكن لهم من السهل التمكُّن من توفير أسباب المعيشة ووسائل الحياة، ولكن حياة المهاجرين والأنصار الإيمانية كانت قد نضجت وقويت بفضل تربية رسولهم المربي الحكيم، ورسخت فيهم روح الانقياد والطاعة والاستسلام، فكانوا لا يترددون لحظة في قبول أمر قائدهم، بل كانوا يستسلمون لكل نظام يقدمه قائدهم العظيم صلى الله عليه وسلم، فآخى الرسول صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار على مبدأ الأخوة الإسلامية، والتعاون فيما بينهم، فقامت بين المسلمين المهاجرين من مكة ومسلمي المدينة الأنصار أواصر الأخوة والمحبة، وظهرت هذه الأخوة في أروع مظاهرها وأقواها، فأصبح مسلم مكي مهاجر شريكاً لأخيه الأنصاري المدني فيما يملكه من ممتلكات ووسائل أخرى للحياة، فبذلك انضم المهاجرون والأنصار في أسرة واحدة، وصاروا متحابين متضامنين، كأنهم إخوة أشقاء، وأثرت هذه الأخوة على الوضع الاقتصادي أيضاً.

وبفضل هذه الأخوة الإسلامية نشأت بين الأنصار والمهاجرين علاقات وثيقة حميمة كعلاقة الرحم، وبذلك قام مجتمع إسلامي متحد لسكان المدينة كلها، وفي جانب آخر أصبح اليهود حليفاً للمسلمين لمعاهدتهم معهم، فبكل ذلك تعبد الطريق واستتب الجو في المدينة لتنفيذ النظام الإسلامي للحياة، والقيام بالعمل وفق أغراضه السامية النبيلة،

www.abulhasanalinadwi.org

كما تمكن الرسول صلى الله عليه وسلم من إنشاء نظام الإسلام الاجتماعي الذي لم يمكنه في مكة لعدواة أهلها وأوضاعها القاسية الظالمة، ولغلبة الكفار وعدائهم، وكان العمل بالأحكام الإلهية في مكة يجري في نطاق فردى محدود، وكان عمل الدعوة أيضاً محدوداً في نطاق فردي، حتى أصبح محاطاً بالأخطار والمشكلات والقلاقل والمعضلات من كل جانب، الأمر الذي اضطر الرسول والمسلمين إلى ترك الوطن مكة، والهجرة إلى المدينة، فهاجر المسلمون من مكة إلى المدينة بطريق معوج مدوّر لكيلا يقعوا أسرى في أيدي قريش.

بداية الأذان:

كانت الصلاة مكتوبة من قبل، وكان تؤدى خفية وبشكل فردى في مكة، ولما قدم الرسول المدينة واطمأن بها، بدأ المسلمون يؤدونها علنياً، وكانت الحاجة إلى جمع المسلمين لأداء الصلاة في المسجد بالجماعة، فشرع الأذان في السنة الأولى للهجرة. كان الناس قبل شرع الأذان يجتمعون إليه صلى الله عليه وسلم للصلاة في مواقيتها بدون دعوة، ولما شعر الرسول بالحاجة إلى دعوة المسلمين للصلاة بالجماعة شاور مع أصحابه لإيجاد عمل ينبه النائم، ويدرك اللاهي، ويعلم الناس بدخول الوقت لأداء الصلاة، فقال بعضهم: ندعو الناس بالناقوس، وقال الآخرون: نشعل ناراً على مرتفع من الهضاب، وأشار البعض ببوق، ولم يقبل الرسول هذه الآراء، فبينما هم على ذلك إذ أتى صحابي (عبد الله بن زيد الأنصاري) وأخبر ما رآه في النوم بشأن الأذان فقال الرسول: "إنها لرؤيا حق، إن شاء الله، فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها، فأنه أندى صوتاً منك" وبهذا الطريق شرع الأذان(١).

(١) سيرة ابن هشام: ١/٥٠٨- ٥٠٩، وصحيح البخاري، كتاب الأذان.

www.abulhasanalinadwi.org

تحويل القبلة:

إن موقع المسجد النبوي بين بيت المقدس والمسجد الحرام بمكة، فكانت الحاجة إلى تعيين جهة القبلة، وكانت القبلة يومذاك بيت المقدس كما تنص عليها الشريعة السماوية السابقة، وكان الرسول والمسلمون مأمورين بالتوجه إلى هذه القبلة حتى يأتي حكم جديد لتحويل القبلة، وكان حريصاً على أن يتوجه في صلاته إلى الكعبة المشرفة قبلة إبراهيم عليه السلام لعظمتها وقدسيتها، ولذلك عندما كان يصلي في المسجد الحرام بمكة قبل الهجرة، كان يصلي في الجهة الجنوبية بالمسجد الحرام مولياً وجهه شطر الجهة الشمالية، وكانت تصبح الكعبة المشرفة وبيت المقدس في جهة واحدة، ويتوجه إليهما في مكة، ولكن لم يعد ذلك ممكناً في المدينة، ولم يكن ينزل أمر جديد بتحويل الكعبة، ولذلك لم يزل يتوجه في صلاته إلى القبلة الأولى بيت المقدس، وهي قبلة الأنبياء السابقين، وعندما يولي وجهه شطر بيت المقدس يكون ظهره إلى الكعبة، فيهمُّه ذلك.

ولكنه يحرص على أن تكون قبلته قِبَل الكعبة المشرفة التي بناها أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام الذي كان جعل بيت المقدس مسجداً وقبلة، فقد جعلها مركزاً كبيراً للدين والدعوة، ودعا الله أن يزيد في أهميتها وعظمتها، ويجعلها مهوى الأفئدة، ومثابة للناس وأمناً، وكان آدم عليه السلام قبله قد اختار ذلك المكان الذي بنيت فيه الكعبة المشرفة لعبادة الله، فهو أول بيت وضع للناس، وتقرر مركزاً رئيسياً لعبادة الله على وجه الأرض، وهدى للعالمين، كما يقول عز وجل:

"إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى

www.abulhasanalinadwi.org

لِلْعَالَمِينَ"(١).

وكان مقتضى ذلك أن يتوجه في صلاته بشكل دائم إلى قبلة أبي الأنبياء وهو أول بيت وضع للناس، ولكن لم يكن يمكنه أن يولى وجهه شطر بيت الله برغبته ما لم يأته أمر الله بذلك، ولا يحق له إلا أن يبدي رغبته في ذلك فاستجاب الله لرغبته وحرصه، وأمره أن يستقبل الكعبة، ويتوجه إليها، وذلك في نصف شهر شعبان سنة ٢هـ.

تأخر الأمر بتحويل القبلة ليتدرب المسلمون على التغلب على هواهم وقمع رأيهم لمدة، فتأخر الأمر حتى تمَّ ما شاء الله أن يتمّ من التدرُّب على قمع الهوى، وكسر النفس، والاستسلام الكامل لأمر الله، فأمر الله بتحويل القبلة.

وعلى كل حال، فقرر الله الكعبة أفضل وأعظم من المسجدين: بيت المقدس والمسجد النبوي، وجعل ثواب صلاة واحدة فيها مساوياً لثواب مائة ألف صلاة في غيرها، وجاء الأمر:

"فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ"(٢).

وجاء الأمر بتحويل القبلة بعد مقدمه المدينة بعام وأربعة أشهر(٣) وكان قبل تحويل القبلة يصلي متوجِّهاً إلى بيت المقدس.

وشقّ على اليهود تحويل القبلة؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن بيت المقدس وحده هو الذي يستحق أن يكون مركزاً لعبادة الله، ولكن الله تعالى ضمّ محمداً إلى إبراهيم عليهما السلام بحيث جعل شريعتهما شريعة واحدة، وانتقلت الخصوصية التي كانت تتمع بها إسرائيل بفضل

---

(١) آل عمران: ٩٦.

(٢) البقرة: ١٤٤.

(٣) طبقات ابن سعد ١/٢٤١، وزاد المعاد ٣/٦٦.

www.abulhasanalinadwi.org

إبراهيم عليه السلام، إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وكانت الكعبة مقدسة محترمة لديهما على السواء، وقد انتقلت الآن السيادة الدينية إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وانتقلت بذلك مركزية بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة.

تكوين المجتمع الإسلامي:

وحاز المسجد النبوي والمدينة المنورة أيضاً القداسة والعظمة لاختياره ـ صلى الله عليه وسلم ـ إياها مستقراً له، ومنطلقاً لدعوته، فبدأت تصدر من المدينة أحكام وتوجيهات لشؤون المسلمين ومسائلهم، وتنظم شؤون حياتهم الدينية والاجتماعية، وبذلك تهيأ الوضع، وتعبد الطريق لتنفيذ النظام الإسلامي، والمنهج الرباني للحياة الإنسانية، وبدأت تنزل الأحكام الإلهية لإرشاد المسلمين فيما يهمُّهم من حلِّ شؤون حياتهم الدينية والخلقية والاجتماعية، كما بدأ نزول الأحكام تدريجياً حسب الحاجة ومقتضيات الحياة المختلفة والأوضاع المتنوعة لإكمال الشريعة الإسلامية التي لم تكمل على الأنبياء السابقين، وكان من المقرر عند الله تبارك وتعالى أن تكمل على النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم كاملة جامعة شاملة؛ تهدى الإنسان إلى أن يرث الله الأرض؛ بجدارة وصلاحية، ففرضت الصلاة، وحددت مواعيدها، كما فرض الصوم، وشرع الأذان، وحرم القمار والخمر، وبدأت تنزل الأحكام والإرشادات السماوية لإصلاح جوانب الحياة المتنوعة: الفردية منها والجماعية، وبالإضافة إلى ذلك استمر نزول الأحكام تدريجياً بشأن الوفاء مع الأصدقاء والولاء مع الموالين، والمحافظة على المعاهدة المبرمة مع الحلفاء، والإذن بالردّ على هجوم الأعداء ومحاربتهم، مرعاة ما فيه خير الإنسانية وفلاحها، والعلاقات

www.abulhasanalinadwi.org

الودية بين المسلمين، والمستجدات الأخرى أو المسائل المستحدثة، وكانت تنزل هذه الأحكام كلها بصورة الآيات القرآنية، أو بما يوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم بطرق متعددة، كما كانت تنزل حسب ما تقتضيه الظروف والأوضاع والحالات والحاجات، ويقدم الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الأحكام، ليس نظرياً فحسب، بل عملياً، وفي صورة حية صادقة، وكان المؤمنون يعملون بها ويحفظونها في ذاكرتهم ويعونها، ثم دونت فيما بعد في الكتب لتطبقها الأجيال القادمة من المسلمين في حياتهم في كل عصر ومصر كلما دعت إليها الظروف والحالات الفردية أو الجماعية، فبذلك أصبح الإسلام محفوظاً ومصوناً كدين كامل وشريعة كاملة شاملة لما يجدُّ ويحدث في المستقبل من مشاكل وقضايا وظروف ومقتضيات.

الصفة وأصحاب الصفة:

لما تمّ تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة بأمر الله تعالى بقي حائط القبلة الأولى في مؤخرة المسجد النبوي، فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم به، فظلل، أو سقف، وأطلق عليه اسم "الصفة"(١) ولم يكن ما يستر جوانبه، وقد أعدّ هذا المكان ليأوى إليه الغرباء ممن لا مأوى لهم ولا أهل، فكان من لم يتيسر له مكان يأوى إليه، يأوى إلى تلك الصفة في المسجد، أو ينزل بها من المهاجرين والأنصار من يريد تعلم القرآن والدين، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يتعهد أهل الصفة بنفسه، فيزورهم، ويتفقد أحوالهم، ويعود مرضاهم، كما كان يكثر مجالستهم، ويرشدهم، ويواسيهم، ويذكرهم، ويعلمهم، ويوجههم إلى قراءة القرآن المجيد ومدارسته وذكر الله، والتطلع إلى الآخرة، وكان

---

(١) طبقات ابن سعد ١/٢٥٥، والسيرة النبوية الصحيحة ١/٢٥٨.

www.abulhasanalinadwi.org

ينفق عليهم كما ينفق على أهله، ولإنفاقه بسخاء ونصرة الفقراء والغرباء يقع في صعوبة وضيق في المعيشة، وأحياناً يودي إنفاقه بكثرة إلى الفاقة التي يتحملها بغاية من الرضى. وعدد أهل الصفة يختلف باختلاف الأوقات، فهم ينقصون حيناً ويزيدون حيناً لآخر حتى يبلغ عددهم سبعين رجلاً، يعتكفون في المسجد للعبادة، ويألفون الفقر والزهد، فكانوا في خلواتهم يصلون، ويقرؤون القرآن ويتدارسون آياته، ويذكرون الله، ويتعلم بعضهم الكتابة، واشتهر بعضهم بالعلم وحفظ الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم، فتخرج عدد كبير من الصحابة في العلم، فكانت الصفة أول مدرسة في الإسلام؛ ليس للمسلمين فحسب، بل كانت أول مدرسة في العرب كلهم، سميت بالصفة، وبدأ الصحابة فيها يتعلمون تعاليم الإسلام ومسائل الدين، ثم انتشرت بفضلها مدارس إسلامية في العالم كله.

الصبر وتحمل الأذى في سبيل الدعوة إلى الحق:

واجه الرسول والمؤمنون معه أذية الكفار في مكة، وذلك من قِبَلِ أقاربهم من إخوتهم في الوطن، ولم يكونوا لكونهم من أسرة واحدة، أقل من معارضيهم في الغيرة والجرأة، والشعور بكرامة النفس وعزِّها، ولو أراد المسلمون في مكة لاختاروا للانتقام من أعدائهم طرقاً ووسائل تكدِّر عليهم صفو الحياة، وتسلبهم أمنهم وهدوء بالهم، وكان يمكنهم أن ينتقموا منهم إذا شاؤوا في ساعة من الليل أو النهار، ولكن الله أمرهم بكف اليد والصبر على أذية الأعداء، والإعراض عنهم، والاستمرار في الدعوة والإنذار بقوله: "كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة"[1].

فاستمر الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون به في الدعوة إلى

---

[1] السيرة الحلبية ٢/٣٤٣.

www.abulhasanalinadwi.org

الله، صابرين على الأذى، ومكثوا بمكة ثلاث عشرة سنة، ملتزمين بالعفو والصفح، وكظم الغيظ والإعراض عما يؤذيهم حتى اضطروا إلى مغادرة الوطن إلى مكان آخر، فهاجروا إلى المدينة حتى قويت الشوكة، واشتد الجناح، وتكونت جماعة مؤمنة متآلفة متعاضدة، فأذن لهم حينئذ بالقتال، واستخدام القوة، والردّ على الشدة بالشدة للحفاظ على أنفسهم، وردِّ حملات الأعداء، فلا حاجة بهم إلى الصبر على أذاهم، "أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ" [الحج: ٣٩](١).

فبناء على هذا الإذن بدأ المسلمون يختارون تدابير ووسائل للدفاع عن أنفسهم وأموالهم حسب الحاجة، ولكنهم أمروا بالإضافة إلى ذلك بأن يجتنبوا من الإجراءات بدون حاجة إليها، ويراعوا القيم الإنسانية، وأن لا يقتلوا النساء والأطفال، وأن يعاملوا الأسرى معاملة حسنة، ويؤثروا الصلح بدل الحرب، والعمل لخير الإنسانية وسعادتها، فلم تزل تبوء محاولات الأعداء ومخططاتهم بالفشل والخيبة، وتنتصر الدعوة الإسلامية، وتحصل الفتوحات حتى ألقى الإسلام بجرانه في الجزيرة العربية كلها، ودخل العرب في الإسلام قبل وفاته، وقبلوا تعاليم الرسول، وخضعوا له، حتى دان له كبار الرؤساء في مكة الذين لم يقصروا في إيذائه؛ بل القضاء البات عليه.

التاكيد على اختيار الوسائل اللازمة لنشر الدعوة إلى الحق:

لما اطمأن المسلمون بالمدينة، واستتب لهم الجو، وواتت لهم الظروف لإنشاء مجتمع إسلامي منظم، وحصلت لهم القوة والقدرة على ردّ إجراءات الأعداء الظالمة بقوة، وأذن لهم باختيار تدابير

---

(١) زاد المعاد: ٣/٧٠.

www.abulhasanalinadwi.org

ووسائل حربية لمقاومة الهجوم المسلح الموجه إليهم من قبل أعدائهم، دخلت حياتهم في مرحلة العمل الجماعي بالإضافة إلى العمل الفردي، لإنشاء النظام الاجتماعي من أجل القيام بالتدابير الجماعية؛ لأن دين الإسلام يقدم منهجاً كاملاً جامعاً للحياة الإسلامية، ويفصل أحكامها، كما يرشد الحياة الفردية ويبين أحكامها، وقد طبق الأنبياء السابقون في عصورهم وشعوبهم مبادئ وضوابط مبدئية للحياة الجماعية، وسعوا سعياً بليغاً لإقامة المجتمع الإسلامي المطلوب، وكذلك لم يزل المسلمون في المدينة يتلقون بواسطة رسولهم الخاتم وبقيادته أوامر وأحكاماً لإقامة النظام الإسلامي للحياة الجماعية حسب الوضع والحاجة، حتى اكتملت الشريعة الإسلامية في ختام الحياة الطيبة المثالية على صاحبها ألف ألف تحية وسلام، وظهر النظام الإسلامي في أكمل صوره وأروع مظاهره.

وكان المسلمون في مكة في أوضاع غير مستقرة، وغير آمنة، ولذلك لم تنزل عليهم الشريعة كاملة، بل نزلت الأحكام بحسب الأوضاع والمقتضيات، ولكن الوضع في المدينة قد تغيَّر، وخرج المسلمون من الضعف إلى القوة، وحصلت لهم قوة التنفيذ، فقام لهم مجتمع متعاضد متآلف، فتوسع النظام، وتنوعت الحاجات، وتعددت الشؤون والمسائل، فنزلت الأحكام مفصلة بحسب اقتضاء الظروف، فشملت سائر الجوانب الاجتماعية، فأمر الله نبيه الخاتم أن لا يكون الإسلام مقصوراً على النطاق الفردي للحياة، بل قد آن الأوان للشروع في بذل الجهود المنظمة لجعل المجتمع الإنساني كله تابعاً وخاضعاً للمجتمع الإسلامي الذي ارتضاه الله رب العالمين للحياة الإنسانية، والذي لم تكن الظروف في مكة مواتية للعمل به بنطاق واسع، ولكن

www.abulhasanalinadwi.org

الأوضاع في المدينة أصبحت مواتية ملائمة لتنفيذه في الحياة بنطاق واسع، وبدأت الأوضاع تقتضي أن يخرج المسلمون من مجال الإصلاح الفردي للحياة إلى مجال الإصلاح الاجتماعي، والقيام بالكفاح الجماعي لتنفيذ النظام الإلهي للحياة الإنسانية على وجه الأرض، كما أذنوا باستخدام القوة والشوكة الحاصلة لهم في المدينة في الدفاع عنهم ونصرة الدين الحق بالإضافة إلى استخدامها للأغراض الدينية الرامية إلى حب الخير للإنسانية، ولما آذن العدو بالحرب المعلنة أذن المسلمون باستخدام القوة بصورة منظمة، وقد قرر الله أن المسلمين هم المظلومون نظراً إلى ما عانوه وقاسوه في المدة الممتدة على ثلاث عشرة سنة من ظلم واعتداء، وضراوة وقسوة وهمجية بيد الكفرة الظلمة في مكة، وأذنهم الله بالقتال بأنهم ظلموا، يقول الله عز وجل: "أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ" [الحج: ٣٩]. فأذنوا من غير إيجاب بمواجهة العدو المباسل بوسائل الحرب، ولما اشتدت حملات الأعداء وقويت، فرض عليهم القتال: "وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ" [الأنفال: ٣٩]. وبين مصلحة القتال وحكمته، فقال عز وجل: "لولا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ" [البقرة: ٢٥١].

كانت حكمة الإذن بالقتال أنه لما رأى كفار مكة استقرار المسلمين بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة وتجمُّعهم وتكاتفهم، وتنامي عددهم وقوتهم، اشتدّ سخطهم، واعتبروا قوة المسلمين المتصاعدة خطراً يهدد كيانهم، ويقوض بنيانهم، فهم يعلمون أن قيام الإسلام معناه انتهاء الجاهلية وانقراض عادات الآباء والأجداد، فلابد من الوقوف في وجهه، فبدأوا يخططون لضرب الإسلام والقضاء على

www.abulhasanalinadwi.org

المسلمين في المدينة، حتى لم يتحرجوا من اتخاذ أي تدبير أووسيلة لشن الهجوم المسلح على المدينة إذا سنحت لهم الفرصة، فكان لابد للمسلمين أن يُشْعِروا أهل مكة بأنهم ليسوا ضعفاء كما كانوا مستضعفين في مكة، وقد تغير الوضع، فالآن لا يتحملون اعتداءاتهم؛ بل يردون رداً قوياً على أي هجوم منهم.

فتحقيقاً لهذا الغرض أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم البعوث والسرايا إلى بعض القبائل والنواحي التي أحس بوقوع الشر منها أو الاعتداء منها على المدينة، و يتخذ هذا الإجراء لمراقبة المواقف المضادة للإسلام وخاصة نشاطات قريش الحربية في المناطق المجاورة للمدينة، فكلما شعر بخطر اعتداء قريش في مكان أرسل سرية إليه للقضاء على النشاط المضاد، ولم تكن في غالب الأحيان حرب، وقد تكون مناوشات، وكان غرض إرسال هذه السرايا والبعوث إشعار قريش بأن المسلمين ليسوا في غفلة عنهم، وهم يراقبون تحركات الأعداء، والآن لا يصبرون على اعتدائهم بصمت، بل يردون عليها رداً شديداً، فلا ينخدع أحد ولا يكن في غفلة عنهم ولا يستخف بهم، فكانت تفيد هذه السرايا والبعوث إيقاع الرعب في قلوب المشركين، وتظهر بها شوكة المسلمين ونشاطهم.

يواجه المسلمون أول لقاء عسكري:

أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يراقبوا تحركات قريش وتنقلاتهم، ويكونوا على حذر من هجوم أو إجراء حربي من قبل قريش، ومستعدين للردّ على تحرشاتهم، وكانت المنطقة الساحلية المحاذية للمدينة ممر القوافل الغادية والرائحة بين مكة والشام، وكانت قوافل قريش التجارية تمر بمختلف المناطق في أمن وسلام لكونهم سدنة

www.abulhasanalinadwi.org

الكعبة، فكانوا تجتازون هذه المنطقة أيضاً بأمن وسلامة، ولا تعترض سبيلهم قبيلة، ولذلك كانت قوافل قريش التجارية تغدو وتروح قبل الشمال والجنوب للتجارة بدون خوف أو خطر، ولم تكن هذه السهولة والسلامة حاصلة إلا لقريش وإلا فكانت الطرق والرحلات محفوفة بالأخطار والإغارة والسلب والنهب، وكانت القبيلة العربية لا تسمح أحداً من غيرها أن يمر بمنطقتها إلا بإذنها، وإذا كان أحد يخالف أمرها ويسافر في منطقتها متظاهراً بالقوة والغطرسة أغاروا عليه ومنعوه بالقوة، ولذلك كان سكان منطقة لا يسافرون في منطقة أخرى، ولا يدخلونها إلا في جوار أحد رؤسائها.

كانت المدينة أصبحت الآن منطقة المسلمين، وكان في هؤلاء المسلمين كثير من قريش أذاقهم كفار قريش ألواناً من الظلم والتعذيب، حتى اضطروا لمغادرة مكة تاركين متاعهم وأموالهم وراءهم، ووصلوا إلى المدينة محروبين مسلوبين، وأخذ كفار قريش أموالهم وأراضيهم، واستولوا عليها ظلماً وعدواناً، فزادت بها ثروتهم وقوتهم، ثم بدأوا يستثمرون بها ويتجرون فيها لتدعيم كيانهم، وتعزيز قوتهم، فلما استقر المسلمون بالمدينة وقويت شوكتهم واشتد جناحهم أرادوا أن يسعوا لمنع الطريق على القوافل التجارية الغادية والرائحة بين مكة والشام، واستعادة ما سلبوهم من مال ومتاع، لأن كفار قريش يتمتعون بأموال المسلمين المتروكة بمكة، ويقوون بها قوتهم بينما يواجه المسلمون في المدينة معاناة مالية وصعوبات اقتصادية.

فلما اتصل بعلم المسلمين أن قافلة تجارية لقريش بقيادة أبي جهل العدو الألد الأول لهم تسافر إلى الشام مروراً بمنطقتهم، توجهت جماعة منهم إليها لمنعها، ولكنها انفلتت منهم قبل وصولهم إليها، فلم

www.abulhasanalinadwi.org

تقع مواجهة أو مناوشة بين الطرفين، ولكن لما قفلت هذه القافلة القرشية حاملة للأمتعة التجارية من الشام، بعث الرسول صلى الله عليه وسلم حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر من ناحية العيص في ثلاثين راكباً من المهاجرين لمواجهة القافلة التجارية، فلقي أبا جهل بن هشام بذلك الساحل، في ثلاث مائة راكب من أهل مكة، وحجز بين الفريقين مجدي بن عمرو الجهني، وكان موادعاً للفريقين جميعاً، فانصرف بعض القوم من بعض، ولم يكن بينهم قتال[١]. وكانت وقعت هذه المناوشة بعد الهجرة بستة أشهر.

ثم بعث الرسول صلى الله عليه وسلم سرية عبيد بن الحارث المكونة من ستين أو سبعين من المهاجرين إلى ماء بوادي رابغ بين مكة والمدينة عندما أخبر بتجمُّع أكثر من مئتي راكب من قريش، وكان قائد المشركين أبو سفيان بن حرب، ولم يكن بينهم قتال إلا مناوشات خفيفة بين الطرفين، رمى فيها سعد بن أبي وقاص بسهم، فكان أول سهم رمى به في الإسلام، وكانت هذه السرية بعد رجوعه من الأبواء[٢] ثم بعث الرسول صلى الله عليه وسلم سعد بن أبي وقاص في سرية قوامها ثمانية رهط من المهاجرين، فخرج حتى بلغ "الخرار"[٣] من أرض الحجاز، ثم رجع ولم يلق كيداً[٤]، لأنه مرت جماعة المشركين قبل وصول المسلمين إلى ذلك المكان، ثم أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بتجمُّع قريش بودان، فخرج بنفسه لمواجهة الأعداء، وهي أولى

---

[١] سيرة ابن هشام: ٥٩٥/١، البداية والنهاية: ٢٣٤/٣، السيرة النبوية للإمام الذهبي: ٤٦/٢، الكامل في التاريخ: ١١٠/٢.

[٢] سيرة بن هشام: ٥٩١/١، وحديث القرآن عن غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم د. محمد بكر آل عباد ٤٠/١.

[٣] معجم البلدان: ٣٥٠/٢.

[٤] سيرة ابن هشام: ٦٠٠/١، البداية والنهاية: ٢٣٤/٣.

www.abulhasanalinadwi.org

الغزوات التي غزاها الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي تعرف بغزوة الأبواء أيضاً، وأمَّر سعد بن عبادة على المدينة كنائب له، ولم يقع قتال في هذه الغزوة؛ لأن الأعداء هربوا قبل وصوله إليهم، فرجع إلى المدينة ولم يلق كيداً[١]، ثم كانت غزوة بواط التي خرج فيها الرسول في شهر ربيع الأول في السنة الثانية من الهجرة، وخرج في مئتين من أصحابه، وكان مقصده أن يعترض عيراً لقريش، كان فيها أمية بن خلف في مئة رجل وألفين وخمس مائة بعير، فلم يلق النبي كيداً، فرجع إلى المدينة[٢] ولما أغار كرز بن جابر الفهري على مسرح المدينة، ونهب بعض الإبل والمواشي، فخرج الرسول صلى الله عليه وسلم في طلبه، فلم يدركه، فرجع إلى المدينة[٣].

غزوة بدر الكبرى: أول معركة بين المسلمين والمشركين:

بلغ المسلمين تحرُّك قافلة تجارية من الشام؛ تحمل أموالاً عظيمة لقريش، يقودها أبو سفيان، ويقوم على حراستها بين ثلاثين وأربعين رجلاً، وستنفقها قريش في محاربة الإسلام، وإضعاف شأن المسلمين، وكانت كتائبهم تصل إلى حدود المدينة وإلى مراعيها، فخرج الرسول صلى الله عليه وسلم في جماعة من أصحابه في طلبها، وذهب إلى "ينبوع" ولكن القافلة خرجت مسرعة إلى الشام ونجت منهم.

لما سمع الرسول صلى الله عليه وسلم بأبي سفيان مقبلاً من الشام على رأس هذه العير العظيمة، أرسل بَسْبَسْ بن عمرو لجمع المعلومات عن القافلة القرشية، فلما عاد بسبس بالخبر اليقين، ندب

---

[١] سيرة ابن هشام: ٥٩١/١، الكامل في التاريخ: ١١٣/٢، جيش النبي لمحمود شيت خطاب ص: ٥٤.

[٢] الروض الأنف: ٢٧/٣، معجم البلدان: ٥٠٣/١، السيرة النبوية للإمام الذهبي: ٤٧/٢، البداية والنهاية: ٢٤٦/٣، وسيرة ابن هشام: ٥٩٨/١.

[٣] سيرة ابن هشام: ٦٠١/١، البداية والنهاية: ٢٤٧/٣.

www.abulhasanalinadwi.org

الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه للخروج إليها، وقال لهم: "هذه عير قريش، فيها أموالهم، فاخرجوا إليها، لعل الله يُنفِلُكموها". وكان خروجه من المدينة في اليوم الثاني عشر من شهر رمضان المبارك من السنة الثانية للهجرة، ولم يحتفل الرسول صلى الله عليه وسلم بالخروج احتفالاً بليغاً، لأن الأمر كان أمر عير لا نفير.

وبلغ أبا سفيان خبر مسير الرسول صلى الله عليه وسلم بأصحابه من المدينة، بقصد اعتراض قافلته واحتوائها، فبادر إلى تحويل مسارها إلى طريق الساحل، في الوقت نفسه أرسل مستصرخاً لقريش ليمنعوه من المسلمين، وينقذوا قافلتهم وأموالهم، وبلغ الصريخ أهل مكة، فجدّ جدُّهم، ونهضوا مسرعين، ولم يتخلف من أشرافهم أحد، وحشدوا من حولهم من قبائل العرب، ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلا القليل النادر، وجاؤوا على حمية وغضب وحنق، وذهب المسلمون في طلب عير قريش إلى بدر، ولما بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم نجاة القافلة أراد العودة إلى المدينة، ولكن بلغه إقبال قريش بخيلها ورجلها لقتال المسلمين، فاستشار الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يقاتل أويرجع إلى المدينة؟ و كان معه ٣١٣رجلاً استصحبهم من المدينة، وكان عددهم كافياً لمواجهة عير قريش، ولم يكن في نيته قتال، ولكن الآن بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم خروج كفار مكة وإصرارهم على قتاله، فكانت الحاجة إلى المشاورة أن يواجه العدو المدجج بالسلاح لئلا يظن الناس أن المسلمين فرّوا من القتال ودخلهم الجبن والخور، أو يرجع إلى المدينة لكيلا يقع قتال بين الطرفين، فأشار الصحابة بالقتال، وأبدوا ارتياحهم بمجالدة الأعداء وقالوا: ليس من المناسب العودة إلى المدينة إذا أقبل العدو للقتال، لأن

www.abulhasanalinadwi.org

العودة تعتبر فراراً من المعركة، ويكون سبب الذل والمهانة، فاتفقت الكلمة على ملاقاة العدو ومواجهته، هذه هي الغزوة التي تعرف بغزوة بدر الكبرى، وكانت في صورة الحرب بمعنى الكلمة (١).

كانت قوة قريش موفورة ومدججة، وكانت بين ألف وزيادة، منهم صناديد قريش وسادتها، وفرسانها وأبطالها، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها.

وكان عدد المسلمين ثلاثمائة عشر رجلاً، وهو ثلث عدد العدو، ولم يكن معهم من الخيل إلا فرسان، وسبعون بعيراً، يعتقب الرجلان والثلاثة على البعير الواحد، لافرق في ذلك بين جندي وقائد، وتابع ومتبوع، ولكن المسلمين كانوا يؤمنون إيماناً بنصر الله وتأييده لهم، فجاء العدو المدجج بحده وحديده، واصطف الفريقان وتزاحم الناس، دنا بعضم من بعض، فاستعرت المعركة واشتدت، وفي نهاية المطاف انتصر المسلمون رغم قلة عددهم انتصاراً باهراً، وانهزمت قريش هزيمة منكرة، وزادت هذه المعركة في شوكة المسلمين وغلبتهم وقوتهم، وبدل تصور الناس نحو المسلمين من الضعف إلى القوة والشكيمة، وعرف أهل مكة والناس مدى قوة المسلمين، فتعوضت القلوب عن الجرأة عليهم الرعب والهيبة منهم.

ذكر موجز عن معركة بدر:

كان بدر الذي يقع على بعد ١٥٠ كلو متراً من المدينة في الجنوب بين الجبال، ميداناً، وكانت فيه بئر ماء، تسمى بدر، وبمقربة من جهته الغربية يمرّ طريق مكة إلى الشام، وكانت سائر القوافل التجارية تغدو

---

(١) سيرة ابن هشام: ٦٠٦/١، سيرة ابن إسحاق: ٣٨٣/١- ٣٨٧، زاد المعاد: ١٧١/٣.

www.abulhasanalinadwi.org

منه وتروح بين الشام ومكة، وقد وصل الرسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه إلى القرب من هذا الميدان في طلب عير قريش، ثم علم أن قافلة قريش خرجت وسلمت ونجت، وفور وصول خبر نجاة العير بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم خروج قريش لقتال المسلمين، فاستشار أصحابه، فأحسنوا وأيدوا التقدم نحو ملاقاة العدو.

ووصلت قريش إلى بدر حتى نزلوا بجانب من الوادي أبعد من المدينة، وكانت أرضه ثابتة، وكان فيها ماء، ونزل المسلمون بجانب بدر وحافته الأقرب إلى المدينة، وكانت أرضه رخوة، تغوص فيها الأقدام، ولم يكن هناك ماء، وكان المشركون في العدد والعدد، وكانت وسائلهم متوفرة كافية، وكان المسلمون في قلة العدد وضآلة العدد، وكانت القضية قضية بقاء المسلمين، ولو انتصر المشركون لانقرض وجود المسلمين وأبيدوا، لأن قوة المسلمين ووجودهم منحصراً في تلك الكتيبة المؤمنة القليلة العدد، الفقيرة العدد.

وبنى المسلمون للرسول صلى الله عليه وسلم عريشاً يكون فيه، على تل مشرف على المعركة، وكان معه فيه أبو بكر رضي الله عنه، وكانت ثلة من شباب الأنصار بقيادة سعد بن معاذ يحرسون عريش رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولما اطلع المشركون، وتراءى الجمعان، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: " اللهم هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها؛ جاءت تحاربك، وتكذب رسولك". ثم عدل الصفوف، ورجع إلى العريش، فدخله وجعل يكثر الابتهال والتضرع والدعاء، وقد علم أن لو وكل المسلمون إلى أنفسهم وقوتهم فالنتيجة معلومة واضحة، نتيجة كل قليل ضعيف أمام قوي كثير العدد، ولما رأى الكفتين: كفة المسلمين وكفة

www.abulhasanalinadwi.org

المشركين، غير متكافئتين، وضع صنجة في كفة المسلمين، رجحت بها رجحاناً ظاهراً، فاستغاث بالله الذي لا معقب لحكمه، ولا رادّ لقضائه، فقال: "اللهم انجز لي ما وعدتني، اللهم آتني ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعدها في الأرض".

قال ابن إسحاق: أول من خرج من جيش المشركين هو الأسود ابن عبد الأسد المخزومي، وخرج وحمل على حوض المسلمين، فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب وقتله، ثم خرج من جيش المشركين عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وابنه الوليد، وطلبوا المبارزة، وخرج إليهم علي بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث، فبارز عبيدة عتبة، وبارز عليّ الوليد بن عتبة، وبارز حمزة شيبة، فأما حمزة وعلي فلم يمهلا خصمهما أن قتلاهما، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما أثبت صاحبه وكر حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة فأجهزا عليه واحتملا عبيدة وهو جريح، ولكن ما لبث أن مات شهيداً متأثراً بجراحه بصفراء في طريق عودته إلى المدينة.

وبعد مقتل هؤلاء الثلاثة الذين خرجوا للمبارزة، استشاط المشركون غضباً، وهجموا على المسلمين هجوماً عاماً، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم محرضاً المسلمين على القتال: "قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض"، فاندفعوا إلى القتال، وهم صابرون وذاكرون الله كثيراً، وقاتل الرسول صلى الله عليه وسلم قتالاً شديداً، وكان أقرب الناس من العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً.

وأول من استشهد يوم بدر من المسلمين هو مهجع مولى عمر بن الخطاب؛ رمى بسهم، فمات شهيداً، ثم رمى حارثة بن سراقة، وهو يشرب من الحوض، بسهم، فأصاب نحره، فمات شهيداً، ثم قام عمير

www.abulhasanalinadwi.org

ابن الحمام وفي يده تمرات يأكلهن وقال: بخ بخ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء، ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه، فقاتل القوم حتى مات شهيداً.

ثم حمي الوطيس، واستدارت رحى الحرب، واشتد القتال، وأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم في الدعاء والابتهال ومناشدة ربه، حتى سقط رداؤه عن منكبه فرده عليه أبو بكر الصديق وقال: بعض مناشدتك ربك، فإنه منجز لك ما وعدك".

وأخذ الرسول في هذه الحالة ملء كفه من الحصباء ونفث فيها فرمى بها وجوه العدو، وقال: شاهت الوجوه، فلم تترك رجلاً منهم إلا ملأت عيينه، وشغلوا بالتراب في أعينهم، وشغل المسلمون بقتلهم. فأنزل الله في شأن هذه الرمية على رسوله:

"وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى" [الأنفال: ١٧]. وأنزل الله الملائكة بالرحمة والنصر، وقاتلوا المشركين.

وانتهت معركة بدر بانتصار المسلمين على المشركين، وقتل صناديد قريش، وأسر منهم سبعون، وكان عدد قتلى المشركين سبعين رجلاً، وكان أكثرهم من قادة قريش وزعمائهم، ولما تمَّ الفتح، وانهزم المشركون أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم عبد الله بن رواحة وزيد ابن حارثة ليبشر المسلمين في المدينة بنصر الله للمسلمين وهزيمة المشركين([1]).

كانت غزوة بدر الكبرى أول معركة خاضها المسلمون مع الكفار، وكان عددهم قليلاً، ولم تكن لهم تجربة لمثل هذه المعركة،

---

[1] البداية والنهاية: ٣/٢٥٦- ٣٠٣، السيرة النبوية للإمام الذهبي: ١/٥٠- ٦٠، سيرة ابن هشام: ١/٢٠٦- ٦٢٨، وزاد المعاد: ٣/١٧١- ١٨٨، السيرة النبوية للشيخ أبي الحسن الندوي: ٢١٥- ٢٢٨.

www.abulhasanalinadwi.org

وكان عدد الأعداء أكثر وأكبر من عددهم، ولكن نالوا انتصاراً باهراً، وفتحاً مبيناً، وانهزم المشركون شر هزيمة؛ حتى لم يكونوا يجدون مهرباً يهربون إليه، ولا ملجأ يلجأون إليه.

مصرع أبي جهل بن هشام:

قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: " بينا أنا واقف في الصف يوم بدر، فنظرت عن يميني وشمالي، فإذا أنا بغلامين من الأنصار، حديثة أسنانهما، تمنيت أن أكون بين أضلع (أقوى) منهما، فغمزني أحدهما، فقال: يا عمّ! هل تعرف أبا جهل؟ قلت: نعم، وما حاجتك إليه يابن أخي؟!! قال: أخبرت أنه يسبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذي نفسي بيده! لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده، حتى يموت الأعجل منها.

فتعجبت لذلك، فغمزني الآخر، فقال لي مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه، فقال: أيكما قتله؟ قال كل واحد منهما: أنا قتلته، فقال: هل مسحتما سيفيكما؟ قالا: لا، فنظر في السيفين، فقال: كلاكما قتله، وكانا: معاذ بن عفراء، ومعاذ بن عمرو بن الجموح".(١)

وكان أبو جهل مستكبراً جباراً حتى وهو صريع وفي آخر لحظات حياته، فقد جاء في رواية لابن إسحاق: أنه قال لعبد الله بن مسعود لما أراد أن يحتز رأسه: " لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رُوَيْعِي الغنم" (٢).

ولما بردت الحرب، وولى القوم منهزمين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من ينظر لنا ما صنع أبو جهل؟ " وهو الذي كان ألد

---

(١) البخاري: ٣١٤١، ومسلم: ١٧٥٢.

(٢) سيرة ابن هشام ١/٦٣٦.

www.abulhasanalinadwi.org

الأعداء للرسول صلى الله عليه وسلم، وكان كافراً مشركاً، حتى لم يدخر وسعاً في ضرب الإسلام حتى القضاء على الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان يقود هذه الحرب أيضاً، فانطلق ابن مسعود، فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد، وأتى النبي برأسه، وقال: يا رسول الله! هذا رأس عدو الله أبي جهل، فقال: "آلله الذي لا إله إلا هو" فرددها ثلاثاً، ثم قال: "الله أكبر، الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده" وقال: "انطلق أرنيه فانطلقت معه فأريته، فلما وقف عليه قال: "هذا فرعون هذه الأمة"(١).

ولما انقضت الحرب، أقبل الرسول صلى الله عليه وسلم حتى وقف على قتلى المشركين، وكان عددهم سبعين، وقتل كبار قادتهم وصناديدهم، وأمر الرسول بالقتلى أن يطرحوا في القليب، فطرحوا فيه، ثم وقف عليهم، فقال: "بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم، كذبتموني، وصدقني الناس، وخذلتموني ونصرني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس"(٢).

واستشهد من المسلمين يوم بدر أربعة عشر رجلاً، ستة من المهاجرين، وستة من الخزرج، واثنان من الأوس(٣) وسواهم رجعوا سالمين غانمين بنصر الله وفضله.

نظراً إلى إخلاص المؤمنين المجاهدين في معركة بدر وصدقهم في التفاني في سبيل الله تقبَّل الله تضحياتهم، وأنعم عليهم بأن غفر لهم ما

---

(١) زاد المعاد: ١٨٥/٣، صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب دعاء النبي على كفار قريش، وباب شهود الملائكة بدراً، صحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب قتل أبي جهل، مسند أحمد: ٤٠٣ و٤٤٤، وأبو داود: ٢٧٠٩.

(٢) زاد المعاد: ١٨٧/٣، وسيرة ابن هشام: ٦٣٩/١.

(٣) زاد المعاد: ١٨٨/٣.

www.abulhasanalinadwi.org

تقدم من ذنب وتأخر، ورفع درجاتهم.

المعاملة مع الأسرى:

استشار الرسول صلى الله عليه وسلم في شأن الأسرى، واستقر رأيه على أن تؤخذ منهم فدية، ويطلق سراحهم، ولكن الله لم يرض بذلك وقال: "مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ" [الأنفال: ٦٧] وكان الأسرى يستحقون القتل، ولم يكن من المناسب أن يطلق سراحهم، ولكن الله رغم عدم رضاه بقضاء نبيه لم يبدل حكمه وأبقاه.

وكانت معاملة الرسول صلى الله عليه وسلم للأسرى تحفها الرحمة والعدل والحزم، والمصالح والأهداف الدعوية، ولذلك تعددت أساليبه، وتنوعت طرق تعامله؛ هناك من قتله نظراً إلى جرائمه، وبعضهم قبل فيهم الفداء، والبعض الآخر منَّ عليهم فأطلقهم، وآخرون اشترط عليهم تعليم عشرة من أبناء المسلمين مقابل المنِّ عليهم، وأطلق البعض عوضاً عن الأسير المسلم، وقتل عقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث، وكانا من أكبر دعاة العرب ضد الإسلام، والمتربصين بالمسلمين الدوائر، فبقاؤهما يعد مصدر خطر كبير على الإسلام، ولاسيما في تلك الظروف الحاسمة التي تمر بها الدعوة الإسلامية، فلو أطلق سراحهما لما تورعا من سلوك أي طريق فيه كيد للإسلام وأهله، فقتلهما في هذا الظرف ضرورة تقتضيها المصلحة العامة لدعوة الإسلام الفتية(١)، ولذلك أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقتلهما عندما وصل إلى الصفراء أثناء رجوعه للمدينة.

وكان في الأسرى أبو العاص بن أبي الربيع زوج زينب بنت

---

(١) أنظر: غزوة بدر الكبرى، لمحمد أحمد باشميل ص: ١٦٢.

www.abulhasanalinadwi.org

الرسول الذي كان يومئذ كافراً، واشترك في معركة بدر تحت ضغط الكفار، وأمر الرسول بإطلاق سراحه بأخذ الفدية منه، ولكن لم يكن معه شيء يؤديه إلى المسلمين، ولما بعث أهل مكة في فداء أسراهم، بعثت زينب بنت الرسول في فداء أبي العاص بن أبي الربيع بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بني لها، فلما رآها الرسول رقَّ لها رقة شديدة وقال: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردُّوا عليها مالها، فافعلوا، فقالوا: نعم يا رسول الله، فأطلقوه وردّوا عليها الذي لها[1].

وتأثر أبو العاص بن أبي الربيع بسلوك المسلمين ومعاملة والد زوجته أن دخل الإسلام قلبه، ولكن لم يعلن إسلامه، فذهب إلى مكة ليؤدي الأمانات عنده إلى أهلها، ثم أسلم ورجع إلى المدينة.

الوصية بإكرام الأسرى:

ولما رجع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فرّق الأسرى بين أصحابه، وقال لهم: "استوصوا بهم خيراً". يقول أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير: "كنت في الأسرى يوم بدر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: استوصوا بالأسرى خيراً" وكنت في نفر من الأنصار فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم، أكلوا التمر وأطعموني البر، لوصية الرسول صلى الله عليه وسلم"[2].

ويقول أبو ا لعاص بن أبي الربيع: كنت في رهط من الأنصار، جزاهم الله خيراً، كنا إذا تعشينا أو تغدينا، آثروني بالخبز، وأكلوا التمر، والخبز معهم قليل، والتمر زادهم، حتى إنْ الرجل تقع في يده

---

[1] سيرة ابن هشام: ١/٦٥- ٦٥٨.

[2] الطبراني في الصغير: ٤٠١، وفي الكبير: ٣/٣٩٣.

www.abulhasanalinadwi.org

كسرة فيدفعها إليّ، وكان الوليد بن الوليد بن المغيرة يقول مثل ذلك ويزيد: "كانوا يحملوننا ويمشون"(١).

بعد غزوة بدر:

وقع مرات بعد غزوة بدر أن سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بتجمُّع الأعداء في مكان قريب من المدينة أو محاولاتهم للهجوم أو التحرش أو التعرض للمسلمين فخرج إليهم بنفسه في جماعة من الصحابة، أو أرسل إليهم سرايا لتعقبهم، أواختار تدابير أخرى لردعهم حسب الوضع، ولكن لم يكن قتال في جميع هذه السرايا، ومن هذه الغزوات والسرايا: غزوة بني سليم، وغزوة السويق، وغزوة بني غطفان، وغزوة نجران، ولم يلقوا فيها كيداً.

نقض اليهود العهد:

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وادع القبائل اليهودية الساكنة في مقر المسلمين المدينة المنورة، وأبرم معها معاهدة تنص على أنهم لا يساعدون القوة الأجنبية في حالة إغارتها على المسلمين، ولكنها لم تلتزم بالمعاهدة، بل قامت خفية بتحريض الأعداء على الهجوم على المسلمين في المدينة، ووعدتهم بمشاركتها في الهجوم، أو مساعدتهم بطريق آخر، وكان ذلك منها مخالفة صارخة للمعاهدة المبرمة معها، وخاصة نقض بنو قينقاع هذه المعاهدة وقتلوا مسلماً، فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس عشرة ليلة حتى نزلوا على حكمه، وقتل كعب بن الأشرف؛ الذي كان شديد الأذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان شاعراً، ناصب الإسلام العداء، وقد غاظه انتصار المسلمين على قريش في معركة بدر، فهاجر إلى مكة؛ يهجو النبي، ويحرض قريشاً

---

(١) أنظر: المغازي للواقدي: ١/ ١١٩.

www.abulhasanalinadwi.org

على أخذ الثأر لقتلاهم الذين كان ينوح عليهم ويبكيهم في شعره، ويدعو إلى القضاء على الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين، وبلغت به الوقاحة والصلف أن استطال لسانه في نساء المسلمين، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: من لكعب بن الأشرف، فإنه قد آذى الله ورسوله؟ فانتدب له رجلان من الأنصار فقتلوه(١).

استمر كفار مكة رغم ما كانوا يرونه من غلبة وهيبة للمسلمين على النفوس بعد غزوة بدر، وتوسّع دائرة الدخول في الإسلام، في اتخاذ تدابير وأساليب لمحاربة رسول الله والمسلمين، وفي التخطيط والمؤامرات لضرب الإسلام، وما زالوا يتحينون الفرص السانحة لأخذ الثأر، ولذلك كان المسلمون يضطرون حيناً لآخر لمواجهة محاولات الأعداء الحربية، وتقع بينهم مناوشات، ولكنها كانت وقائع لم تقع فيها الحرب، وقاومها المسلمون بسهولة، فكان الرسول عندما تصل إليه الأخبار التي تفيد بالهجوم، أو يحس بالخطر من قبل الكفار، يخرج بنفسه أو يرسل سرايا بقيادة صحابي خبير بشؤون الحرب لإفشال مخططات أعداء الإسلام، تسمى بعض هذه الإجراءات التي اتخذت: بالغزوات إذا خرج فيها الرسول أو بعضها بالسرايا أي لم يخرج فيها، وبعثت بقيادة أحد الصحابة، وفي جميع هذه الغزوات والسرايا التي أرسلت في مدة خمس سنوات بعد غزوة بدر لم يقع قتال أو مناوشات، بل رجعوا ولم يلقوا كيداً، سوى غزوة أحد التي وقعت فيها حرب شديدة.

فرض الصوم:

قُرِّرَت أحكام الإسلام الأساسية خمسة أعمدة، وهي عقيدة

---

(١) زاد المعاد: ٣/١٩١، سيرة ابن هشام: ٢/٤٧- ٥٧، صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب قتل كعب بن الأشرف، مسلم، كتاب الجهاد، باب قتل كعب بن الأشرف، البداية والنهاية: ٤/٥- ٩.

www.abulhasanalinadwi.org

التوحيد، والصلاة وقد تمَّ فرضهما في مكة، وأما الركنان الآخران: الصوم والزكوة فقد كانا فُرضا في المدينة بعد غزوة بدر، في السنة الثانية من الهجرة[١] وأما الركن الخامس فهو الحج، وكان العرب جميعاً يعملون به ويؤدنه، ولكنه فرض متأخراً وفُصِّلت أحكامه في السنة العاشرة للهجرة.

وقد جاء الأمر بصيام شهر رمضان كله، وقرر مكتوباً في هذا الشهر من بين الشهور الأخرى للسنة، وفي اليوم التالي لانقضاء شهر رمضان يوم العيد يعني يوم إبداء الشكر لله، ويوم إبداء المسرة، ورُغِّب في الصدقة فيه، وهي تسمى صدقة الفطر.

وكان الناس قبل فرضية الصوم في رمضان، يصومون يوم عاشوراء؛ اليوم العاشر من شهر محرم على طريقة النبي السابق، ثم قُرر صيام رمضان صوماً حقيقياً في الإسلام، وقرر ركناً من أركان الإسلام الخمسة، ومن خصائص رمضان مؤاساة الفقراء والقاصرين مادياً ومساعدتهم، وإيجاد الشعور بمشاكلهم ومعاناتهم بالإضافة للعبادة لله، وإن الامتناع عن الأكل والشرب في النهار لمدة ٢٩ أو ٣٠ يوماً يذكر بجوع الفقراء ومعاناتهم، كما يرغب الإفطار عند الغروب في إفطار المعوزين وإطعامهم، ففي جانب يذكر الصوم الأثرياء معاناة جوع الفقراء وفي جانب آخر يوفر الفرص لمساعدة الفقراء والقاصرين مادياً، ومقاسمة أحزانهم ومعاناتهم.

أمر بني قينقاع:

بنو قينقاع قبيلة من قبائل اليهود، وقد تم إبرام المعاهدة معها كالقبائل اليهودية الأخرى المعاهدة، ومن الأسباب المباشرة بالإضافة

[١] البداية والنهاية: ٣/٣٥٤.

www.abulhasanalinadwi.org

لنقض العهد أنه جاءت امرأة من العرب بجلب لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ يهودي، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها، فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها، فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع، فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم سار إليهم على رأس جيش من المهاجرين والأنصار، وحاصرهم حتى نزلوا على حكمه، ورضوا بقبول أمره فيهم، فخلّى سبيلهم، ثم أمر بإجلائهم من المدينة، فخرجوا منها إلى خيبر(١) وأمن المسلمون شرّهم، وحصل لهم الخلاص من دسائسهم ومكرهم.

غزوة احد (شوال ٣هـ):

لما أصيب صناديد قريش يوم بدر، ورجع فلُّهم إلى مكة، عظُم المصاب عليهم، فاشتدّ غضبهم وعداؤهم، وثارت فيهم عاطفة أخذ الثأر لقتلى بدر، ومشى رجال أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم، فكلموا أبا سفيان الذي رجع بعيره، ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة، فاستعانوا بهذا المال على حرب المسلمين، ففعلوا، واجتمعت قريش لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحرض الشعراء الناس بشعرهم، وأثاروا فيهم ا لغيرة والحمية والحفيظة، وأرسلت قريش إلى الرسول أنها ستأتيكم لأخذ الثأر.

فلما استكملت قريش قواها، خرجت في منتصف شوال من السنة الثالثة للهجرة، بحدّها وحديدها، بأبنائها، ومن تابعها وأطاعها

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/٤٧- ٤٩.

www.abulhasanalinadwi.org

من القبائل المجاورة العربية، وخرجوا معهم بالظُّعُن؛ لئلا يفروا، وكان جيشها مكوناً من ثلاثة آلاف مقاتل، ولما علم الرسول صلى الله عليه وسلم بخروج قريش، جمع أصحابه وشاورهم في البقاء في المدينة والتحصُّن فيها، أو الخروج لملاقاة المشركين، وكان رأي النبي صلى الله عليه وسلم البقاء في المدينة، وقال: "إنا في جنة حصينة، فإن رأيتم أن تقيموا، وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا؛ أقاموا بشرّ مقام، وإن دخلوا علينا، قاتلناهم فيها"[1]. ورأى عدد من الصحابة رأيه، إلا أن رجالاً من المسلمين ممن فاتتهم غزوة بدر وكانت عاطفتهم جياشة، قالوا: يا رسول الله! اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنا جَبُنَّا عنهم وضعفنا، فلم يزالوا برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل الرسول صلى الله عليه وسلم بيته، فلبس لأمته، وخرج في ألف من أصحابه متوجهاً إلى أحد، (وهو جبل على نحو ٣٠ كيلو متر من المدينة) وكان جيش العدو نازلاً به.

وعندما وصل جيش المسلمين الشوط بين المدينة وأحد، انسحب منه عبد الله بن أبي بثلاثمائة من المنافقين وضعيفي الهمم بحجة أنه لن يقع قتال مع المشركين، ومعترضاً على قرار القتال خارج المدينة، قائلاً: أطاع الولدان، ومن لا رأى له، أطاعهم، وعصاني، علام نقتل أنفسنا"[2] فانخذل ابن أبي بن سلول وأصحابه عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وبقي معه ٧٠٠ صحابي، وقاموا في وجه جيش المشركين المكون من مائة ألف مقاتل مدجج، فالتقى الناس ودنا بعضهم عن بعض، واقتتل الجمعان حتى حميت الحرب، وأنزل الله تعالى نصره على المسلمين،

---

[1] تاريخ الطبري: ٢/٦٠.
[2] البداية والنهاية: ٤/١٤.

www.abulhasanalinadwi.org

وصدقهم وعده، حتى كشفوا المشركين عن العسكر، وكانت الهزيمة لاشك فيها، وولت النساء مشمرات هوارب، وبينما هم كذلك إذ انهزم المشركون وولوا مدبرين، حتى انتهوا إلى نسائهم، وانتصر المسلمون، ولكن سرعان ما تحوّل هذا الانتصار هزيمة إذا أخطأ الرماة الذين وضعهم الرسول فوق جبل عينين المقابل لجبل أحد، وأمرهم أن يلزموا مركزهم، قائلاً: إن رأيتمونا تخطفنا الطير؛ فلا تبرحوا مكانكم هذا، حتى أرسل إليكم[1] وإن رأيتمونا هزمنا القوم، وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم، فلما أخل الرماة تلك الخلة التي كانوا فيها، دخلت خيل قريش من ذلك الموضع على أصحاب النبي، فضرب بعضهم بعضاً، والتبسوا، وتراجع المسلمون، وكرا لمشركون كرّة، وانتهزوا الفرصة، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم استنهض همم أصحابه، فالتفوا حوله، وأبلوا بلاء حسناً، فتراجع المشركون، وانصرفوا قائلين: إن موعدكم بدر للعام القابل، فقال رسول الله لرجل من أصحابه: قل: نعم، هو بيننا وبينكم موعد[2].

واجه المسلمون يوم أحد أوضاعاً قاسية، امتحنت صبرهم، وإخلاصهم، واستقامتهم، فكان يوم محنة، وبلاء وتمحيص، وأشيع يوم أحد حينما حمي وطيس الحرب أن محمداً قد قتل، فاختلط الحابل بالنابل، واشتدت حرارة القتال، سقط المسلمون في يدهم، فما يدرون كيف يفعلون من هول الفاجعة، ثم علم المسلمون بسلامة الرسول، وأنه حيٌّ، وكانت الشائعة كاذبة[3]، إلا أن المشركين استطاعوا الخلوص قريباً من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرموه

[1] البخاري: ٣٠٣٩، ومسند أحمد: ٢٩٣/٤، وأبو داود: ٢٦٦٢.
[2] سيرة ابن هشام: ٩٤/٢.
[3] الكامل في التاريخ: ١٥٥/٢- ١٥٦.

www.abulhasanalinadwi.org

بحجر أصاب أنفه الشريف وكسر رباعيته، وشجّه في وجهه الكريم، فأثقله، وتفجر الدم منه[١] واستشهد عدد من الصحابة في كرة قاسية للمشركين، وكان فيهم عم الرسول سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب[٢] ومصعب بن عمير وآخرون من الصحابة الأجلة[٣]، في ختام المعركة تراجع المشركون، وانتصر المسلمون بعد ما قدموا تضحيات جسيمة، وقاسوا المحنة، ويئس المشركون من تحقيق نصر حاسم، وأجهد رجالهم من طول المعركة، وصمود المسلمين وجلدهم، وخاصة بعد أن اطمأنوا، وأنزل الله عليهم الأمنة والصمود، فالتفُّوا حول النبي، ولذلك كفوا عن مطاردة المسلمين، وعن محاولة اختراق قُوّاتهم.

وقد كان ما وقع في أحد من محنة للمسلمين، تمحيصاً وتربية لهم، ودرساً، ذكره القرآن الكريم أيضاً، ولقّن المسلمين أن يوجهوا عنايتهم إلى إصلاح ما صدر منهم؛ من ضعف وتقصير مما لا يتوقع صدوره منهم مع إيمانهم الكامل القوي، لأن مرجع انهزامهم أثناء المعركة عندما حمى وطيس الحرب، إلى هذا الضعف والتقصير في إطاعة أمر الرسول وتعاليمه.

ومن هذا المواضع للضعف والتقصير أنه عندما وصل جيش المسلمين إلى جبل أحد، جعل الرسول صلى الله عليه وسلم ظهورهم إلى الجبل، ووجوهم إلى المدينة، وانتقى خمسين من الرماة تحت إمرة عبد الله بن جبير، ووضعهم فوق جبل عينين المقابل لجبل أحد، ليمنعوا المشركين أن يأتوا المسلمين من ورائهم، وأمرهم أن يلزموا مركزهم وألا

---

[١] سيرة ابن هشام: ٢/٧٨- ٨٠.

[٢] البخاري، غزوة أحد، باب قتل حمزة رضي الله عنه، السيرة الحلبية ٢/٧٢.

[٣] سيرة ابن هشام: ٢/٧٣، وزاد المعاد: ٣/١٩٧.

www.abulhasanalinadwi.org

يفارقوه ولو رأوا الطير تتخطف العسكر، وكانوا خلف الجيش، وأمرهم أن يفضحوا المشركين بالقبل لئلا يهجموا عليهم من تلك الخلة التي كانوا فيها.

وكانت الغلبة أول النهار للمسلمين على الكفار، فانهزم الأعداء، وولوا مدبرين حتى انتهوا إلى نسائهم، فلما رأى الرماة الهزيمة التي حلت بقريش وأحلافها، ورأوا الغنائم في أرض المعركة، جذبهم ذلك إلى ترك مواقعهم، ظنّاً منهم أن المعركة انتهت، فذكرهم أميرهم عهد رسول الله، فلم يسمعوا، وظنُّوا أن ليس للمشركين رجعة، فذهبوا في طلب الغنيمة، وأخلوا الثغر، وكرَّ فرسان المشركين، فوجدوا الثغر خالياً، قد خلا من الرماة، فعادوا منه إلى القناة من جديد، وأحاطوا بالمسلمين من جهتين، وفقد المسلمون مواقعهم الأولى، وأخذوا يقاتلون بدون تخطيط، وأخذوا يتساقطون شهداء في الميدان، وفقدوا اتصالهم بالرسول، وشاع أنه قتل، فاختلط الحابل بالنابل، وتولى الصحابة(١).

فكانت هذه النكسة نتيجة زلة للرماة وعدم تمسكهم بتعاليم الرسول وأمره إلى اللحظة الأخيرة وإخلائهم للجبهة التي عينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها، ثم أنعم الله عليهم بعد ما أذاقهم شيئاً من العذاب، وأنزل عليهم أمنة من بعد الغم، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه التقصيرات الصادرة من المسلمين فقال:

"وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا

---

(١) زاد المعاد: ١٩٦/٣.

www.abulhasanalinadwi.org

عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ" [آل عمران: ١٥٢].

وتجلى من هذه الوقعة أن مفتاح النجاح والفوز هو اتباع تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم والتمسُّك بأوامره ونواهيه.

اعتبرت قريش معركة أحد انتصاراً لها، وسكت عنها الغضب، وهدأ بالها إلى حد رغم تكبُّدها خسائر جسيمة فيها، ولكنها اعتبرتها فتحاً بالنسبة إلى معركة بدر التي خسرت فيها خسراناً عظيماً في الأرواح والأموال، فلما أراد أبو سفيان قائد قريش الانصراف، أشرف على الجبل، ثم صرخ بأعلى صوته: إن الحرب سجال، يوم بيوم، أعل هبل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أجيبوه، قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: الله مولانا ولا مولاكم"(١).

وقعت هذه الغزوة يوم السبت لنصف شهر شوال من السنة الثالثة من الهجرة، وفي هذه الغزوة انكشف النفاق، عندما انسحب بعض المسلمين من الجيش في الطريق، ولم يعد النفاق خافياً بل علم الناس أن هناك منافقين في المدينة، يظهرون الإسلام، ولكن أفئدتهم لم تطمئن بعد؛ يظهرون الإسلام لغلبة المسلمين وإقبالهم، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يهتك سرّهم، وظل يعامل معهم معاملة حسنة، رجاء أن تصح نياتهم وتطمئن قلوبهم.

حمراء الأسد:

وإن كان المسلمون مثخنين بالجراح، ولكن لما كان الغد من يوم الأحد أذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس بالخروج في طلب العدو لإلقاء الرعب في قلبه، فسار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى حمراء الأسد، واقترب بجنوده من جيش المشركين، فأقام فيه ثلاثة أيام

(١) سيرة ابن هشام: ٩٤/٢، وزاد المعاد: ٢٠١/٣، البخاري: ٤٠٤٣، والبيهقي في الدلائل: ٢٦٨/٣.

www.abulhasanalinadwi.org

يتحدى المشركين، فلم يتشجعوا على لقائه ونزاله، وآثروا السلامة والأوبة، فرجعوا إلى مكة، وبعد ذلك عاد الرسول والمسلمون معه إلى المدينة.

بعد أحد:

أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد غزوة أحد عندما بلغت إليه أخبار تهيُّؤ الأعداء في بعض الأماكن وتجمعهم لمناوشة المسلمين، أو الاستعدادات أو المحاولات الماكرة لغزو المدينة أو المسلمين، سرايا لإفشال المحاولات الماكرة، أو خرج بنفسه في طلبهم، أو بعث جماعة بقيادة صحابي لقمع الفتنة.

فلما استهل هلال محرم من السنة الرابعة للهجرة بلغه أن طلحة وسلمة ابني خويلد جمعا الحشود لغزو المدينة، وحرضا قومهما الذين كانوا يسكنون في قطن بمنطقة "فيد" الجبلية، على حرب الرسول، فبعث أبا سلمة، وعقد له لواءً، وبعث معه مائة وخمسين رجلاً من الأنصار والمهاجرين، فأصابوا إبلاً وغنماً، ولم يلقوا كيداً، وفرَّ العدو.

ولما كان خامس محرم بلغه أن خالد بن سفيان قد جمع له الجموع، فبعث إليه سرية بقيادة عبد الله بن أنيس، فقتله(١).

فاجعة الرجيع:

ولما كان صفر من سنة ثلاث للهجرة قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم رهط من "العضل" و"القارة" وذكروا أن فيهم إسلاماً، وسألوه أن يبعث معهم نفراً من المسلمين ليعلموهم شرائع الإسلام، ويفقهوهم في الدين ويقرؤوهم القرآن، فبعث الرسول معهم عشرة من أصحابه، وكان فيهم عاصم بن ثابت، وخبيب بن عدي، وزيد بن

---

(١) زاد المعاد: ٣/٢٤٣- ٢٤٤.

www.abulhasanalinadwi.org

الدثنة، حتى إذا كانوا على "الرجيع" وهو موضع بين "عسفان" ومكة، غدروا بهم، قالوا: لكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم، وقال بعض المسلمين: لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً، وقاتلوا القوم حتى قتلوا، وأما زيد بن الدثنة، وخبيب بن عدي، وعبد الله بن طارق، فأعطوا بأيديهم، فأسرهم المشركون، وقتل عبد الله بن طارق في الطريق، وأما خبيب وزيد، فباعوهما من قريش، وابتاع خبيباً حجير ابن أبي إهاب، ليقتله بأبيه إهاب، وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان ابن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف(١).

وأخرجوا زيداً من الحرم ليقتلوه، واجتمع رهط من قريش، فيهم أبو سفيان بن حرب، فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا زيد! أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك وأنك في أهلك، قال: ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه وتصيبه شوكة تؤذيه، وأني جالس في أهلي، قال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً، ثم قتل.

وأما خبيب، فلما جاؤوا به ليصلبوه، قال لهم: إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين، فافعلوا، قالوا: دونك: فاركع، فركع ركعتين، أتمهما وأحسنهما، ثم أقبل على القوم، فقال: أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طولت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة، وأنشد بيتين: [من الطويل]

فلست أبالي حين أقتل مسلماً
على أي شقّ كان في الله مصرعي

---

(١) زاد المعاد: ٣/٢٤٤- ٢٤٦.

www.abulhasanalinadwi.org

وذلك في ذات الإلـه وإن يشـأ
يبارك على أوصال شلو ممزع(١)

بئر معونة:

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم نفراً من أصحابه على طلب من عامر بن مالك ليدعوهم إلى الإسلام، وكانوا سبعين رجلاً من خيار المسلمين، فساروا حتى نزلوا ببئر معونة، واجتمع عليهم قبائل من بني سليم: "عُصَيَّة" و"رِعْل" و"ذَكْوان"، فغشوا القوم، وأحاطوا بهم في رحالهم، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم، ثم قاتلوا حتى قتلوا من عند آخرهم، إلا كعب بن زيد، عاش حتى قتل يوم الخندق شهيداً(٢).

قصة شهادة حرام بن ملحان:

وفي هذه السرية قتل حرام بن ملحان، قتله جبار بن سلمى، وكان سبب إسلامه كلمة قالها حرام، وهو يجود بنفسه، يقول جبار: إن مما دعاني إلى الإسلام أني طعنت رجلاً منهم يومئذ برمح بين كتفيه، فنظرت إلى سنان الرمح حين خرج من صدره فسمعته يقول: فزت ورب الكعبة! ما فاز؟! ألست قد قتلت الرجل؟! حتى سألت بعد ذلك عن قوله، فقالوا: للشهادة، فقلت: فاز لَعَمْرُ الله، فكان سبباً لإسلامه(٣).

إجلاء بني النضير:

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير ليستعينهم

---

(١) راجع للتفصيل سيرة ابن هشام: ٢ ص: ١٦٩- ١٧٦، ورواه البخاري في كتاب المغازي، باب التوحيد والجهاد، باختلاف يسير، وابن كثير: ٤/٦٤- ٦٩.

(٢) راجع البخاري، كتاب المغازي، ومسلم، وسيرة ابن هشام: ٢/١٨٣، والكامل في التاريخ: ٢/١٧١- ١٧٢.

(٣) انظر القصة في البخاري، باب غزوة الرجيع من كتاب المغازي، وابن هشام: ٢/ ١٨٧.

www.abulhasanalinadwi.org

في دية قتيلين من بني عامر، وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف، فرقوا في الكلام ووعدوا بخير، ولكنهم أضمروا الغدر والاغتيال، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعداً إلى جنب جدار من بيوتهم، فناجى بعضهم بعضاً: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه، فمن رجل يعلو هذا البيت، فيلقي عليه صخرة، فيريحنا منه؟. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من أصحابه، فيهم أبو بكر وعمر وعلي، رضي الله عنهم.

وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم، ثم سار بالناس، حتى نزل بهم، وذلك في شهر ربيع الأول سنة أربع للهجرة، فحاصرهم ست ليال، وقذف الله في قلوبهم الرعب، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم، ويكفّ عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح، فقبل، واحتملوا من أموالهم ما استقلت بها الإبل، وكان الرجل منهم يهدم بيته عن العتبة والأسكفة، فيضعه على ظهر بعيره، فينطلق به[1]، يقول الله تعالى في هذه الغزوة:

"هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ" [الحشر: ٢].

فمنهم من خرج إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام، وتخلص

---

[1] سيرة ابن هشام: ٢/١٩٠- ١٩١.

www.abulhasanalinadwi.org

المسلمون من وكر من أوكار المكيدة والمؤامرة والنفاق والخداع[١] "وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ" [الأحزاب: ٢٥].

وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم أموالهم إلى المهاجرين الأولين.

غزوة ذات الرقاع:

وفي سنة أربع للهجرة غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم نجداً، فسار حتى نزل نخلاً، وكان ستة رجال؛ منهم أبو موسى الأشعري، بينهم بعير، فنقبت أقدامهم، وسقطت أظفارها، فكانوا يلفون على أرجلهم الخرق، فسميت "غزوة ذات الرقاع"[٢].

وتقارب الناس، ولم يكن بينهم حرب، وقد خاف الناس بعضهم بعضاً، حتى صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس صلاة الخوف[٣].

من يمنعك مني:

ولما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه الغزوة، وقفل معه الناس أدركتهم القائلة في واد كثير العضاه، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتفرق الناس في العضاه، يستظلون الشجر، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت سمرة، فعلق بها سيفه.

قال جابر: فنمنا نومة، ثم إذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعونا، فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله صلى الله عليه

[١] الكامل في التاريخ: ٢/١٧٣، الروض الأنف: ٢/٢٤٠، البداية والنهاية: ٤/٧٤، السيرة الحلبية ٢/٥٥٩.

[٢] رواه البخاري عن طريق أبي موسى الأشعري باب "غزوة ذات الرقاع". وقد صرح الإمام البخاري أن غزوة ذات الرقاع كانت بعد خيبر، وقد رواه عن أبي موسى الأشعري(السيرة النبوية للشيخ الندوي، ص: ٢٤٥).

[٣] سيرة ابن هشام: ٢ / ٢٠٤.

www.abulhasanalinadwi.org

وسلم: إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده مصلتاً، فقال لي: من يمنعك مني؟، قلت: الله، فها هو جالس، ثم لم يعاقبه رسول الله صلى الله عليه وسلم(١).

غزوات لم يكن فيها قتال:

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعبان سنة أربع، إلى بدر لميعاد أبي سفيان، فنزله وأقام به ثماني ليال، ينتظر أبا سفيان، وخرج أبو سفيان، ثم بدا له الرجوع، وقال: إن عامكم هذا عام جدب، وإني راجع فارجعوا، وكفى الله المؤمنين القتال.

وغزا دومة الجندل، ولم يلق كيداً، فرجع إلى المدينة(٢).

غارة الأعداء على المدينة وغزوة الخندق (٥هـ):

لما باءت سائر التدابير والمخططات لضرب الإسلام وكسر شوكة المسلمين، بالفشل والإخفاق، اتحد يهود المدينة والمنافقون وقريش والقبائل المتحالفة معها، وحاكوا مؤامرة دقيقة، ورسموا خطة ماكرة، للانتقام من المسلمين، فاتفقت كلمتهم على إعداد قوة متحدة لضرب الإسلام في عقر داره المدينة، وقد لعب يهود المدينة وخاصة بنو قريظة الساكنة بها دوراً قيادياً في إسعار هذه الحرب، وتحريض القبائل العربية على حرب المسلمين، فبعثوا لهذا الغرض وفداً إلى قريش، فنجح الوفد نجاحاً كبيراً في مهمته حيث وافقت قريش التي شعرت بمرارة الحصار الاقتصادي المضروب عليها من قبل المسلمين؛ لكنها كانت تتهيب الحرب، وتزهد فيها؛ لأنها جربتها واكتوت بنارها، فزيّن لها الوفد اليهودي الخبيث، وهوّن أمرها وقال لها: أنا سنكون معكم حتى نستأصله أو نكسر قوته كسراً، فسرَّ ذلك قريش، ونشط أهلها لما

---

(١) رواه البخاري في كتاب المغازي، باب "غزوات ذات الرقاع".

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٠٩- ٢١٣.

www.abulhasanalinadwi.org

دعاهم إليه، واجتمعوا لذلك واتعدوا له، ثم خرج الوفد فجاء غطفان، ودعاهم إلى ذلك فوافقوا طمعاً في خيرات المدينة، وفي السلب والنهب، وتابعتهم قبائل أخرى، فتمَّت اتفاقية عسكرية؛ كان قريش واليهود وغطفان من أعضائها، وكان من أهم بنود اتفاقية الاتحاد العربي الوثني اليهودي٨ العسكري ضد المسلمين أن تشارك غطفان في جيش الاتحاد أو عسكر الحلفاء، بستة ألاف مقاتل، وأن يدفع اليهود لقبائل غطفان كل ثمر نخل خيبر سنة وحدة، وحشدت قريش أربعة آلاف مقاتل، وغطفان ستة آلاف فكانوا عشرة آلاف، وأستدت قيادة جيش الاتحاد إلى أبي سفيان(١).

فبعد إتمام الاتفاقية العسكرية خرجت قريش بأربعة آلاف مقاتل في ذي القعدة من السنة الخامسة للهجرة، إلى المدينة، وغطفان بستة آلاف مقاتل، ونزلت هذه الأعداد الهائلة بالقرب من المدينة، وقد كان بنو قريظة وعدوا جيش الاتحاد سراً بالنصر والمعونة من الداخل حسب الاستطاعة(٢).

وكان جيش المسلمين لا يزيد على ثلاثة آلاف مقاتل، وكان الوضع خطراً للغاية، فاستشار الرسول أصحابه وبحث معهم الموقف الخطير الناجم من مساعي اليهود الخبيثة، فأشار سلمان الفارسي بحفر الخندق حول المدينة، وقال: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا إذا كنا بأرض فارس، وتخوفنا الخيل، خندقنا علينا، فهل لك يا رسول الله أن تخندق؟ فأعجب الرسول برأيه، وقبله، فأمر الرسول بحفر الخندق في السهل الواقع شمال غرب المدينة(٣).

---

١ سيرة ابن هشام: ٢/٢١٤- ٢٢٠.

٢ زاد المعاد: ٣/٢٧٠.

٣ البداية والنهاية: ٤/٩٥، سيرة ابن هشام: ٢/٢٢٤.

www.abulhasanalinadwi.org

وكان اختيار ذلك الموقع موفقاً ؛ لأن شمال غرب المدينة هو الجانب المكشوف الذي يخاف منه اقتحام العدو ، أما الجوانب الأخرى ، فهي حصينة متينة ، تقف عقبة أمام أي هجوم يقوم به الأعداء ، فكانت الدور من ناحية الجنوب متلاصقة عالية كالسور المنيع ، وكانت حرة واقم من جهة الشرق ، وحرة الوبرة من جهة الغرب ، تقومان كحصن طبيعي ، وكانت آطام بني قريظة في الجنوب الشرقي كفيلة بتأمين ظهر المسلمين ، وكان بين الرسول وبين بني قريظة عهد أن لا يمالئوا عليه أحداً ، ولا يناصروا عدواً ضده ، فعمل المسلمون بهذا الرأي ، وشرعوا في حفر الخندق حتى تمَّ الحفر ، وقد شارك الرسول المسلمين في عمل الحفر ، فرفع معنويات أصحابه ، وأدخل السرور عليهم ؛ بمشاركته في العمل المضني ، فقد كان الجو بارداً ، والريح شديدة ، والحالة المعيشية صعبة ، بالإضافة إلى الخطر من غزو العدو الذي يتوقعونه في كل لحظة.

وأقبل جيش الاتحاد حتى نزل أمام المدينة في عشرة آلاف ، وخرج الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون في ثلاثة آلاف ، وبينه وبين العدو المباسل الخندق ، فحاصروا المسلمين ، وهم يعانون شدة البرد ، وقلة الزاد ، والمجازفة بالنفوس في حراسة أطراف الخندق ، واستمر الحصار ثلاثة أسابيع ، ووقوع الخطر كان بمرأى منهم ومسمع.

قد مرَّ المسلمون في هذه الغزوة بشدائد ومحن ، وبأحوال قاسية ، كان أدناها ليفُتَّ في عضد القوي ذي الهمة العالية ، ولكن واجهها المسلمون بصبر عظيم ، وثبات مثالي ، وهمة عالية ، أحاط المشركون بالمسلمين حتى جعلوهم في مثل الحصن من كتائبهم ، فحاصروهم قريباً من شهر ، وأخذوا بكل ناحية ، فاشتد الكرب على المسلمين أكثر مما سبق ، حتى بلغت القلوب الحناجر ، وزلزلوا زلزالاً شديداً ؛ امتحن

www.abulhasanalinadwi.org

إيمان الصحابة بالغيب أن الرسول لنبي صادق، ونصر الله معه، فلماذا هذه المحنة القاسية، وإمهال العدو الطاعن؟ ولماذا يطول الحصار الظالم؟ لعل الله تعالى أراد أن يمتحن مرة إيمان الصحابة وصدقهم فيه، ولذلك بلاهم الله ذهنياً وجسدياً، بإيقاعهم في أشد الظروف وأقسى الأحوال، فنجح المؤمنون في هذا الامتحان ونالوا رضى ربهم، فاستجاب الله دعاء نبيه وعباده المؤمنين، فأقبلت بشائر الفرج، فقد صرف الله الأعداء؛ بحوله وقوته، وزلزل أبدانهم، وقلوبهم، وشتت جمعهم بالخلاف، ثم أرسل الله عليهم الريح الباردة الشديدة في ليال شاتية شديدة البرد، فقلعت الأوتاد، وقطعت أطناب الفساطيط، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، وجالت الخيول بعضها في بعض، وألقى الله الرعب في قلوبهم، وأنزل جنوداً من عنده، وأعطى الله المؤمنين الفتح والغلبة، وحصل الانتصار بدون قتال، ورجع الأعداء خائبين وهم مذعورون(١).

وقد ذكر القرآن الكريم هذه المحنة التي مرَّ بها المؤمنون في غزوة الأحزاب فيقول: "إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا" [الأحزاب: ١٠- ١١].

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا "(الأحزاب: ٩).

" وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا "(الأحزاب: ٢٥)

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/٢٣٢.

www.abulhasanalinadwi.org

إن الله سبحانه وتعالى كان يقدر أن ينصر عباده المؤمنين بإرسال الريح الشديدة على العدو في أول الأمر، ولكن الله أراد أن يبلو المؤمنين؛ لأن سنة الله الماضية: "لا نصر إلا بعد شدة، ولا منحة إلا بعد محنة" فلما اقترب النصر زاد البلاء والامتحان، وقد زادت محنة المسلمين في الخندق عندما سمعوا نقض بني قريظة العهد، ومحاولة ضرب المسلمين من الخلف، فقضى المؤمنون ثلاثة أسابيع كاملة في المحنة الرهيبة، والكرب الشديد، وكان الرسول كقائد محنك يتابع الأوضاع والأخبار، حتى إذا اشتد الكرب وعظم البلاء واشتد الخوف، ووقع الصحابة في فزع وذعر وخوف، استشار الأنصار وقال: إن شئتم عقدت الصلح بيننا وبين غطفان على أن نعطيهم ثلث ثمار المدينة، لينفرج الكرب، ويزول البلاء، وترتفع المحنة، فأبوا أن يقبلوا هذا الصلح، وقالوا: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء على الشرك بالله، وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون منها ثمرة إلا قرى أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟ والله ما لنا لهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم، قال رسول الله، فأنتم وذلك(١).

فأبدى الصحابة رضي الله عنهم في هذه المدة العصيبة، الثبات النادر، والاستقامة المثالية، والصمود العجيب أمام العدو، والإباء والحمية حتى جاء الفرج، وزال الخطر، وفر العدو فراراً، فلم ترجع بعده قريش إلى حرب المسلمين.

أمر بني قريظة:

من بين كبرى القبائل العربية في المدينة كانت لقبيلتي الأوس

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/٢٢٣.

www.abulhasanalinadwi.org

والخزرج جولة وصولة، وكانتا متحاربتين فيما بينهما، ولكن لما دخلتا الإسلام اتحدتا بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم، وعلاوة على القبائل العربية الساكنة في المدينة، كانت فيها القبائل اليهودية من بني قريظة وبني النضير وبني قينقاع، وقد أبرم الرسول صلى الله عليه وسلم معها عهداً ألا يمالئوا عليه أحداً ولا يناصروا عدواً ضده، ولا يضر بعضهم مصالح بعض، ويتعاونوا فيما بينهم إذا شن العدو الأجنبي الهجوم على المدينة، ولكن هذه القبائل اليهودية نقضت العهود في أوقات متفرقة، وألحقوا بالمسلمين أضراراً بالغة، فكلما نقضت قبيلة يهودية العهد، اتخذ الرسول إجراءات ضدها، فلما نقض بنوالنضير العهد أجلوا من ا لمدينة، ولما رأى الرسول ما صدر من بني النضير من نقض للعهد ومخالفة للوعد، جمع بني قريظة وجدد العهد معهم وأخذ منهم الوعد بالوفاء به، وعاهدهم أن ينصر بعضهم بعضاً إذا اقتضت الحاجة إليه عندما دهم أحد المدينة.

ولكن حيي بن أخطب اليهودي – سيد بني النضير – نجح في حمل بني قريظة على نقض العهد، ومالأة قريش، بعد ما قال سيدهم كعب بن أسد القرظي: لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاء، فلم يزل حيي بكعب يراوده ويخاتله حتى نقض كعب بن أسد عهده، وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولما انتهى إلى رسول الله خبر نقضهم للعهد، بعث سعد بن معاذ سيد الأوس وهم حلفاء بني قريظة، وسعد بن عبادة سيد الخزرج في رجال من الأنصار ليتحققوا الخبر، فوجدوهم على شر مما بلغهم عنهم، ونالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: من رسول

www.abulhasanalinadwi.org

الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد(١).

وبدأ بنو قريظة بالفعل في التهيؤ والاستعداد لشن الهجوم على المسلمين، وهكذا حاولوا طعن جيش المسلمين من الخلف، وكان ذلك أشد وأنكى من الغارة السافرة المعلنة والحرب المباشرة في الميدان.

فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم نقض بني قريظة للعهد ومحاولاتهم للإفساد شعر بخطر عظيم من قبلهم في المستقبل، فرأى أنه لابد من معاقبتهم، فلما انصرف من الخندق راجعاً إلى المدينة ووضع السلاح أتى جبرئيل وقال: أو قد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: نعم، فقال جبرئيل: فما وضعت الملائكة السلاح بعد، إن الله عز وجل يأمرك بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم، فمزلزل بهم، فأمر الرسول أصحابه بأن لا يضعوا السلاح، ويسيروا إلى بني قريظة، ولا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة، وإنى عامد إليهم.

ونزل الرسول صلى الله عليه وسلم ببني قريظة فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم بالحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب.

وبعثت بنو قريظة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أبعث إلينا أبا لبابة أخا بني عمرو بن عوف – وكانوا حلفاء الأوس – لنستشيره في أمرنا، فأرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال، وجهش إليه النساء والصبيان، يبكون في وجهه، فرقّ لهم، وقالوا له: يا أبا لبابة! أ ترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح.

قال أبو لبابة: فوالله مازالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني خنت الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ثم انطلق أبو لبابة على

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/٢٢٠.

www.abulhasanalinadwi.org

وجهه، ولم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده، وقال: لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليَّ مما صنعت، وعاهدت الله ألا أطأ بني قريظة أبداً، وألا أرى من بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً، ولما تاب الله عليه قال:

"وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" [التوبة: ١٠٢].

فثار الناس إليه ليطلقوه فقال: لا، والله، حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يطلقني بيده، ومرّ عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم خارجاً إلى صلاة الصبح، فأطلقه وقد أقام مرتبطاً بالجذع نحو عشرين ليلة؛ تأتيه امرأته في كل وقت صلاة، فتحله للصلاة، ثم يعود فيرتبط بالجذع(١).

ابتلاء سعد بن معاذ

ولما اشتد الحصار، وعظم البلاء على بني قريظة أرادوا الاستسلام، والنزول على أن يحكم الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم سعد بن معاذ، ونزلوا على حكمه، وكان الحلف بينهم وبين قومه الأوس، فرأوا بسببه أنه سيرأف بهم لأن عقاب الخيانة والغدر في الشريعة اليهودية كان شديداً وقاسياً وأن تقتل المقاتلة، فلذلك طلبوا من الرسول أن يحكم فيهم سعد بن معاذ، ليرأف بهم، وقبل الرسول طلبهم، فجيء بسعد محمولاً؛ لأنه كان قد أصابه سهم في ذراعه يوم الخندق، فقضى وفق الشريعة اليهودية، وقال: إني أحكم فيهم أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذاري والنساء، فأقره" وقال: "لقد حكمت فيهم بحكم الله" (٢).

---

١ سيرة ابن هشام: ٢/٢٣٦- ٢٣٨.

٢ - سيرة ابن هشام: ٢/٢٣٩، والبخاري: ٣٠٣٤و: ٤١٢٢، ومسلم: ٦٤/١٧٦٨

www.abulhasanalinadwi.org

وقد وافق هذا الحكم الذي قضى به سعد، قانون الحرب في شريعة بني إسرائيل [١]. فنفذ في بني قريظة حكم سعد بن معاذ، وخلت المدينة من أوكار المؤامرات والمحاربة اليهودية، وأمن المسلمون من الطعن من الخلف ومن نشر الفوضى في الداخل، فصارت المدينة خالصة للمسلمين، وخلت الجبهة الداخلية من عنصر خطر، لديه القدرة على المؤامرة والكيد والمكر[٢].

وكان سعد بن معاذ مصاباً بالجرح عند ما حكم في بني قريظة، لم يبرأ منه حتى فاضت روحه، فأصيب المسلمون بوفاته بخسارة عظيمة، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يذكر الدرجة العالية والمثوبة الكريمة التي نالها سعد عند ربه: "والذي نفسي بيده لقد استبشرت الملائكة بروح سعد، واهتزّ له العرش"[٣].

أمر بني المصطلق:

بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعبان من السنة السادسة للهجرة أن بني المصطلق وهم فرع من خزاعة، يجمعون له، بعث زيد بن خصيب للاستطلاع والتأكد من الخبر، فذهب واستطلع ورجع وصدّق، فخرج الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم حتى لقيهم على ماء لهم، يقال له: "المريسيع" وكان قائدهم حارث بن أبي ضرار رئيس بني المصطلق، فتزاحمت الناس واقتتلوا فانهزم بنو المصطلق[٤].

---

[١] - الكتاب المقدس، مطبعة أوكسفورد ١٨٧٢م.

[٢] - انظر: البدايه والنهاية: ٤/١١٦ـ ١٢٦، الكامل في التاريخ: ٢/١٨٥ وسيرة النبي للعلامة شبلي النعماني: ١/٢٦٠ـ٢٦٣، والسيرة النبوية للشيخ أبي الحسن الندوي ٢٥٩ـ٢٦٤.

[٣] - سيرة ابن هشام: ٢/٢٥١.

[٤] - سيرة ابن هشام: ٢/٢٩٠، البداية والنهاية: ٤/١٥٦.

www.abulhasanalinadwi.org

تزوُّجه صلى الله عليه وسلم من جويرية بنت الحارث:

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم أصاب منهم سبياً كثيراً، وكانت فيمن أصيب يومئذ من السبايا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، فأعتق جويرية بنت رئيس بني المصطلق نظراً إلى ما لحق بهم من هوان وضعف ومشقة، وأحسن إليهم بإعتاقها، ثم أنعم عليهم بأن تزوج بها، فلمّا خرج الخبر إلى الناس أن رسول الله " قد تزوج جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، قالوا: أصهار الرسول، وأرسلوا ما بأيديهم من سباياهم وأموالهم، فأسلم بنو المصطلق جميعاً بسبب هذا التكريم والسلوك الحسن. (١).

إفساد المنافقين وقصة الإفك:

وقد خرج في هذه الغزوة أكبر عدد من المنافقين الذين كان في قلوبهم مرض ونفاق مكنون، ويعدون كمسلمين، واجتمعوا فيها اجتماعاً لم يجتمعوا مثله، ولما عرف الأعداء - وكان فيهم هؤلاء المنافقون المختفون - أن المسلمين لن يغلبوا في ساحة القتال بكثرة العدد والعُدد، اعتمدوا أخيراً على إثارة الفتن الداخلية، والتحريش والتشويش بين المسلمين بإحياء النعرة القومية العربية، والإساءة إلى مقام الرسول صلى الله عليه وسلم، وتشكيك المسلمين فيه، ونشر المقالة حول عرضه وكرامته، وأحبِّ أزواجه إليه؛ ليتزلزل كيان المجتمع الإسلامي المتضامن المثالي الوحيد، ويفقد بعضهم الثقة ببعض، وتزول ثقة المسلمين بأهل بيت النبوة، فإذا زالت الثقة بأهل بيت النبوة زالت من الجميع.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج، أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها، خرج بها الرسول صلى الله عليه وسلم

---

١ - سيرة ابن هشام: ٢/٢٩٥.

www.abulhasanalinadwi.org

معه، فأقرع بينهن في غزوة بني المصطلق، فخرج سهم عائشة، وخرجت معه بعد ما نزل الحجاب، فإنها تحمل في الهودج وتنزل فيه، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغزوة توجه قافلاً إلى المدينة حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلاً فبات به بعض الليل، ثم أذن بالرحيل، وخرجت عائشة لبعض حاجتها، وفي عنقها عقد لها فانسلّ من حيث لا تشعر، فلمّا رجعت إلى الرحل فقدت العقد، فذهبت تلتمسه، وحبسها البحث عنه، وقد أخذ الناس في الرحيل، فجاء الرهط الذين كانوا يرحّلونها، فاحتملوا هودجَها، فرحلوه على البعير الذي كانت تركب عليه، وهم يظنون أنها فيه، وكانت فتاة صغيرة السن، خفيفة اللحم، فلم ينتبهوا لخفتها، ولم يشكوا أنها فيه، ورجعت عائشة إلى العسكر، وما فيه داع ولا مجيب، وقد انطلق الناس، فتلففت بجلبابها واضطجعت في مكانها، وظنّت أنهم سيفقدونها فيرجعون إليها، وبينما هي كذلك إذ مرّ بها صفوان بن المعطّل السُّلمي، وقد كان تخلّف عن العسكر لبعض شأنه، فلمّا رآها استرجع وقال: ظيعنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قرَّب البعير واستأخر، فركبت وأخذ برأس البعير وانطلق سريعاً يطلب الناس فأدركهم، وقد نزلوا، ولحقت بالركب.

هذه هي القصة فحسب، لا تسترعي انتباهاً، ولكن المنافقين استغلوها أسوأ استغلال؛ لإثارة الفتنة، فاتهموا عائشة العفيفة رضي الله عنها، وقالوا فيها أقاويل من غير تمحيص، وكانت أعظم مؤامرة حاكها المنافقون لزعزعة الإيمان والثقة، وقد تجلت هذه السياسة الماكرة في غزوة بني المصطلق أكثر مما تجلّى في أي غزوة، وتسمى هذه الحادثة قصة الإفك، وأشاعها المنافقون بعد عودتهم إلى المدينة، وتحدثوا بها

www.abulhasanalinadwi.org

كثيراً، وتورط في هذه المكيدة الماكرة بضع من المسلمين السذج الذين أصبحوا فريسة التشهي للحديث والترديد بكل ما قيل من غير تحقيق.

وقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الوضع المخزي القاسي أسابيع حتى أنزل الله براءتها من فوق سبع سموات، وشدّد النكير على الذين سعوا لإثارة الفتنة والإفساد باتهام عائشة العفيفة، وردّدت الآيات القرآنية هذه التهمة الفاحشة، وعوقب المتورطون في هذه المؤامرة الماكرة الخبيثة، وأقيم عليهم حدّ القذف، كما ورد في صحيح مسلم، والترمذي، وأبي داود، وكاد أن ينجح المنافقون قبل نزول البراءة من السماء، في مؤامرتهم الخبيثة، والتشكيك في المقام العالي لأهل بيت النبوة، ولكن أنزل الله تعالى من فوق سبع سموات براءة عائشة العفيفة، فانطفأت نار الفتنة، وانحسمت مادة الفساد، وخزي الشيطان، فقال عزوجل: " إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ، لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ" [سورة النور: ١١ـ ١٢].

مخرج الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مكة لأداء العمرة وصلح الحديبية:

قد تجمَّع في غزوة الأحزاب التي يقال لها غزوة الخندق أيضاً، كفار مكة ويهود المدينة والمنافقون، واتحدوا ضد المسلمين، ولكن فشلت خطتهم، وباءت مؤامرتهم بالفشل، ورجعوا خائبين صاغرين، وعرفوا قوة المسلمين وقدرتهم على الهجوم وردّ كيد الأعداء في نحورهم، فلذلك لم يستعدوا للهجوم بنطاق واسع، ولم يرسموا خطة كبيرة سوى تحرشات أو إجراءات محدودة من قبلهم، وكلما علم

www.abulhasanalinadwi.org

المسلمون وقوع الشر من قبل الأعداء في مكان، أو تجمُّعهم، خرجوا إليه لردّ الكيد ومنع الفتنة، فتجلى أمام الأعداء جلياً واضحاً أن حصلت للمسلمين القدرة على الهجوم أكثر من ذي قبل، وتغيّرت موازين القوى، وهم الآن في وضع القوة والشوكة والإقدام والزحف.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رأى في المنام أنه دخل مكة، وطاف بالبيت (١) وكانت هذه الرؤيا صادقة، ولكن لم يكن تحديد للزمان وتعيين للشهر والعام، فبشر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه، ففرحوا بها فرحاً عظيماً، واستبشروا به، وقد طال عهدهم بمكة والكعبة التي رضعوا بلبان حبها، ودانوا بتعظيمها، وما زادهم الإسلام إلا ارتباطاً بها وشوقاً إليها، وقد تاقت نفوسهم إلى الطواف حولها، وتطلعت إليه تطلعاً شديداً.

وكان المهاجرون أشدهم حنيناً إلى مكة؛ فقد ولدوا ونشأوا فيها، وأحبوها حباً شديداً، كأنه أشربت قلوبهم حبها، وقد حيل بينهم وبينها، فلمّا أخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك توقعوا أن هذه الرؤيا تتفسّر هذا العام، وقد صادف كل ذلك رغبة شديدة في نفوسهم، وأثار كامن الشوق ودفين الحب، فتهيؤوا للخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يتخلف منهم إلا نادراً، ولم يرد الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا السفر إلا أداء العمرة وزيارة الكعبة، ولا القتال أو المواجهة، وكان القيام بأداء العمرة بمكة، مسموحاً به لكل زائر بنية العمرة، وكان لا يمنع أحد من أداء العمرة، ولكن المسلمين وحدهم منعوا من ذلك، وحيل بينهم وبينها؛ لأن قريش كانت تناصب لهم العداء، وتضمر في قلبها الحقد عليهم، فتصدّهم من زيارة مكة وأداء

---

١ - السيرة الحلبية: ٦٨٨/٢

www.abulhasanalinadwi.org

العمرة، ولكن المسلمين أصبحوا الآن في وضع قوي لا تستطيع قريش أن تصدهم معه، فعلى كل حال خرج الرسول صلى الله عليه وسلم من المدينة في ذي القعدة سنة ست معتمراً ـ لا يريد حرباً ـ إلى مكة، ومعه ألف وخمسمائة، وساق معه الهدي، وأحرم هو والمسلمون معه بالعمرة؛ ليعلم الناس أنهم إنما خرجوا زائرين للبيت، معظمين له (١).

فلما كانوا بالحديبية بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عيناً له من خزاعة، يخبره عن قريش، حتى إذا كان قريباً من "عسفان" أتاه عينه فقال: إني تركت كعب بن لؤي قد جمعوا لك الأحابيش، وجمعوا لك جموعاً، وهم مقاتلوك وصادُّوك عن البيت، وسار النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها، بركت راحلته، فقالوا: "خلأت القصواء، خلأت القصوء" فقال: "ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل(٢)، والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله، ويسألونني فيها صلة الرحم، إلا أعطيتهم إياها" ثم زجرها، فوثبت به، فعدل، حتى نزل بأقصى الحديبية، على ثمد قليل الماء، وشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العطش، فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فما زال يجيش لهم بالريّ حتى صدروا عنه (٣).

فزع قريش من دخول المسلمين في مكة:

وفزعت قريش لنزول رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم، فأحب أن يبعث إليهم رجلاً من أصحابه، فدعا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ليبعثه إليهم، فقال: يا رسول الله! ليس بمكة أحد من

١ - سيرة ابن هشام: ٣٠٨/٢، وزاد المعاد: ٢٨٨/٣.

٢ - إشارة إلى فيل أبرهة الذي حبسه الله عن الدخول في مكة.

٣ - زاد المعاد: ٢٩٠/٣.

www.abulhasanalinadwi.org

بني عدي بن كعب يغضب لي إن أوذيت، فأرسل عثمان بن عفان، فإن عشيرته بها، وإنه مبلغ ما أردت، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان وأرسله إلى قريش، وقال: أخبرهم أنّا لم نأت لقتال، وإنما جئنا عُمّاراً، وادعهم إلى الإسلام، وأمره أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات، فيدخل عليهم، ويبشرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله عزوجل مُظْهِرٌ دينه حتى لا يستخفي فيها بالإيمان (١).

امتحان الحب والوفاء:

وانطلق عثمان حتى جاء مكة، وأتى أبا سفيان، وعظماء قريش، وبلغهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أرسله به (٢).

وقالوا حين فرغ عن رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، إن شئت أن تطوف البيت فطُفْ، فقال: ما كنتُ لأفعلَ حتى يطوفَ به رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣).

بيعة الرضوان:

بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عثمان قد قُتل، فدعا إلى البيعة، فسار المسلمون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تحت الشجرة فبايعوه ألا يفروا، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد نفسه، وقال: هذه عن عثمان (٤)، فكانت بيعة الرضوان تحت سمرة في الحديبية التي أنزل الله عنها: "لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا" [الفتح: ١٨].

---

١ - زاد المعاد: ٣/٢٩٠

٢ - نفس المصدر: ٣/٢٩١.

٣ - سيرة ابن هشام: ٢/٣١٥

٤ - زاد المعاد: ٣/٢٩١.

www.abulhasanalinadwi.org

وأحب الله هذه البيعة وجعلها علامة قوة الإيمان .

موقف المسلمين السلمي ورضاهم بالمصالحة:

فبينما هم في هذه الوضع المعقد إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في رجال من خزاعة، فكلمه، وسأله ما الذي جاء به ؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا لم نجيء لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وأن قريشاً قد نهكتهم الحرب، وأضرت بهم، فإن شاؤوا ماددتهم، ويخلوا بيني وبين الناس، وإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس، فعلوا، وإلا فقد جمُّوا، وإن أبوا إلا القتال، فو الذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري حتى تنفرد سالفتي، أو لينفذن الله أمره.

فلما بلغهم بديل ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ([1]) قال عروة بن مسعود الثقفي : إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد، فاقبلوها، ودعوني آته، فقالوا : ائته، وجاء عروة بن مسعود الثقفي، فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجعل عروة يرمق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فما تنخّم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها جلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له، فرجع عروة إلى أصحابه وقال : أي قوم! والله لقد وفدت على الملوك : على كسرى وقيصر والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً يعظّمه أصحابُه ما يعظّم أصحابُ محمّدٍ محمّداً، ووصف لهم ما رآه، (وقال) : قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ([2]).

معاهدة وصلح:

وجاء رجل من بني كنانة، ورجل اسمه مكرز بن حفص،

---

[1] - زاد المعاد : ٢٩٢/٣.

[2] - زاد المعاد : ج ٣، ص : ٢٩٣.

www.abulhasanalinadwi.org

وأخبرا قريشاً بما رأيا، ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلاً قال: أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل، وقال: اكتب بيننا وبينكم كتاباً (١).

حكمة وحلم وتنازل:

فدعا الكاتب ـ وهو علي بن أبي طالب ـ فقال: اكتب: "بسم الله الرحمن الرحيم".

فقال سهيل: أما "الرحمن" فو الله ما ندري ما هو، ولكن اكتب "باسمك اللهم" كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها، إلا "بسم الله الرحمن الرحيم"، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اكتب "باسمك اللهم".

ثم قال: اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال سهيل: "والله لو كنا نعلم أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله".

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إني رسول الله وإن كذبتموني، اكتب محمد بن عبد الله" فأمر علياً أن يمحوها، فقال عليٌّ: لا، والله لا أمحوها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أرني مكانها، فأراه مكانها، فمحاها (٢).

صلح وامتحان:

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "هذا ما قاضى عليه رسول الله

---

١ - سيرة ابن هشام: ٢/ ٣١٦، ورواه البخاري في صحيحه باختلاف يسير؛ راجع كتاب المغازي باب عمرة القضاء.

٢ - صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية، وزاد المعاد: ٣/ ٢٩٤.

www.abulhasanalinadwi.org

صلى الله عليه وسلم على أن تخلو بيننا وبين البيت، فنطوف به".

فقال سهيل: والله لا، تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب.

قال سهيل: وعلى ألا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، فقال المسلمون: سبحان الله! كيف يُرَدُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟!

وبينما هم كذلك إذ جاء جندل بن سهيل، يرسف في قيوده، خرج من أسفل مكة، حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين.

قال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه على أن تردَّه.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: إنا لم نقض الكتاب بعد، قال: فو الله إذاً لا أقاضيك على شيء أبداً، قال النبي صلى الله عليه وسلم: فأجزه لي.

قال: ما أنا بمجيزه لك، قال: بلى، فافعل، قال: ما أنا بفاعل، قال أبو جندل: يا معشر المسلمين! أُرَدُّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً، ألا ترون ما لقيت؟ وكان قد عُذّب في الله عذاباً شديداً (١)، وردّه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد اصطلح الفريقان على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض، وعلى أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليِّه ردَّه عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد، لم يردوه عليه، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن

---

١ - سيرة ابن هشام ٣١٨/٢، وزاد المعاد: ٣/ص: ٢٩٥، ورواه البيخاري في الجامع الصحيح في باب "الشروط في الجهاد" ومسند أحمد: ٣٢٥/٤.

www.abulhasanalinadwi.org

في عقد قريش وعهدهم [١].

بلاء المسلمين في الصلح:

فلما رأى المسلمون ما رأوه من الصلح والرجوع، وما تحمل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفسه، دخل على الناس من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا يهلكون، ووقع ذلك من نفوسهم كل موقع، حتى جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله! ألست نبي الله حقاً؟ قال: بلي، قال: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، فقال: علام نعطى الدنيئة في ديننا إذا؟ فقال: إني رسول الله، وهو ناصري، ولست أعصيه، قال: أو لست كنت تحدثنا أن سنأتي البيت ونطوف به، قال: بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه العام؟ قال: لا، قال فإنك آتيه ومطوف به، قال: فأتيت أبا بكر رضي الله عنهما وقلت له ما قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ألم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا أن سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قال: لا، قال فإنك آتيه ومطوف به[٢]، (وزاد): فاستمسك بغرزه حتى تموت، فوالله إنه لعلى الحق.

وكان عمر رضي الله عنه يتأسف على فعله هذا، ويخزه ضميره ويلومه لماذا تجرأت على مثل ذلك، فعمل لذلك أعمالاً ليتدارك ما صدر عنه من خطأ حسب زعمه، كأن في ذهنه كانت آية جاء فيها الاستسلام الكامل لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم وعدم التردُّد في قبوله، ولو كان في القلب: " فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ

---

[١] - سيرة ابن هشام: ٢/٣١٧-٣١٨، وزاد المعاد: ٢/٣٠٠

[٢] - الجامع الصحيح للبخاري، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، وزاد المعاد: ٣/٢٩٥.

www.abulhasanalinadwi.org

ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا " (النساء: ٦٥). وكان هذا شأن سائر الصحابة، فكانوا يؤمنون بأن قول النبي وأمره هو أمر الله، والمطلوب من المسلمين إلى يوم القيامة هو التسليم الكامل لقضاء الرسول صلى الله عليه وسلم وحكمه.

فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قضية الكتاب قال: قوموا فانحروا هديكم، ثم حلقوا رؤسكم، فلم يدركوا حقيقة الأمر، ماذا يفعل، وكيف، ولذلك لم يفهموا أمر رسولهم، وكان لا تذبح الهدى في الطريق قبل الوصول إلى مكة، فذلك ما قام منهم رجل واحد حتى قال الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك ثلاث مرات، ولكن لم يقم منهم أحد، فأهمَّه ذلك، فقام ودخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا رسول الله: أتحب ذلك؟ ليس عصيانهم لك، لعلّهم لم يفهموا كلامك لشدة الانفعال، اخرج ثم لا تكلّم أحداً منهم كلمة، حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فقام فخرج، فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك؛ نحر بدنه، ودعا حالقه فحلّقه، فعظم ذلك على المسلمين؛ لأنهم خرجوا وهم لا يشكون في دخول مكة والعمرة، ولم يخطر ببالهم أنه سيقع ما يكون مخالفاً لرغبتهم، ويكون فيه إهانة لعزّهم، ولكن لما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نحر وحلّق قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً[1] ولم يكونوا ليعملوا عملاً خلاف عمل رسولهم.

---

[1] - زاد المعاد ٢٩٥/٣ وانظر: سيرة ابن هشام: ٣٠٨/٢ - ٣٢٠، والبداية والنهاية: ١٦٤/٤، الكامل في التاريخ: ٢٠٠/٢ وصحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد.

www.abulhasanalinadwi.org

صلح مهين أم فتح مبين :

ثم رجع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وفي مرجعه أنزل الله تعالى: " إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا، لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا" [سورة الفتح: ١-٣] .

قال عمر رضي الله عنه: أو فتح هو يا رسول الله ؟ قال: نعم (١).

خيبة بالصورة وانتصار بالحقيقة:

ولما رجع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة: جاءه أبو بصير رجل من قريش مسلماً، فأرسلوا في طلبه رجلين، وقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به حتى إذا بلغوا ذي الحليفية فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا جيداً، فاستله الآخر، فقال: أجل: والله إنه لجيّد، لقد جربت به ثم جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه به حتى برد، وفرّ الآخر، يعدو حتى بلغ المدينة، فدخل المسجد، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : حين رآه، لقد رأى هذا ذعراً، فلما انتهى إلى النبي قال: قتل والله صاحبي، وإني لمقتول، فجاء أبو بصير فقال: يا نبي الله قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم، فأنجاني الله منهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ويل أمّه مسعر حرب، لو كان له أحد، فلمّا سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، وينفلت منهم أبوجندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فلا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فو الله لا يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا

١ - صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية .

www.abulhasanalinadwi.org

أموالهم[١]، فأرسلت قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم: فمن أتاه منهم فهو آمن[٢].

فوائد الصلح وأبعاده:

دلت الحوادث الأخيرة على أن صلح الحديبية الذي تنازل فيه الرسول صلى الله عليه وسلم لقبول كل ما ألحت عليه قريش، ورأوا فيه انتصاراً لهم ومكسباً، وتحمله المسلمون في قوة إيمانهم، وشدة طاعتهم للرسول، كان فتح باباً جديداً لانتصار الإسلام وانتشاره في جزيرة العرب بسرعة لم تسبق، وكان باباً إلى فتح مكة، كان من أفضل ثمار هذا الصلح توفُّر الفرصة لنشر الإسلام، وتعريف الناس به، كما أتاح هذا الصلح الفرصة للمسلمين والمشركين على السواء لأن يختلطوا بعضهم ببعض؛ فيطلع المشركون على محاسن الإسلام، وما صنع من عجائب ومعجزات في تهذيب الأخلاق وتزكية النفوس، وتطهير القلوب والعقول من ألواث الشرك والوثنية، والعداء والخصومة، والضراوة بالدماء، والولوع بالحرب في بني جلدتهم الذين لا يختلفون عنهم في نسب وبيئة ولغة، ففي الهدنة قام المسلمون بدعوة الإسلام في ظل الأمن والسلام، وفي جوّ من الهدوء والسكينة، مما أدى إلى دخول كثير من القبائل في الإسلام، فما فتح في الإسلام فتح قبل الصلح كان أعظم منه، فلم يمض على الصلح عام كامل حتى دخل في الإسلام من العرب أكثر من الذين دخلوا فيه خلال خمس عشرة سنة؛ لأنه لما كانت الهدنة، ووضعت الحرب أوزارها، وأمن الناس بعضهم بعضاً والتقوا بحرية فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام وهو يعقل شيئا إلا دخل فيه.

---

[١] - سيرة ابن هشام: ٣٢٤/٢.

[٢] - زاد المعاد: ٢٩٦/٣، صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد.

www.abulhasanalinadwi.org

هذا، وفي جانب لم يمض على هذا الصلح أكثر من السنتين حتى عجز أهل قريش من الالتزام بشروط الصلح والمعاهدة، وارتكبوا مخالفة صارخة لبنود المعاهدة، فأعانت قريش حليفها بني بكر بالسلاح ضد خزاعة حليفة المسلمين، وكانت هذه الإعانة مخالفة للمعاهدة التي تمت بينها وبين المسلمين، فناشدت خزاعة المسلمين الحلف الذي كان بينها وبينهم، وسألتهم النصر والنجدة وأخبرتهم بأن قريش أخلفتهم الموعد، ونقضت ميثاقهم المؤكد (١) فلما سمع الرسول صلى الله عليه وسلم الخبر أمر بالخروج إلى مكة، فخرجوا إلى مكة في عدد أكبر ألقى الرعب في قلوب أهل مكة فخارت قواهم واستكانت هممهم، ولم يجدوا فيهم ما يقيمُهم في وجه المسلمين، ففتحت مكة بغير قتال، وبذلك سيطر المسلمون على مركز الجزيرة العربية كلها.

وكذلك كانت قد أتيحت في الهدنة الفرصة السانحة لدعوة ملوك العالم ككسرى وقيصر والمقوقس والنجاشي وأمراء العرب، وكتب الرسول إليهم رسائل دعوية؛ مما زاد في قوة الإسلام وهيبته على النفوس وقد صدق الله العظيم.

" وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ" [سورة البقرة: ٢١٦].

وبهذا الطريق أتيحت للناس فرصة للتعرف على الإسلام، والاطلاع على محاسنه، فزاد الإقبال عليه، ودخل الناس فيه أفواجاً، ولذلك قرر الله الصلح فتحاً مبيناً، كما سنحت للمسلمين في السنة التالية (السنة السابعة من الهجرة) فرصة للخروج إلى مكة وزيارة بيت الله والطواف به والعمرة، كما تمّ الاتفاق مع قريش في الصلح، وما

---

١ - زاد المعاد: ٣/٣٩٥-٣٩٦، تاريخ الطبري: ٣/٤٣-٤٥.

www.abulhasanalinadwi.org

اعترض كفار مكة طريق المسلمين، وتحققت أمنيتهم للزيارة والعمرة بدون مواجهة، وفي جانب آخر تجلّى أمام الكفار موقف المسلمين الميال إلى الأمن والسلام، وشاهدوا بأم أعينهم أن المسلمين ليسوا سلميين فحسب؛ بل إنّهم قمعوا مشاعرهم ومقتضيات حميتهم من أجل حبّهم هذا للسلم والسلام والخير للإنسانية.

وكان من فوائد الموقف المسالم الذي وقفه رسول الله صلى الله عليه وسلم وما بدا منه من زهد في الحرب، ورغبة في الصلح، وحلم وأناة، أن تغيرت نظرة القبائل العربية التي لم تدخل في الإسلام بعد، إلى الدين الجديد، والداعي إليه، ونشأ في نفوسهم إجلال للإسلام وتقدير له لم يكن من قبل، وكانت فائدة دعوية لا يستهان بقيمتها، وإن لم تكن مقصودة، سعى إليها الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون.

إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص:

وكان صلح الحديبية فتحاً للقلوب، دخل في الإسلام خالد بن الوليد الذي كان قائد الفرسان لقريش، وبطل معارك عظيمة، وقد سمّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم "سيف الله" وهوالذي أبلى في الله بلاء حسناً، وفتح الله على يده الشام.

ودخل في الإسلام عمرو بن العاص ـ أحد كبار القادة والأمراء وفاتح مصر من بعد ـ وكانا قد قدما المدينة بعد صلح الحديبية، فأسلما وحسن إسلامهما [١]. وبإسلامهما شعر المسلمون بالقوة، ونذرا حياتهما لخدمة الإسلام وقاما بمآثر وأعمال جليلة خالدة تستحق أن تكتب بمداد من النور، وقد امتاز خالد بن الوليد بحنكته العسكرية كما امتاز عمرو بن العاص بفراسته السياسية، وساهما مساهمة كبيرة في

[١] - راجع سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٧٧ـ ٢٧٨.

www.abulhasanalinadwi.org

إرساء قواعد الإسلام وتوطيد أركانه في الجزيرة العربية وخارجها .

دعوة الملوك والأمراء إلى الإسلام:

بفضل احتكاك المسلمين بغيرهم من الكفار والمشركين بعد الصلح تعبَّد طبيعياً الطريق للقيام بالدعوة إلى الإسلام بيسر وسهولة ، كما سنحت للناس الفرصة لفهم الإسلام ، وزادت فيهم الرغبة في الاطلاع على محاسنه ، وعمَّ في الناس تقدير واعتراف بمكانة الإسلام وأهميته ، نظراً إلى قوته المتنامية وغلبته المتصاعدة ، وتأثيره الخلاب على النفوس والأذهان ، فاستفاد الرسول صلى الله عليه وسلم بجو الهدوء والأمن القائم بعد الصلح والهدنة ، وتوسَّع نطاق الدعوة إلى الحق ، كما حصل له اليسر والسهولة في بذل المساعي لإرسال رسالة الإسلام إلى مناطق بعيدة ، إلى خارج الجزيرة العربية ، فسعى لتبليغ الرسالة الإلهية الحقة إلى جميع الطبقات الإنسانية ؛ من الضعفاء إلى الأقوياء ، ومن أمراء العرب إلى ملوك العجم وشعوبهم ، فأرسل رسله إلى من لم يذهب إليهم بنفسه ، فقام رسله بدعوتهم إلى الإسلام واعتناقه ، مراعين مناصبهم ومكانتهم العالية ؛ بحكمة وموعظة حسنة ، وكتب إلى حكام المناطق المجاورة رسائل ، دعاهم فيها إلى أن يقبلوا الدين الحق ، ويحتموا بحمى الإسلام ، ويتبعوا سنته ومنهجه السليم المستقيم للحياة ، وينفذوا الدين الصحيح لينالوا الفوز في الآخرة بالإضافة إلى الفلاح في الدنيا .

فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم في أواخر السنة السادسة أو أوائل السنة السابعة من الهجرة إلى عدد من أمراء أطراف الجزيرة العربية ، وإلى ملوك العالم المعاصر خارج الجزيرة العربية ، رسائل ذهب بها رسله المعينون إلى الجهات المعينة ، وقيل له : إنهم لا يقبلون كتاباً إلا بخاتم ، فصاغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتماً حلقته فضة ، ونقش

www.abulhasanalinadwi.org

فيه " محمد رسول الله" (١) كان اسم "محمد" المبارك في أسفله، وفوقه "رسول" وفوقه اسم الجلالة "الله" وأرسل الرسائل إلى الملوك. بعث رسالة إلى ملك الحبشة، ذهب بها إليه عمرو بن الضمري، وكتاباً إلى ملك الروم مع عبد الله بن حذافة السهمي، وكتاباً إلى ملك الإسكندرية مع حاطب بن بلتعة، وكتاباً إلى الملك الغساني حارث بن شمر مع شجاع بن وهب الأسدي، وكتاباً إلى ملك اليمامة مع سليط بن عمر بن عبد شمس.

ومن هؤلاء الملوك والحكام الذين بعث إليهم الرسائل اهتمّ ملك الحبشة النجاشي، وهرقل قيصر الروم بالكتاب، وألقيا إليه بالاً، وأبديا تقديرهما له، وأكرما المبعوثين، وأحسنا وفادتهما، وأما ملك إيران كسرى فقد أساء إلى كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم ومزَّقه؛ بل بلغ به الوقاحة إلى أن أمر عامله باليمن أن يبعث رجلاً إلى محمد صلى الله عليه وسلم لتأنيبه، فعاقبه الله على إساءته إلى كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم أن سلّط عليه ولده، فثار على والده وسيطر على الحكم واستبدَّ به.

وكذلك أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإضافة هؤلاء الملوك، رسائل إلى أمراء وحكام العرب على حدة، وأتت نتائجها حسنة، فبعث كتاباً إلى ملك العمان مع عمرو بن العاص، وجاءت نتيجته مشجعة، فقبل الملك الحق، وأرسل كتاباً إلى ملك اليمن حارث عبد كلال مع معاوية المخزومي، فاتبع الحق ولو بعد مدة، ومع ذلك وجه إلى اليمن معاذ بن جبل ليقوم فيه بالدعوة إلى الله، وتكللت مساعيه الدعوية بالنجاح، وأسلم أهله، ثم أرسل علي بن أبي طالب

١ - رواه البخاري في كتاب الجهاد، باب دعوة اليهود والنصارى.

www.abulhasanalinadwi.org

إليه، فاهتدى بيده أناس كثيرون من سكانه، ووجه الرسول رسائل إلى عدد من أمراء العرب الآخرين، فوجهت الدعوة إلى الحق، إلى سائر أمراء العرب والمناطق المجاورة عبر هذه الرسائل والكتب الدعوية، فانتشرت الدعوة الحقة في المنطقة كلها، ولعبت هذه الرسائل دوراً كبيراً في نشر الدين الإسلامي الذي بدأ أمره في نطاق مكة المحدود، وعارضه أهل مكة أشد معارضة، وناصبوا له العداء، فبلغ الرسالة، وتمت الحجة الابتدائية على الجميع، وعدد من هذه الكتب التي كتبها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والأمراء، محفوظ في التاريخ، وذكرها أصحاب السير في كتبهم، نذكر منها ما يلي : (١)

كتاب النبي إلى النجاشي ملك الحبشة:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى النجاشي ملك الحبشة، أسلم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت به، فخلقه من روحه، ونفخه، كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والمولاة في طاعته، وأن تتبعني، وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله ، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عزوجل، وقد بلّغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى" (٢).

كتابه إلى المقوقس حاكم الإسكندرية ومصر:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله، إلى

---

١ - البداية والنهاية: ٤/٢٦٢-٢٧٧

٢ - تاريخ الطبري: ٣/٦٥٢ وزاد المعاد: ٣/٦٨٩، ونصب الراية في أحاديث الهداية، بحاشية بغية الألمعي في تخريج الزيلعي، لعبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعي، ص: ٤/٤٢١، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٣٩٣هـ.

www.abulhasanalinadwi.org

المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد! فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك اثم أهل القبط، يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ(١).

كتابه إلى كسرى:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله، ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله إلى الناس كافة، لينذر من كان حياً، أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس"(٢)

كتابه إلى هرقل عظيم الروم:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد! فإني أدعوك بدعاية الإسام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك اثم الأريسين، يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٣)

سعي هرقل للتثبُّت من أمر النبي:

"عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن أبا سفيان أخبره قال: فبينا أنا بالشام إذ جيء بكتاب من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى

---

١ - زاد المعاد: ٦٩١/٣، والمواهب اللدنية: ٢٤٧/٣- ٢٤٨.

٢ - صحيح البخاري، كتاب المغازي باب كتاب النبي إلى كسرى وقيصر، وزاد المعاد: ٦٨٨/٣، وتاريخ الطبري: ٦٥٤/٢

٣ - البخاري: ٤٥٥٣ كتاب المغازي باب دعاء النبي إلى الإسلام والنبوة وزاد المعاد: ٦٨٨/٣.

www.abulhasanalinadwi.org

هرقل، وكان دحية الكلبي جاء به، فدفعه إلى عظيم بصرى، فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل، فقال هرقل: هل هاهنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟. قالوا: نعم، قال: فدعيت في نفر من قريش، فدخلنا على هرقل، فأجلسنا بين يديه، فقال: أيُّكم أقرب نسباً من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا، فأجلسوني بين يديه، وأجلسوا أصحابي خلفي، ثم دعا بترجمانه فقال له: قل لهم: إني سائل هذا عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، فإن كذبني فكذبوه، قال أبو سفيان: وأيم الله لولا مخافة أن يؤثر عليّ الكذب لكذبتُ.

ثم جرى بينهما الحوار الآتي:

هرقل: كيف نسبه فيكم؟

أبو سفيان: هو فينا ذو نسب.

هرقل: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟

أبو سفيان: لا.

هرقل: فهل كان من آبائه من ملك ؟

أبو سفيان: لا.

هرقل: فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟

أبو سفيان: بل ضعفاؤهم.

هرقل: أ يزيدون أم ينقصون ؟

أبو سفيان: بل يزيدون.

هرقل: فهل يرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟

أبو سفيان: لا.

هرقل: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

www.abulhasanalinadwi.org

أبو سفيان: لا.

هرقل: فهل يغدر؟

أبو سفيان: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها.(قال: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة).

هرقل: فهل قاتلتموه؟

أبو سفيان: نعم.

هرقل: فيكف كان قتالكم إيّاه؟

أبو سفيان: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه.

هرقل: ماذا يأمركم؟

أبو سفيان: يقول: اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والصدق، والعفاف، والصلة.

فقال: للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أن لا، قلت: لو كان أحد قال هذا القول فيه لقلت: رجل يتأسى بقول قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك فذكرت: أن لا، فقلت: فلو كان من آبائه من ملك، قلت: رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت: أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت: أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك أ يزيدون أم ينقصون؟ فذكرت: أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتمّ، وسألتك أ يرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت: أن لا،

www.abulhasanalinadwi.org

وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك هل يغدر؟ فذكرت: أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بِمَ يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدميَّ هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه[1] ... وأذن لعظماء الروم في القصر وأمر أبوابه فغلقت، ثم اطلع فقال: يا معشر الروم! هل لكم في الفلاح والرشد أن يثبت ملككم وتبايعوا هذا النبي؟ ففروا وبادروا إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم، وأيس من الإيمان قال: ردوهم عليَّ، وقال: إني قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه [2].

وقد روى أحمد في مسنده أن هرقل كتب إلى النبي رداً على كتابه أني مسلم، فقال الرسول: كذب، بل أنه على نصرانيته، وقد خرج بنفسه إلى غزوة موتة لقتال المسلمين.

غزوة خيبر:

في محرم من السنة السابعة من الهجرة خرج الرسول صلى الله عليه وسلم إلى خيبر بهدف وضع حدّ لقوة اليهود الذين تجمعوا بها بعد ما أجلوا من المدينة، وقد أصبح خطر يهود خيبر يهدد أمن المسلمين،

---

[1] - صحيح البخاري، باب "كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم" ومسلم كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي إلى هرقل والسيرة النبوية للذهبي: ٢/٥٠٢ ـ ٥٠٥

[2] - مقتبس من حديث طويل رواه البخاري في باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .نقلاً عن السيرة النبوية للشيخ الندوي.

www.abulhasanalinadwi.org

فأراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يستريح منهم، ويأمن من جهتهم، كما أراد أن يأمن من جهة غطفان القوية ذات العَدَدِ والعُدَدِ التي تسكن في الشمال بين الحجاز ونجد، وفي وسط الجزيرة العربية، وكانت من أقوى وأشد القبائل العربية بأساً وحرباً، ومن دون الأمن من هذا الخطر الداهم الذي تحدثه هذه القبائل اليهودية والعربية، لم يكن من الممكن السيطرة والتغلب على خطر الأعداء في مكة، وكانت قد أصبحت خيبر قاعدة حربية لليهود، وقلعة حصينة لهم، وكانت آخر معقل في الجزيرة العربية، وكانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر، ويتآمرون مع غطفان لغزو المدينة، ويبذلون الأموال في تحريض قبائل العرب المجاورة على حمل السلاح على المسلمين والزحف إليهم، كما كانوا يضمرون الحقد والعداوة للرسول صلى الله عليه وسلم.

وصل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى خيبر، وبدأ يفتتح حصونها حصناً حصناً، وآخرها حصن القموص قد استعصى على المسلمين، فاختار الرسول صلى الله عليه وسلم لفتحها علياً ابن أبي طالب، ففتح المسلمون بقيادة علي بن أبي طالب حصن القموص، وكان أوصاه قبل توجُّهه إلى الحصن بأن تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فو الله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم.

فافتتحت الحصون، حصن بعد حصن، بعد قتال وحصار، دام أياماً حتى سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلح، فقبل طلبهم، وأراد أن يجليهم منها، فقال: يا محمد: دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها، ونقوم عليها، فنحن أعلم بها منكم، فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع وثمر، ما بدا للرسول صلى الله عليه وسلم أن

www.abulhasanalinadwi.org

يقرهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث إليهم عبد الله بن رواحة، فيخرص عليهم، ويجعل ذلك نصفين، فيخبرهم أن يأخذوا أيهما شأؤوا، فيقولون: بهذا قامت السموات والأرض.

وفي هذه الغزوة سُمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ،أهدت له زينب بنت الحارث اليهودية امرأة سلام بن مشكم شاة مشوية قد سمّتها، وسألت: أي اللحم أحبُّ إليه؟ فقالوا: الزراع، فأكثرت السمّ في الزراع، فلما انتهش من ذراعها، أخبره الذراع بأنه مسموم، فلفظ الأكلة، ولكن ظهر أثرها فيما بعد [١].

وبعد ما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمر خيبر، توجّه إلى فدك، وبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصالحونه على النصف من فدك، فقبل ذلك منهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم ما يحصل له من فدك حيث يرى من مصالحه ومصالح المسلمين، كانت فدك خالصة له؛ لأنه لم يوجف عليها بخيل، ولا ركاب [٢] بل فتحت بدون مواجهة أو قتال، ويقال للمغانم الحاصلة بالصلح، بدون القتال الفيئ، وحكم الإسلام فيه أن يكون ملكاً للرسول، فيحق له أن يصرفها حيث يرى.

ثم جاء إلى وادي القرى وهي مجموعة قرى بين خيبر وتيماء، وقد استعمرها اليهود قبل الإسلام، وأصبحت لهم مركزاً، وانضاف إليهم جماعة من العرب، ولم يكن غرضه قتالاً، فدعاهم إلى الإسلام، وأخبرهم أنهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم، وحقنوا دماءهم،

---

[١] - انظر: صحيح البخاري باب غزوة خيبر وباب الشاة التي سمت للنبي، ومسلم باب غزوة خيبر، كتاب الجهاد والسير، وسنن أبي داود، باب المسافاة، وسيرة ابن هشام: ٣٢٨/٢، و زاد المعاد: ٣١٦/٣ـ٣٢٨، وفتوح البلدان للبلاذري.

[٢] - سيرة ابن هشام: ٣٥٣/٢

www.abulhasanalinadwi.org

وحسابهم على الله، ولكن اليهود كانوا مستعدين للقتال من ذي قبل، فلما نزل المسلمون بساحتهم استقبلهم اليهود بالرمى، وهم على تعبئة، فبدأت الحرب، ولكنهم بعد قتال وضعوا أسلحتهم واستسلموا له، وتمَّ الصلح وفق شروط خيبر، فغنم المسلمون أموالاً، وأصابوا أثاثاً، ومتاعاً كثيراً، وقسّم الرسول ما أصاب على أصحابه بوادي القرى، وترك الأرض والنخل يبد اليهود، وعاملهم عليها.

ولما بلغ يهود تيماء ما واطأ عليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أهل خيبر وفدك ووادي القرى، صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقاموا بأموالهم، وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعاً إلى المدينة (١).

زواجه من صفية:

وبعد فتح خيبر واسى رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود المنهزمين، وسلى قلوبهم كمعاملته مع بني قينقاع، فتزوج بصفية بنت حيي بن أخطب بعد ما أعتقها، وأثر سلوكه المواسي هذا أثراً حسناً على قومها (٢).

عمرة القضاء:

وفي ذي القعدة في السنة السابعة من الهجرة خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة قاصداً العمرة، كما اتفق مع قريش في صلح الحديبية، فقدم الرسول والمسلمون، وخلّت قريش بينه وبين مكة، وأقفلوا بيوتهم، وطلعوا على جبل قعيقعان، فأقام بها ثلاثاً واعتمر. (٣)

---

١ - زاد المعاد: ٣/٣٥٥

٢ - سيرة ابن هشام: ٢/٣٣٦، وزاد المعاد: ٣/٣٣٩.

٣ - صحيح البخاري باب عمرة القضاء، سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٧٠، الكامل في التاريخ ج/٢ ص: ٢٢٧

www.abulhasanalinadwi.org

وبمناسبة أداء عمرة القضاء تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم من ميمونة بنت الحارث من بني علال فرع قريش، وأولم.

غزوة مؤتة (٨هـ):

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى شرحبيل بن عمرو الغساني، حاكم "بصرى" التابع لقيصر ملك الروم، فأوثقه رباطاً، ثم قدمه فضرب عنقه، فلمّا بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر، أراد أن يبعث بعثاً إلى "بصرى". وذلك في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة، فتجهّز الناس، وهم ثلاثة آلاف، واستعمل عليهم زيد بن حارثة، وهو مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي الجيش كبار المهاجرين والأنصار، وقال: إن أصيب زيد بن حارثة، فجعفر بن أبي طالب، وإن قتل جعفر، فعبد الله بن رواحة، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الجيش الإسلامي أن يأتوا المكان الذي قتل فيه الحارث بن عمير الأزدي رضي الله عنه، وأن يدعوا من كان هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا فبها و نعمت، وإن أبوا استعينوا بالله عليهم، وقاتلوهم (١) وكان هذا الجيش أول جيش إسلامي دخل في الإمبراطورية الرومية.

لما وصل الجيش الإسلامي إلى "معان" من أرض الشام، بلغه أن هرقل بـ" بلقاء" في مائة ألف من الروم، وانضم جمع كثير من قبائل العرب: لخم، وجذام، وبلقين، وبهراء، وبلي، فأحب زيد بن حارثة بعد سماعه هذا الخبر أن يكتب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فيخبره بعدد العدُو، وينتظر ما يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن عبد الله بن رواحة حَسم الموقف وشجع الناس بقوله: يا قوم والله إن الذي

---

١ - انظر: السيرة الحلبية: ٢/٧٨٧.

www.abulhasanalinadwi.org

تكرهون للتي خرجتم تطلبون، الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسنين؛ إما ظفر، و إما شهادة، فألهبت كلماته مشاعر المجاهدين، واندفع زيد بن حارثة بالناس إلى مؤتة، فكانت ملحمة سجّل فيها القادة الثلاثة بطولة عظيمة، انتهت باستشهادهم، فقد استبسل زيد بن حارثة، وتوغّل في صفوف الأعداء، وهو يحمل راية رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استشهد، وقد أخذت الرماح منه كل مأخذ، ثم أخذ الراية جعفر، وانبرى يتصدى للجيش الرومي الصليبي الجرّار، فكتّفوا حملاتهم عليه، وأحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم، فلم تلن له قناة، ولم تهن له عزيمة، بل استمر في القتال، وزيادة في الإقدام، نزل عن فرسه وعقرها، ثم قاتل، لقد أخذ اللواء بيده اليمنى، فقطعت يمينه، فأخذه بشماله، فقطعت، فاحتضنه بعضديه، وانحنى عليه، حتى استشهد، ولقد أثخن بالجراح، إذ بلغ عدد جراحه تسعين بين طعنة رمح، أو ضربة سيف، أو رمية بسهم، ليس من بينها جرح في ظهره، بل كلها في صدره، ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحه، وتقدم به، ونزل عن فرسه، وأخذ سيفه، فتقدم وقاتل حتى استشهد، وبعد استشهاده اصطلح الناس على خالد بن الوليد، فأخذ الراية ودافع القوم، وكان شجاعاً حكيماً، يعرف سياسة الحرب، فانحاز بالجيش الإسلامي إلى الجنوب، وانسحب العدو نحو الشمال، وأرخى الليل سدوله، حتى انصرف الناس وكلا الفريقين اغتنم السلامة، ورجع خالد بن الوليد بالجيش الإسلامي إلى المدينة في كنف العافية والسلامة ([1]).

[1] - انظر صحيح البخاري باب غزوة مؤتة، وزاد المعاد: ٣/٣٨١-٣٨٥، وسيرة ابن

www.abulhasanalinadwi.org

نقض قريش معاهدة الصلح وقرار النبي لنصرة المظلومين:

ساد جوُّ الأمن بين المسلمين وبين قريش وأحلافها نتيجة صلح الحديبية، وتهيأت الفرصة للاحتكاك والالتقاء، والاطلاع على محاسن الإسلام، مما أدى إلى اعتناق كثير من أعداء الإسلام بعد تجربتهم له عن كثب، ومشاهدة أخلاق المسلمين وتعاملهم الحسن الرائع، ولكن قريش لم تلتزم بشروط الصلح، فلم يمض على الصلح إلا سنتان حتى نقضوا معاهدة الصلح، حمل بنو بكر حلفاء قريش على قبيلة بني خزاعة حليفة المسلمين، وأعانت قريش حلفاءها بني بكر بالخيل والسلاح والرجال في الهجوم على بني خزاعة، ولم يكتفوا بذلك؛ بل هجموا على خزاعة داخل الحرم عندما لجأت إليه، وكانت الحرب في الحرام ممنوعاً وحراماً عند الجميع، ووضعوا فيهم السيوف، فظُلِمَ بنو خزاعة ظلماً بواحاً، وكان حق لهم أن ينصرهم المسلمون عند وقوع هجوم عليهم.

فخرج عمرو بن سالم الخزاعي مبعوث خزاعة حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة، فوقف عليه، وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس، وأخبره بما كان من بني بكر، وبمن أصيب منهم، وبمناصرة قريش بني بكر عليهم، وأنشد أبياتاً مؤثرة نشده فيها الحلف الذي كان بينه وبين خزاعة، وسأله النصر والنجدة، قال: أخلفته قريش الموعد، ونقضوا ميثاقه المؤكد، وأنهم بُيِّتوا وهم على ماء لهم، وقتلوا ركعاً وسجداً في داخل الحرم، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: نُصِرْتَ يا عمرو بن سالم، لا نصرني الله إن لم أنصر بني كعب، وثم عرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم عنان من السماء، فقال: إن هذه

هشام: ٢/٣٧٣ـ٣٨٣، والبداية والنهاية: ٤/٢٤١ـ٢٥٩، والكامل في التاريخ: ٢/٢٣٤ـ٢٣٨.

www.abulhasanalinadwi.org

السحابة لتستهل بنصر بني كعب ([1]).

ثم خرج بعد قدوم عمرو بن سالم المدينة بديل بن ورقاء ممثل خزاعة في نفر من خزاعة حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبروه بشيء من التفصيل بما أصيبوا به من قتل وفتك وسفك للدماء بيد بني بكر، وبما ارتكبته قريش من مناصرة بني بكر عليهم، ونقض العهد، ومخالفة سافرة للموعد والمصالحة، فسمع الرسول الخبر، وأبدى عطفه ومؤاساته لهم، ووعدهم بالنصر لكونهم حلفاءه، وقال بعد أن سمع وتأكد من الخبر: " كأنكم بأبي سفيان، وقد جاء ليشدّ العقد، ويزيد في المدة ".([2])

محاولة أبي سفيان زعيم قريش لتجديد العهد:

فهكذا كان، وقدم أبو سفيان على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، وكانت إحدى بناته أم حبيبة، زوجة النبي صلى الله عليه وسلم فكانت أم المؤمنين، وفي بيته، فدخل أبو سفيان أولاً على ابنته، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم طوتْه عنه، فتعجب وقال: يا بنية: ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: والله لقد أصابكِ بعدي شرٌّ، ثم خرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلّمه، فلم يردَّ عليه شيئاً، ثم ذهب إلى أبي بكر لأنه كان أقرب إليه، فكلّمه أن يتكلم له رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلّمه،

---

[1] - سيرة ابن هشام: ٢/٣٩٤-٣٩٦.

[2] - زاد المعاد: ٣/٣٩٦

www.abulhasanalinadwi.org

فقال بلهجة شديدة، أنا أشفع لكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟، فوالله لو لم أجد إلا الذرّ لجاهدتكم به (١).

ثم جاء فدخل على عليّ بن أبي طالب، وعنده فاطمة، والحسن غلام يدب بين يديهما، فقال: يا علي، إنك أمسّ القوم بي رحماً، وإني قد جئت في حاجة، فلا أرجعن كما جئت خائباً، اشفع لي إلى محمد(صلى الله عليه وسلم)، فقال: ويحك أبا سفيان، والله لقد عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر ما نستطيع أن نكلّمه فيه، فالتفت إلى فاطمة فقال: هل لك أن تأمري ابنك هذا، فيُجيْر بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر، قالت: والله ما بلغ ابني ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: يا أبا الحسن، إني أرى الأمور قد اشتدت عليّ، فانصحني، قال: والله ما أعلم لك شيئاً يغني عنك شيئاً، ولكنك سيد بني كنانة، فقم أجر بين الناس، ثم الحق بأرضك، قال: أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً، قال: لا، والله ما أظنه، ولكن ما أجد لك غير ذلك. (٢)

إعلان أبي سفيان:

فقام أبوسفيان في المسجد فقال: أيها الناس إني قد أجرت بين الناس، ثم ركب بعيره، فانطلق، فلما قدم على قريش قالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمداً(صلى الله عليه وسلم)، فكلّمته، فوالله ما ردّ عليّ شيئاً، ثم جئت ابن أبي قحافة، فلم أجد منه خيراً، ثم جئت عمر بن الخطاب فوجدته أعدَّ من العدو، ثم جئت علياً فوجدته ألين القوم، قد أشار عليّ بشيء صنعته، فو الله ما أدري هل يغني عني

---

١ - نفس المصدر ص: ٣٩٧

٢ - سيرة ابن هشام: ٢/٣٩٦-٣٩٧

www.abulhasanalinadwi.org

شيئاً، أم لا، قالوا: وبمَ أمرك؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس، ففعلت، فقالوا: فهل أجاز ذلك محمد(صلى الله عليه وسلم) قال: لا، ويلك والله إن زاد الرجل (علي بن أبي طالب) على أن لعب بك، قال: لا، والله ما وجدت غير ذلك. (١)

إستراتيجية النبي والتأهب لمكة:

هذا، وفي جانب آخر أمر الرسول صلى الله عليه وسلم الناس بالجهاز، واستعان على أمره بالكتمان، حتى لا يصل الخبر إلى قريش، وقال: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش، حتى نبغتها في بلادها، فتجهّز الناس، وأخفوا الأمر، وأسروه بغاية من السرية، وعندما أكمل النبي صلى الله عليه وسلم استعداده للسير إلى فتح مكة، كتب حاطب ابن أبي بلتعة كتاباً إلى أهل مكة يخبرهم فيه نبأ تحرُّك النبي صلى الله عليه وسلم إليهم، ثم أعطاه امرأة، وجعل لها جعلاً على أن تبلغه قريشاً، فجعلته في قرون رأسها، ثم خرجت به، ولكن الله سبحانه أطلع نبيَّه عن طريق الوحي على هذه الرسالة، فقضى على هذه المحاولة، وهي في مهدها، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم علياً والزبير والمقداد، فانطلقوا حتى وصلوا إلى روضة خاخ، فأمسكوا بالمرأة بها، فاستنزلوها وقالوا: معك كتاب، فقالت: ما معي كتاب، ففتشوا رحلها، فلم يجدوا شيئاً، فقال لها علي رضي الله: إني أحلف بالله ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم وما كذبنا، والله لتخرجن الكتاب أو لنجردنك، فلما رأت الجدّ فيه قالت: أعرض فأعرض، فحلّت قرون رأسها، فاستخرجت الكتاب منها، فدفعته إليهم، فأتوا به

---

١ - نفس المصدر: ٣٩٥/٢، وزاد المعاد: ٣٩٥/٣ــ ٣٩٧، الكامل في التاريخ: ٢٤١/٢.

www.abulhasanalinadwi.org

رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش، يخبرهم بمسير رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، فاستدعى حاطب، وقال: ما هذا يا حاطب! فقال: لا تعجل عليّ يا رسول الله صلى الله عليه وسلم، و الله إني لمؤمن بالله ورسوله، وما رددت ولا بدلت، ولكني كنت أمراً ملصقاً في قريش، ولست منهم، ولي فيهم أهل وعشيرة وولد، وليس لي فيهم قرابة، يحمونهم، وكان من معك لهم قرابات يحمونهم، فأحببت إذ فاتني ذلك أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أما أنه قد صدقكم".

فقال عمر رضي الله عنه" دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فإنه قد خان الله ورسوله، وقد نافق، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه شهد بدراً، وما يدريك يا عمر لعل قد اطلع على من شهد بدراً، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم، فذرفت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم"(١).

إن هذه المعاملة الرحيمة التي عامل الرسول بها حاطب بن أبي بلتعة رغم جريمته الشنيعة تدل على حرصه الشديد على الوفاء لأصحابه، وإقالة عثرات ذوي السوابق الحسنة منهم كما تدل على خلقه الحسن وعفوه عما ليس فيه مجال للعفو كما كان هذا المنهج النبوي الحكيم سبباً لكسب قلب الخاطئ بعد اعتذاره عما صدر منه، وكان هذا المنهج النبوي يعرض رسالة الإسلام والرحمة والشفقة والمؤاساة والعفو أمام الأعداء.

---

(١) صحيح البخاري: ٣٩٨٣، ومسلم: ٢٤٩٤، وأحمد: ١/٧٩ـ ٨٠، وسيرة ابن هشام: ٢/٣٩٩، وزاد المعاد: ٣/٣٢٩، البداية والنهاية: ٤/٢٨٤، الزرقاني على المواهب اللدنية: ١/١٤٩.

www.abulhasanalinadwi.org

خروجه إلى مكة:

فتجهّز المسلمون وأخفوا، وبعد إكمال الاستعداد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه إلى مكة في رمضان من السنة الثامنة من الهجرة، وكان نصر الله حليفاً لهم؛ بأن عمّى الله الأخبار عن قريش، فهم على وجل وارتقاب، وكان أبو سفيان يخرج يتجسس الأخبار، فخرج هو وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتحسسون الأخبار، وينظرون هل يجدون خبراً أو يسمعون به.(١)

وكان العباس بن عبد المطلب الذي كان في مكة وقريش في الظاهر، ولكنه يحب ابن أخيه؛ كأنه مسلم في الباطن، قد خرج قبل ذلك من مكة بأهله وعياله مسلماً مهاجراً إلى المدينة، فلقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجحفة بالقرب من رابغ وانضم إليه، ولم تعلم قريش ذلك بعدُ.

وتابع الجيش الإسلامي سيره حتى أتى "مر الظهران" عشاء، وهو واد من أودية الحجاز شمال مكة ٢٢كم، ونزل فيه، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الجيش فأوقدوا النيران(٢) وكان غرضه من ذلك إشعار العدو بقوة الجيش الإسلامي وكثرته؛ لإلقاء الرعب في قلوب العدو، فينسحب من الميدان، ولا يتجرأ على المواجهة، فأوقدت عشرة آلاف نار، فانتشرت الأضواء في كل مكان.

وركب العباس بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم البيضاء وخرج يلتمس لعله يجد أحداً يخبر قريشاً أن الجيش الإسلامي العظيم

---

١ - سيرة ابن هشام: ٢/٤٠٠.

٢ - زاد المعاد: ٣/٤٠٠.

www.abulhasanalinadwi.org

يقترب من مكة، فليخرجوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويستأمنوه قبل أن يدخلها عنوة، وليصونوا أنفسهم من الهلاك إلى آخر الدهر.(١)

يقول العباس: والله إني لأسير على البغلة إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان وأبوسفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيراناً قط، ولا عسكراً، ويقول بديل: هذه والله خزاعة حمشتها الحرب، فيقول أبو سفيان: خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها، فعرفت صوته، فقلت أبا حنظلة، فعرف صوتي، فقال: أبا الفضل، قلت: نعم، قال: مالك فداك أبي وأمي؟ قلت: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس، واصباحَ قريش والله، قال: فما الحيلة فداك أبي وأمي؟ قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستأمنه لك، فركب خلفي ورجع صاحباه، فجئت به، فكلّما مررت به على نار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عليها، قالوا: عمّ رسول الله على بغلته، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب، فقال: من هذا؟ وقام إليَّ، فلمّا رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان عدو الله، الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ثم خرج يشتد نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم وركضت البغلة، فسبقت فاقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل عليه عمر، فقال: يا رسول الله هذا أبو سفيان، فدعني أضرب عنقه، قلت: يا رسول الله، إني قد أجرته، ثم جلست إلى رسول الله، فأخذت برأسه فقلت، والله لا يناجيه الليلة أحد دوني، فلمّا أكثر عمر

---

١ - نفس المصدر ص: ٤٠١.

www.abulhasanalinadwi.org

في شأنه، قلت: مهلا يا عمر، فو الله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت مثل هذا، قال: مهلاً يا عباس فو الله لإسلامك كان أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا إني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فاتني به، فذهبت فلمّا أصبحت غدوت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟ قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك، وأوصلك، لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد، قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال: بأبي وأمي ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك، أما هذه فإن في النفس حتى الآن منها شيء، فقال له العباس، ويحك أسلم، واشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله قبل أن نضرب عنقك، فأسلم وشهد شهادة الحق، فقال العباس: يا رسول الله: إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً، قال: نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن، ولما أراد أبوسفيان القيام، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادي عند خطم الجبل، حتى تمرّ به جنود الله، فيراها، ففعل، فمرت القبائل على راياتها، وكان الغرض من ذلك أن يعلم أبو سفيان عظمة المسلمين وهيبتهم وغلبتهم علماً جيداً، فخرج العباس وحبس أبا سفيان في ذلك المكان، وكانت كتائب المسلمين تمرّ تحت راياتها حسب قبائلها (١).

١ - زاد المعاد: ٣/٤٠١-٤٠٣، وسيرة ابن هشام: ٢/٤٠٢-٤٠٤.

www.abulhasanalinadwi.org

عفو عام وأمن بسيط:

ووسَّع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة في الأمن والعفو، حتى أصبح أهل مكة لا يهلك منهم إلا من زهد في السلامة، وكره الحياة، فقال: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن ([1]).

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشه عن أن يستخدموا السلاح عند ما يدخلون مكة على أي إنسان إلا من اعترضهم وقاومهم، وأمر أن يعف الجيش عن أموال مكة وممتلكاتهم، وأن يكفوا أيديهم عنها. ([2])

كانت تتحرك كتائب الإيمان كأنها بحر يموج، وكانت القبائل تمرّ على راياتها، كلما مرّت قبيلة سأل أبو سفيان عباساً عنها وعن اسم القبائل، فيقول: مالي ولبني فلان، حتى مرّ به رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، قال: سبحان الله يا عباس، من هؤلاء؟ قلت: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، ثم قال: يا أبا الفضل! لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً، قلت يا أبا سفيان: إنها النبوة، قال: فنعم إذا ([3]).

وجاء أبوسفيان قومه، فصرخ بأعلى صوته، يا معشر قريش، هذا محمد، قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله، ما تغني عنك دارك؟ ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن، فتفرق الناس إلى

---

[1] - سيرة ابن هشام: ٤٠٣/٢.

[2] - نفس المصدر ص: ٤٠٩

[3] - نفس المصدر ص: ٤٠٤، وزاد المعاد: ٤٠٣/٣

www.abulhasanalinadwi.org

دورهم، وإلى المسجد [١].

دخول خاشع متواضع لا دخول فاتح متعال:

دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة، وهو واضع رأسه تواضعاً لله، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إن ذقنه ليكاد يمس واسطة الرحل، ودخل وهو يقرأ سورة الفتح. [٢]

دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة بالجيش الإسلامي العظيم، وقد تمثّل أمامه التاريخ الممتد على عشرين سنة، قضاها في مكة، وضيق أهلها أرضها عليه هو وأصحابه، وأذاقوهم أنواعاً من الأذى والظلم، واختاروا تدابير مختلفة ووسائل متنوعة للقضاء عليه هووالمسلمين، مما أدى إلى مغادرة وطنهم مكة إلى المدينة، وقبله هاجر أصحابه إلى الحبشة، وقد جعلت قريش عودة المسلمين إلى مكة وزيارة بيت الله مستحيلاً صعباً حتى منعوا من العبادة التي كانت مسموحاً بها لسائر العرب من أجزاء مختلفة من الجزيرة العربية، والآن تحوَّل الوضع، وانقلب على رأس، يدخل الرسول في مكة فاتحاً منتصراً، وأعداؤه الألداء وأعداء أصحابه مضطرون للخضوع والاستسلام له والرضوخ أمام الجيش الإسلامي.

كانت مكة قلب جزيرة العرب ومركزها الروحي والسياسي، وكم يشعر بالعظمة والافتخار والاعتزاز من يتمكن من السيطرة عليها، وكم يتظاهر بالغطرسة والاستعلاء في دخولها، وبالعكس رفع الرسول صلى الله عليه وسلم في دخوله مكة فاتحاً، كل شعار من شعائر العدل والمساواة والتواضع والخضوع، فأردف أسامة بن زيد وهو ابن مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يردف أحداً من أبناء هاشم وأبناء

---

[١] - سيرة ابن هشام: ٤٠٥/٢

[٢] - سيرة ابن هشام: ٤٠٥/٢

www.abulhasanalinadwi.org

أشراف قريش معهم كثير[١].

وكلّمه رجل يوم الفتح فأخذته الرعدة، فقال: هوِّن عليك، فإني لست بملك، وإنما ابن امرأة من قريش تأكل القديد.[٢]

يوم المرحمة لا الملحمة:

ولما مرّ سعد بن عبادة بأبي سفيان في كتيبة الأنصار، قال له: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشاً، فلمّا حاذاه الرسول صلى الله عليه وسلم في كتيبته، شكا إليه ذاك أبو سفيان، قال: يا رسول الله، ألم تسمع ما قال سعد؟ قال: وما قال؟ قال: كذا وكذا.

فاستنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالة سعد، وقال: بل اليوم يوم المرحمة، اليوم يُعِزُّ الله قريشاً، ويُعَظِّم الله الكعبة[٣].

ثم أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد، فأخذ منه الراية، وسلمها إلى ابنه قيس بن سعد، وبهذا التصرف الحكيم سرى عن نفوس أهل مكة وطمأنهم، وأعطى انطباعاً طيباً عن الإسلام، وقد قام الرسول بهذا الموقف الحكيم لئلا يثور في قريش الشعور بالعصبية؛ لأن جملة "اليوم يوم الملحمة" خرجت من فم أمير أنصارى، وأدنى كلمة للإهانة والإساءة كانت تثير الغضب والعصبية عند العرب، وبالتالي يحدث الصراع الدامي، والقرشيون حديثو العهد بالإسلام لم يرسخ في قلوبهم الإسلام وروحه حتى الآن، فكانت هذه الكلمة تنذر بخطر عظيم، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى على هذا الخطر في

---

[١] - صحيح البخاري كتاب المغازي باب دخول النبي من أعلى مكة.

[٢] - مستدرك حاكم: ٣/٥٠.

[٣] - زاد المعاد: ٣/٤٠٤.

www.abulhasanalinadwi.org

مهده بأخذ الراية من سعد بن عبادة وتسليمه إلى ابنه قيس، فكأن الراية لم تؤخذ منه، فلم يثره الرسول ولا أثار الأنصار، فهو لم يأخذ الراية من أنصاري، ويسلمها لمهاجر، بل أخذها من أنصاري وسلّمها لابنه، ومن طبيعة البشر ألا يرضى الإنسان أن يكون أحد أفضل منه إلا ابنه، فلم يشعر سعد بأخذ الراية منه.

فبهذا التصرف الحكيم لم يزد الرسول الحكيم أن أبدل حرفاً بحرف، وأباً بابن، فعالج نفس أبي سفيان المكلومة، وكان في حاجة إلى تأليف القلب، من غير أن يسيء إلى سعد صاحب سوابق في الإسلام، فألف قلب أبي سفيان، وقضى على الفتنة التي تكاد أن تثور، وصان القرشيين أن ينطبع في أذهانهم انطباع سيىء، وفي جانب آخر لم يجرح عاطفة سعد، ومع ذلك لقّنه درساً وهو أنه يحب ويؤثر العفو والرحمة، والتسامح، حتى مع ألد أعدائه وأحرج الموقف وأصعبه.

وكان المسلمون يدخلون في مكة فاتحين، وقد تجمَّع سفهاء قريش وأخفاؤها ومتمردوها بالخندمة ليقاتلوا المسلمين متظاهرين بقوّتهم، وكان حماس بن قيس بن خالد يعد سلاحاً قبل دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت له امرأته: لماذا تعد ما أرى؟ قال: لمحمد وأصحابه. قالت: ما يقوم لمحمد وأصحابه شيء، قال: إني والله لأرجو أن أخدمك بعضهم، فواجههم خالد بن الوليد مع أصحابه، وجرت مناوشات بين الطرفين، فأصيب من المشركين ناس، وبعضهم فروا، وانهزموا، فخرج حماس صاحب السلاح منهزماً حتى دخل بيته فقال لامرأته: أغلقي عليّ بابي فقالت: وأين ما كنت تقول؟ فقال:

إنك لو شهدت يوم الخندمة إذ فر صفوان وفر عكرمة
وأبو يزيد قائم كالموتمة واستقبلتهم بالسيوف المسلمة

www.abulhasanalinadwi.org

يقطعن كل مساعد وجمجمة ضرباً فلا نسمع إلا غمغمة
لهم نهيت حولنا وهمهمة لم تنطقي في اللوم أدنى كلمة(١)

إعلان بغلبة الحق:

وركزت راية رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجون عند مسجد الفتح، ثم نهض والمهاجرون والأنصار بين يديه، وخلفه وحوله، حتى دخل المسجد، فأقبل إلى الحجر الأسود فاستسلمه، ثم طاف بالبيت، وفي يده قوس وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل يطعنها بالقوس ويقول: " جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا" [الإسراء: ٨١] : " جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ" [السبأ: ٤٩] والأصنام تتساقط على وجوهها (٢).

وكان طوافه على راحلته، ولم يكن محرماً يومئذ، فاقتصر على الطواف، فلما أكمله دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، فأمر بها ففتحت، فدخلها فرأى فيها الصور، ورأى صورة إبراهيم وإسماعيل يستقسمان بالأزلام فقال: قاتلهم الله، والله إن استقسما بها قط: وأمر بالصور فطمست وكسرت، ثم أغلق عليه الباب من الداخل، ثم مكث فيها، وصلى هناك، ثم دار في البيت وكبر في نواحيه، ووحّد الله، ثم فتح الباب، وقريش قد ملأت المسجد صفوفاً، ينتظرون ماذا يصنع بهم؟فأخذ بعضادتي الباب وهم تحته، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو مال أو دم، فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ثم ذكر قوانين وعقوبات بشأن القتل، وأخذ الثأر، فقال وهو يخاطب قريشاً: يا معشر قريش، إن الله قد أذهب

---

١ - زاد المعاد ٤٠٥/٣ ، سيرة ابن هشام ٤٠٨/٢.

٢ - زاد المعاد ٤٠٦/٣ ، أخرجه البخاري، كتاب المغازي باب أين ركز النبي الراية يوم الفتح.

www.abulhasanalinadwi.org

عنكم نخوة الجاهلية وتعظُّمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية:

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" [الحجرات: ١٣] ، ثم قال: يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم (١).

ولم يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم ماذا يفعل أخ كريم بأخ كريم، بل قال: فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: "لا تثريب عليكم اليوم اذهبوا فأنتم الطلقاء" (٢).

ثم جلس في المسجد وقال: أين عثمان بن طلحة صاحب مفتاح الكعبة؟ فدعي له فقال له: هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم برّ ووفاء، أشار بذلك إلى أنه أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً يريد أن يدخل الكعبة مع الناس، فأغلظ له عثمان بن طلحة ونال منه، فحلم منه ثم قال: يا عثمان لعلّك سترى هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت، فقال عثمان: لقد هلكت قريش يومئذ وذلّت، فقال: بل عَمَرت وعزَّت يومئذ، أراد علي ابن أبي طالب أن تجمع له الحجابة مع السقاية، فرده إلى عثمان بن طلحة.

وقال له: خذوها خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم، يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف.

يقول عثمان بن طلحة: فلما وليت فرحاً جاذلاً ناداني فرجعت إليه، فقال: ألم يكن الذي قلت لك؟ قال: فذكرت قوله "بمكة قبل

---

١ - زاد المعاد: ٤٠٧/٣ ، سيرة ابن هشام: ٤١١/٢-٤١٢.

٢ - زاد المعاد ٤٠٧/٣ ، سيرة ابن هشام ٤١٢/٢

www.abulhasanalinadwi.org

الهجرة، أنك سترى المفتاح بيدي، فقلت: قد صدق ما قلت، ثم أسلمت، وقد ذكر بعض المؤرخين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ردّ المفتاح إليه قائلاً: أسلّم إليك هذه الأمانة، لأن الله أمرني بأدائها إلى صاحبها، وفي هذا الشأن نزلت هذه الآية: "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا" (١) فمنذ ذلك اليوم لم تزل الحجابة في أسرة عثمان ابن طلحة.

وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بلالاً أن يصعد فيؤذن على الكعبة، وكان أشراف قريش جلوساً بفناء الكعبة، فقال أحدهم، وهو عتاب، مشيراً إليه: لقد أكرم الله أسيداً، ألاَّ يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه. (٢)

ثم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار أمِّ هانئ بنت أبي طالب، فاغتسل وصلى ثمان ركعات في بيتها (٣) صلاة الفتح، شكراً عليه.

ولما استقر الفتح أمّن الرسول صلى الله عليه وسلم الناس كلهم إلا تسعة نفر، أمر بقتلهم وإن وُجِدُوا تحت أستار الكعبة، منهم من ارتدَّ عن دينه، ومنهم من قتل مسلماً غيلة، ومن كان يشتغل ويتسلى بهجائه ويذيعه بين الناس، وكان منهم عبد بن سعد بن أبي سرح، وكان قد ارتد، ولكن أكثرهم اعتذروا إلى الرسول واعترفوا بجريمتهم، فعذرهم، وعفا عنهم، وكان من خلقه العظيم صلى الله عليه وسلم أن يعفو ويصفح حتى عن ألد أعدائه إذا اعتذر إليه وسأله العفو.

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سراياه إلى الأوثان التي كانت حول الكعبة، فكسرت كلها، ونادى مناديه بمكة: من كان يؤمن

---

١ - السيرة الحلبية: ٥٢/٣

٢ - سيرة ابن هشام: ٤١٣/٢.

٣ - زاد المعاد: ٤١٠/٣.

www.abulhasanalinadwi.org

بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنماً إلا كسره، وبعث رجالاً من أصحابه إلى القبائل فهدموا أصنامها.

بفتح مكة انتهت الجبهة الحربية المركزية لكفار الجزيرة العربية كلها، كما انتهى عهد الظلم والاعتداء الذي يذوق مرارته المسلمون منذ نحو عشرين أو أحد عشرين عاماً بيد كفار مكة، ولكن الرسول الأعظم بُعِثَ رحمة للعالمين، فلم ينتقم من أحد، ولم يتخذ إجراء ضده؛ بل عفا عن الجميع.

الإقبال العام إلى الإسلام:

فلما فتح الله لنبيه مكة، وخضعت قريش للإسلام طوعاً أو كرهاً، أقبل العرب على الإسلام إقبالاً لم يعرف قبل ذلك، وصاروا يدخلون في دين الله أفواجاً، وصدق الله العظيم "إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً "[النصر: ١-٢].

كان فتح مكة يبعث على الاستعجاب والاستغراب؛ قد تمكّن الرسول صلى الله عليه وسلم بعد عشرين سنة للظلم والعدوان، من أخذ الثأر من العدو، ولم يكن مانع من الانتقام منهم، ومع ذلك، عفا حتى عن أعدى الأعداء بكرم نفسه ونبلها، ولم ينتقم من أحد منهم رغم كونه في وضع القوة والانتقام، بل وسع دائرة العفو، وأمن عكرمة بن أبي جهل أعدى الأعداء، ووحشياً مولى جبير بن مطعم قاتل عمه الحبيب حمزه بن عبد المطلب، و هبار بن أسود، وعبد الله ابن سعد بن أبي سرح.(١)

ومن موقفه المتسامح الكريم أنه قد عفا عمن جعلوا هجاء

---

١ - زاد المعاد: ٤١١/٣

www.abulhasanalinadwi.org

الرسول والإساءة إليه بأشعارهم المثيرة هوايتهم وشغلهم الشاغل، وعادتهم المحببة، وألحقوا به أضراراً، وكان أهدر دمهم وأمر بقتلهم، وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، ولكنهم عندما سألوه العفو والأمن، ولجأوا إليه، عفا عنهم، وأمَّنهم، فهذا الموقف المتسامح الرحيم يدل على سمته الغالبة: العفو، والرحمة، والرأفة، وسمو النفس وكرمها.

غزوة حنين وأوطاس والطائف:

كانت قبيلة "هوازن" الواقعة بين مكة والطائف، وقبيلة "ثقيف" الساكنة في قريش، أقوى القبائل وأعزّها وأشدّها بأساً وقوة في هذه المنطقة، وكانتا تعدَّان قوة كبيرة مماثلة لقوة قريش، وكان بينهما وبينها تنافس وروابط، ولما فتح الله مكة على رسوله والمؤمنين، وخضعت له قريش، خافت هوازن وثقيف، وقالوا: قد فرغ محمد لقتالنا، فلنغزه قبل أن يغزونا، وأجمعوا أمرهم على هذا، وولّوا عليهم مالك بن عوف النصري سيد هوازن، فاجتمع إليه هوازن وثقيف وبنو هلال ونصر وجشم وسعد بن أبي بكر، وتخلف عن هوازن كعب وكلاب، وساروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخرجوا معهم أموالهم ونساءهم، وذراريهم حتى لا يفروا، ويثبتوا ويدافعوا عن الأهل والعرض.

ولما وصل مخرج هوازن وثقيف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن لا يغض البصر عنهم، بل لا بدَّ من اتخاذ الإجراء المشدد ضدهم في الوقت الذي كان الجيش الإسلامي في حالة التأهب والاستعداد العسكري، فلا بدّ من لقائهم ومقاومتهم، وكسر شوكتهم وبأسهم، فتوجه المسلمون باتجاه حنين الذي يقع على بعد ٣٠ أو ٣٥ كلومتراً من مكة، في اليوم الخامس من شوال، ووصلوا حنين في مساء

www.abulhasanalinadwi.org

العاشر من شوال السنة الثامنة للهجرة .

كانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب في الجاهلية شجرة عظيمة خضراء يقال لها " ذات أنواط" يأتونها كل سنة، فيعلقون أسلحتهم عليها، ويذبحون عندها، ويعكفون عليها يوماً، وكان قد خرج مع الرسول في هذه الغزوة بعض حديثي العهد بالجاهلية، فبينما هم يسيرون مع الرسول صلى الله عليه وسلم إذ وقع بصرهم على الشجرة، فتحلبت أفواهم على أعياد الجاهلية التي هجروها ومشاهدها التي طال عهدهم بها، فقالوا يا رسول الله: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر، قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى لموسى " اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ" [الأعراف: ١٣٨] إنها السنن، لتركبن سنن من كان قبلكم ([1]).

وعلى كل، فالتقى الجمعان بوادي حنين، واصطفا، وجرت بينهما الحرب، وكان قد وصل مالك بن عوف النصري قائد جيش هوازن إلى وادي حنين، ومعه أربعة آلاف مقاتل، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه ألفان من أ هل مكة، ومنهم من هو حديث العهد بالإسلام، ومنهم من لم يسلم، وعشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه من المدينة، فبلغ عددهم إلى ما لم يبلغه في غزوة قبل ذلك؛ فبلغ عددهم اثني عشر ألفاً من المسلمين، حتى قال أناس من المسلمين: لن نغلب اليوم من قلة، وأعجبتهم كثرتهم، ولم يرض الله إعجابهم بالكثرة، و لا أن يعتمد المؤمنون على أنفسهم وقوتهم ووسائلهم في أمر من أمورهم بدون التوكّل على الله؛ لأنهم أمروا

[1] - سيرة ابن هشام ٤٤٢/٣

www.abulhasanalinadwi.org

بالإيمان بأن كل شيء بيد الله، وإن كان الأمر يبدو من دائرة اختيارهم، فيجب عليهم أن يتوكلوا على الله في كل شأن، ويسألوه النصر والنجدة، و لا يعتمدوا على وسائلهم وكثرة عددهم وقوتهم، ولا يعدوها أصلاً ولا أساساً.

فحجب الله النصر من المؤمنين في بداية المعركة، فكانت هوازن قد سبقتهم إلى الوادي، وكمنوا لهم في شعابه وأحنائه ومضايقه، فما راع المسلمين إلا أن رشقوهم بالنبال، وأصلتوا السيوف، وحملوا حملة رجل واحد، وكانوا قوماً رماة، فأمطروهم من جميع الجهات، فاضطربت صفوف جيوش المسلمين، وماج بعضهم في بعض، ونتيجة لهول هذا الموقف انهزم معظم الجيش، ولجاؤوا بالفرار؛ كل يطلب النجاة لنفسه، وبقي الرسول ونفر قليلٌ في الميدان؛ يتصدون لهجمات المشركين، ولما تمّ ما أراد الله من تأديب المسلمين الذين أعجبتهم الكثرة، وأذاقهم الله مرارة الهزيمة بعد حلاوة الفتح؛ ليقوي إيمانهم، فلا يبطرهم الفتح، ولا تؤيسهم الهزيمة، وأن لا ينخدعوا بكثرتهم، بل عليهم أن يثقوا بالله في كل ما ينوبهم من نائبة، أو يحصل لهم من فتح وانتصار، ردّ لهم الله الكرة على الأعداء، وأنزل السكينة على رسوله وعلى المؤمنين، فاجتلدوا، واقتتلوا، فما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم، حتى وجدوا الأسارى مكتفين عند رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأنزل الله الملائكة، فامتلأ بهم الوادي، وتمت هزيمة هوازن، وذلك بقوله تعالى " لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى

www.abulhasanalinadwi.org

الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ " [التوبه: ٢٥-٢٦].

وبعد الفراغ من غزوة حنين وانتصاره فيها، قرّر الرسول صلى الله عليه وسلم محاصرة حصن الطائف الذي تحصن فيه مالك بن عوف قائد جيش هوازن مع فرقته المنهزمة الفارة من حنين، لمعاقبته معاقبة تكون عبرة للآخرين، فلا يتجرأوا على شنّ هجوم أو إقدام على المسلمين في المستقبل، وكذا بعث سرية بقيادة أبي عامر الأشعري لمطاردة فلول الفارين من هوازن إلى أوطاس، فقاتلت الكتيبة المؤمنة فلّ هوازن المتحصن بأوطاس وهزمته، ولكن حصار الطائف طال وامتد، واستعمل الرسول صلى الله عليه وسلم أساليب متنوعة في القتال والحصار، ومارس الشورى، وقاتل المسلمون فلول هوازن المتحصنة بحصن الطائف، قتالاً شديداً، وتراموا بالنبل، واستخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الحصار المنجنيق لأول مرة، واشتد الحصار، وقتل رجال من المسلمين بالنبل، ثم رأى الرسول صلى الله عليه وسلم من المناسب أن يرفع الحصار، فأمر بالرحيل من الطائف، وبعد استشهاد عروة بن مسعود الثقفي أقام ثقيف أشهراً، ثم ائتمروا بينهم ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب، وقد بايعوا وأسلموا، فقدموا على الرسول صلى الله عليه وسلم وأسلموا، فانتشر الإسلام في ثقيف حتى أسلم أهل الطائف عن آخرهم (١) وبذلك زال الخطر من المنطقة كلها.

الخطابة المعجزة:

كان قد جاء هوازن إلى وادي حنين بأموالهم ونسائهم

---

١ - انظر: سيرة ابن هشام: ٢/٤٣٧-٤٩٩، وزاد المعاد: ٣/٤٦٥-٤٨٥، وصحيح البخاري، باب قوله إذا أعجبتكم كثرتكم، و صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة حنين.

www.abulhasanalinadwi.org

وذراريهم ؛ ليتقووا بها ويصمدوا في المعركة ، ولكي لا يتذكروا أولادهم وبيوتهم أثناء المعركة ويثبتوا في الميدان ، ولا يفروا منه ، ولا يساورهم الخطر على أموالهم وذراريهم ، ولكن لم يغنهم ذلك شيئاً ، ولكن لما انهزموا اغتنم المسلمون أموالهم ، وسبوا ذراريهم وما تركوه من سلاح ومتاع وأنعام ، وكانت كثيرة ، ولم يغنم المسلمون بعدُ ما غنموه في غزوة هوازن ، وكانت توزع الغنائم في أغلب الأحيان على المسلمين المشاركين في المعركة ، أو تصرف حيث يشاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، ففي هذه الغزوة أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم عطاءاً عظيماً من قريش من كانوا دخلوا في الإسلام ، وانضموا إلى الحكم الإسلامي ، أو كانوا حديثي العهد بالإسلام ، أو قبلوا الإسلام ولكن لم تطمئن قلوبهم بعدُ ، فأعطاهم عطاءاً عظيماً ، تأليفاً وتثبيتاً لقلوبهم ، وتقوية لإيمانهم بالله ، واتباعهم للرسول صلى الله عليه وسلم ، وقلّل من عطايا المؤمنين بالله ورسوله إيماناً جازماً ، وجاهدوا في سبيله بأنفسهم وأموالهم من الأنصار ؛ نظراً إلى قوة إيمانهم وكمال اتباعهم للرسول ، فوجد بعض الأنصار في نفوسهم جدة ، وظنوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء إلى وطنهم المدينة لماغادر قومه قريش ولم يستتب له الجوُّ في مكة ، والآن سيعود إلى مكة ، ويلحق بقومه عندما يتحسن الوضع ، ويستتب له الجوُّ بها ، ولذلك لعله ألّف قلوبهم تأليفاً ، وكان كل أمر من أمور الرسول صلى الله عليه وسلم يصدر وفق ما كان يوحى إليه ، ولم يكن ظنُّهم هذا بشأن الرسول صلى الله عليه وسلم صحيحاً ، وليس من المناسب أن يوصف بالمصلحة الشخصية ، أوالمنفعة الذاتية ، أوالأثرة ، ولما بلغت الرسولَ صلى الله عليه وسلم قالةُ الأنصار ، أرسل إليهم أن يجتمعوا في مكان ، ولم يبد استنكاره على ظنِّهم ، بل جمعهم ، وتحدث إليهم بغاية من اللطف والمحبة ، وبأسلوب

www.abulhasanalinadwi.org

مواس رقيق مرقق للقلوب .

فعندما دخل سعد بن عبادة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم؛ لِمَا صنعت في هذا الفيء الذي أصبت: قسمت في قومك؛ وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء. قال: "فأين أنت من ذلك يا سعد؟" قال: يا رسول الله(صلى الله عليه وسلم)! ما أنا إلا من قومي. قال: "فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة، قال: فجاء رجال من المهاجرين، فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون فردّهم.

فلمّا اجتمعوا؛ أتى سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: يا معشر الأنصار، ما قالة بلغتني عنكم، وَجِدَةٌ وجدتموها في أنفسكم، ألم آتكم ضلالاً، فهداكم الله بي، وعالة، فأغناكم الله بي، وأعداءً، فألّف الله بين قلوبكم؟" قالوا: الله ورسوله أمنُّ، وأفضل، ثم قال: "ألا تجيبوني يا معشر الأنصار"؟ قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله! لله ولرسوله المنُّ والفضل؟ قال: "أما والله لو شئتم؛ لقلتم، فلصدّقتم، ولصُدّقتم: أتيتنا مكذّباً، فصدّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك، أوجدتم عليّ يا معشر الأنصار! في أنفسكم في لَعَاعَةٍ من الدنيا تألّفت بها قوماً؛ ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار؛ أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟! فو الذي نفس محمد بيده! لما تنقلبون به خيرٌ ممّا ينقلبون به، ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً، ووادياً، وسلكت الأنصار شِعباً ووادياً، لسلكت شِعْبَ الأنصار

www.abulhasanalinadwi.org

ووادیها، الأنصارُ شَعارٌ، والناس دثار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار".

قال: فبكى القوم حتى أخضلُوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله صلى الله عليه وسلم قسماً وحظاً، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرّقوا (١) وفي رواية "إنكم ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني علي الحوض". (٢)

كانت قد حصلت للرسول غنائم كثيرة في غزوة هوازن، وأفاء الله عليه من أموال هوازن ما أفاء، ثم رأى الرسول أن يتألف الطلقاء وأشراف قريش والآخرين بالغنائم تأليفاً لقلوبهم، لحداثة عهدهم بالإسلام، فأعطى لزعماء قريش عطاءاً عظيماً، وكان الهدف من هذا العطاء المجزي هو تحويل قلوب من كانوا يعادون الرسول والمؤمنين معه منذ ٢٢ سنة، ثم قبلوا الإسلام كرهاً، من الصورة إلى الحقيقة؛ ليخالط الإيمان بشاشة القلب ويتذوقوا حلاوته، حتى يستأنسوا بالإيمان الحقيقي ويهشوا له، فاختار الرسول هذا الموقف المؤاسي الرحيم، وهو تأليف قلوبهم بالغنائم وإعطاؤهم عطايا عظيمة من تلك الغنائم.

وفي جانب آخر لم يعط الأنصار منها شيئاً، واكتفى بعاطفتهم الإيمانية القوية، وكانوا في الواقع قد بلغوا قمة عالية في الإيمان بالله ورسوله، فآثروا رضا ربهم وحب رسولهم على تلك الغنائم الزائلة واللعاعة الموقتة، ولم يعيروها أهمية مقابل رضا الرب وحب الرسول، ولكن قد تأثر حدثاء الأنصار من هذا العطاء بحكم طبيعتهم البشرية؛ وظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيعود إلى وطنه مكة ويلحق بقومه قريش بعد أن دخلوا في الإسلام واتبعوه، فصدرت هذه القالة،

---

١ - مسند أحمد: ٣/٧٦-٧٧، ومجمع الزوائد: ١٠/٣٢

٢ - البخاري: ٤٣٣٠، ومسلم: ١٠٦١، وانظر: زاد المعاد ٣/٤٧٤.

www.abulhasanalinadwi.org

والظن الخاطئ، وكان سبب هذا الظن سلوكُه الرحيم مع قومه وإكرامه لهم، فزادت بينهم قالة، ثم جاء أحدهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأخبرهم بما وجده الأنصار عليه في أنفسهم، فراعى الرسول هذا الاعتراض، وعمل على إزالة التوتُّر، وبيّن لهم الحكمة في تقسيم الغنائم، وخاطب الأنصار خطاباً إيمانياً عظيماً، عاطفياً وجدانياً، أزال ما علق بأذهانهم من شكوك خاطئة، وظنون كاذبة، وظنُّهم لم يكن صحيحاً؛ لأن رسول الله لا يعمل إلا بما يأمره ربُّه الله ويرضى، ويهديه الوحي الإلهي في كل شأن، ولا يعمل بإغراء من نفسه، أو مصلحته الشخصية، وكان من الخير والحسن أن أعرب الأنصار عما في أنفسهم، وسمع الرسول صلى الله عليه وسلم، فأزال ما بهم من توتر وسوء ظن، وقلق، بكلمة مؤثرة رقيقة مرققة للقلوب، فأدركوا أنهم وقعوا في خطأ؛ ما كان لأمثالهم أن يقعوا فيه، فانطلقت حناجرهم بالبكاء، ومآقيهم بالدموع، وألسنتهم بالرضا، وبذلك طابت نفوسهم، واطمأنت قلوبهم؛ بفضل أسلوب النبي الحكيم في مخاطبة الأنصار.

عمرة الجعرانة:

ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة حنين، وقسمت السبايا والمغانم في الجعرانة، وهي على مرحلة من مكة وقيعان أهل الطائف، أحرم للعمرة التي لم يستطع أن يوديها عند دخوله في مكة، فتهيأت لها الفرصة، فخرج إلى مكة معتمراً، وأدّى العمرة التي تعرف بعمرة الجعرانة، فلما فرغ من عمرته انصرف راجعاً إلى المدينة، وذلك في شهر ذي القعدة من السنة الثامنة للهجرة (١).

غزوة تبوك ٩هـ:

في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة وصلت إلى النبي صلى

١ - سيرة ابن هشام: ٢/٥٠٠.

www.abulhasanalinadwi.org

الله عليه وسلم أنباء تهيُّؤ الروم لغزوة ثغور العرب الشمالية، وجمعت جموعاً، وأجلبت معهم لخم وجذام، وعاملة، وغسان، وغيرهم من متنصرة العرب، وقد وفّر هرقل أقوات جنوده لسنة ودفع إليهم أعطياتهم ورواتبهم لسنة، وجاءت مقدمتهم إلى البلقاء. ([1])

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثلاثين ألفاً من الناس من المدينة إلى تبوك، وقعت هذه الغزوة في حر شديد، حين طابت الثمار والظلال في المدينة، وكان جلّ اعتماد سكان المدينة في اقتصادهم على النخيل والتمر، وكان الفقر عاماً في غالبيتهم، فكانوا في أشد مرحلة وأقساها أن يتركوا الثمار قد أينعت وحان قطافها، ويخرجوا في سبيل الله أم يتخلفوا لقطافها؟ ولكن غلبتهم عليهم قوتهم الإيمانية، فاستعدوا للخروج، وكان ينقصهم المال والزاد، فحثّ الرسول صلى الله عليه وسلم الصحابة على الإنفاق في هذه الغزوة، ووعد المنفقين بالأجر العظيم من الله تعالى، فأنفق كل حسب مقدرته. تصدق عمر بن الخطاب رضي الله عنه بنصف ماله وأبقى نصفه لأهله، وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكل ما عنده، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله، وكان عثمان بن عفان رضي الله صاحب القدح المعلى في الإنفاق في هذه الغزوة؛ فأنفق نفقة عظيمة لم ينفق مثلها أحد، جهَّز جيش العسرة، وأنفق ألف دينار.

وعلى كل حال، فخرج الجيش الإسلامي في هذا الوضع القاسي إلى الروم، وكانت تنقصه الراحلات، ويواجه قلة الظهر؛ كان لكل ثمانية عشر مجاهداً بعير، يتناوبونه، ولقلة الطعام اضطروا لأكل أوراق الأشجار، فتورمت شفاههم، ولم يجدوا في بعض المنازل ماء، فذبحوا

---

[1] - زاد المعاد: ٥٢٧/٣.

www.abulhasanalinadwi.org

الإبل، وشربوا من ماء الأمعاء، ومرّ المجاهدون في الطريق إلى تبوك بمقامات ذكرها القرآن، يعني ديار ثمود المنحوتة من الجبال، وقال رسول صلى الله عليه وسلم : لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم باكون خوفاً من أن يصيبكم ما أصابهم، وقال: لا تشربوا من مائها شيئاً، ولا تتوضؤا منه للصلاة، .... وهكذا صبروا، وتحملوا المشاق والمكاره، وثبتوا إلى أن وصلوا تبوك .

وفي تبوك أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرين يوماً، وأتاه يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة، وهو أحد الأمراء المقيمين بالحدود، فصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعطاه الجزية. (١)

وأتاه أهل "جرباء" و"أذرح" وكتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب أمن، وكان فيه كفالة الحدود، وتأمين المياه، والطرق البرية والبحرية، والضمان لسلامة الفريقين.

ومن أثر زحف الجيش الإسلامي إلى الروم، أن انسحبوا وعدلوا عن فكرة الزحف، واقتحام الحدود، وامتنعوا عن هجوم مضاد، أو إقدام، أوتحرك عسكري، وقد أدركوا وقدروا قوة المسلمين مالم يدركوه من قبل، وقد تحقق الغرض إلا أن وصل خبر الهجوم من أكيدر بن عبد الملك الكندي النصراني أمير دومة الجندل الذي كان ردءاً لجيوش الروم، فبعث الرسول إليه خالد بن الوليد في خمس مائة فارس، وأسر خالد أكيدر، وبعث به إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فحقن له دمه، وصالحه على الجزية، وخلّى سبيله. (٢) وانصرف الرسول قافلاً إلى المدينة بعد ما قضى شهراً خارج المدينة .

---

١ - زاد المعاد: ٥٣٧/٣.

٢ - سيرة ابن هشام: ٥٢٥/٢-٥٢٧

www.abulhasanalinadwi.org

بركة الصدق والاعتراف بالخطأ :

إن غزوة تبوك التي تمت بدون قتال وحرب، تحمل خصائص وحالات ؛ إنها وقعت في زمن عسرة من الناس، وجدب في البلاد، وحين طابت الثمار والظلال، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، وكانت تقتضي مفارقة الراحة في البيوت، والجوّ الرائق المنعش في جنات النخيل والثمار اليانعة، وبعد المسافة، وصعوبة السفر، لقلة المؤنة، وقلة الدواب التي تحمل المجاهدين إلى أرض المعركة، وكان زمن إيناع الثمار وقطافها، فكان الإعراض عن العناية بها وحراستها، والحرمان من الراحة واللذة، والخروج في السفر الشاق في القيظ الشديد، لم يكن يمكن إلا بالإيمان القوي الجازم بالله ورسوله، وفي هذه الغزوة انكشف نفاق الذين يظهرون إسلامهم، ولكن في قلوبهم مرض ونفاق، وكفر، فتخلفوا عن الغزوة بأعذار مختلفة، فنزلت آيات في القرآن كشفت القناع عن المنافقين وذمتهم وفضحتهم، وقد تخلف أناس لم يكونوا منافقين ؛ ولكن تخلفوا عن الخروج لحواجز بدون نية فاسدة، فامتحنوا بطريق آخر، يعني أمر بمقاطعتهم في المدينة، وقضوا أربعين يوماً هجرهم فيها أقاربهم وأصدقاؤهم ونساؤهم، ولم يعلن عن مدة المقاطعة، فواجهوا محنة شديدة، ووقعوا في قلق نفسي وكرب ذهني .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم في الواقع يمتحن أصحابه وقوة إيمانهم بمثل هذه الابتلاءات لتقوية إيمانهم وصلتهم بالله، فكل من يخرج من هذه المحن والابتلاءات منتصراً يكون كالذهب المصفى الذي يجلوه الصائغ في الكير.

www.abulhasanalinadwi.org

نترك كعب بن مالك رضي الله عنه يحدثنا بنفسه، حيث قال: " لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب أحداً تخلّف عنها، إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد عير قريش؛ حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة (١) حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهدَ بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها، كان من خبري أني لم أكن قطُّ أقوى، ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله! ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قطُّ حتى جمعتهما في تلك الغزوة.

ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلا ورّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حرٍّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً، ومفازاً، وعدواً كثيراً، فجلّى للمسلمين أمرهم؛ ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرٌ، ولا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - قال كعب: فما رجلٌ يريد أن يتغيّب إلا ظن أن سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحي الله.

وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار، والظلال، وتجهّز رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه، فطفقت أغدو؛ لكي أتجهز معهم، فأرجع، ولم أقض شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادرٌ عليه، فلم يزل يتمادى بي؛ حتى اشتد بالناس الجِدُّ، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه،

---

١ - انظر: الصراع مع الصليبيين ص: ١٨٧

www.abulhasanalinadwi.org

ولم أقض من جهازي شيئاً، فقلت: أتجهّز بعده بيوم، أو يومين، ثمّ ألحقُهم، فغدوت بعد أن فَصلوا؛ لأتجهّز، فرجعت ولم أقض شيئاً، ثم غدوت، ثم رجعت، ولم أقض شيئاً، فلم يزل بي حتى أسرعوا، وتفارط الغزو[١]، وهممت أن أرتحل فأدرِكَهم - وليتني فعلت! - فلم يقدّر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس - بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم - فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: "ما فعل كعب؟" فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله! حبسه بُرداه، والنظر في عطفيه[٢] فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت! والله يا رسول! ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبينما هو على ذلك رأى رجلاً مبيِّضاً[٣] يزول به السراب[٤] فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كن أبا خيثمة، فإذا هو أبو خيثم الأنصاري، وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه[٥] المنافقون.

قال كعب بن مالك: فلمّا بلغني: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه قافلاً[٦] من تبوك؛ حضرني بثّي[٧]، فطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بم أخرج من سخطه غداً؟ وأستعين على ذلك كل

---

١ - تفارك الغزو، تقدم الغزاة، وسبقوا، وفاتوا

٢ - والنظر في عطفيه، أي: جانبيه، وهو إشارة إلى إعجابه بنفسه، ولباسه

٣ - مبيضاً: لابس البياض

٤ - يزول به السراب، يتحرك، وينهض، والسراب ما يظهر للإنسان

٥ - لمزه المنافقون: عابوه.

٦ - قافلاً: راجعاً

٧ - بثّي: حزني

www.abulhasanalinadwi.org

ذي رأي من أهلي، فلما قيل لي: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل قادماً (١) زاح (٢) عنّي الباطل، حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبداً، فأجمعت صِدقَه (٣)

وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادماً، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد، فيركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلمّا فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، فجئته، فلمّا سلمت؛ تبسم تبسُّم المغضب، ثم قال: "تعال"، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: "ما خلّفك؟ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟" قال: قلت: يا رسول الله! إني والله! لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا؛ لرأيت أن سأخرج من سَخطِه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً(٤)، ولكني والله! لقد علمت، لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني؛ ليوشكن (٥) الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدّثتك حديث صدق تجد عليّ فيه (٦) إني لأرجو فيه عقبى الله(٧)، والله! ما كان لي عذر، والله! ما كنت قط أقوى، ولا أيسر منّي حين تخلّفت عنك، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أما هذا؛ فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك".

---

١ - أظل قادما، أقبل ودنا قدومه، كأنه أبقى على ظله

٢ - زاح: أزال

٣ - أجمعت صدقه، عزمت على صدقه.

٤ - أعطيت جدلا: فصاحة، وقوة في الكلام، وبراعة.

٥ - ليوشكن: ليسرعن.

٦ - تجد علي فيه: تغضب.

٧ - إني أرجو عقبى الله: يعقبني خيراً، ويثيبني عليه.

www.abulhasanalinadwi.org

فقمت، وثار رجال من بني سلمة، فأتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك أذنبت ذنباً، قبل هذا، لقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر به إليه المخلفون، فقد كان كافيك ذنبك استغفارُ رسول الله صلى الله عليه وسلم لك، قال: فوالله! ما زالوا يؤنّبونني (١) حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكذّب نفسي.

قال: ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي من أحد؟ قالوا: نعم، لقيه معك رجلان، قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، قال: قلت: منْ هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمريُّ، وهلالُ بن أمية الواقفي، قال "فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً، فيهما أسوة، قال: فمضيت حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا نحن الثلاثة من بين منْ تخلّف عنه.

قال: فاجتنبنا الناسُ، وقال: تغيّروا لنا حتى تنكّرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي؛ فاستكانا(٢) وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا، فكنت أشب القوم، وأجلدَهم(٣) فكنت أخرج، فأشهد الصلاة، وأطوف في الأسواق، ولا يكلّمني أحدٌ.

وآتي رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فأسلم عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي، هل حرّك شفتيه بردِّ السلام، أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه، وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي؛ نظر إليّ، وإذا التفتُ نحوه؛ أعرض عني، حتى إذا طال عليّ ذلك من جفوة

---

١ - يؤنبونني: يلومنني أشد اللوم

٢ - استكانا: خضعا.

٣ - أشب القوم، وأجلدهم: أي: أصغرهم سناً، وأقواهم.

www.abulhasanalinadwi.org

المسلمين، مشيت حتى تسوّرت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي، وأحب الناس إليّ، فسلّمت عليه، فوالله؛ ما ردّ عليّ السلام، فقلت له: يا أبا قتادة! أنشدك بالله (١)! هل تعلم أني أحبّ الله، ورسوله؟ قال: فسكت، فعدت، فناشدته، فسكت، فعدت، فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم! ففاضت عيناي، وتولّيت حتى تسوّرت الجدار.

فبينما أنا أمشي في سوق المدينة، إذا نبطي من نبط أهل الشام(٢) ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدلّ على كعب بن مالك؟ قال: فطفق الناس يشيرون له إليّ، حتى جاءني فدفع إليّ كتاباً من ملك غسَّان، وكنت كاتباً، فقرأته فإذا فيه: أما بعد! فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان، ولا مَضْيعة (٣)، فالحق بنا؛ نواسك، قال: فقلت حين قرأتها، وهذا أيضاً من البلاء، فتايمت (٤) بها التنور فسجرتها بها(٥) حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين واستلبث الوحي، إذا رسولُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم يأتيني، فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك! قال: فقلت: أطلّقها، أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها، فلا تقربنّها، قال: فأرسل إلى صاحبي بمثل هذا.

قال: فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فكوني عندهم؛ حتى يقضي الله في هذا الأمر، قال: فجاءت امرأة هلال بن أميّة رسول الله

---

١ - أنشدك الله: أسألك بالله.

٢ - نبط أهل الشام: فلاحو العجم

٣ - مضيعة: يعني أنك لست بأرض يضيع فيها حقك.

٤ فتايمت: تيممت: قصدت.

٥ - فسجرتها: أحرقتها.

www.abulhasanalinadwi.org

صلى الله عليه وسلم فقالت له ؛ يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ! إن هلال بن أميّة شيخ ضائع ،ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: "لا ، ولكن لا يقربنّك، فقالت: إنه والله! ما به حركة إلى شيء، والله! ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأتك؟ فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، قال: فقلت: لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما يدريني ماذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب، قال: فلبثت بعد ذلك عشر ليال، فكمُل لنا خمسون ليلة على ظهر بيت من بيوتنا .

فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله ـ عزوجل ـ منا، قد ضاقت عليّ نفسي، وضاقت عليّ الأرض بما رحبت، سمعتُ صوت صارخ أوفى على سلَع (١) يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك! أبشر! قال فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء فرجٌ، قال: فآذن (٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم توبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا ، فذهب قِبَل صاحبي مبشرون، وركّض رجلٌ إليّ فرساً، وسعى ساع من أسلم قِبلي، وأوفى الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس، فلمّا جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، نزعت له ثوبي، فكسوتهما إيّاه ببشارته، والله! ما أملك غيرهما يومئذ .

واستعرت ثوبين، فلبستهما، فانطلقت أتأمَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتلقّاني الناس فوجاً فوجاً (٣) يهنّئوني بالتوبة، ويقولون:

---

١ - أوفى على سَلع، صعده، وارتفع عليه، وسلع، جبل بالمدينة معروف.

٢ - فآذن الناس: أي: أعلمهم.

٣ - فوجاً، فوجاً الفوج: الجماعة.

www.abulhasanalinadwi.org

لتهنك توبة الله عليك! حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد، وحوله الناس، فقام طلحة بن عبيد الله يُهَرْوِلُ حتى صافحني، وهنَّأني، والله! ما قام رجل من المهاجرين غيره.

قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة، قال كعب: فلمّا سلّمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: وهو يبرُق وجهه من السرور، ويقول: "ابشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك!" قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله! أم من عند الله؟ فقال: "لا، بل من عند الله" وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سُرَّ استنار وجهُه حتى كأنه قطعة قمر قال: وكنا نعرف ذلك. قال: فلمّا جلست بين يديه؛ قلت: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن من توبتي أن أنخلع[1] من مالي صدقة إلى الله والرسول صلى الله عليه وسلم، فقال: أمسك بعضَ مالك، فهو خير لك". قال: فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر، قال: وقلت: يا رسول الله! إن الله إنما أنجاني بالصدق، وإن من توبتي ألاَّ أحدِّثَ إلا صدقاً ما بقيت. قال: فو الله! ما علمت أنَّ أحداً من المسلمين أبلاه[2] الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومي هذا أحسن ممّا أبلاني الله به، ووالله! ما تعمّدت كذْبة منذ قلت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني فيما بقي.

قال: فأنزل الله - عزوجل -" لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا

---

[1] - انخلع من مالي، أتصدق به.

[2] - أبلاه الله أنعم عليه.

www.abulhasanalinadwi.org

حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لاَ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ" [التوبة: ١١٧-١١٩].

قال كعب رضي الله عنه: والله ما أنعم الله عليّ من نعمة قط، بعد أن هداني للإسلام، أعظم في نفسي من صدقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ألاّ أكون كذبْتُه، فأهلك كما هلك الذين كذبوا، إن الله قال للذين كذبوا الله حين أنزل الوحي شرَّ ما قال لأحد، وقال الله " سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ " [التوبة: ٩٥-٩٦].

قال كعب رضي الله عنه: كنا تخلفنا نحن الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له، فبايعهم، واستغفرلهم، وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرَنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله - عزوجل "وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لاَ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ " [التوبة: ١١٨].

وليس الذي ذكر الله مما خُلِّفنا، تخلفنا عن الغزوة، وإنما هو تخليفه إيانا، وإرجاؤه أمرنا (١) عمّن حلف له، واعتذار إليه فقبل منه". (١)

---

١ - إرجاؤه أمرنا: تأخيره أمرنا

www.abulhasanalinadwi.org

إن الموقف الذي اختاره الرسول صلى الله عليه وسلم من قضية كعب بن مالك، كان مختلفاً عن ذلك الموقف الذي اتخذه بشأن المنافقين، وذاك أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعلم جيداً أنهم لا يؤمنون بك من القلب، بل يتظاهرون بالإيمان بك، ويراؤون، وفي قلوبهم مرض ونفاق، فلا يغنيهم أي تأديب وتنبيه، أو معاقبة، وإنهم سيجزون جزاء أعمالهم في الآخرة، ولن تصلح أحوالهم بالعقاب الدنيوي، وبالعكس كان الرسول صلى الله عليه وسلم يثق بإيمان كعب ابن مالك ورفقائه، وكان تقصيرهم في الخروج في غزوة تبوك نتيجة غفلتهم وتكاسلهم، فكان من الأجدى اختيار موقف شدة وتعنيف، بشأن هؤلاء المعترفين بذنبهم، فقاطعهم، وقضوا خمسين يوماً في الكرب، والقلق النفسي، وكان هذا الموقف التأديبي وفق الوحي الإلهي، كما يتجلّى من سلوكه صلى الله عليه وسلم معهم.

آثار غزوة تبوك:

كان من أعظم مكاسب هذه الغزوة أن الدولة الرومية التي كانت في أوجها وقد دحرت جيوشُها بقيادة هرقل جيوشَ إيران، وأوغلت في ديارها، وكانت ترهب العرب، خارت قواها، ولانت قناتها أمام إيمان المسلمين الثابت الراسخ، وعزائمهم السامية القوية، وبسالتهم وبطولتهم وجرأتهم النادرة، وبدأت تحسب له حساباً لم تحسبه من قبل، يقول الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي في كتابه "السيرة النبوية":

" كانت الغاية في الحقيقة من هذه الغزوة إرهاب الدولة المجاورة، التي كانت تخاف معرتها على مركز الإسلام والمسلمين، وعلى الدعوة الإسلامية الزاحفة، وقوتها الناشئة، ومنعها من أن تطمع في غزو

---

[١] - صحيح البخاري: ٤٤١٨، وصحيح مسلم: ٠، ٢٧٦٩سيرة ابن هشام ٢/٥٣١-٥٣٧، وزاد المعاد: ٣/٥٥٢- ٥٥٧.

www.abulhasanalinadwi.org

المسلمين في عقر دارهم، وأن تعتبرهم مالاً سائباً، أو لقمة سائغة، فمن كان هذا شأنه لا يتقدم بجيوشه إلى هذه الإمبراطورية العظيمة، ويدخل في حدودها متحدياً متهدداً، وتلك هي الحكمة التي ذكرها القرآن في سياق الآيات التي نزلت في غزوة تبوك وقال: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ" [التوبة: ١٢٣].

وقد تحققت هذه الغاية، فلم يقابل الروم هذا الزحف؛ بزحف مقابل، وبتحركات عسكرية، بل كان هنالك نوع انسحاب مقابل هذا التحدي السافر، وصاروا يحسبون لهذه القوة الناشئة حساباً لم يحسبوه من قبل.

والحكمة الثانية في هذه الغزوة الجريئة، بل في هذه المغامرة الخطرة، هي إدخال الرعب في قلوب القبائل العربية التي لم تدخل في الإسلام في جزيرة العرب، والقبائل العربية المتنصرة الخاضعة لنفوذ الإمبرطورية الرومانية، والتابعة لها، وإتاحة الفرصة لها للتفكير في أهمية الدين الإسلامي جدياً، وأنه ليس من الفقاقيع والنفاخات التي تعلو سطح الماء، ثم تغيب، وأن له مستقبلاً زاهراً، لعل ذلك يفتح لها الطريق في الدخول في الإسلام، الذي ظهر في أرضهم وبلادهم، وذلك ما أشار إليه القرآن بقوله في الذين خرجوا في هذه الغزوة "وَلاَ يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ" [التوبة: ١٢٠].

وقد كان الروم لا يزالون يذكرون غزوة مؤتة التي لم يقضوا منها حاجة في نفوسهم ولم يشفوها، وقد أسفرت عن انسحاب كل فريق

www.abulhasanalinadwi.org

راضياً من الغنيمة بالإياب، وقد أضعفت رهبة الدولة البيزنطية وجيوشها الجرارة في نفوس العرب.

وبالجملة فقد كانت لهذه الغزوة أهمية كبيرة في السيرة النبوية، وتاريخ الدعوة الإسلامية، وتحققت منها غايات كانت بعيدة الأثر في نفوس المسلمين والعرب، ومجرى الحوادث في تاريخ الإسلام". (١)

وبغزوة تبوك التي كانت في رجب من السنة التاسعة للهجرة، انتهت الغزوات والتحركات العسكرية التي قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم منذ السنة الثانية للهجرة للدفاع عن المسلمين وضمان سلامتهم وبقائهم في المدينة، وبذلك لم يقض الرسول صلى الله عليه وسلم من مدة النبوة الممتدة على ٢٣ سنة إلا ثمان سنوات منها في محاربة الأعداء، وإقرار الأمن، ونشر الخير والفضيلة، وقضى ١٤ سنة في مكة في الصبر وتحمُّل الأذى، وكفِّ اليد، ولم يتخذ أي إجراء حربي؛ بل كانت نشاطاته وجهوده كلها مركزة على إيصال رسالة الحق، ودعوة الناس إلى الله ربِّهم، ولما استدعت الظروف إلى القيام بإجراءات لردِّ كيد الأعداء، حارب الأعداء، وبعث سرايا وبعوثاً إلى أجزاء مختلفة من الجزيرة العربية وخارجها لمواجهة العدو المهاجم، وفترةُ الحرب والقتال لا تتجاوز ثمان سنوات، ثم انتهت هذه الغزوات والتحرُّكات بانتصار الجيش الإسلامي، وغلبة الحق على الباطل، فبغزوة تبوك انتهت سلسلة الغزوات، وزالت الحواجز والعقبات التي كانت يضعها الأعداء في سبيل إنشاء النظام الإسلامي للحياة الإنسانية، فاستتب الجوُّ، ولاءم الوضع، وتهيأت الفرصة للمسلمين ليقضوا حياتهم وفق المنهج الإسلامي للحياة؛ بحرية، وبدون خوف.

---

١ - السيرة النبوية للشيخ الندوي ص: ٣٦٣-٣٦٤

www.abulhasanalinadwi.org

مسجد ضرار:

كان المنافقون يسعون دائماً لإحداث التفرقة والانشقاق في الصف الإسلامي، وكانوا يفكرون من مدة في بناء مسجد مقابل مسجد القباء؛ ليصلي فيه الضعفاء وأهل العلة في الليلة الشاتية إذا تعذر عليهم الذهاب إلى مسجد القباء، قال أبو عامر الذي كان قد تنصَّر من الأنصار، للمنافقين: ابنوا مسجدكم، واستمدوا ما استطعتم من قوة وسلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فآتي بجند من الروم للقضاء على المسلمين في المدينة، واستئصال شأفتهم، وإخراج محمد وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي عند خروجه إلى تبوك، وسألوه أن يأتيهم، فيصلي في مسجدهم، وذكروا أنهم بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة، فنحب أن تصلي فيه وتدعو بالبركة.

فقال: إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله، فلما قفل راجعاً إلى المدينة من تبوك، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه جبرئيل بخبر مسجد الضرار، وما اعتمده بناته من الكفر، والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن معين بن عدي إلى ذلك المسجد ليهدمه ويحرقه، وقد نزلت الآيات التالية في هذا المسجد:

"وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ" [التوبة: ١٠٧-١٠٨].

فرض الزكاة:

في هذه السنة التاسعة فرضت الزكاة، ومعنى الزكاة أنه إذا بلغ

www.abulhasanalinadwi.org

صاحب المال مقداراً خاصاً من المال فعليه أن يخرج من ماله نصيباً مفروضاً، ويؤتيه الفقراء والمعوزين والقاصرين مالياً، وتقررت الزكاة ركناً من أركان الإسلام الأساسية الخمسة؛ الركن الأول: عقيدة التوحيد، والركن الثاني: الصلاة، والركن الثالث: صيام رمضان، والركن الرابع: الزكاة، والركن الخامس: حج البيت الحرام مرة في العمر إذا استطاع إليه سبيلاً.

فرضت الزكاة على من يملك من المال ما يبلغ النصاب الشرعي المقرر، ومن لا يملك هذا النصاب فليس عليه الزكاة، فإذا نال أحد مالاً فعليه أن يخرج من ماله البالغ حد النصاب، ٢,٥ ٪ منه ويصرفه على المحتاجين والفقراء، وبذلك تقرر الإسلام ديناً يؤاسي الفقراء، ويحب لهم الخير، ومن خصائص الدين الإسلامي أنه يعلم أتباعه مواساة الآخرين من بني جلدتهم ومساعدتهم، وكذلك يدعو العبد لأداء الشكر للربِّ عز وجلّ، على ما أنعم عليه به، ويؤاسي عباده، وقررت هذه الأعمال عبادة يثاب عليها فاعلها.

انتهاء مرحلة الشدة والمحنة في عمل الإصلاح والدعوة:

كانت هذه السنة سنة غزوة تبوك، السنة الثانية والستين من حياة الرسول الطيبة المباركة، إنه صلى الله عليه وسلم قد قضى في أربعين سنة من عمره قبل البعثة حياة طيبة نقية طاهرة صافية متصفة بأعلى الشيم، وأكرم السجايا، وأنبل الخلال، وأعظم الأوصاف الحميدة، فكان محبوباً مرضياً لدى أقاربه وأقرانه، ومواطني بلدته، يحبونه ويجلونه ويثنون عليه، ويدعونه بـ "الصادق الأمين" ثم بُعِثَ وأوتي النبوة، فقام بإصلاح الناس، فلقي الأذى، وواجه المعارضة والعداء، وتحمَّل الأذى، واستمر هذا العمل عمل الدعوة والإصلاح ٢٣ سنة،

www.abulhasanalinadwi.org

قضى منها ١٤ سنة في إيصال الدين ونشره إلى الناس كافة ؛ صابراً ومحتملاً للأذى والظلم من قِبَل الأعداء، تحمَّل في هذه المدة الطويلة القاسية أنواعاً من الظلم، وألواناً من العداء والكيد، صابراً محتسباً، كافاً يده، وظل صابراً على أذى العدو حتى غادر وطنه إلى المدينة إذا حيكت خيوط المؤامرة لقتله، ولما خطط العدو لشنِّ الهجوم عليه في عقر داره، وتفاقم خطر الهجوم، أُذِنَ بالردِّ على الهجوم، ولما اشتدت إجراءات العدو، وشنُّوا حروباً شعواء، أذن بالردِّ على القوة بالقوة، والحرب بالحرب، وجهاً لوجه، واضطر الرسول في السنوات السبع الأخيرة من السنوات العشر في المدينة، إلى اللقاء بطريق مسلح، ومضت سنتان منها في الهدنة والمصالحة، فمن هذه الناحية لم يقض إلا ست سنوات في مواجهة الأعداء بالقوة، وانتصر المسلمون في هذه المواجهات العسكرية في أغلب الأحيان، ولم يزل عمله الدعوي في إقبال وتقدُّم، حتى غلب الحق، وزهق الباطل، وانكسرت شوكة الأعداء، وضعفت قوتهم، وكان موقف الرسول في هذه المدة (ست سنوات) نموذجاً مثالياً لرحمته وحبه للسلامة والخير للإنسانية، وعفوه وصفحه في هذه المدة للغزوات والسرايا والبعوث.

فإن الصورة التي تقدمها هذه المدة عن الخسارة في الأرواح في المواجهة والقتال، يمكن أن تكون اكتشافاً غريباً مثيراً للاستعجاب لدى أدعياء الأمن الغربيين .

فقد أريق في سائر الغزوات والسرايا التي بعثها الرسول صلى الله عليه وسلم وجميع التحركات والمحاولات لردِّ كيد الأعداء التي يبلغ عددها ٨٢ محاولة ـ قاد الرسول صلى الله عليه وسلم ٢٨ منها بنفسه ـ أقل دم عرف في تاريخ الحروب والغزوات، فلم يجاوز عدد القتلى كلها

www.abulhasanalinadwi.org

٩١٨ قتيلاً من الفريقين، ٤٥٩ من المسلمين و ٤٥٩ من الأعداء، وأسر أحد عشر مسلماً و ٦٥٤٦ شخصاً من الأعداء في سائر هذه المحاولات، وأطلق سراح هؤلاء الأسرى كلهم بالفدية، أو بدون شرط وغرامة، وأما الأسرى الذين أطلق سراحهم دون شرط أو غرامة، فعددهم : ٦٣٤٧ أسيراً، ولم يتخذ ضدهم إجراء، وكذلك عدد الجرحى من الفريقين في جميع الغزوات والسرايا لم يتجاوز ٣٠٠ جريحاً. (١)

وقد عامل الرسول صلى الله عليه وسلم مع الأسرى حتى ألدّ الأعداء معاملة اللين والصفح والإحسان، وهذا من خصائص الإسلام، أن الإجراءات العسكرية في الإسلام لا تتخذ لبسط النفوذ على النفوس، وإقامة السلطة فحسب؛ بل تبذل المحاولات العسكرية لإقامة حياة الحق والصدق والنزاهة، وإنشاء مجتمع يسوده الحق والعدل والصدق والأمن، ولا يسمح الإسلام باتخاذ الإجراءات ضد من يبدون رضاهم واستعدادهم لقبول سيادة الحق وتنفيذه، فيعطيهم المسلمون الفرصة للقيام بذلك، ويدعونهم وشأنهم، ولا يأخذون منهم إلا فدية، وإذا أصرّ الأعداء على الكفر وأبوا أن يقبلوا الحق، وصدُّوا الجهود المبذولة للإصلاح ونشر الحق، يؤذن المسلمون بأن يختاروا الشدة وطريق المواجهة المسلحة إذا اقتضتها الظروف، فقد ورد في القرآن الكريم "الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ" [الحج : ٤١].

وورد حكم الجهاد والإذن بالقتال في القرآن على النحو التالي :

"وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا

---

١ - انظر : مجلة صفا تائمس بالأردية الصادرة من دلهي المجلد : ٢، العدد: ٥، أبريل ويونيو ٢٠٠٦م.

www.abulhasanalinadwi.org

عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ" [البقرة: ١٩٣].

ونظراً إلى الشريعة الإسلامية الشاملة المستوعبة للخصائص والكمالات، والحياة الجامعة للصفات الإنسانية النبيلة، والأوصاف الحميدة، والخلال المرضية، بلَّغ النبي الخاتم الرسالة الإلهية، وأدَّى الأمانة، وقام بمهمة هداية الناس خير قيام، ولما أجبر على استخدام القوة، استخدم القوة، كما أمر الله بذلك، وقد بين الله غرض التدافع والمواجهة وأهميته بقوله في القرآن الكريم "وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا" [الحج: ٤٠].

وألقى الرسول من بعده على أصحابه وأتباعه إلى يوم القيامة، مسئولية هداية الناس، ومواصلة دعوتهم إلى أعمال الخير والحياة الإنسانية الكريمة، وقرر هذا العمل الدعوي ذلك العمل الجليل الذي لم يزل يبعث الأنبياء والرسل لأجله، وقدم بأعماله وأقواله وسيرته العطرة، منهجاً سليماً للحياة الإنسانية الكريمة، ليس طريق النجاة للناس إلى يوم القيامة فحسب؛ بل يوافق طبائعهم، ويسهل عليهم العمل به، واختياره في كل عصر ومصر، وقد جاء رسول الله بهذا المنهج الرباني الإسلامي للحياة بصفته النبي الخاتم الكامل الجامع العالمي.

مقارنة حروب المسلمين بحروب غيرهم:

لابدَّ من الإيضاح أمام الذين يعتبرون الغزوات والحروب الإسلامية ظلماً وعدواناً، إنه إذا قورن التسامح الإنساني، والسلوك الحسن، والعفو والصفح للمسلمين في الحروب، بما وقع في الحروب التي جرت بين مختلف أتباع الأديان والحضارات؛ من ذبح وقتل للنفوس، وسفك وإراقة للدماء، وتدمير وهدم للبيوت، ودمار وفساد

www.abulhasanalinadwi.org

في الأرض، وإبادة وتصفية للجنس البشري، لظهر للعيون نموذج باهر وانقلاب عظيم لتعاليم الإسلام الرحيمة الداعية إلى كرامة الإنسان وصيانته، والصفح والعفو حتى عن الأعداء الألداء، فسِوَى الإسلام لم يتمكن دين أو شعب، أو مجتمع أو مؤسسة ساعية لإحلال الأمن حتى الآن؛ من إحداث انقلاب لحب الأمن والبحث عن الحق، أحدثه الإسلام في الفترة الوجيزة بفضل تعاليمه ومواقفه المتسامحة العادلة، وكان هذا الانقلاب النادر انقلاباً مثالياً باهراً، أرسى الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم على أساسه قواعد نظام رباني تلمس آثاره على النفوس، وتلاحظ بركاته وخيراته على القلوب إلى اليوم، رغم مرور قرون على إنشائه.

وقع ٧٣ أسيراً في أيدي المسلمين أول مرة في غزوة بدر، فأطلق الرسول صلى الله عليه وسلم سبعين منهم بالفدية، كان المسلمون يكرمون هؤلاء الأسرى ويعاملونهم معاملة الضيف، فقد اعترف كثير منهم بأن المسلمين كانوا يهتمون بشأنهم أكثر من أولادهم.

وبعد بدر وقع في أيدي المسلمين من الأسرى أكثر من مائة رجل وامرأة في غزوة بني المصطلق، ولكن أطلقوا جميعاً دون عوض.

وفي الحديبية تمَّ أسر ثمانين من رجال جبل التنعيم فأطلق النبي صلى الله عليه وسلم سراحهم دون شرط وغرامة.

وفي حنين أطلق ستة آلاف رجل وامرأة دون مقابل، وأعطى النبي صلى الله عليه وسلم لتحرير البعض مالاً من عند نفسه، وسرح أغلب الأسرى بعد منحهم حلة أو جائزة.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن قتل النساء والأطفال والشيوخ، ويوصى إذا أرسل سرية إلى جهة: إذا لقيتم

www.abulhasanalinadwi.org

منكري الله لا تمثّلوهم، أي لا تشوهوا أعضاءهم، ولا تخونوهم إذا عاهدتموهم، ولا تقتلوا النساء والأطفال والشيوخ.

ولم يكن يُسْمَحُ المسلمون بالإغارة على قرية أو قبيلة، يسمع منها نداء الأذان، أو وجدوا فيها ما يدل على الإسلام فيها، ويمنع الرسول صلى الله عليه وسلم عن قتل من نطق بالشهادة؛ ولو كان خوفاً من السيف، وإذا قال الصحابة: يا رسول الله! نطق بالشهادة فراراً من القتل، قال: "هلاّ شققتم عن قلبه". وقد غضب الرسول صلى الله عليه وسلم على أسامة بن زيد ومحلم بن جثامة على قتل من نطق بالشهادة إذا سلّ عليه السيف من الغمد، وكان قد أخذ من أسامة بن زيد الموثق أن لا يقتل في حياتي وبعدي من نطق بالشهادة من العدو، وإذا صدر من خالد بن الوليد خطأ في هذا الصدد، غضب عليه الرسول صلى الله عليه وسلم غضباً شديدا ([1]) وقد ذكر ابن كثير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر يوم حنين: لا تقتلوا النساء والأطفال والشيوخ، وكذلك الأجراء ممن لا يشركون في القتال ضد المسلمين، وقد أبدى استنكاره الشديد على قتل امرأة قتلت يوم حنين بيد خالد بن الوليد. ([2])

ومن آثار تربية نبي الرحمة هذه أن الخلفاء الراشدين فتحوا العراق والشام ومصر وإيران وخراسان وبلداناً أخرى، ولكن لم يعاملوا الأعداء والمحاربين والرعية معاملة الشدة والقسوة التي كانت عامة في حروب تلك العصور، ولم يسترقّوا أحداً من الرعية، ولا أخذوا غرامة الحرب.

قَارِنْ ذلك بتاريخ الأمم والشعوب التي تتهم الإسلام بالإرهاب

---

[1] - أصح السير للشيخ الدانافوري(بالأردية) ص: ٣٤٥-٣٤٦.

[2] - سيرة ابن كثير: ٦٣٨/٣.

www.abulhasanalinadwi.org

والعنف، لتجده مليئاً بالجرائم الوحشية والبربرية، وتجد أن هذه الأمم والحكومات تعامل مع أسرى الحرب معاملة وحشية تقشعر منها الجلود، وتشمئز منها النفوس.

في الثورة الجمهورية في فرنسا قد ذبح الناس، وقتلوا تقتيلاً، وإذا لم يعد قتلهم فردياً، قام الثوار بقتل الناس جماعياً، وأوجدت آلة تزيل هامات عشرات منهم في ضربة واحدة كالنارجيل، وقد ذكر المؤرخون أن نحو ٢٦٠٠٠٠٠ نسمة ذهبوا ضحايا لهذه الثورة الفرنسية.

وفي الثورة البلشفية الرومية ذهب أكثر من عشر ملايين إنسان ضحايا للقتل والإحراق والسجن في المعتقلات الجبلية.

وفي الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ـ ١٩١٨م) مارست الدول الأوربية الكبرى عمليات القتل والفتك والتدمير بشكل أبشع وأفزع من أجل تحرير مناطقها من ألمانيا، فقتل ١٧٠٠٠٠٠٠ إنسان من روسيا، و ١٣٧٠٠٠ فرنسي، و ٤٢٠٠٠٠ إيطالي، و ٨٠٠٠٠٠ إنسان من أستراليا، و ٧٢٠٠٠٠ نسمة من بريطانيا، ومائة ألف من بلغاريا، ومائة ألف من رومانيا، ومائة ألف من أريتيريا، و ٢٠٥٠٠٠ من تركيا، و ١٠٢٠٠٠ من بلجيكا، ومائة ألف من سروما نتي نيجرو، و ٥٠٠٠٠ أمريكي، ويبلغ عدد إجمالي القتلى ٧٣٣٨٠٠٠ قتيل، واستمرت هذه الحرب الضروس الوحشية أكثر من أربع سنوات.

وقارن ذلك بقتلى الحروب التي خاضها الرسول وأصحابه في الفترة التي امتدت على ثمان سنوات، فلم يتجاوز عددهم ألف قتيل من الطرفين، أ يتهم الغارقون في سفك دماء الإنسان، الإسلامَ بالظلم والإرهاب والعنف؟ وقد عاثت الدول الاستعمارية في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ـ ١٩١٨م) والثانية (١٩٣٨ـ١٩٤٢م) في القرن المنصرم،

www.abulhasanalinadwi.org

في الأرض فساداً، واستخدمت أسلحة جديدة أشد فتكاً، وأحدثت القوى العالمية الاستعمارية خسائر فادحة في الأرواح والممتلكات؛ قدرت بأكثر من تريليونات ومليارات من الدولار وباوند، وقرر عدد القتلى بنحو ٠٠٠ر٠٠ر٠٦ر١ إنسان من مختلف الدول، وأنفقت أمريكا بمفردها أكثر من خمسين وثلاثمائة مليار دولار، وتعرَّض أكثر من ٠٠٠ر ٠٠ر٠٠ر١ مواطن أمريكي للتشريد والنفي، والعيش في الصحراء، وخسر الاتحاد السوفيتي ٠٠٠ر٧٥٠ قتيل، وخسرت الصين بمفردها ٠٠٠ر٢٠٠ر ٢ قتيل، وبلغ عدد الجرحى ٨٠ مليوناً كما خلفت ملايين لا تحصى من المعوقين والمشردين والمفقودين، وبأثر الجراثيم النووية يولد ملايين من الأطفال مشوهين ومعاقين.

ومما يثير الاستعجاب والحيرة أن الحرب وجهاً لوجه تُعَدُّ حرب شجاعة وبسالة، ولكن أمريكا ألقت في الحرب العالمية الثانية قنبلة نووية على مدينة هيروشيما اليابانية فمات على الفور ٠٠٠ر ٧٠ مواطن ياباني، والعجيب أنه بعد ثلاثة أيام فقط ألقت أمريكا القنبلة الثانية على مدينة ناجاساكي، فمات على الفور ٠٠٠ر٦٠ مواطن آخر، ثم ارتفع عدد القتلى في السنوات التالية ٠٠٠ر٧٥ر ٢ إنسان، بسبب ما خلفته القنبلة من إشعاعات، كما وصل عدد الجرحى إلى ٠٠٠ر١٥٧ شخص.

كانت أمطرت القنابل الثقيلة التي وصل ثقلها ٠٠٠ر١٢ طن، على المناطق المأهولة بالإنسان مما زاد مقياس الحرارة إلى أكثر من٠٠٠ر٥ درجة فورن هائيت، ماذا كان حال الإنسان في هذا الوضع الرهيب؟ لا يمكن تصوُّره، وبعد ذلك استمرت سلسلة القتل والتدمير إلى مدة.

وما جرت هذه الحروب الطاحنة الدموية لهدف إنساني أو لخدمة المظلومين، بل كانت كلها للقضاء على سيطرة دولة استعمارية على

www.abulhasanalinadwi.org

منطقة، وإحكام سيطرة دولة أخرى عليها.

وبعد هذه الحروب المرعبة الدموية للسيطرة على المناطق والاستبداد بالحكم في العالم جرت حرب ضروس تعرف بالحرب الكورية عام ١٩٥٥م وقد شنتها أمريكا للاستيلاء على كوريا، وقد أسفرت هذه الحرب الكورية عن قتل أكثر من مليون ونصف مليون إنسان.

وفي الحرب الخليجية التي قادتها القوة العالمية أمريكا قتل مائة ألف إنسان، وفي حرب أفغانستان التي قامت بها القوة العالمية روسيا في الفترة ما بين ٢٥ ديسمبر ١٩٧٩م - ١٩٩٠م قتل أكثر من مليون إنسان، وأسفرت هذه الحرب عن وقوع خسائر جسيمة في الممتلكات، بينما يعيش ملايين من الناس في العراء ودمرت منازلهم تدميراً ([1]).

ونشر الأستاذ عبد الماجد الدزيابادي ([2]) في صحيفة "صدق جديد" بالأردية في عددها الصادر في ١٩/يونيو عام ١٩٣١م مقتطفات نقلاً عن قائد القوات البريطانية والألمانية، تقدم صورة مرعبة عن بربرية الجنود الألمان والبريطانيين وتعطُّشهم لسفك الدماء والقتل والفتك بأبشع صورة وأفزعها وإليك النص:

" لا تقيم السلطات البريطانية لجنودها قيمة، وليس لهم حق في الحياة، ولا أهمية، بل إنهم لقمة سائغة للمدافع فقط". [الكلام للجنرال ايلت دي، اس، او، أستراليا].

هذا الكلام ليس لعدو لبريطانيا، بل لصديق لها، وليس لموال

---

[1] - مجلة صفا تائمس دلهي السنة: ٢ العدد: ٥ أبريل ويونيو ٢٠٠٦م ص: ١٠-١١، وانظر للتفصيل: كتاب" الرحمة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم" للدكتور راغب الحنفي السرجاني، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، ٢٠٠٩م.

[2] - هو أديب ومفسر هندي وصحافي بارز باللغة الأردية، نالت تفسيره بالإنجليزية والأردية قبولاً عاماً لدى العلماء، وأصدر صحيفة سيارة أثرت تأثيراً على الأذهان والنفوس وتكوين الرأى والاتجاه الإسلامي.

www.abulhasanalinadwi.org

لعدوها، بل لحليف لها، وقد أدلى بهذا البيان قبل أيام.

وقد قام أحد أبناء بريطانيا البواسل وأحد قوادها المغاوير وأحد مسئوليها الأوفياء بجمع حقائق مرعبة، ثم نشرها في كتاب بعينه، فأزاح القناع عن وجه بريطانيا الكالح، وسجلها الإجرامي المليئ بالفتك وسفك الدماء، والهمجية والبربرية والوحشية، وهذا الكتاب الوثائقي ليس من سير العالم وأحداثه، بل إنه يتحدث عن السيرة الذاتية، وليس مجموعة للروايات المسموعة، بل مجموعة للمشاهدات، وأما مؤلف الكتاب فهو ليس كمؤلف يبني كتابه على الحكايات المروية والروايات المسموعة، بعيداً عن مكان الأحداث، بل أن مؤلف الكتاب قد خاض بنفسه غمار الحرب العالمية الثانية، وشارك فيها من أولها إلى نهايتها، كان في البداية مسئولاً أدنى، ثم تقدم حتى أصبح رفيع المستوى في الجيش، عبَّأ كتائب وقادها، وخاض الحرب في الخنادق، وانتصر في معارك، وفتح معاقل، حاز الجوائز، ولقب بالألقاب السامية، كان قبطاناً(نقيباً) ثم رقي إلى منصب ميجر(الرائد) حتى وصل إلى منصب اللواء العام، اسم هذا الرجل"ايف بي جرومير" وحائز على ألقاب سي بي سي جي دي ايس او الحربية، وسمى كتابه : Brass nation no man's land وهو محاورة حربية، ونشره جوميتهن كب بلندن أول مرة في أبريل عام ١٩٣٠م، فنفدت طبعته الأولى في أيام، ثم نفدت طبعته الثانية والثالثة أيضاً في أقصر وقت، ولا يعلم إلا الله كم من طبعات له نشرت ونفدت منذ ذلك اليوم، فخذ هذا الكتاب بيدك واقرأ فيه صورة الحرب الإنجليزية وبربرية الجنود الإنجليز، يقول مؤلف الكتاب :

" كان هدف الحرب كما يقول ايسكويتهـ وكري، دفع الشر ومكافحته، ونشرت "ديلي ميل" في صفحاتها أن الحرب لا تهدف إلا إلى

www.abulhasanalinadwi.org

الإصلاح البحت"، ولكن الضباط يحرضون في كلماتهم المثيرة الحماسية الجنود والشرطة على شيء آخر، نذكر فيما يلي مقتطفات منها:

انبذوا إنسانيتكم وراءكم ظهرياً، وانسوها، واجعلوا قلوبكم قاسية كالحجارة، بل أشد منها، وكونوا صما وعمياناً من الموت والحياة، إنها الحرب، الحرب [ص: ٤٠]

ليس عملي في هذا الوقت إلا أن أغير نفسية أكثر من ألف شخص، وتربيتهم وسيرتهم وتفكيرهم في أقصر وقت وأقرب فرصة، وعليّ أن أثير فيهم رغبة شديدة في سفك الدماء والقتال وجها لوجه ويداً بيد، وأن أفسد قلوبهم وأذهانهم بسموم الدعاية الكاذبة، ومظالم وجرائم الألمان الحربية، واستخدامهم للغازات السامة، واغتصاب الفرنسيات والاغتيال الرسمي لـ"كيول" الممرضة، كلها تجري في إحداث البربرية والوحشية والهمجية التي لا بد منها في نيل الانتصار والمبتغى، وعليّ أن أحدث فيهم طبيعة القتل وسورة الغضب بأمر تافه أو بدون سبب، لأن النتائج المقصودة من الحرب لن تتحقق بدون ذلك، عليّ أن أدخل هذه السموم الفتاكة في القلوب الرقيقة والطبائع الصالحة، وتستخدم لهذا الغرض سائر الوسائل من الأناشيد العسكرية والصناجات العسكرية، وفرض الحظر على الموسيقي والأغاني اللطيفة الدينية، إلا في الكنائس بشرط أن لا تكون هذه الأغاني إلا في الألحان أوالموسيقي الحربية، والكنائس قد فاقت جميع الوسائل في إثارة غريزة سفك الدماء والفتك واستخدمناها في هذا الغرض استخداماً. (ص: ٤٢-٤٣].

"ويدسُّ سمُّ الكراهية والنفور ويشرب في قلب الجندي البريطاني، لتثور ثائرته، وتحمس نفسه لسفك الدماء، وتسرد أمامه أخبار القتلى المتلطخين بالدماء بغاية من القساوة واللامبالاة والضرارة؛

www.abulhasanalinadwi.org

لا بأسلوب التألم والأسى، وسيأتي أوان، وأنا واثق، لا تحرك الجراحات المؤلمة والأعضاء الممزقة المبعثرة فيه ساكنا، ولا تثير فيه شعوراً بالألم والأسى، ولا يقيم للموت وزناً ولا يعيره أهمية، بل يتضاحكون ويسخرون، ويذكرون مشاهد القتل والفتك المرعبة ويتلذذون ويفرحون، ويطمئنون بأنهم بقروا البطون، وفلقوا الهامات، وكسروا الأيدي، وقطعوا الأرجل، وأراقوا الدماء أكثر ما أصابهم من خسائر في الأرواح والأموال، واستمرت بهم هذه القسوة والهمجية والبربرية حتى استيقنت نفوسهم أن كل ما يمارسونه من قتل وفتك وتدمير واغتصاب، فهو جائز ومشروع، وان ما تفعله ألمانيا هو غير مشروع، ويثير الكراهية، ولا مفر في الحرب مما نفعله والطرفان كلاهما على طريقته.. [ص: ٤٣- ٤٤].

"وأنا أملك نفسي وقد تغلبت على ما تختلج في قلبي ونفسي من أحاسيس وعواطف، وأعلم جيداً إثارتها أو إخمادها، كما تسخن عربات القطار حيناً وتبرد حيناً لآخر، فأكون ثائراً فائراً متحمساً عند الفتك وسفك الدماء، وأكون بارداً وحليماً رزيناً لدى تدابير الحرب، وأكون شبه حار لدى أوقات الفراغ والتسلية، وقد أصبحت خبيراً ماهراً في التلوُّن، واتخاذ الموقف حسب المقتضى، وقد رُبِّيت على الحرب وشربت وأكلت على ناجذها، وأنا ابنها وهي أمي" [ص: ٩٢].

"ما أعجز الجنود !! من أين يتأتى لهم الذكاء والفطانة؟ يؤمنون بما يسمعونه، وقد صدقوا ما أمروا، لسانهم وقلبهم واحد، وقد أيقنوا إيقاناً جازماً أن ليس همُّهم إلا أن يقتلوا ويُقْتلوا، ويذبحوا ويُذبحوا، وهم يعتقدون هذا الاعتقاد في أنفسهم، وفي الأعداء أيضاً". [ص: ٢٣]

www.abulhasanalinadwi.org

" لا يلتفت أحد إلى القتلى والموتى، وما يغني الموتى في الحروب؟ ولو ساعدهم الحظ، لكان خيراً لهم، ويدفنون في مكان بعد انتهاء الحرب، والجرحى يزحفون في محاولة للوصول إلى خط الجنود، وكم منهم من يصابون بطلقات النار في هذه الحالة الحرجة، ولكن معظمهم ظلوا مطروحين وملقين يتقلبون ويتلوون على التراب في الحر الشديد، والشمس المحرقة، لا يجدون من يرثى لحالهم، ويساعدهم في هذه الحالة المؤلمة وحلاقيمهم وشفاهم ذبل لشدة العطش، ووظيفتي في الحرب إدارتها، لارعاية الجرحى والعطف عليهم".

قد شاهدت الوجه غير المتنقب المفضوح للبيض المتمدينين، هل كان باستطاعتك قبل انكشاف القناع عنه أن تتصور أن في الحجاب المحلى بالألوان الزاهية وجهاً كالحاً، كريه المنظر، سيء المظهر بهذه الصورة المرعبة المخيفة؟ فكيف يمكن أن نتصور ظلمات الباطن في بريق الظاهر؟ ولو وضعت سائر وقائع "الجهاد" في كفة، وفي كفة أخرى وضعت حرب عالمية فحسب، ثم اجعل أمر التحكيم للعلم، لا اليقين، والعقل لا النقل، أن يحكم، فتجد أن الشرف والنبل والكرم والصفح والعفو وحب الإنسانية تتجلى في الجهاد، ومظاهر القساوة والضراوة، والبربرية والهمجية، والقتل والفتك، والسلب والنهب، والتدمير والتخريب تتجلى في حرب الأعداء، وهم يتفرجون ويشربون الخمور، ويمارسون الفحشاء، ويطربون للجرحى المحتضرين، والجثث الممزقة، وتشاهد مجالس الرقص والغناء حين حمي الوطيس، والمدافع تنطلق، وأنت تظن كيف يجد شخص في المعركة الحامية فرصة الرقص والطرب والغناء تحت وابل من الطلقات النارية، وبين الرماح والسيوف المختلفة، وبين القنا والقنابل، وبين أنين الجرحى وآهاتهم، ورائحة الأجساد العفنة والجثث

www.abulhasanalinadwi.org

الممزقة، والجثامين المتقلبة ؟ولكن نشوة البيض تجعل المحال ممكناً، والرجل الأبيض يكون سفاكاً أعق وأظلم، وبطل رواية غرامية أيضاً، في وقت واحد. (١).

وقد كتب المؤرخ الهندي الشهير أمريش مشرا في كتابه التاريخي العلمي War of civilization India the Road to Delhi (حرب الحضارات في الهند، الطريق إلى دلهي ١٨٥٧م) على أساس دلائل دامغة، ووثائق تاريخية، وإحصائيات رسمية أن الإنجليز قتلوا في ثورة ١٨٥٧م نحو عشرة ملايين من الهنود، وهم جميعاً كانوا أبرياء، ولم تكن لهم جريمة إلا أنهم بدأوا حركة مكثَّفة ضد ظلم الإنجليز وعنفهم، ولكن الإنجليز الظالمين السفاكين قتلوا الهنود (الهنادك والمسلمين) بغاية من القسوة والضراوة، والهمجية لأجل الحفاظ على حكمهم الغاشم وبقائه، واستمرت هذه السلسلة الدموية منذ ١٨٥٧ إلى ١٨٦٧م بدون هوادة ".

ولم يقتل في المواجهات التي قام بها النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه في ثماني سنوات أخيرة من مدة الدعوة الممتدة على ٢٣ سنة إلا ألف نسمة من الطرفين .

ولكن أدعياء الحرية والجمهورية الذين يتهمون الإسلام بسفك الدماء، يقتلون مئات الآلاف من البشر في الحروب والغارات التي يقومون بها لتحقيق الأغراض الاستعمارية، وبالتالي ينشرون الدمار والاضطراب والفوضى والهلاك في الشعوب والبلدان، بينما حوَّل المسلمون بقيادة رسولهم العظيم في ثماني سنوات، الجزيرة العربية كلها مركزاً للأمن والسلام .

ورغم كل ذلك يضخم ويفخم الإعلام الغربي حادث مقتل

١ - المقتبس من صحيفة صدق جديد بالأردية، عدد يونيو ١٩٣١م .

www.abulhasanalinadwi.org

أشخاص بأيدي مجهولة في جزء من أجزاء العالم الإسلامي، ويعرضه بشكل مخيف، كأنه وقع ظلم عظيم، مقابل قتل مئات الآلاف من الناس في أوربا، وفي غارات أوربية على بلدان حرة، وأصبح من العادة المتبعة لدى وسائل الإعلام الغربية أن توجه أصابع الاتهام إلى المسلمين لدى حدوث كل حادث إرهاب أو عنف، أو قتل، قبل إجراء تحقيق، ومنْ المسلم؟ المسلم هو الذي يؤمن بنبيِّه وما جاء به من تعاليم وأحكام، ويضحى بنفسه في سبيله، والنبي صلى الله عليه وسلم هو رحمة للعالمين، عفا وصفح حتى عن ألد أعدائه، وأمر أتباعه باختيار اللين والرحمة والرأفة والعفو والصفح، وقد عمل المسلمون ـ رغم ما فيهم من تقصيرات ـ بتعاليم نبيِّهم الكريم، ونظرةٌ خاطفةٌ على الحروب التي خاضها المسلمون من بعد رسولهم حتى العصور المتأخرة، تدل أنهم آثروا العفو والصفح على الانتقام والظلم، وقد اعترف بذلك المنصفون من المؤرخين غير المسلمين أيضاً، وقد أسدل الإعلام الغربي المعادي للإسلام والمسلمين حجباً كثيفة على ما جرى ويجري في أوربا من قتل النفوس، وسفك الدماء، وتدمير المنازل، واستعباد الشعوب، واستعمار البلدان، والإفساد في الأرض، وقد قال شاعر عربي وصدق:

وقتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر
وقتل شعب آمن قضية فيها نظر

www.abulhasanalinadwi.org

قدوم الوفود والإقبال العام إلى الإسلام (سنة ٩هـ)

لم يعد يبقى طريق أمام القبائل العربية كلها بعد ما واجهت هزائم متكررة في المواجهات مع النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين من السنة الثانية إلى السنة التاسعة للهجرة، إلا الخضوع والاستسلام لأمره، حتى لما عاد الرسول صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك سالماً غانماً، وانسحبت القوات الرومية من مواجهته، زال خطر الحروب ضد المسلمين، كما انتهت الإجراءات المسلحة للأعداء التي كانوا يقومون بها للصد عن سبيل الله، ووضع عقبات في وجه نشر الدعوة الإسلامية، وهداية الناس، فظهر جلياً دور الرسول كهاد وقائد ومصلح، في المجتمع الإنساني، وبدأت تفد وفود القبائل العربية التي تحول العقبات بينها وبين فهم الإسلام وقبوله، إلى المدينة، لفهم الإسلام والدخول فيه.

روى ابن إسحاق: لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة، وفرغ من تبوك، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه، فكان من هذه الوفود وفد بني تميم، ووفد بني عامر، ووفد بني سعد بن بكر، ووفد بني عبد القيس، ووفد بني حنيفة، ووفد بني طيئ، ووفد بني زبيد، ووفد كندة، ووفد بني حمير، ووفد بني حارث بن كعب، ووفد همدان، ووفد عدي بن حاتم، ووفد فروه بن عمرو الجذامي، ووفد الأزد، وفدت هذه الوفود في أوقات مختلفة إلى المدينة، والتقت

www.abulhasanalinadwi.org

بالنبي صلى الله عليه وسلم ،وأسلمت معظمها، أو صالحت معه ([1]).

قدم وفد بني حنيفة، معهم مسيلمة الكذاب، وأسلم وارتدَّ، وتنبَّأ، وتكذّب لهم، وكان مثير فتنة الردة، وقتل فيها .

تدل مناطق هذه الوفود الوافدة إلى المدينة المنورة، على أن الإسلام كان قد انتشر في سائر الجزيرة العربية بفضل قدوم الوفود إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ودخولها في الإسلام، وخضع العرب لدين الله الإسلام، ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فعمَّت الرسالة المحمدية في سائر أنحاء الجزيرة العربية، بل وقبلوا الإسلام، وعضوا عليه بالنواجذ، واصطبغوا بصبغة الإسلام، وإن الحوارات التي جرت بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين ممثلي الوفود الوافدة مدونة في كتب السيرة، وكل منهم من كان يفاوض الرسول صلى الله عليه وسلم، أو يسمع كلامه، ويشاهد تعامله الحسن معه، يدخل في الإسلام، ثم يرجع مؤمناً صادقاً بعد ما عاهد الرسول صلى الله عليه وسلم على اتباع تعاليمه، وقضاء الحياة وفق دين الله الإسلام، فبهذا الطريق انتشر الإسلام في الجزيرة العربية التي كانت موزّعة منقسمة إلى قبائل متخاصمة، ومناطق متحاربة، كانت تابعة وخاضعة لنظام وثنيّ حر مؤسس على عصبية قبلية، فاجتمعت كلها تحت راية الإسلام، وخضعت لمركز واحد، ورسالة واحدة، ودستور واحد، وهو الإسلام. ([2])

وأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم بعثات ودعاة من أصحابه لينشروا الدعوة الإسلامية إلى مناطق نائية، لم تصل إليها، فبلّغوا الدعوة الإسلامية إلى أهلها فقبلوها ودخلوا في الإسلام أفواجاً، حتى

---

[1] - سيرة ابن اسحاق: ٢/٣٠٩-٣١٠.

[2] - مجمع بحار الأنوار: ٥/٢٧٢.

www.abulhasanalinadwi.org

تمّت المهمة الدعوية التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم في السنة التاسعة من الهجرة، وفتحت مكة التي كانت مركزاً دينياً لسائر العرب، وكان نظامها بيد قريش، ودانت للإسلام والمسلمين، وأصبحت مركز الإسلام.

فبعث الرسول صلى الله عليه وسلم أبا بكر أميراً للحج في نهاية السنة التاسعة للهجرة، فأقام أبو بكر رضي الله عنه نيابة عنه للناس حجتهم على الطريقة الإسلامية، وبهذه المناسبة أذن على بن أبي طالب في الناس يوم النحر بالذي أمره الرسول صلى الله عليه وسلم ،ونبذ إلى كل ذي عهد عهده، وقال: أيها الناس: لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو إلى مدّته (١).

فأعلن أنه لا يعيش في مكة والمناطق المجاورة إلا مؤمن موحد، ولا يسكن فيها مشرك أو كافر، ولا يحكمها نظام إلا نظام التوحيد والإسلام، فكان عام الوفود عام القضاء على نفوذ الوثنيّة، وتصفية الوجود الوثنيّ في جزيرة العرب، وإحلال الوجود الإسلامي محله، وإقامة الحكم الإسلامي، والنظام الإسلامي للحياة وتنفيذ أوامره.

---

١ - انظر: زاد المعاد٢/٥٩٣ وسيرة ابن هشام ٢/٥٦٠ـ ٦٠٠، والبداية والنهاية ٦/٤٠-٩٦، وطبقات ابن سعد ١٠/٢٩١-٣٥٩ السيرة النبوية للإمام الذهبي ٢/٦٦٧ـ ٦٩٥.

www.abulhasanalinadwi.org

الباب السابع

حجة الوداع

لما تمّ ما أراد الله تعالى من تطهير نفوس الأمة من شوائب الوثنية، وعادات الجاهلية، وإنارتها بنور الإيمان، وإشعال مجامرها بالحب والحنان، ومن تطهير بيت الله من الرجس والأوثان، ودانت مكة مدينةُ العرب المركزية لأمر المسلمين، وباءت محاولات قبائل هوازن وثقيف بالفشل والخيبة، ودخل العرب في الإسلام أفواجاً، وزال خطر أي حرب ضد المسلمين، وارتفعت سائر الحواجز والعقبات الموضوعة في طريق الإسلام نحو التقدم و الانتشار، أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجمع عدداً أكبر من أتباعه في مكة التي كانت تعدُّ مركزاً دينياً لسائر العرب؛ ليؤدوا فريضة الحج، ويوجه إليهم، وهم مجتمعون في مكان واحد، خطاباً عاماً، يعلمهم دينهم ومناسكهم، ويؤدي الشهادة، ويبلِّغ الأمانة، ويوصي الوصايا الأخيرة، ويأخذ من المسلمين العهد والميثاق، ويمحو آثار الجاهلية.

فلما عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحج، وأعلم الناس أنه حاجٌّ، اجتمع إليه أكثر من مائة ألف شخص من أتباعه، وتجهّزوا، وحجوا معه، فكانت هذه الحجَّة، إعلاناً عن إكمال الدعوة الإسلامية، وإقامة النظام الإسلامي بشكل منظم، كما كانت أول وآخر حجَّة قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته في العهد المدنيّ، وأصدرت فيها تعاليم وتوجيهات عامة للأمة الإسلامية،

www.abulhasanalinadwi.org

وأبرزت معالم الحياة الإسلامية وملامحها، وأعلن أن الدين الإسلامي قد أكمل للإنسان، وتمت عليه النعمة، و رضي الله له الإسلام ديناً، وقد أوضح الرسول صلى الله عليه وسلم في خطبته البليغة الجامعة التي ألقاها بهذه المناسبة أحكاماً وتوجيهات، ونظام الأخلاق، وقدم تصوراً جامعاً للحياة الحاملة لمحاسن الأخلاق، والقيم الإنسانية النبيلة، وبيَّن مبادئ وأصولاً للمنهج المثالي الرباني للحياة الإنسانية الكريمة، وأنزلت آية " الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا " [المائدة: ٣].

تضمن هذا الإعلان القرآني مبادئ رئيسية ؛ منها إكمال سلسلة التوجيهات السماوية، والتعليمات الإلهية التي كانت تنزل على الأنبياء في مختلف العصور والقرون منذ بدء الحياة الإنسانية على وجه هذه الأرض، لهداية الإنسان وإصلاحه، وبناء شخصيته وفق الشريعة الإلهية، فأكملت أحكام الدين إكمالاً، لن تكون حاجة إلى تغيير فيها، أونقصان منها، أو زيادة فيها، إلى يوم القيامة، فقال عزوجل"الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ" وكذلك أكلمت تلك المحاسن والفضائل التي يحتاج إليها الإنسان في حياته بتناسب حكيم وتوازن دقيق.

ومنها إتمام نعمة الدين والأخلاق، فقال: "وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي" أي وفّرت لكم درجة الكمال والأسوة المثلى لصلاح الإنسانية والإنسان وفلاحهما، وهديتم وبلغتم إلى تلك المكانة السامية.

ومنها إنكم أوتيتم ذلك المفتاح والصفات الحسنة التي تحتاجون إليها لبلوغ هذه المكانة السامية، بصورة دين الإسلام، ولن يتأتى رضى الله إلا بالعمل به فحسب، ويقبل الله من أعمالكم ما يوافق هذا الدين الإسلامي بقوله: "وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا" فبذلك تقررت رسالة

www.abulhasanalinadwi.org

الرسول صلى الله عليه وسلم ورسالة دينه كدين أخير للأجيال القادمة إلى يوم القيامة .

وقد بيَّن الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الحجة وقدم تعاليم مهمة بشأن المثل الإنسانية العليا والقيم الخلقية، والعدل والمساواة الإنسانية، وسلامة الإنسان، وكرامته وصيانة عرضه ودمه وماله، وقال مخاطباً الناس الحاضرين: "ألا هل بلغت ؟ قالوا: نعم، قال: اللهم أشهد فليبلغ الشاهد الغائب، فربّ مبلغ أوعى من سامع".

حجته الأخيرة وفرض الحج:

لم يحج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة بعد ما هاجر إليها، غير حجَّته هذه التي كانت في العام العاشر، فكانت حجته الأولى والأخيرة، عرفت هذه الحجة بـ" حجة البلاغ" و"حجة الإسلام" و"حجة الوداع" لأنه ودّع الناس فيها، ولم يحج بعدها، وحجة البلاغ لأنه بلّغ الناس شرع الله في الحج قولاً وعملاً، ولم يكن بقي من دعائم الإسلام وقواعده شيء إلا وقد بيّنه، والحج أحد الأركان الخمسة، وقد فرض في العام التاسع أو العاشر (١) .

وإن هذه الحجة الأخيرة تملك أهمية قصوى ؛ لما تحمله من توجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم وإرشاداته الدينية، وكانت أحسن مناسبة وأفضل فرصة للإعلان عن نجاح المساعي المبذولة لغلبة الدين، وبلوغه ذروة الكمال، وإكمال الرسالة الإسلامية، وتزويد الأمة الإسلامية بالتوجيهات والتعاليم الصالحة لهداية الإنسان وقيادته، والوصاية على البشرية إلى يوم القيامة، واجتمع بهذه المناسبة التاريخية عدد هائل من المسلمين، فانتهز الرسول صلى الله عليه وسلم هذه

١ - زاد المعاد ٢/١٠١.

www.abulhasanalinadwi.org

الفرصة الأخيرة من حياته، فأوصى أتباعه وصايا عظيمة لا يوجد لها نظير في التاريخ الإنساني؛ أوضح الطريق المستقيم لدين الإسلام، وبيَّن الحدود، وفرض الفرائض، وشرع القانون، وأوصى المسلمين بالاعتصام بدين الإسلام، والعض عليه بالنواجذ، كما ألقى على كواهلهم مسئولية تبليغ الحق، والقيام بالدعوة إلى الله، وقدَّم للمسلمين سنة حسنة لأداء فريضة الحج. نذكر فيما يلي تفصيل الحج وأعماله في هذه الحجة الأخيرة مقتبساً من "زاد المعاد" للعلامة ابن قيم الجوزية، بتصرف يسير:

"لما عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحج وأعلم الناس أنه حاجّ، فتجهّزوا للخروج معه، وسمع ذلك من حول المدينة، فقدموا يريدون الحج مع الرسول صلى الله عليه وسلم، ووافاه في خلائق لا يحصون، فكانوا من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، مدّ البصر.

خرج من المدينة المنورة في الرابع والعشرين من شهر ذي القعدة، وصلّى الظهر أربع ركعات، وقبل خروجه ألقى خطبة أمام الجمع، بيّن فيها أحكام الإحرام، وواجباته، وسننه، ثم دخل بيته، وترجل وأدهن، ولبس إزاره ورداءه، وخرج بين الظهروالعصر، فنزل بذي الحليفة (وهي مكان الإحرام لمن أتى من المدينة حاجاً أو معتمراً) فصلّى بها العصر ركعتين، ثم بات بها، وصلّى بها المغرب، والعشاء، والصبح والظهر، فصلّى بها خمس صلوات، وكانت نساؤه كلهن معه، وطاف عليهن تلك الليلة، فلما أراد الإحرام اغتسل غسلاً ثانياً لإحرامه، ثم طيّبته عائشة بيدها في بدنه ورأسه، ثم لبس إزاره ورداءه، وأحرم، ثم صلّى الظهر ركعتين، ثم أهلّ بالحج والعمرة في مصلاه.

www.abulhasanalinadwi.org

وكان أحرم للقران ؛ أي قرن الحج والعمرة، (الحج ثلاثة أقسام، الإفراد: وهو نية الحج فحسب، التمتع: أي نية الجمع بين الحج والعمرة، وهو أن يقوم الحاجُّ أولاً بأداء العمرة، ثم يحرم في ٨ ذي الحجة للحج، ويقوم بأداء مناسك الحج. والقران: أي أن يقوم الحاجُّ بأداء العمرة والحج بإحرام واحد، بدون تفريق بينهما) ثم أهلَّ بالتوحيد، [وبالتلبية يبدأ العمل ؛ حجاً كان، أو عمرة كانت، ويجري هذا النسك إلى حلّ الإحرام] "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك، والملك لا شريك لك" ورفع صوته بهذه التلبية حتى سمعها أصحابه، وأمرهم بأمر الله له أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية.

ثم سار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يلبّي بتلبيته المذكورة، والناس معه يزيدون فيها وينقصون، وهو يقرّهم ولا ينكر عليهم.

فلما مرّ بوادي عسفان قال: يا أبا بكر! أيُّ واد هذا؟ قال: وادي عسفان، قال: لقد مرَّ به هود وصالح على بكرين أحمرين خُطُمهما الليف، وأزرهم العباء، وأرديتهم النمار، يلبون، يحجون البيت العتيق، ذكره الإمام أحمد في مسنده.

ثم وصل إلى سرف، (وهو يقع في الطريق إلى مكة على بعد ٦ كلو مترات منها) ثم نهض إلى أن نزل بذي طوى، وهي المعروفة الآن بآبار الزاهر، فبات بها ليلة ٤/ من ذي الحجة، وصلى بها الصبح، ثم اغتسل من يومه، ونهض إلى مكة، فدخلها نهاراً من أعلاها من الثنية العليا التي تشرف على الحجون، وكان في العمرة يدخل من أسفلها، وفي الحج دخلها من أعلاها، وخرج من أسفلها، ثم سار حتى دخل المسجد، وذلك ضحى.

www.abulhasanalinadwi.org

وذكر الطبراني: أنه دخله من باب بني عبد مناف الذي يسمّيه الناس اليوم باب بني شيبة، وذكر الإمام أحمد أنه كان دخل مكاناً من دار يعلى، استقبل البيت فدعا، وذكر الطبراني: إنه كان إذا نظر إلى البيت قال: "اللهم زد بيتك هذا تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة" وروى عنه مرسلاً أنه كان عند رؤيته يرفع يديه ويكبر ويقول: اللهم أنت السلام، ومنك السلام، حيّنا ربنا بالسلام، اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً، وتكريماً ومهابة، وزد من حجَّه أو اعتمره تكريماً وتشريفاً وتعظيماً وبراً".

فلمّا دخل المسجد عمد إلى البيت، ولم يركع تحية المسجد، فإن تحية المسجد الحرام الطواف، فلما حاذى الحجر الأسود استلمه، ولم يزاحم عليه، ثم أخذ عن يمينه، وجعل البيت عن يساره، ولا وقّت للطواف ذكراً معيناً، لا بفعله ولا بتعليمه، بل حفظ عنه بين الركنين: "رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ" [البقرة: ٢٠١].

ورمل في طوافه هذا الأشواط الثلاثة، وقارب بين خطاه، واضطجع بردائه، فجعله على أحد كتفيه، وأبدى كتفه الأخرى، ومنكبه، وكلما حاذى الحجر الأسود أشار إليه واستلمه بمحجنه وقبل المحجن وهو عصا محنية الرأس.

ولما فرغ من طوافه جاء إلى خلف المقام أي مقام إبراهيم فقرأ: "وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى" [البقرة: ١٢٥] فركع ركعتين، فلما فرغ من صلاته أقبل على الحجر فاستلمه، ثم خرج إلى الصفا من الباب الذي يقابله، فلمّا دنا منه قرأ "إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ" [البقرة: ١٥٨] ثم قال: أبدأ بما بدأ الله، ثم رقي عليه حتى رأى البيت

www.abulhasanalinadwi.org

فاستقبل القبلة، فوحد الله وكبّره، وقال: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ثم دعا بين ذلك قال مثل هذا ثلاث مرات، ثم نزل إلى المروة يمشي، فلمّا انصبت قدماه سعى حتى إذا جاوز الوادي وأصعد مشى.

ولما وصل المروة رقي عليها، واستقبل القبلة وكبّر الله ووحّده، وفعل كما فعل على الصفا، فلمّا أكمل سعيه عند المروة أمر كل من لا هدى له أن يحل حتماً، وأمرهم أن يحلوا الحل كله، وأن يبقوا كذلك إلى يوم التروية، ولم يحل من أجل هديه، وهناك قال: لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي ولجعلتها عمرة، وهناك دعا للمحلقين بالمغفرة ثلاثاً، وللمقصرين مرة.

وكان يصلي مدة قيامه إلى يوم التروية بمنزله بالمسلمين بظاهر مكة، فأقام أربعة أيام، يقصر الصلاة، فلما كان يوم الخميس ضحى توجه بمن معه من المسلمين إلى منى، فأحرم بالحج من كان أحل منهم من رحالهم، ولم يدخلوا إلى المسجد، بل أحرموا ومكة خلف ظهورهم.

فلما وصل منى، نزل وصلى بها الظهر والعصر، وبات بها، فلمّا طلعت الشمس سار إلى عرفة، وأخذ على طريق "ضب" على يمين طريق الناس اليوم، وكان من الصحابة الملبي ومنهم المكبر، وهو يسمع ولا ينكر، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة، وهي قرية شرقي عرفة، فنزل فيها، حتى إذا زاحت الشمس أمر بناقته القصواء فرحلت، ثم سار حتى أتى بطن الوادي من أرض عرفة.

فخطب الناس وهو على راحلته خطبة عظيمة، قرّر فيها قواعد الإسلام، وهدم فيها قواعد الشرك والجاهلية، وقرّر فيها تحريم

www.abulhasanalinadwi.org

المحرمات التي اتفقت الملل على تحريمها، وهي الدماء والأموال والأعراض.

فلما أتمّها أمر بلالاً فأذّن، ثم أقام فصلّى الظهر ركعتين، أسرَّ فيها القراءة، فلمّا فرغ من صلاته ركب حتى أتى المواقف، فوقف في ذيل الجبل عند الصخرات، واستقبل القبلة، وجعل جبل المشاة بين يديه وكان على بعيره، فأخذ في الدعاء والتضرع والابتهال إلى غروب الشمس، وأمر الناس أن يرفعوا عن بطن عرنة وأخبر أن عرفة كلها موقف، وأرسل إلى الناس أن يكونوا على مشاعرهم، ويقفوا بها، فإنها من إرث أبيهم إبراهيم.

وكان في دعائه رافعاً يديه إلى صدره، كاستطعام المسكين، وأخبرهم أن خير الدعاء يوم عرفة ذكر من دعائه في المواقف:

"اللهم إنك تسمع كلامي، وترى مكاني، وتعلم سرّي وعلانيتي، ولا يخفى عليك شيء من أمري، أنا البائس الفقير، المستغيث المستجير، الوجل المشفق، المقرّ المعترف بذنونه، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، دعاء من خضعت لك رقبته، وفاضت لك عيناه، وذل جسده، ورغم لك أنفه، اللهم لا تجعلني بدعائك شقياً، وكن بي رؤفاً رحيماً، يا خير المسئولين، ويا خير المعطين" (١).

ومما ذكر من دعائه هناك.

اللهم لك الحمد كالذي نقول، وخيراً مما نقول، اللهم لك صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي، وإليك مسألتي، ولك رب تراثي، اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ووسوسة الصدر، وشتات الأمر،

---

١ - ذكره الطبراني.

www.abulhasanalinadwi.org

اللهم إني أعوذبك من شرما ما تجيء به الريح" (١) .

وقد ذكر أحمد من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: كان أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم يوم عرفة: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، بيده الخير وهو على كل شيء قدير".

وهناك أنزلت عليه "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا" [المائدة: ٣].

فلما غربت الشمس واستحكم غروبها بحيث ذهبت الصفرة، أفاض من عرفة، وأردف أسامة بن زيد خلفه، وأفاض بالسكينة، وضمّ إليه زمام ناقته حتى إن رأسها ليضرب طرف رجليه، وهو يقول: "أيها الناس عليكم السكينة، فإن البر ليس بالإيقاع أي الإسراع" وأفاض من طريق المأزمين ودخل عرفة من طريق "ضب".

وكان يلبي في مسيره ذلك لا يقطع التلبية، فلمّا كان في أثناء الطريق نزل، فبال وتوضأ وضوءاً خفيفاً، فقال له أسامة: "الصلاة يا رسول الله، قال: "المصلى أمامك" ثم أتى مزدلفة فتوضأ وضوء الصلاة، ثم أمر بالأذان، فأذن المؤذن، ثم أقام، فصلّى المغرب قبل حط الرحال وتبريك الجمال، فلما حطوا رحالهم أمر، فأقيمت الصلاة، ثم صلّى العشاء بإقامة بلا أذان، ولم يصل بينهما شيئاً، ثم نام حتى يصبح.

فلما طلع الفجر صلاها في أول الوقت بأذان وإقامة، ثم ركب، حتى أتى موقفه عند المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، وأخذ في الدعاء والتضرع والتكبير والتهليل والذكر، حتى أسفر جداً، ووقف صلى الله عليه وسلم في موقفه، وأعلم الناس أن مزدلفة كلها موقف، ثم سار

---

١ - ذكره الترمذي.

www.abulhasanalinadwi.org

مردفاً للفضل بن العباس، وهو يلبّي في مسيره، وانطلق أسامة على رجليه في سباق قريش.

وفي طريقه ذلك أمر ابن العباس أن يلقط له حصى الجمار سبع حصيات، ولم يكسرها من الجبل تلك الليلة، فالتقط له سبعاً من حصى الخذف، فجعل ينفضهن في كفه، ويقول: "أمثال هؤلاء فارموا، وإياكم والغلو في الدين" فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين".

فلما أتى بطن محسر، حرك ناقته، وأسرع السير، وهذه كانت عادته في هذه المواضع التي نزل بها بأس الله بأعدائه، فإن هناك أصاب أصحاب الفيل ما قصّ الله، ولذلك سمّي وادي محسر؛ لأن الفيل حسر فيه أي: أعيى وانقطع عن الذهاب إلى مكة، وكذلك فعل في سلوكة الحجر، ومحسر برزخ بين منى ومزدلفة والمشعر الحرام، لا من هذه ولا من هذه، وعرفة برزخ بين عرفة والمشعر الحرام، وليس منهما فمنى من المشعر الحرام وهي مشعر، ومحسر من الحرم، وليس بمشعر، ومزدلفة حرم ومشعر، وعرفة ليس مشعر، وهي من الحل، وعرفة حل ومشعر.

وسلك الطريق الوسطي بين الطريقين، وهي التي تخرج على الجمرة الكبرى حتى أتى منى، فأتى جمرة العقبة، فوقف في أسفل الوادي، وجعل البيت عن يساره ومنى عن يمينه، و استقبل الجمرة، وهو على راحلته، فرماها راكباً بعد طلوع الشمس واحدة بعد واحدة، يكبر مع كل حصاة، وحينئذ قطع التلبية.

ثم رجع إلى منى فخطب خطبة بليغة أعلمهم فيها بحرمة يوم النحر، وتحريمه وفضله، وحرمة مكة على جميع البلاد، وأمر بالسمع والطاعة لمن قادهم بكتاب الله، وأمر الناس بأخذ مناسكهم عنه، وقال: "لعلي لا أحج بعد عامي هذا" وعلمهم مناسكهم، وأنزل

www.abulhasanalinadwi.org

المهاجرين والأنصار منازلهم، وأمرالناس أن لايرجعوا بعده كفاراً؛ يضرب بعضهم رقاب بعض، وأمر بالتبليغ عنه، وأخبر أنه ربّ مبلّغ أوعى من سامع"وقال في خطبته: "لا يجني جان إلا على نفسه" وأنزل المهاجرين عن يمين القبلة والأنصار عن يسارها، والناس حولهم، وفتح الله له أسماع الناس حتى سمعه أهل منى في منازلهم، وقال في خطبته تلك: "اعبدوا ربكم، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأطيعوا ذا أمركم، تدخلوا جنة ربكم" وودع حينئذ الناس، فقالوا "حجة الوداع".

ثم انصرف إلى المنحر بمنى، فنحر ثلاثاً وستين بدنة بيده، وكان عددها عدد سنين عمره، ثم أمسك، وأمر علياً أن ينحر ما بقي من المائة، ثم أمره أن يتصدّق بجلالها وجلودها ولحومها في المساكين، وأمره أن لا يعطى الجزار في جزارتها شيئاً منها. وقال: "نحن نعطيه من عندنا" وقال: "من شاء اقتطع".

ونحر صلى الله عليه وسلم بمنحره بمنى، وأعلمهم أن "منى كلها منحر" سئل أن يبنى له بمنى مظلة من الحر، فقال: لا، منى مناخ من سبق، فمن سبق إلى مكان فهو أحق به حتى يرتحل عنه، ولا يملك بذلك.

فلما أكمل نحره استدعى الحلاّق، فحلّق رأسه، فلما فرغ منه قسّم شعره بين من يليه، ثم أفاض إلى مكة قبل الظهر راكباً، فطاف طواف الإفاضة، ولم يطف غيره، ولم يسع معه، ثم أتى زمزم وهم يسقون فقال: "لولا أن يغلبكم الناس لنزلت فسقيت معكم" ثم ناولوه الدلو فشرب وهو قائم، ثم رجع إلى منى من يومه ذلك فبات بها، فلمّا أصبح انتظر زوال الشمس، فلما زالت مشى إلى الجمرة، ولم يركب، فبدأ بالجمرة الأولى التي تلى مسجد الخيف، فرماها بسبع حصات، واحدة بعد واحدة، يقول مع كل حصاة: الله أكبر، ثم تقدم عن الجمرة

www.abulhasanalinadwi.org

أمامها حتى استهل، فقام مستقبل القبلة، ثم رفع يديه، ودعا طويلاً بقدر سورة البقرة، ثم أتى الوسطى فرماها كذلك، ولكنه لم يدع عند الجمرة الثالثة فرماها ثم رجع.

وقف الرسول صلى الله عليه وسلم في حجته ست وقفات للدعاء، على الصفا، وعلى المروة، وبعرفة، وبمزدلفة، وعند الجمرة الأولى، وعند الجمرة الثانية، وخطب بمنى خطبتين، يوم النحر وتقدمت، والثانية في وسط أيام التشريق، ولم يتعجل في الرمي في يومين، بل تأخر حتى أكمل الرمى في الأيام الثلاثة، وأفاض يوم الثلاثاء بعد الظهر إلى المحصب، فصلّى به الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ورقد رقدة، ثم نهض إلى مكة فطاف للوداع ليلاً سحراً (١).

التوجيهات والوصايا:

إن الوصايا والتوجيهات التي وجّهها الرسول صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، هي بمثابة ميثاق حقوق الإنسان، فأكد فيها على المساواة الإنسانية، وكرامة الإنسان، واحترامه، وصيانة عرضه، وحرمة ماله، وقرر مبدأ التفاضل التقوى، ومدى العمل بشريعة الله وأحكامه، فقال في الخطبة التي خطبها صلى الله عليه وسلم في أوسط أيام التشريق:

"يا أيها الناس! هل تدرون في أي شهر أنتم، وفي أي يوم أنتم، وفي أي بلد أنتم؟ فقالوا: في يوم حرام، وبلد حرام، وشهرحرام، قال:

---

١ - زاد المعاد: ٢/١٠٢ـ٢٩٠. ومختصر زاد المعاد: ١/٩٦ـ١٢٠ اختصار: العلامة محمد بن عبد الوهاب، المكتب الإسلامي ١٩٧٩م، وانظر تفصيل حجة الوداع في: صحيح البخاري باب حجة الوداع، كتاب المناسك، وصحيح مسلم، كتاب الحج، باب حجة الوداع، وجزء عمرات النبي صلى الله عليه وسلم للمحدث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي.

www.abulhasanalinadwi.org

فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، وفي بلدكم هذا، إلى يوم تلقونه، ثم قال: اسمعوا مني تعيشوا، ألا لا تظلموا، ألا لا تظلموا، ألا لا تظلموا، إنه لا يحلُّ مال امريء مسلم إلا بطيب نفس منه، ألا وإنَّ كل دم ومال ومأثرة كانت في الجاهلية، تحت قدمي هذه، إلى يوم القيامة، وإنَّ أول دم يوضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، كان مسترضعاً في بني ليث، فقتلته هذيل، ألا وإنَّ كل ربا في الجاهلية موضوع، وأن الله عز وجل قضى أنَّ أول ربا يوضع يا العباس بن عبد المطلب، لكم رؤوس أموالكم، لا تظلمون ولا تظلمون، ألا وإنَّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض، ثم قرأ " إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ " [التوبة: ٣٦]. ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون، ولكنه في التحريش بينكم، واتقوا الله في النساء، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وأن لهن عليكم حقاً، ولكن عليهن حقاً ألا يوطئن فرشكم أحداً غيركم، ولا يأذن في بيوتكم لأحد تكرهونه، فإن خفتم نشوزهن، فعظوهن، واهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله عزوجل، ألا ومن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وبسط يديه، وقال: ألا! هل بلغت؟! ألا! هل بلغت.! ثم قال: ليبلغ الشاهد الغائب، فإنه رب مبلغ أسعدُ من سامع" (١).

١ - رواه الإمام أحمد عن أبي حرة الرقاشي عن عمه.

www.abulhasanalinadwi.org

وقال في خطبة عرفة:

" إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث؛ كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع من ربانا ربا عباس بن عبدالمطلب؛ فإنه موضوع كله، فاتقوا الله في النساء؛ فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لن تضلّوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله، وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلّغت وأدّيت ونصحت، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: اللهم اشهد، اللهم اشهد، ثلاث مرات".(١)

هذا هو الإعلان العالمي الأول في التاريخ الإنساني الذي أعلنه الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم عن حقوق الإنسان وكرامته؛ بصراحة ليست فوقها صراحة، وتقرر هذا الإعلان أصلاً من أصول الإسلام، ومبدأً من مبادئه، فانطلاقاً من هذا المنطلق يجتمع سائر المسلمين في مناسبات العبادة، والاجتماعات العامة للحياة في صف واحد، وجنباً بجنب، بدون تمييز بين سيد ومسود، وبين حاكم ومحكوم، وبين أبيض وأسود، وبين عربي وأعجمي.

وكان هذا الإعلان أول إعلان للمساواة الإنسانية، واحترام الإنسان وكرامته، وبعد مضي أكثر من أربعة عشر قرناً عليه، أصدرت

---

١ - رواه مسلم في صحيحه.

www.abulhasanalinadwi.org

هيئة الأمم المتحدة ميثاقاً عالمياً مماثلاً لحقوق الإنسان، وهو أيضاً مستمد منه، وحرم الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الإعلان الظلم والاعتداء الذي كان يواجهه الإنسان على أساس اللون والسلالة قبل الإسلام، ولقّن أتباعه إكرام الإنسان واحترامه، والمجتمع الإسلامي يعمل بهذا المبدأ منذ أكثر من أربعة عشر قرناً.

والإعلان الثاني الذي أعلنه الرسول صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، هو تحريم الربا الذي كان قد جعله الأغنياء وسيلة نافعة لكسب المال والثروة الكاثرة، بدون أدنى مشقة، وهم كانوا يستغلون به فقر الفقراء، وعوز المعوزين، ويظلمون الناس، فقضى الرسول صلى الله عليه وسلم على هذه العادة الشنيعة الظالمة، وبدأ هذا العمل بإلغاء ربا عمه العباس، وقال: أول ربا يوضع ربا العباس بن عبد المطلب".

والإعلان الثالث الذي أعلنه بهذه المناسبة العظيمة أمام الجمع الحاشد، هو القضاء على الظلم والاعتداء على الإنسان على أساس اللون والسلالة حتى لم يبال بالتفوق القبلي الذي كانت تحظى به قبيلته قريش على سائر القبائل العربية، وأمر المسلمين أن يكونوا إخوة متحابين متعاونين ومتضامنين فيما بينهم، ولا ينتهك أحد منهم عرض أحد، ولا يقتل بعضهم بعضاً، وحرّم سفك الدماء، والاعتداء على النفس، كما حرمت أشياء كثيرة في الحج، وهي بمنزلة العبادة، بحيث يستحق المقصرون في أداء العبادة العقاب، فيعاقب المقصرون في الحفاظ على حرمة الدم، فعلّم الإسلام أتباعه وأمرهم برعاية حقوق الإنسان وأداء الحقوق والأمانات إلى أهلها، واحترام الإنسان وأداء حقه، كما دعاهم إلى المساواة الإنسانية، ووحدة العقيدة، عقيدة التوحيد، والإخاء، والتضامن، والتعاون، والحج هو أكبر مظهر من مظاهر

www.abulhasanalinadwi.org

الوحدة الإنسانية، والمساواة الإنسانية، فالمسلمون يطوفون بيت الله العتيق، نابذين اختلافاتهم اللونية واللغوية والإثنية وراءهم ظهرياً، فأذن الرسول صلى الله عليه وسلم في الناس بالحج كما أذن جده الأعلى إبراهيم عليه السلام بأمر ربه: " وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً " [الحج: ٢٧]. وكذلك أعلن الرسول صلى الله عليه وسلم: "لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى".

رسالة الإنسانية جمعاء في عرفة ومنى:

قد بعث الله سبحانه وتعالى نبيّه محمداً لهداية الإنسانية جمعاء، وإصلاحها وفلاحها في الدنيا والآخرة، وكل من يأتي من الإنس والجن إلى يوم القيامة، مهما كان وطنه أو زمانه أو جنسه أو لونه أو لسانه، يحتاج إلى الرسالة المحمدية ويفتقر إليها، ونيط صلاحه ونجاحه باتباع محمد صلى الله عليه وسلم، ولا تحصل له السعادة والنجاة إلا بالاعتصام بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، وقضاء الحياة في ضوء تعاليمه النبوية، علّم الرسول صلى الله عليه وسلم قبل وفاته بثلاثة أشهر في عرفة، وخلال إقامته بمنى، الإنسانية كلها طريقة قضاء الحياة، الطريقة المستقيمة المثلى التي لا تجيز أحداً من البشر أن يظلم أخاه الإنسان، أو يحول دونه، وتمنع من القتل وسفك الدماء، وتدعو إلى الدخول في السلم كافة، وأن تكون كلمة الله هي العليا، وأن تكون السيادة للتعاليم الإسلامية، يقول الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي عن خطبة عرفة:

" ثم سار حتى أتى بطن الوادي من أرض عرفة، فخطب الناس، وهو على راحلته، خطبة عظيمة، قرّر فيها قواعد الإسلام، وهدم فيها قواعد الشرك، والجاهلية، وقرّر فيها تحريم المحرمات التي

www.abulhasanalinadwi.org

اتفقت الملل على تحريمها، وهي الدماء والأموال والأعراض، ووضع فيها أمور الجاهلية تحت قدميه، ووضع ربا الجاهلية كله، وأبطله، وأوصاهم بالنساء خيراً، وذكر الحق الذي لهن وعليهن، وأن الواجب لهن الزرق والكسوة بالمعروف.

وأوصى الأمة فيها بالاعتصام بكتاب الله، وأخبر أنهم لن يضلوا ماداموا معتصمين به، ثم أخبر أنهم مسئولون عنه، واستنطقهم بماذا يقولون، وبماذا يشهدون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فرفع اصبعه إلى السماء، واستشهد الله عليهم ثلاث مرات، وأمرهم أن يبلغ شاهدهم غائبهم.

ثم رجع إلى منى، فخطب الناس خطبة بليغة، أعلمهم فيها بحرمة يوم النحر وتحريمه، وفضله عند الله، وحرمة مكة على جميع البلاد، وأمر بالسمع والطاعة لمن قادهم بكتاب الله، وأمر الناس بأخذ مناسكهم عنه، وأمر الناس ألا يرجعوا بعده كفاراً، يضرب بعضهم رقاب بعض، وأمر بالتبليغ عنه، وقال في خطبته تلك:

"اعبدوا ربكم، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأطيعوا ذا أمركم، تدخلوا جنة ربكم، و ودع الناس حينئذ فقالوا: حجة الوداع". (١)

وعلّم الرسول صلى الله عليه وسلم بالإضافة إلى هذه الوصايا والتوجيهات النبوية الرشيدة أن الناس كلهم عباد الله، والله ربُّهم وخالقهم ورازقهم، ولا تتأتى الطمأنينة والهدوء والسعادة إلا بعبادته، وبالعمل لما يحب ويرضى، فيجب على عباده أن لا يدعوا أحداً سواه، ولا يسألوا إلا إياه في جميع شؤونهم، ولا يستنصروا ولا يستغيثوا إلا

١ - السيرة النبوية للشيخ الندوي ص: ٣٨٨-٣٩٠.

www.abulhasanalinadwi.org

إياه في سائر ما يهمُّهم أو تنوبهم من نائبة ومصيبة، وقد قدم الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه أسوة في ذلك كله، وعلّم الأدعية لكل ساعة من ساعات الحياة.

يقول العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله وهو يلقي الضوء على مركزية الكعبة المشرفة ومكانتها السامية، والوحدة الإنسانية العالمية التي تكوّنت بها، ورسالتها اللانهائية الشاملة نحو الأمن والسلام العالمي:

" الكعبة المشرفة هي ظل العرش الإلهي العظيم في الأرض، ونقطة نزول رحمات الله وبركاته، إنها المرآة الصافية الشفافة التي تنعكس فيها صفات الله من الرحمة والمغفرة، فتنوِّر الكرة الأرضية كلها بأشعتها اللامعة الوهاجة، إنها المنبع الثر الذي تفجَّر منه نبع الحق واتباعه، فسقى العالم كله، وسقي الغليل الظامئ بمائه العذب الزلال، إنها المطلع للعلم والمعرفة الروحانية الذي أضاءت أنواره المنيرة الساطعة كل ذرة من ذرات الأرض، وإنها الأسرة الجغرافية التي ينتمي إليها ويرتبط بها سائر أفراد الأمة المنتشرون في مختلف بلدان العالم وأقاليمه، والناطقون بلغات مختلفة، وأزياؤهم متباينة، ويعيشون بحضارات مختلفة، ولكنهم رغم هذه الفروق القطرية والامتيازات الطبيعية، يطوفون بالكعبة المشرفة الواحدة، ويوجهون شطرهم إلى القبلة الواحدة، ويعتبرونها مركزاً لهم، ويتحدون في وطن واحد، وقومية واحدة، (آل إبراهيم) وحضارة واحدة، ومجتمع واحد، (ملة إبراهيم) ولسان واحد (العربية) بعد ما اعتبروا مكاناً واحداً "أم القرى" وخلعوا عنهم ربقة الوطنية والقومية، ونبذوا الفروق الحضارية والثقافية واللونية والإثنية وراءهم ظهرياً، هذه هي الأسرة الواحدة المتحدة المتضامنة التي تنضم إليها وتنصهر فيها في آن واحد، ولمحة

www.abulhasanalinadwi.org

واحدة، جميعُ أقوام العالم، وسكان دول العالم المختلفة المأخوذون بسحر ألفاظ الوطنية والقومية والإقليمية، وبها تنفصم وتنقطع وتنكسر جميع السلاسل والأغلال والقيود التي اصطنعها الإنسان، وتقيم وتعيش جميع الأقوام والشعوب - ولو كانت لأيام، أيام مناسك الحج - في بلد واحد، ولباس واحد، وهو الإحرام، وفي مكان واحد جنباً بجنب، كقوم واحد، بل كأعضاء أسرة واحدة، وتناجي الله وتدعوه بصوت واحد، ولسان واحد، هذه هي الصبغة للوحدة التي تقضي على جميع الاختلافات والامتيازات المادية التي تؤدي إلى حدوث الصراع والجدال والفتنة والفساد في الناس، فأصبح الحرم الرباني بذلك مثابة للناس وأمناً، وسلاماً، لا من ناحية أن كل نوع من سفك الدماء والظلم والاعتداء فيه حرام، بل إنه دار أمن وسلام من ناحية أنه يمحو كافة الامتيازات الظاهرة التي توجد بين أقوام العالم وشعوبه، والتي تسبب الاضطراب والفوضى والصراع بينها بعد تحويلها أسرة واحدة متضامنة.

يحلم الناس اليوم أن يخرجوا من ضيق الوطنية والقومية إلى سعة الأسرة الإنسانية، ولكن الدعوة البدائية للملة الإبراهيمية ونداء الملة المحمدية التجديدي كان قد رأى هذا الحلم قبل مئات آلاف السنين، وقدم تعبير هذا الحلم أمام العالم، والناس اليوم يفكرون في إيجاد لغة واحدة للعالم كله، ولكن قرار مركزية الكعبة المشرفة قد حلّ هذه المعضلة لآل إبراهيم منذ مدة مديدة". (١)

إن الأدعية المأثورة التي دعا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع هذه، مؤثرة للغاية، وأخاذة بمجامع القلوب، ومرققة

١ - سيرة النبي: ٥/٢٨١-٢٨٢ بالأردية.

www.abulhasanalinadwi.org

للنفوس، وخرجت من أعماق القلب المنيب السليم، وهي نماذج عالية للأدب والبلاغة في جانب، وفي جانب آخر تدل دلالة واضحة على مدى خلوص الصلة وقوتها بينه وبين ربه الله، يتجلى منها أنه رغم كونه عبداً منتخباً من ربه، ومحبوباً لديه، ونبياً من أنبيائه عظيماً، يعدُّ نفسه بائساً فقيراً، وضعيفاً مسكنياً، ومذنباً ذليلاً، مستغيثاً مستجيراً، وجلاً مشفقاً، مقراً معترفاً بذنوبه، ويؤمن إيماناً لا تزلزله العواصف الهوجاء، ويثق ثقة لا تزحزحه السيول العارمة؛ بأن الله هوالخالق، هو الرازق، هو القاهر، وهو الذي يجيب إذا دعاه عبده، ويفرج الكرب إذا نابته، وهو خير المسئولين، وخير المعطين.

وخاصة الأدعية التي دعا بها الرسول صلى الله عليه وسلم في عرفة، تحمل تأثيراً خلاباً، ووقعاً جذاباً، وبلاغة عالية، كان يوم الجمعة، فأدى صلاة الجمعة في أول وقتها وقرن بها صلاة العصر، فبذلك أخبر أن الجمع بين صلاتي الظهر والعصر بعرفة سنة، ثم انهمك في الدعاء والمناجاة مع ربه ساعات فاستمر في دعائه ومناجاته إلى صلاة المغرب بغاية من التضرع والابتهال، والاستكانة والإنابة، والخضوع والخشوع، وظل يدعو ربه رب العالمين رافعاً يده كمسألة المسكين، صلى الله عليه وسلم.

www.abulhasanalinadwi.org

الباب الثامن

المرض والوفاة

كان سفر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم لتأدية فريضة الحج، آخر سفر قام به قبل وفاته بشهرين ونصف، ولم يسافر غيره إلى مكان آخر، وكان قد بدأ يظهر من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما عاد من حجة الوداع، ما يدلّ على دُنُوِّ أجله، والتأهب للسفر للآخرة، واللحوق بالرفيق الأعلى، وعلى انتهاء مدة بقائه في الدنيا، وقد نزلت آية " الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا" [المائدة: ٣] و" إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا " [النصر: ١ـ٣] وبذلك كان الصحابة الكرام رضي الله عنهم بدأوا يشعرون بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم مودِّعهم عن قريب، وكان سلوكُه أيضاً يدلّ على ذلك، فطلع المنبر يوماً فقال: "إني بين أيدكم فرط، وأنا عليكم شهيد، وأن موعدكم الحوض، وإني لأنظر إليه من مقامي هذا، وإني قد أعطيت مفاتيح خزائن الأرض، وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدي؛ ولكن أخشى عليكم الدنيا؛ أن تنافسوا فيها، فتهلكوا كما هلك من كان قبلكم" (١) فكانت هذه الكلمات المؤثرة البلغية تبشر الصحابة بالجنة والرضوان في جانب، وفي جانب آخر تدعوهم إلى أن يستفيدوا من صحبة الرسول صلى الله

١ - متفق عليه

www.abulhasanalinadwi.org

عليه وسلم وأيامه الباقية القليلة أكثر فأكثر، ولا يضيعوا فرص التعليم والاستفادة منه.

وقد ابتدأت شكوى رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم الإثنين في آخر شهر صفر سنة ١١هـ، بدأ مرض الوفاة من الصداع في الرأس، ثم اشتدَّ وجعه حتى عصب رأسه، وكان هذا الألم والوجع ناتجاً عن الطعام الذي أكل بخيبر، ودسّت فيه يهودية السُمَّ وفق خطة ماكرة حيكت خيوطها للقضاء على حياته الطيبة الطاهرة (على صاحبها ألف ألف تحية وسلام) وأخبر الرسول بهذه المؤامرة الخبيثة في أول لقمة من ذلك الطعام المدسوس فيه السم، فكفّ يده منه، ولكن لقمة واحدة منه أثرت عليه تأثيراً عميقاً، وبدأ الآن وجعه، ووجد صداعاً في رأسه، ولكنه في هذه الحالة الشديدة الموجعة لم يمتنع عن عمله الدعوي، بل ظل دائم الفكرة في إنقاذ البشرية من بحر الظلم والطغيان والشرك، إلى ساحل الأمن والسلام والتوحيد الخالص، وهدايتها إلى الصراط المستقيم، ونشر تعاليم الدين الإسلامي إلى أرجاء المعمورة.

لّما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم في أيام مرضه بخطر الهجوم الرُّومي، كوّن جيشاً بإمارة أسامة بن زيد بن حارثة لتسييره إلى الشام، وكان والده عبداً مملوكاً، فأعتقه الرسول صلى الله عليه وسلم وجعله متبنّى له، فقدم الرسول صلى الله عليه وسلم بجعله أسامة الذي كان ابن عبد، أميراً على الذين كانوا بمثابة ملاكه في العادة المتبعة، مثلاً عالياً للمساواة بين إنسان وإنسان، لم يستطع العالم أن يأتي بنظير لها قبله ولا بعده، حتى الآن، بل إن الإنسان في المجتمعات غير المسلمة يعاني معاملة قاسية على أساس اللون والجنس، والحر والعبد، ويواجه التفاوت الطبقي والتمييز العُنصري، وأخيراً أقرت هيئة الأمم المتحدة ميثاقاً عالمياً

www.abulhasanalinadwi.org

لصيانة حقوق الإنسان، والمساواة بين إنسان وإنسان، بدون النظر إلى لونه، أو جنسه، أو وطنه، أو لسانه، أو دينه، وقرَّرته مبدأً أساسياً للنظام الجمهوري، ولكن بالرغم من إقرار هذا الميثاق العالمي يوجد التفاوت الطبقي، والعصبية القومية والوطنية واللغوية والإثنية في الدول التي تدعى الحضارة والعدالة الاجتماعية حتى في الغرب أيضاً الذي يطلق حيناً لآخر هتافات المساواة الإنسانية والديمقراطية، وإن الشعوب الغربية تعتبر الشعوب الشرقية أذلاء ضعفاء باستمرار، وبالعكس يعمل أتباع الإسلام الذي أعطى العالم الإنساني رسالة حب الخير للإنسانية جمعاء وفلاحها وسعادتها، بذلك النموذج النبوي المثالي الذي قدَّمه الرسول صلى الله عليه وسلم للمساواة الإنسانية، وظلوا متمسكين به حتى الآن، وفي التاريخ الإسلامي أمثلة كثيرة لذلك، فقد تمكّن المماليك من الوصول إلى سدة الحكم والسلطة مرات، وحكمُوا في الشرق الأوسط مدة طويلة، وفي الهند الإسلامية كذلك.

وقد أكّد الرسول صلى الله عليه وسلم بالإضافة إلى التأكيد على عبادة الله وحده، على المساواة الإنسانية، والعدل، ومؤاساة الضعفاء، والنصيحة للناس أجمعين، وحبّ الخير للإنسانية كلها، وفي يوم من أيام شكواه اجتمع نفر من المسلمين في بيت عائشة، فرحّب بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحيّاهم، ودعا لهم بالهدى والنصر والتوفيق، وقال: "أوصيكم بتقوى الله، وأوصي الله بكم، وأستخلفه عليكم، إني لكم منه نذير مبين، ألا تعلوا على الله في عباده وبلاده".(١)

وكان يهمّه أن يبيت، وعنده مال في بيته، ولذلك يؤكّد على إنفاق ما يأتيه من مال، أو هدية، في سبيل الله، وأوصى في أيام شكواه

١ - السيرة النبوية لابن كثير: ٥٠٢/٤

www.abulhasanalinadwi.org

بالشكر على أنعم الله وآلائه، وعبادته، وكان يهتم بالصلاة بالجماعة اهتماماً بالغاً، فلمّا ثقل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه، ولم يستطع الحضور في الصلاة في المسجد النبوي الشريف لشدة مرضه، أرسل إلى أبي بكر بأن يصلّي بالناس، فكان ذلك إشارة منه إلى خلافة أبي بكر الصديق وإمامته بعده، ففهم الصحابة رضي الله عنهم، واتفقوا على إمامته وخلافته.

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم في أبي بكر الصديق رضي الله عنه: إنه ليس من الناس أحد أمنُّ عليّ في نفسه وماله، من أبي بكر، ولو كنت متخذاً من الناس خليلاً لأتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن خلة الإسلام أفضل[١] وأوصى الرسول صلى الله عليه وسلم المهاجرين بالأنصار خيراً، فقال: أوصيكم بالأنصار، فإنهم كرشي وعيبتي، وقد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم.[٢]

وحذّر من عبادة القبور واتخاذها مساجد، وشدّد النكير على الذين جعلوا قبور أنبيائهم مساجد، وقال وهو يلعن اليهود والنصارى لاتخاذهم قبور الأنبياء مساجد: "قاتل الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، لا يبقين دينان على أرض العرب".[٣]

كانت آخر وصية أوصى بها الرسول حين حضرته الوفاة: "الصلاة وما ملكت أيمانكم" حتى جعل يغرغر بها صدره، وما يكاد يفيض بها لسانه، وتدلّ بعض الروايات على أن آخر عمل عمله حين حضرته الوفاة، هو الاستنان بجريدة رطبة وآخر ما تكلّم به

---

١ - صحيح البخاري كتاب الصلاة.
٢ - صحيح البخاري، فضائل أصحاب النبي.
٣ - رواه الإمام مالك في الموطأ.

www.abulhasanalinadwi.org

الرسول: " لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات" ثم نصب إصبعه اليسرى، وجعل يقول: "في الرفيق الأعلى" في الرفيق الأعلى" حتى قبض، ومالت يدُه في الماء(١) "إنا لله وإنا إليه راجعون".

تقول عائشة رضي الله عنها: نزل برسول الله، و رأسه على فخذي، غشي عليه ساعة، ثم أفاق، فأشخص بصره إلى سقف البيت، وقال: اللهم الرفيق الأعلى، وكانت آخر كلمة تكلم بها الرسول صلى الله عليه وسلم.(٢)

فارق الرسول صلى الله عليه وسلم الدنيا، وهو يحكم جزيرة العرب كلّها، ويرهب ملوك الدنيا، ويفديه أصحابه بنفوسهم وأولادهم وأموالهم، وما ترك عند موته ديناراً ولا درهَماً، ولاعبداً ولا أمة، ولاشيئاً إلا بغلته البيضاء وسلاحه، وأرضاً جعلها صدقة.(٣)

وتوفي ودرعه مرْهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من شعيرة، ما وجد ما يَفكّ به حتى مات صلى الله عليه وسلم.(٤)

وأعتق رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه هذا أربعين نفساً، وكانت عنده سبعة دنانير أو ستة ، فأمر عائشة رضي الله عنها أن تتصدق بها.(٥)

تقول عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : توفّي الرسول صلى الله عليه وسلم وما في بيتي شيء يأكله ذوكبد، إلا شطر شعير في رفٍّ لي، فأكلت منه حتى طال عليّ فَكِلْتُه فَفَنِيَ.(١)

---

١ - رواه البخاري، باب مرض النبي ووفاته.
٢ - نفس المصدر
٣ - نفس المصدر.
٤ - رواه البيهقي.
٥ - السيرة الحلبية: ٣٨١/٣ .

www.abulhasanalinadwi.org

أثر وفاة النبي على الصحابة :

نزلت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصحابة كالصاعقة ؛ لشدة حبّهم له ، وما تعودوه من العيش في كنفه ، عيش الأبناء في حجر الآباء ، بل أكثر من ذلك ، فمهما كان ذلك الأثر فهو قليل من هذه الناحية ، قد قال الله تعالى : " لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ " [التوبة : ١٢٨] ولم يكن بعضهم يصدق بنبأ وفاة رسولهم الذي كان عبداً صالحاً من عباد الله رب العالمين ، ونبياً صادقاً ، وكان في مقدمتهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأنكر على من قال : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسلّ السيف ، وقال : ضربت عنقَ من يقول : إن الرسول صلى الله عليه وسلم قد مات ، ثم خرج إلى المسجد ، وخطب الناس ، وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يموت حتى يفني الله المنافقين. (٢)

ثم أقبل أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين بلغه الخبر حتى نزل على باب المسجد ، وعمر يكلّم الناس ، فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت عائشة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى في ناحية البيت بثوب حبرة ، فكشف عن وجهه ، ثم أكبّ عليه ، فقبّله ، ثم قال : بأبي أنت وأمي ، أما الموتة التي كتبَ الله عليك ، فقد ذقتها ، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً ، ثمّ خرج وعمر يكلّم الناس ، فقال : على رسلك يا عمر ، أنصت ، فأبى إلا أن يتكلم ، فلمّا رآه أبو بكر لا ينصت ، أقبل على الناس ، وصعد المنبر ، وتلا عليهم الآية التي ورد فيها ذكر موت النبي صلى الله عليه وسلم ،

---

١ - رواه البخاري ، كتاب الرقاق ، باب فضل الفقر ، ومسلم : كتاب الزهد

٢ - البداية والنهاية. ٥/٢٤٢.

www.abulhasanalinadwi.org

فلمّا سمع الناس أيقنُوا أن الرسول قد مات، فزال الشك والاضطراب، ولّما سمع الناس كلام أبي بكر أقبلُوا عليه، وتركوا عمر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

"أيها الناس"! إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت، ثم تلا هذه الآية: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾[آل عمران: ١٤٤].

يقول من شهد هذا الموقف: والله كأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ، وأخذها الناس عن أبي بكر، فإنما هي في أفواههم، ويقول عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت (تحيّرت ودهشت) حتى وقعت إلى الأرض؛ ما تحملني رجلاي، وعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات.

يقول الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي:.

"كانت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الإثنين ١٢/من ربيع الأول سنة ١١ للهجرة بعد الزوال، وله صلى الله عليه وسلم ثلاث وستون سنة على أرجح الأقوال، وكان أشد الأيام سواداً ووحشة، ومصاباً على المسلمين، ومحنة للإنسانية، كما كان يوم ولادته أسعد يوم طلعت فيه الشمس.

يقول أنس وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهما: كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله المدينة، أضاء منها كلّ شيء، فلمّا كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء، وبكت أم أيمن، فقيل لها! ما يُبكيكَ على

www.abulhasanalinadwi.org

النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قالت: إنّي قد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيموت، ولكن إنما أبكي على الوحيِ الذي رفع عنّا.(١)

ولّما فرغ من غسله وتكفينه صلى الله عليه وسلم يوم الثلاثاء، وقد تولي ذلك أهل بيته، وضع سريره في حجرة عائشة رضي الله عنها التي توفّي فيها، عملاً بما قاله صلى الله عليه وسلم: ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض، فرفع فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي توفّي فيه، وحفر له تحته، وتولّى ذلك أبو طلحة الأنصاري، ثم دخلوا يصلّون عليه أرسالاً، دخل الرجال حتى إذا فرغوا، أدخل النساء حتى إذا فرغت النساء، أدخل الصبيان، ولم يؤم الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد.(٢)

كانت حادثة وفاته صلى الله عليه وسلم شديدة مؤلمة، لا يمكن التعبير عنها، فيا لها من مصيبة، ما أصيب المسلمون بعدها بمصيبة إلا هانتْ، إذا ذكروا مصيبتهم به صلى الله عليه وسلم، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه: "ياأيها الناس أيّما أحد من الناس، أو من المؤمنين أصيب بمصيبة فليتعز بمصيبة بي، عن المصيبة التي تصيبه بغيره، فإن أحداً من أمتي لن يصاب بمصيبة بعدي أشد عليه من مصيبتي. (٣)

وقالت فاطمة فلذة كبده صلى الله عليه وسلم حين دُفن النبي صلى الله عليه وسلم :يا أنس أطابتْ أنفسكم أن تحثوا على رسول الله الترابَ ؟.(٤)

بيعة أبي بكر:

لما استيقن الناس أن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم قد مات،

١ - السيرة النبوية للشيخ الندوي، ص: ٤٠٤.
٢ - سيرة ابن هشام: ٦٦٣/٢.
٣ - انظر سنن ابن ماجه والسيرة النبوية لابن كثير: ٥٣٨/٤ـ ٥٣٩.
٤ - رواه البخاري، باب مرض النبي ووفاته.

www.abulhasanalinadwi.org

ووفاته حقيقة ثابتة من عند الله، اجتمع الأنصار قبل دفنه صلى الله عليه وسلم في قبره، في سقيفة بني ساعدة، وتشاوروا فيما بينهم ولما هو آت، ولما علم بذلك المهاجرون جاؤوا إليها، وبدأ التشاور حول نيابة الرسول صلى الله عليه وسلم، قالت الأنصار: كان الرسول قد انتقل إلينا في المدينة، فنحن أحق بأن يكون خليفته من الأنصار، وقال المهاجرون: إن لقريش من العرب أهمية ومكانة مرموقة، فلا يختلف أحد من العرب إذا كان خليفته منا، فلابد أن ينتخب أحد من أفراد قريش، خليفة له، وقال بذلك أبو بكر خاصة، وقدم عمر بن الخطاب اسم أبي بكر كنائب للرسول صلى الله عليه وسلم، وقال وهو يخاطب أبا بكر: كنت أنتَ أقرب الناس إليه صلى الله عليه وسلم، وأمرك أن تصلي بالناس في حياته، فلذلك لا أرى أحداً غيرك أجدر منك بالخلافة، ثم أخذ يده في يده فبايعه، ولما رأى الناس ذلك بدأوا يبايعونه، فوصل هذا الاجتماع في سقيفة بني ساعدة بسهولة إلى نتيجة حسنة، فانتخب أبو بكر بالإجماع خليفة الرسول وأمير المؤمنين، وأما الذين لم يحضروا السقيفة جاؤوا وبايعوا أبا بكر بالخلافة، وأعلنوا عن طاعتهم له، وبذلك لم يجد الشيطان سبيلاً إلى تفريق كلمة المسلمين، وتمزيق شملهم، بل تمّ اختيار أمير قبل دفنه يتولّى أمورهم، فسارت القافلة الإسلامية بعده بقيادة أبي بكر على نفس الدرب المستقيم الذي بيّنه الله ورسوله. (١)

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أوضح بشأن تركته أنها تكون للمسلمين دون أهله، فحولت تركته إلى بيت المال، وكانت من أولاده فاطمة، وكانت حيّة، والآخرون قد ماتوا في حياته، وبذلك بيّن الله تعالى للمسلمين مثلاً وأسوة للصبر والتعزي عند وفاة أولادهم.

١ - البداية والنهاية: ٥/٢٤٥-٢٤٧.

www.abulhasanalinadwi.org

زوجات النبي صلى الله عليه وسلم

كانت زوجتان من زوجات النبي صلى الله عليه وسلم قد توفيتا في حياته الطيبة، فأصبحت وفاتهما أسوة للمسلمين في حالة وفاة زوجتهم، كانت زوجته الأولى المطهّرة خديجة الكبرى رضي الله عنها التي عاشت معه خمساً وعشرين سنة، ولم يتزوّج الرسول في حياتها بامرأة أخرى، وكانت تؤازره وتؤانسه، قد توفيت في العهد المكّي، ثم توفيت زوجته أم المساكين زينب بنت خزيمة رضي الله عنها في العهد المدني، وأما الزوجات المطهرات الأخرى، فتوفي الرسول عنها، وهن أحياء، فبذلك أصبحن الأرامل، وقدمن أسوة حسنة للأرملة المسلمة، ولعل ذلك هو السبب في عدم زواجهن بغيره صلى الله عليه وسلم؛ لكيلا تختلط الأخلاق والعادات التي اكتسبن إياها من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأخلاق والأطوار المكتسبة من الآخرين، وقد ورد في القرآن الكريم أنه ليس للمسلمين أن يتزوجوا بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم من بعده، وأما أسماء الزوجات المطهّرات التي بقين من بعده فهي فيما يلي :

١. عائشة الصديقة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما.
٢. حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.
٣. سودة بنت زمعة القرشية رضي الله عنها.
٤. أم سلمة هند بنت أبي أميّه حذيفة بن المغيرة القرشية المخزومية، رضي الله عنها.

www.abulhasanalinadwi.org

٥. زينب بنت جحش، رضي الله عنها.
٦. جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار المصطلقية، رضي الله عنها.
٧. أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب، رضي الله عنهما.
٨. صفية بنت حيي بن أخطب، رضي الله عنها.
٩. ميمونة بنت الحارث الهلالية، رضي الله عنها.

حكمة تعدد الزوجات ومصلحتها:

كان الناس قبل الإسلام يتزوّجون بعدة نساء حسب رغباتهم وأهوائهم، فلما جاء الإسلام منع من تعدُّد الزوجات، وأذن بزواج أكثر من واحد إذا اقتضت الضرورة، ولكن حدّد ذلك في أربع زوجات بشرط المساواة والعدل بينهن.

ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمساً وعشرين سنة من عمره، وذلك قبل بعثته بخمس عشرة سنة، تزوّج خديجة بنت خويلد، وهي أيم، قد بلغت من عمرها أربعين سنة، بينه وبينها من التفاوت في السن خمس عشرة سنة، ولم يتزوّج بأخرى في حياتها، واكتفى بواحدة خمسة وعشرين عاماً، ولما توفّيت، واقتضت الضرورة الزواج، تزوّج سودة بنت زمعة، وهي أيضاً أيم، وذلك لما جاوز أكثر من ٥٣ سنة من عمره بعد نبوته بثلاث عشرة سنة، وكانت الحاجة إلى الاتصال والالتقاء بشخصيات مختلفة، أو جهات مختلفة لمصلحة من مصالح الدعوة الإسلامية أو الأمور الاجتماعية أو الإدراية، وكانت هذه الاتصالات ضرورية لازمة لنشر رسالة الإسلام، وإيصال دعوته إلى الناس، ولشؤونه الإدارية، وتعزيز الصلات الاجتماعية، اقتضت هذه المصالح الدعوية أن يتزوج أكثر من زواج، وأذن الله سبحانه وتعالى بذلك لحكمة الدعوة ومصالحها، فتزوّج الرسول صلى الله عليه

www.abulhasanalinadwi.org

وسلم بعد ما مضت ٥٤ سنة من عمره عدة نساء، وكان صلى الله عليه وسلم في مرحلة عمره التي لا يتزوج فيها الناس لرغبة أو للذة؛ بل يتزوّجون للحاجة فحسب، فتزوّج صلى الله عليه وسلم كلما شعر بمسيس الحاجة إلى ذلك، ولم يكن تعدُّد الزوجات هذا إلا في تسع سنوات أخيرة من عمره، ولم يتجاوز التسع في وقت واحد، ما تزوج زواجاً إلا ولهذا الزواج مصحلة راجحة من مصالح الدعوة الإسلامية، أو المروءة ومكارم الأخلاق، أو جلب منفعة عامة، ودرء خطر اجتماعي كبير، فلم يتزوج لهواه أو لرغبته، بل أذن الله له أن يختار هذا الطريق لتتجلى أمام الأمة الأسوةُ النبويةُ في كل مجال من مجالات حياتها، ولم يكن هذا الزواج محرراً من كل قيد، بل كان مقيداً بالقيود، لتكون حياتهم متسمة بحياة المشقة والتضحية، وتابعة لرضا الله رب العالمين ودينه، فيقول الله عزوجل: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً، وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا، يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا، وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ للهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا، يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفًا، وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا، وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا" [الأحزاب: ٢٨-٣٤].

www.abulhasanalinadwi.org

وكان تعدُّد الزوجات عاماً لدى العرب ؛ كانوا يتزوّجون بأكثر من واحدة بالإضافة لرغباتهم وحاجاتهم العائلية ، نظراً إلى مصالحهم المختلفة السياسية والاجتماعية والقبلية ، ومنها كثرة الإنجاب والأولاد ، لتزيد قوّتهم العددية لأن الصراع والحروب الأهلية كانت تقع بين القبائل المختلفة حيناً لآخر ، وكان منها زيادة عدد الأنصار والموالين عن طريق التزوج في الأسر الأخرى ، فتحقيقاً لهذا الغرض كانوا يتزوجون بنساء الأسر والبيوتات ذات الشوكة والقوة ؛ لينالوا الحماية والنجدة والمعونة منها على أساس هذه القرابة ، إذا دعت الحاجة إلى ذ لك ، فيكون هذا الزواج ذريعة قوية للتعاون والمساعدة فيما بينهم في الحروب ، ولكن هذا الزواج يتمُّ بطرق غير مشروعة أو بالقوة ، فجاء الإسلام ونهى عن الطرق غير المشروعة ، ونظم الأمور ، وحدّد للزواج قوانين وضوابط ؛ قضت على الاعتداء والظلم في هذا المجال ، وكانت مسئوليات النبوة ومصلحة مقاومة عداوة العدو المباسل ، تقتضي أن يتزوج الرسول صلى الله عليه وسلم بأكثر من واحدة .

وكان عقد الزواج في الجاهلية قبل الإسلام ، يتمُّ بأربع طرق مختلفة ، كان معظمها مبنياً على الفحشاء ، والإباحية المطلقة ، والتحرُّر من كل قيد ، ولما جاء الإسلام أبطل الطرق غير المشروعة للزواج ، وأبقى منها ما كان شريفاً متسماً بالاعتدال والحياء والعفّة ، وملائماً للطبيعة البشرية ، وأوجبه في الزواج[1] ومع ذلك أذن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بالتزوج بأكثر من واحدة إلى إحدى عشرة امرأة ، نظراً إلى المصالح الدعوية والإدارية ، وحدّد مقدار الزوجات وحصره في

---

[1] - تفسير الطبري ١٨/ ٤٠ ، وصحيح البخاري ، كتاب النكاح ، باب من قال لا نكاح إلا بولي .

www.abulhasanalinadwi.org

إحدى عشرة زوجة .

يتضح من دراسة حياته الزوجية صلى الله عليه وسلم جلياً واضحاً أنها كانت سليمة مصونة من زلّات الشباب ورغباته غير اللائقة بالحياة العفيفة الكريمة، وبعيدة عن الحياة المتحررة، كان صلى الله عليه وسلم يشارك قبل بعثته في أعمال الخير والبر في الأسرة مشاركة فعالة ؛ من نجدة المظلوم، ومساعدة الملهوف، وقرى الضيف، ولم يستعجل في بدء الحياة الزوجية، بل قضى حياته قبل الزواج حياة العفة، والشرف، والطهر، والعفاف، والمروءة، والشهامة، ولما آن الأوان، ووجد امرأة صالحة، تزوّج بها، وكانت زوجته الأولى خديجة بنت خويلد التي كانت أكبر منه خمسة عشر عاماً في السن، وكانت متصفة بالأخلاق الفاضلة، والخصال الحميدة، وكانت تعدّ ذات رزانة وطهارة وعفاف، وكانت أرملة .

وقد قضى الرسول صلى الله عليه وسلم مُعها قبل النبوة عند ما لم يفرض عليه قيد ديني، حياة مثالية ملؤها المؤانسة، والتآلف، والمؤاساة، والتوادد، والتحابب، وحياة الرزانة والوقار، ولما تلقى مسئولية النبوة أصبحت تؤازره وتواسيه، وكلما شعر بالضغط الذهني والقلق النفسي لعظم مسئولية النبوة العظيمة، وثقل الوحي عليه كانت زوجته تقوم بتسلية نفسه، وطمأنة قلبه ومؤاساته، فلما نزل عليه الوحي الأول وشعر بثقله عليه، وقصّ عليها ما عاناه، ذهبت به إلى عمّها ورقه بن نوفل ؛ لتفرج عنه، فقال له ورقة ما سكّن نفسه وخفّف عنه وثبّته، وكان ورقة قد تنصَّر، وقرأ الكتب، وسمع من أهل التوراة والإنجيل، وكانت له معرفة بأحوال الأنبياء السابقين، ويعرف على أساس علمه واطلاعه على سير الأنبياء وأحوالهم وأقوالهم، أنه سيظهر نبيٌّ قد آن أوانه، فلما سمع ما أخبرته به خديجة من أمر الرسول

www.abulhasanalinadwi.org

علم أنه نبيٌّ هذه الأمة، فلقيه ورقة بن نوفل وثبته وصدق بما أخبره من أمر نزول الوحي عليه (١).

وقام الرسول صلى الله عليه وسلم بأداء مسئولية النبوة الملقاة عليه، وبدأ الناس يؤذونه، فعندما يرجع إلى بيته حزيناً مكدوداً، تفرج عنه وتسليه، وتهون عليه أمر الناس، وتقول له قولاً يخفف عليه ويثبته، فكانت خير زوجة له وأكبر سند له، ولذلك لم يتزوج الرسول صلى الله عليه وسلم بغيرها في حياتها، حتى توفيت بعدما قضت معه ٢٥ سنة.

وبعد وفاة زوجته الأولى خديجة التي ماتت، وهو في الخمسين من عمره، امتنع عن الزواج مدة، ثم تزوّج بمشورة أهل قرابته وأصحابه سودة بنت زمعة القرشية العامرية، وهي أيضاً كانت أسن منه، ولم يكن في ظاهر جمالها ما يجذب قلبه، ولكنه تزوجها لمصلحة، وهي رعاية بناته الصغيرة، وضرورة تربيتهن، ولذلك آثر الرسول صلى الله عليه وسلم واختار امرأة مسنة ذات رزانة ووقار لتكون زوجته. (٢)

ولما هاجر من مكة التي قضى فيها ٣٥ سنة من عمره، إلى المدينة المنورة حيث ألجأت مصالح المسلمين الدينية والاجتماعية إلى اختيار أساليب متعددة وطرق مختلفة للحفاظ على هذه المصالح، ومنها المواجهة المسلحة، مسّت الحاجة إلى كسب حماية الأسر والقبائل المختلفة، ومساعدتها وتقريبها إليه بالتزوج في هذه القبائل، فتزوج الرسول صلى الله عليه وسلم من بنات كبار زعمائها ورجالها، وقدم بذلك مثالاً عالياً للمؤاساة والمساواة الإنسانية كذلك، فتزوّج من أم حبيبة بنت أبي سفيان الأموي زعيم قريش وقائد الحرب ضد المسلمين، وكانت قبلت

---

١ - سيرة ابن هشام: ١/٢٣٦-٢٤١.

٢ - زاد المعاد: ١/١٠٥، والكامل في التاريخ: ٢/٣٠٧.

www.abulhasanalinadwi.org

الإسلام وهاجر مع زوجها المسلم إلى الحبشة، ثم تنصر زوجها وتركها، فأصبحت وحيدة [١] وتزوّج صلى الله عليه وسلم صفية النضرية اليهودية بنت حيي بن أخطب سيد قبيلة بني النضير، سباها من خيبر، واصطفاها لنفسه[٢] فأحسن الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه القبيلة اليهودية بإعتاقها والتزوج بها، وكذلك تزوج صلى الله عليه وسلم جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قبيلة بني المصطلق، وكانت من سبايا بني المصطلق من خزاعة، فأعتقها الرسول صلى الله عليه وسلم لإسداء اليد إلي هذه القبيلة وتزوّجها. [٣] فأثر هذا السلوك الحسن النبوي على قومها؛ فدخلوا في الإسلام، وفي جانب آخر تزوج الرسول صلى الله عليه وسلم عائشة بنت أبي بكر الصديق أقرب أصحابه إليه، وحفصة بنت عمر بن الخطاب الفاروق الذي كان من أقرب أصحابه أيضاً [٤] وكذلك زوج ابنته الصحابي الجليل عثمان بن عفان أحد كبار الأسرة الأموية من قريش.

ثمّ تزوّج الرسول صلى الله عليه وسلم زينب بنت خزيمة الهلالية التي توفّيت بعد زواجها بشهرين [٥] وبعدها تزوّج أم سلمة هند بنت أميّة القرشية المخزومية [٦] وقد عانت الأذى والقسوة و الجفاء من قبل قومها بعد ما هاجر زوجها إلى المدينة المنورة، واستمرت هذه المعاناة سنة، ولم تفت في عضدها، ولم تضعف في ولائها للإسلام، ثم هاجرت إلى المدينة، ولم تلبث بها إلى أن استشهد زوجها في غزوة،

١ - تاريخ الطبري: ١٦٥/٣، والكامل في التاريخ، ٣٠٧/٢.
٢ - سيرة ابن هشام: ٢/ ٦٤٢.
٣ - نفس المصدر: ٦٤٥/٢.
٤ - تاريخ الطبري: ١٦١/٣- ١٦٢، وزاد المعاد ١٠٦/١.
٥ - البداية والنهاية: ٢٩٣/٥.
٦ - سيرة ابن هشام: ٦٤٧/٢، زادالمعاد: ١٠٦/١، وتاريخ الطبري: ١٦٤/٣.

www.abulhasanalinadwi.org

فأصبحت وحيدة لا سند لها، ولا عضد، فواساها الرسول صلى الله عليه وسلم بزواجه منها.

ثم تزوّج زينب بنت جحش وهي ابنة عمته أميمة، وكانت ذات شرف ومكانة، ومن قبيلة لها مكانتها وعزها، وكان قد زوّجها الرسول صلى الله عليه وسلم عبده زيد بن حارثة الذي أعتقه، وقدم بذلك مثلاً عالياً للمساواة الإنسانية والجمهورية، ولم ترفض زينب أيضاً قرار ابن عمّها وهو نبيٌّ، ورضيت بهذا الزواج، وتغلبت على نفسها، وآثرت رغبة ابن عمّها على رغبتها، ولكن هذا الزواج لم يدم، وقع بينهما خلاف، فطلّقها زيد، فانكسر قلب زينب، وهي من أسرة عزيزة ذات شرف وعزّ، وشعرت بالألم الشديد، فتزوّجها الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي مطلقة، فجبر بذلك قلبها المنكسر، وتدارك ما فاتها [1] وبهذا الزواج أزال الرسول صلى الله عليه وسلم عادة قبيحة، وهي أن الناس في الجاهلية كانوا لا يتزوّجون من مطلقة من يتبنونه، ويعدون ذلك عيباً وعاراً عليهم، فأكرم الرسول هذه المطلقة بزواجه منها في جانب، وفي جانب آخر أعلن أن المتبنى لا يكون ولداً صلبياً، وقد ورد في القرآن الكريم: "فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا" [الأحزاب: ٣٧] [2] فلما طلقها زيد زوّجه الله إياها لتتأسى به أمته في نكاح أزواج من تبنّوه.

وتزوج الرسول صلى الله عليه وسلم مارية بنت شمعون القبطية التي كانت أمة من إماء مقوقس حاكم مصر، أهداها إليه، فأعتقها الرسول ثم تزوج بها، وكذلك تزوج أمة أخرى وهي ريحانة بنت زيد

---

[1] - تاريخ الطبري ٣/١٦٥.

[2] - زاد المعاد: ١/١٠٨.

www.abulhasanalinadwi.org

من بني النضير، أسلمت فأعتقها الرسول ثم تزوّج بها [١] وبذلك قدم أمثلة رائعة للمساواة الإنسانية بما إذا كانت أمة تدخل في الحرائر بعد عتقها من الرق، وكان يحق للرسول صلى الله عليه وسلم أن يستمتع بهؤلاء الإماء بدون الزواج كما كان ينص عليه القانون، ولكنه لم يفعل ذلك، بل أعتقهن وتزوج بهن ليقضي بعمله هذا على التفاوت والتمايز.

ثم تزوّج ميمونة بنت الحارث الهلالية وهي آخر من تزوّج بها، فبالجملة تزوّج الرسول صلى الله عليه وسلم بعدة نساء، وكل ذلك في العهد الأخير من حياته، أي بعد مضي ٥٣ سنة من عمره، وعاشت بعض منهم معه سنتين أو ثلاث سنوات، وبعض منهن عاشت أقل من ذلك أو أكثر، فقد دخلت كلهن في أزواجه في المدة الممتدة على ثماني سنوات أو عشر سنوات، وهي تبدأ من ٥٣ سنة من عمره إلى وفاته سنة ٦٣ من الهجرة.

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعدل بين زوجاته، ويعامل معهنّ معاملة المساواة، خلال إقامته بالمدينة المنورة، ويقسّم لهن الليالي والأيام، وإذا أراد سفراً أقرع بين أزواجه، فأيهن خرج سهمها ذهب بها معه، وبذلك يمنح كلاً منهن فرصة الصحبة في السفر، وكل ذلك كان بوحى الله إليه؛ لأنه لا يصدر في أي شأن من شؤونه إلا عن وحي الله، ولا يعمل بما اشتهت نفسه، ولم يكن يخلو أي عمل من أعماله التي يقوم بها بأمر الله عن مصلحة وحكمة أرادها الله فيه، فكانت أحواله العائلية كلها مبنيّة على الحكم الإلهية، والمصالح الاجتماعية.

كانت كل زوجة من زوجاته تحمل خصائص وفضائل خاصة بها دون غيرها، وتساعده في القيام بأعباء الدعوة إلى الله، وقد قرر الله أن

[١] - الكامل في التاريخ: ٣١١/٢، البداية والنهاية: ٣٠٣/٥ ـ ٣٠٦.

www.abulhasanalinadwi.org

يجعله هادياً للأمة، وأسوة حسنة ومثالاً يحتذى للحياة الإنسانية، قرر أن يكون أسوة مثالية للحياة العائلية، وحلّ المسائل التي تحدث بين الزوج والزوجة، وكانت زوجاته خير وسيلة لاطلاع الناس على الأسوة النبوية كحكم شرعي في أحوال الحياة العائلية، فقد روي عن عائشة رضي الله عنها تعامل الرسول صلى الله عليه وسلم وأسوته في الأحوال المتعددة والمواقف الكثيرة، وكذلك كان يسكن إلى أزواجه كإنسان، وهن كن خير معوان له في كثير من الأحوال والأمور من حياته، ويثبتن قلبه ويسلين نفسه.

فقد نال الرسول صلى الله عليه وسلم العطف الإنساني والمؤاساة وتسلية القلب التي يحتاج إليها عند تلقى النبوة من خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وقد ذكر كل ذلك لعائشة رضي الله عنها، وكذلك لما ظن الرسول صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية أن أصحابه لا يمتثلون أمره أشارت عليه زوجته أم سلمة بما حلّ المشكلة، فنحر الصحابة جميعاً وحلقوا رؤسهم ممتثلين لأمر نبيّهم ومقتدين بهديه.(١)

وأما عائشة الصديقة رضي الله عنها التي تزوّج بها الرسول صلى الله عليه وسلم في شهر شوال سنة ١٠ هـ بعد زواجه من سودة بنت زمعة بسنة، فإنها ساعدته في جوانب متعددة من الحياة، وعرفت الأمة بواسطتها هدى الرسول في حياته الشخصية، وما يعمل بها من أحكام وأوامر، وقد روت ٢٢١٠ حديث في مختلف أقوال وأعمال الرسول صلى الله عليه وسلم وأحواله، استنبطت منها كثير من أحكام الشريعة ومسائلها، وهذا عدا ما نقل عنها من الفتاوى الشرعية، وحل المشكلات العلمية، وبيان

---

[١] - صحيح البخاري، كتاب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، و أبوداود: ٢٧٢٥، ومسند الإمام أحمد: ٤/٣٢٣-٣٢٦، ٣٢٨، ٣٣١، وزاد المعاد: ٣/٢٩٥.

www.abulhasanalinadwi.org

الروايات العربية، والوقائع التاريخية، وقد عاشت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم٤٨ سنة، قضتها في تربية النساء تربية دينية، وبَذْلِ جهود تربية أخرى في مختلف مجالات الحياة، وتوفيت في ١٧/شعبان سنة ٥٧ أو ٥٨هـ، ودفنت في البقيع.

وكانت زوجته حفصة بنت عمر الخطاب أيضاً خير ذريعة لتقوية الدين وتعزيزه بصلاحها وحسن عملها، وروى عنها ٢١٠ حديث، وتزوّج بها الرسول صلى الله عليه وسلم في شعبان سنة ٣هـ، توفيت في شعبان من سنة ٤٥ هـ بالمدينة المنورة عن عمر كان يناهز ٦٠ سنة.

وتزوج الرسول صلى الله عليه وسلم بأم المساكين زينب بنت خزيمة في السنة الرابعة من الهجرة، ولم تعش معه إلا ثلاثة أشهر، وتوفيت في ربيع الآخر سنة ٤هـ، ودفنت في البقيع.

وتزوج بأم سلمة هند بنت أبي أمية في شوال سنة ٤هـ وعاشت ٨٤ سنة، وتوفيت سنة ٥٩هـ، ودفنت في البقيع.

وقضى الرسول صلى الله عليه وسلم بزواجه من زينب بنت جحش على عادة المتبنى القبيحة السائدة في الجاهلية، وتأثيرها السيىء على المجتمع، كما قضى على التمييز بين الحر والعبد، والحرة والأمة، وقدم أسوة عالية بعمله هذا للمساواة الإنسانية، تزوج بها الرسول صلى الله عليه وسلم في شهر ذي القعدة سنة ٥هـ، وتوفيت عن عمر يناهز ٥٣ سنة، ودفنت في البقيع.

وتزوج الرسول صلى الله عليه وسلم بجويرية بنت الحارث في السنة الخامسة أوالسادسة من الهجرة، وتوفيت سنة ٥٦هـ، وهي في الخامس و الستين من عمرها، ودفنت في البقيع.

www.abulhasanalinadwi.org

وأسلمت أم حبيبة بنت أبي سفيان مع زوجها عبد الله بن جحش وواجهت شدائد في مكة من قبل أهلها الكفار، فهاجرت مع زوجها إلى الحبشة، ثم تنصّر هنالك زوجها عبد الله بن جحش، بعد ما وقع صريعاً للغواني النصرانيات، وارتد عن الإسلام، وبقيت أم حبيبة مسلمةً بأرض الحبشة، وأصيبت بصدمة عنيفة بعد ما تركها زوجها، وانكسر قلبها، فجبر الرسول قلبها المنكسر، وواساها بأن تزوّج بها، وكانت خير زوجة، وقضت معه حياة طيبة سعيدة.

وتزوج الرسول صلى الله عليه وسلم صفية بنت حيي بن أخطب بعد وقعة خيبر سنة ٧هـ، وتوفّيت سنة ٥٠هـ، ودفنت في البقيع.

ودخلت ميمونة بنت الحارث عام ٧هـ، وهو عام عمرة القضاء، وماتت في سرف سنة ٦١هـ، ودفنت به[١].

وكانت سائر أزواج الرسول صلى الله عليه وسلم أعواناً له على القيام بما أكرمه الله به من تبليغ الرسالة، وأداء الأمانة، وتعليم المسلمين دينهم، كما كن سبب تسلية وتقوية له، ويساعدنه في القيام بما يتعلّق بحياته المنزلية والشخصية وكثير من أحكام الدين والأخلاق، إنه توفّي عن تسع زوجات، غير خديجة وزينب بنت خزيمة، فقد توفّيتا في حياته.

وقد جعل الله تعالى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وهديه في الحياة أسوة لاتباع الشريعة وأحكام الدين إلى يوم القيامة، فإن أعماله وأقواله وسيرته لتهدي الإنسان في كل ما يهمّه من مشاكل، أو يجدّ له من أوضاع ومستجدات، وعند ما يحدث لأحد صور مختلفة للزواج بامرأة، وما هو يمكن اختياره في هذا الشأن؟ فعليه أن يراجع إلى

---

[١] - الروض المعطار في خبر الأقطار لعالم البلدان محمد بن عبد المنعم الحميري (المتوفى ٩٠٠ هـ / ١٤٩٥ م): ٣١٢/١.

www.abulhasanalinadwi.org

سيرته الجامعة، فيجد فيها ما يحلّ مشكلته.

ويشاهد في الحياة العامة أنه إذا تزوّج أحد بأكثر من واحد يصعب عليه أن ينصف بين زوجتين فضلاً عن المساواة بينهما، فإن العدل بين الأزواج هي ميزة متميزة وخاصة بالرسول صلى الله عليه وسلم، فتزوّج الرسول بأكثر من واحدة، وعدل بين زوجاته، ولم يمل إلى إحداهن، ولا يترك الأخرى كالمعلقة، وإذا تزوج أحد بأكثر من واحدة فإنه يجد في أسوة الرسول ما يهديه في حياته الزوجية والعائلية ويرشده إرشاداً، فأصبحت بذلك حياة الرسول صلى الله عليه وسلم العائلية خير نموذج لاختيار ما أمر الله به من إحسان، وسلوك حسن عادل، وعاطفة إنسانية خيرة مع الزوجة.

ولم تكن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم مع أزواجه حياة ترف ورفاهية، وتوسُّع في المطاعم والمشارب، وخفض العيش، بل كانت حياة زهد وتقشف، وإيثار وقناعة لا يطيقها أعاظم الرجال، وكبار الزهاد في القديم والحديث، وأشرك أزواجه في هذه الحياة الزاهدة المتقشفة، وقال لهن: إن كنتن تردْن الحياة الدنيا وزينتها وراحتها وبذخها، فتعالَين أمتعكن وأسرّحكن سراجاً جميلاً، ثم أمهلهن أن يفكرن في ذلك، ولكنهن اخترن الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبته، وآثرن الحياة الأخروية على الحياة الدنيا، والحياة المتقشفة على الحياة الباذخة الرغيدة، وعشن معه حياة حب وتعاون ومودة، وقدمن مثالاً عالياً للأسرة الملتزمة بالمثل الإنسانية العليا، والقيم الخلقية المثلى، والحياة العائلية النموذجية.

www.abulhasanalinadwi.org

أولاد الرسول صلى الله عليه وسلم

عاشت السيدة خديجة الكبرى رضي الله عنها مع زوجه العظيم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم٢٥ سنة، كانت خمس عشرة من قبل النبوة، وعشر سنوات بعد النبوة، ولدت له ولدين، وأربع بنات، أما الولدان فهما: القاسم وعبد الله الطيب الطاهر الذي مات صغيراً (١) وأما البنات الأربع، فإحداهن زينب، وهي أكبر أولاد النبي إلا القاسم، فهو أكبر منها، ولدت قبل البعثة بعشر سنوات، وتزوّجها أبو العاص بن الربيع بن لقيط، وماتت في حياة الرسول سنة ٨ من الهجرة، وولدت زينب لأبي العاص علياً وأمامة. (٢)

والبنت الثانية: هي رقية، ولدت سنة تسع قبل النبوة، وتزوّجها عتبة بن أبي لهب، ثم طلّقها لضغط من أبيه أبي لهب الذي عادى الرسول عداء شديداً عندما صدع الرسول صلى الله عليه وسلم بما أمر من قبل الله، فتزوجها عثمان، وماتت هي أيضاً في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم في السنة الثانية من الهجرة. (٣)

وأما ابنته الثالثة: فهي أم كلثوم رضي الله عنها، ولدت قبل النبوة، وتزوجها عتيبة بن أبي لهب، ثم أجبر أبو لهب ابنه على أن يطلّقها، فطلّقها، ولما توفّيت رقية رضي الله عنها في السنة الثانية من الهجرة، زوج الرسول صلى الله عليه وسلم عثمان ابنته أم كلثوم،

---

١ - البداية والنهاية: ٣٠٧/٥.

٢ - سبل الهدي والرشاد في سيرة خير العباد لمحمد بن يوسف الصالحي الشامي: ٢٩/١١-٣٢.

٣ - نفس المصدر ص: ٣٣-٣٥، وأنساب الأشراف لأحمد بن يحيى البلاذري: ٤٠١.

www.abulhasanalinadwi.org

ولذلك لقب عثمان بذي النورين، وتوفيت عنده ولم تلد منه. توفّيت في سنة تسع من الهجرة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم.(١)

وابنته الرابعة هي فاطمة رضي الله عنها أصغر بنات الرسول صلى الله عليه وسلم من خديجة الكبرى، ولدت قبل النبوة بخمس سنوات، تزوجها علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد امتازت بين أخواتها بأن نسل الرسول صلى الله عليه وسلم استمر بها، ولدت فاطمة ولدين الحسن والحسين رضي الله عنهما، وقد عاشت في حياة الرسول الطيبة، وتوفيت بعد وفاة الرسول بستة أشهر.(٢) وقد صحبت الرسول صلى الله عليه وسلم طول حياته؛ لأنها كانت معه قبل الزواج، وكذلك كانت معه بعد زواجها لأن زوجها علياً كان يعيش مع الرسول صلى الله عليه وسلم، فهي أيضاً معه، ولذلك نالت حظاً أوفر من محبة الرسول صلى الله عليه وسلم وشفقته وعنايته وتربيته الخاصة، وكذلك نال ابناه الحسن والحسين حظاً وافراً من تربية الرسول وعطفه وحنانه، وعودهما الرسول صلى الله عليه وسلم على الإعداد والسعي لحياة الآخرة، والرغبة عن الدنيا ومتاعها، وقال في فاطمة وولديها كلمات حانية طيبة.(٣)

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يحبهما بصفتهما ابني بنته فحسب، بل يحبهما باعتبارهما ابني ولده، وكانا أيضاً بارّين مطيعين، متصفين بسيرة صالحة، وأخلاق كريمة عالية، وسلوك حسن، وقدما

---

١ - البداية والنهاية: ٣٠٨/٥، سبل الهدي والرشاد في سيرة خير العباد لمحمد بن يوسف الصالحي الشامي: ٣٦/١١

٢ - البداية والنهاية ٣٠٨/٥، سبل الهدي والرشاد في سيرة خيرة العباد لمحمد بن يوسف الصالحي الشامي: ٣٧/١١-٥٤

٣ - نفس المصدر: ٥٥/١١-٨٢.

www.abulhasanalinadwi.org

أسوة حسنة تظهر من حفدة نبيّ وأسباطه .

وكان هؤلاء الأولاد والبنات كلهم من بطن خديجة الكبرى، إلا إبراهيم، وهو من بطن مارية القبطية التي تزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة بسنوات، ولكنه توفّي وهو صبي، وكان ولد بعد وفاة خديجة الكبرى بعدة سنوات . ([1])

ولم تعش فاطمة طويلاً بعد وفاة والده محمد صلى الله عليه وسلم، بل عاشت ستة أشهر، ثم لحقت بوالده، وتركت وراءها ولدين يتيمين، كان أحدهما حينذاك في السابعة من عمره، والثاني في الثامنة من عمره، نشآ وترعرعا في رعاية وتربية والدهما، وكان والدهما علي بن أبي طالب أصغر سناً من خليفة الرسول أبي بكر الصديق ٢٧ سنة، ومن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ١٧ سنة، وكذلك كان أصغر من الخليفة الثالث عثمان بن عفان سناً، كان يشاركه في كونه ختن الرسول صلى الله عليه وسلم مع أن عثمان يمتاز عنه بأنه تزوج ببنتي الرسول صلى الله عليه وسلم. واستخلف عليٌّ بعد عثمان رضي الله عنهما، وهؤلاء الأربعة يسمّون بالخلفاء الراشدين، واختاروا منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في الحكم والإمارة، وسلكوه على أحسن صورة وأقومها، ولم ينحرفوا عنه قيد شعرة، وقدّموا منهج الرسول صلى الله عليه وسلم كأسوة حسنة للحياة الإنسانية، ومدة خلافتهم ثلاثون سنة.

---

[1] - البداية والنهاية ٣٠٦/٥

www.abulhasanalinadwi.org

الباب التاسع

الأخلاق والشمائل النبوية

إذا أراد الله أن يبعث أحداً من عباده نبيّاً لإصلاح قوم، يصطفى منهم من يكون ممتازاً عن غيره، وفائقاً في الفراسة والفطانة، والخلق والسلوك، وسمو النفس، وعلو الهمة، وتكون هذه الصفة الممتازة في الواقع نعمة من نعم الله؛ ليقوم بأداء المسئولية المنوطة به نحو الإصلاح والإرشاد والهداية، خير قيام وأحسنه، فيؤتى أحكام سماوية يقوم وفقها بإصلاح قومه، ويدعوهم إلى الحق، ويهديهم إلى الصراط المستقيم، وكل من يختار ويصطفى للنبوة، تودع في حياته قبل النبوة محاسن إنسانية في إطار الفطرة، وهذه الفضائل الإنسانية إنما تكون خصائص عالية سامية موهوبة من الله رب العالمين، فيشاهدها قومه ويحبونها، فيكونون مطلعين على أخلاقه الكريمة العالية، ومحاسنه العليا، وشمائله وشيمه الشريفة النبيلة؛ لكونه عائشاً بين ظهرانيهم في المجتمع.

فإن هذا الرجل المقبول المحبوب لدى الناس لما أوتي النبوة، وقام يدعوهم إلى الرشد والهداية، خالفه المتمرِّدون، وأصحاب الأهواء من قومه؛ قائلين: إن الرجل بدأ يقول ما لم يقله آباؤنا، إنه قد حاد عن طريق أسلافنا، ولكنهم بالرغم من مخالفته لم يستطيعوا أن ينكروا أخلاقه الإنسانية الشريفة، وسلوكه الحسن النبيل، فلم يرضوا بالتخلي عن عاداتهم وتقاليدهم الدينية التي طبعوا عليها، ورضعوا بلبانها؛ حسداً وعناداً وتعصباً لها، وما كانوا أن يستمعوا شيئاً يخالف تقاليدهم

www.abulhasanalinadwi.org

الجاهلية، ومع ذلك لا ينكرون خصائص النبي الخلقية الإنسانية، وكان النبي يقول لهم: إنكم تعرفونني جيداً، ويشاهدونني من مدة طويلة، وتتعايشون معي وتجربونني، فرغم كل ذلك لا تلتفتون إلى قولي أي التفات، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك، فيقول: " فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ " [يونس: ١٦].

إن الإخلاص، والصفاء، والشرف، وسمو النفس، وعلو الهمة، والعزم، والإرادة القوية، والصبر، والجلد، والاستقامة، والثبات، والسلوك الحسن، والمواساة، والخلق الرفيع، هي من خصائص النبي التي تضطر كل من يستمع إلى كلامه مترفعاً عن التعصب وبعيداً عن العناد، إلى الإيمان به.

كان الرسول صلى الله عليه وسلم محبوباً ومقبولاً في قومه مدة أربعين سنة، ولما نهاهم عن التقاليد الجاهلية، والعادات القبيحة، والمذاهب المحرفة الباطلة، ودعاهم إلى الفضيلة والخير والحق والدين المقبول عند الله، خالفوه وأعرضوا عنه، ولكن بالرغم من هذه المخالفة الشديدة كان بعضهم يفكرون في دعوته، ثم يقبلونها، وينضمون إليها؛ لأنهم كانوا يعرفون جيداً ما كان يحمله صاحب هذه الدعوة، من المؤاساة الإنسانية، والصدق والوفاء، والطهر والعفاف، والسلوك الحسن، فكل من يسمع دعوته بذهن مفتوح ونية صالحة، أو يجالسه بعيداً عن العصبية، يقع أسيراً له، ويولع به حتى أن بعض الناس أرادوا أن يأتوه بسوء، ولكنهم لما رأوا سلوكه الحسن تغيَّر موقفهم، وانقلبوا أصدقاء، ومع ذلك كله لم يكن معظم قومه يستعدون لسماع دعوته، يغشون في آذانهم الثياب خوفاً من أن يصل إليها شيء من كلامه،

www.abulhasanalinadwi.org

ويختارون طرقاً متعددة لمنعه عن القيام بالدعوة إلى الله الواحد، ويؤذونه ويظلمونه.

لما ألقيت على الرسول صلى الله عليه وسلم مسئولية النبوة العظيمة شعر بثقلها وعظمتها، فذكر لزوجته خديجة الكبرى ما كان يهمُّه، فسلّته وطمأنت قلبه قائلة: "كلاّ! والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق" (١).

قالت خديجة الكبرى ذلك على أساس عقلها السليم، وفطرتها الصحيحة المستقيمة، وتجارب حياتها، وتجربتها مع الناس، واطلاعها على طبائع الناس، كان لقبه قومه بـ "الصادق الأمين" لخصاله الصالحة، وصدقه وأمانته ووفائه بالعهود والوعود، وكان غاية في الصدق والأمانة، فكان الناس رغم عداوتهم له يعترفون بخلقه الكريم، ويمتثلون لما يقول عدا الدعوة إلى الله الفرد الصمد الأوحد الأحد، فكان يشارك قومه في جلب الأحجار لبناء الكعبة من جديد، ويشاركهم مشورتهم حول أمور خيرة، ويساعد المصاب، وذا الحاجة، والملهوف، ويعين المظلوم، وخير مثال لذلك ما روى المؤرخون أن رجلاً من إراش، قدم مكة بإبل له، فابتاعها منه أبو جهل، فمطله بأثمانها، فأقبل الإراشي حتى وقف على ناد من قريش، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في ناحية المسجد جالس، فقال: يا معشر قريش! من رجل يعينني على أخذ حقّي من أبي جهل؟ فإني رجل غريب، فقال له أهل ذلك المجلس، أترى ذلك الرجل الجالس - رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهم يهزؤون به لما يعلمون بينه وبين أبي جهل من العداوة؟

(١) صحيح البخاري، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

www.abulhasanalinadwi.org

اذهب إليه، فإنه يؤديك عليه، فأقبل الإراشي حتى وقف على الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: يا عبد الله، إن أبا الحكم بن هشام قد غلبني على حق لي قبله، وأنا رجل غريب وابن سبيل، وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يؤديني عليه، يأخذ لي حقي منه، فأشاروا لي إليك، فخذ لي حقي منه، يرحمك الله، قال: انطلق إليه، وقام معه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رأوه قام معه، قالوا لرجل ممن معهم: اتبعه، فانظر ماذا يصنع.

وخرج الرسول صلى الله عليه وسلم حتى جاءه، فضرب عليه بابه، فقال: من هذا؟ قال: محمد، فاخرج إليَّ، فخرج إليه، وما في وجهه من رائحة(أي بقية روح أو ما في وجهه قطرة دم) قد انتقع لونه فقال: أعط هذا الرجل حقه، قال: نعم، لا تبرح حتى أعطيه الذي له، فدخل، فخرج إليه بحقه، فدفعه إليه.

ثم انصرف الرسول صلى الله عليه وسلم وقال للإراشي: الحق بشأنك، فأقبل الإراشي حتى وقف على ذلك المجلس فقال: فقد والله أخذ لي حقي.

ثم لم يلبث أبو جهل أن جاء نادي القوم فقالوا له، ويلك مالك؟ والله ما رأينا مثل ما صنعت قط، قال: ويحكم، والله ما هو إلا أن ضرب عليّ بابي، وسمعت صوته، فملئت رعباً، ثم خرجت إليه، وإن فوق رأسه لفحلاً من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا قصرته ولا أنيابه لفحل قط، والله لو أبيت لأكلني.(١)

ولم يكن الرسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم بمثل هذه المواقف الإنسانية لأغراضه الشخصية، كان يتحمل الأذى والجفاء، ولا

١ - سيرة ابن هشام: ١/٣٨٩- ٣٩٠.

www.abulhasanalinadwi.org

يخطر بباله أن ينتقم لنفسه فضلاً عن القيام بأخذ الثأر عملياً، وكان يعين كل من يأتيه في حاجة، ويعطيه، أو يرده بميسور من القول، ويعامل كل شخص معاملة اللين والعطف، والمحبة والرحمة، وقد أشار إلى ذلك الله عزوجل في محكم كتابه فيقول:

" فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ" [آل عمران: ١٥٩].

ولا ينتقم لنفسه ممن يعتدي عليه، ولا ينتصر لها، ولكن إذا تعدى الحق، أو انتهك الدين لم يقم لغضبه شيء، ويختار موقفاً صارماً مشدَّداً، يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو يصف خلقه صلى الله عليه وسلم:

" وما رأيته منتصراً من مظلمة ظلمها قط، ما لم ينتهك من محارم الله تعالى شيء، فإذا انتهك من محارم الله كان من أشدهم غضباً ".

ويقول أنس بن مالك رضي الله عنه:

"كان النبي صلى الله عليه وسلم رحيماً، وكان لا يأتيه أحد إلا وعده وأنجز له، إن كان عنده، وأقيمت الصلاة، وجاء أعرابي فأخذ ثوبه، فقال: إنما بقي من حاجتي يسيرة، وأخاف أنساها، فقام معه حتى فرغ من حاجته، ثم أقبل فصلّى.

ومن أمثلة احتماله وسعة صدره، وعظم صبره، ما شهد به خادمه أنس، وقد كان حديث السن قال: والله لقد خدمته عشر سنين، ما علمته قال لشيء صنعته: لمَ فعلت كذا وكذا، أو بشيء تركته، هلاّ فعلت كذا وكذا"(١).

---

١ - صحيح مسلم، باب حسن خلقه صلى الله عليه وسلم.

www.abulhasanalinadwi.org

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، فإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله"(١).

عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يستنكف أن يمشي مع العبد، ولا مع الأرملة، حتى يفرغ لهم من حاجتهم"(٢).

وعن أنس قال: "كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد النبي فتنطلق به حيث شاءت"(٣).

ولما قدم عليه عدي بن حاتم الطائي دعاه إلى منزله فألقت إليه الجارية وسادة يجلس عليها، فجعلها بينه وبين عدي، وجلس على الأرض قال عدي: فعرفته أنه ليس بملك" (٤).

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعود المريض، ويشهد الجنازة، ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد. (٥)

وعن جابر رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخلف في المسير فيزجى الضعيف ويدعو له. (٦)

وعن أنس رضي الله عنه قال: إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد. (٧)

---

١ - صحيح البخاري، كتاب الأنبياء.

٢ - رواه البيهقي في باب تواضع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٣ - مسند أحمد: ١٩٨/٣ — ٢١٥، وجمع الفوائد، كتاب المناقب، باب صفاته وأخلاقه صلى الله عليه وسلم.

٤ - زاد المعاد: ٤٣/١.

٥ - شمائل الترمذي، باب تواضع النبي صلى الله عليه وسلم.

٦ - الترغيب والترهيب للمنذري.

٧ - كتاب الشفا ص: ١٠١.

www.abulhasanalinadwi.org

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقمّ البيت، ويعقل البعير، ويعلف ناضحه، ويأكل مع الخادم، ويعجن معه، ويحمل بضاعته من السوق .(١)

وصفه صلى الله عليه وسلم هند بن أبي هالة (ابن خديجة أم المؤمنين، وخال الحسن والحسين رضي الله عنهما) وكان رجلاً وصافاً: فقال:

" كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل(٢) الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، طويل السكت، لا يتكلم في غير حاجة، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه (٣)، ويتكلم بجوامع الكلم، كلامه فصل(٤)، لا فضول ولا تقصير، ليس بالجافي(٥)، ولا المهين(٦)، يعظّم النعمة وإن دقّت(٧)، لا يذم منها شيئاً، غير أنه لم يكن يذم ذواقاً (٨) ولا يمدحه، ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها(٩)، فإذا تعدى الحق، لم يقم لغضبه شيء، حتى ينتصر له، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها، وضرب براحته اليمنى بطن إبهامه اليسرى، وإذا

---

١ - نفس المصدر برواية البخاري ص: ١٠١.

٢ - أي لا ينفك حزن عن حزن يعقبه.

٣ - جمع شدق بالكسر، طرف الفم، أي إنه يستعمل فمه للتكلم، ولا يقتصر على تحريك شفتيه كفعل المتكبرين.

٤ - الفاصل بين الحق والباطل.

٥ - الغليظ الطبع السيء الخلق.

٦ - يروي بضم الميم أو بفتحها، فالضم على الفاعل من "أهان" أي لا يهين من يصحبه، والفتح على المفعول من المهانة: أي الحقارة، والابتذال، فالمعنى لم يكن غليظ الخلق ولا ضعيفه، بل كان معتدلاً بين أنواع المهابة والوقار والجلالة.

٧ - صغرت أو قلّت.

٨ - المأكول والمشروب، فعال بمعنى المفعول من الذوق.

٩ - أي ولا يغضبه أيضاً ما كان له علاقة بالدنيا.

www.abulhasanalinadwi.org

غضب أعرض وأشاح[١]، وإذا فرح غضّ طرفه.

جلّ [٢] ضحكه التبسم، يفتر [٣] عن مثل حب الغمام. [٤]

ووصفه علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وهو من أعرف الناس به، وأكثرهم عشرة له، وأقدرهم على الوصف والبيان، فقال:

"لم يكن فاحشاً[٥]، متفحشاً[٦]، ولا صخّاباً[٧] في الأسواق، ولا يجزي السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح[٨]، ما ضرب بيده شيئاً قطّ، إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا ضرب خادماً ولا امرأة، وما رأيته منتصراً[٩] من مظلمة ظلمها قط ما لم ينتهك من محارم الله تعالى شيء، فإذا انتهك من محارم الله، كان من أشدّهم غضباً، وما خيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما، وإذا دخل بيته كان بشراً من البشر، يفلي[١٠] ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه.

كان يخزن لسانه إلا فيما يعنيه، ويؤلفهم ولا ينفرهم، ويكرم كريم كل قوم، ويولّيه عليهم، ويحذر الناس، ويحترس منهم، من غير أن يطوي على أحد منهم بشره[١١] ولا خلقه، ويتفقد[١٢] أصحابه

---

١ - جدّ في الإعراض وبالغ فيه.
٢ - معظمه وأكثره.
٣ - من افتر: ضحك ضحكاً حسناً حتى بدت أسنانه من غير قهقهة.
٤ - بفتحتين: البرد.
٥ - أي ذو فحش من القول والفعل، وإن كان استعماله في القول أكثر منه في الفعل والصفة.
٦ - أي ولا المتكلف به، أي ولم يكن الفحش له خلقياً ولا كسبياً.
٧ - أي صياحاً.
٨ صفح عنه: أعرض عنه وتركه، بابه فتح.
٩ - منتقماً.
١٠ - فلي يفلي فلياً رأسه او ثوبه، نقاهما من القمل
١١ - بالكسر: طلاقة الوجه وبشاشته.
١٢ - أي يتعرف ويطلب من غاب عنهم.

www.abulhasanalinadwi.org

ويسأل الناس عما في الناس، ويحسن الحسن ويقويه، ويقبح القبيح ويوهيه[١] معتدل الأمر غير مختلف، ولا يغفل مخافة أن يغفلو ويملُّوا، لكل حال عنده عتاد[٢]، ولا يقصر عن الحق، ولا يجاوزه، الذين يلونه من الناس خيارهم، وأفضلهم عنده أعمُّهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مؤاساة [٣] ومؤازرة [٤] ولا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس، ويأمر بذلك، يعطي كل جلسائه نصيبه، ولا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه، من جالسه أو فاوضه[٥]، في حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف، ومن سأله حاجته لم يرده إلا بها أو بميسور من القول، وقد وسع الناس بسطه وخلقه، لصار لهم أباً وصاروا عنده في الحق سواء، مجلسه مجلس علم وحياء وصبر وأمانة، ولا ترفع فيه الأصوات، ولا تؤبن[٦] فيه الحرم، ولا تنثى[٧] فلتاته [٨]، متعادلين[٩]، يتفاضلون فيه بالتقوى، ويوقرون فيه الكبير، ويرحمون فيه الصغير، ويؤثرون ذا الحاجة، ويحفظون الغريب".

وقال: "كان دائم البشر، سهل الخلق، لين[١٠] الجانب، ليس

---

[١] - بتشديد الهاء وتخفيفها من التوهيه والإيهاء: يضعفه.

[٢] - بالفتح هو العدة والتأهب مما يصلح لكل ما يقع، ج أعتد، وعتد، وأعتدة.

[٣] - المدارة وهي إصلاح أحوال الناس بالمال والنفس.

[٤] - المعاونة.

[٥] - عامله في حاجة أو خالطه.

[٦] بضم التاء وسكون الهمزة من الإبن وهو العيب والتهمة؛ أي لا تقذف ولا تعاب.

[٧] بضم التاء وسكون النون وفتح المثلثة أي لا تشاع ولا تذاع.

[٨] أي زلاته ومعائبه على تقدير وجود وقوعها، جمع فلتة وهي ما يصدر من الرجل من سقطة.

[٩] - متساوين.

[١٠] - أي سريع العطف، كثير اللطف، جميل الصفح، وقليل الخلاف، وقيل: كناية عن السكون والوقار والخشوع والخضوع.

www.abulhasanalinadwi.org

بفظّ[١] ولا غليظ، ولا صخّاب، ولا عيّاب، ولا مشاح[٢]، يتغافل عمّا لا يشتهي، ولا يؤيس منه، ولا يجيب فيه[٣]، قد ترك نفسه من ثلاث: المراء[٤]، والإكبار، وما لا يعنيه. ترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحداً ولا يعيبه، ولا يطلب عورته، ولا يتكلّم إلا فيما رجا ثوابه، وإذا تكلّم أطرق[٥] جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلّموا، لا يتنازعون عنده الحديث، ومن تكلّم عنده أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم عنده حديث أولهم[٦]، يضحك ممّا يضحكون، ويتعجّب مما يتعجّبون، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته، حتى كان أصحابه يستجلبونهم، ويقول: إذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فأرفدوه[٧] ولا يقبل الثناء إلا من مكافيء[٨]، و لا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز[٩] فيقطعه بنهي أو قيام".

"أجود الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة[١٠] وألينهم عريكة[١١] وأكرمهم عشيرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه،

---

[١] الغليظ السيء الخلق، والخشن الكلام، ج أفظاظ، وفي القرآن: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

[٢] - اسم فاعل من المفاعلة من الشح، وهو البخل، وقيل أشده.

[٣] - أي لا يجيب أحداً فيما لا يشتهي بل يسكت عنه عفواً وتكرماً.

[٤] - الجدال.

[٥] أمالوا رؤوسهم، وأقبلوا ببصرهم إلى صدورهم.

[٦] - أي حديث أفضلهم وكأول تكلمهم، لا عن ملال وسآمة

[٧] الإرفاد: الإعطاء والإعانة.

[٨] - أي مقارب في مدحه، ولا يجاوز في حد مثله، ولا مقصر به عما رفعه الله إليه من علو مقامه.

[٩] - أي يتجاوز عن الحد والحق.

[١٠] - اللسان.

[١١] - الطبيعة؛ ج عرائك.

www.abulhasanalinadwi.org

يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله صلى الله عليه وسلم"[١].

وقد كسا الله نبيّه لباس الجمال، وألقى عليه محبة ومهابة منه، وصفه هند بن أبي هالة، فقال:

"كان فخماً[٢]، مفخماً[٣]، يتلألأ[٤] وجهه تلألأ القمر ليلة البدر"[٥].

بشرية كاملة واعتدال جميل

عن أسامة بن زيد رضي الله عنه أن ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلت إليه أن ابني قد احتضر، فاشهدنا، فأرسل يقرأ السلام، ويقول: إن لله ما أخذ وما أعطى، وكل شيء عنده مُسمى، فلتصبر ولتحتسب، فأرسلت إليه تقسم عليه، فقام وقمنا معه، فلمّا فعد رفع إليه، فأقعده في حجره ونفس الصبي تقعقع، ففاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال سعد: ما هذا يا رسول الله؟! قال: هذه رحمة يضعها الله في قلوب من يشاء من عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء". [٦]

وكذلك لما مات ابنه الصغير ابراهيم جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وألقى عليه نظرة وقال: إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا ابراهيم لمحزونون. [٧]

واتفق بهذه المناسبة المحزنة أن كسفت الشمس، فقال الناس:

---

١ - ملتقطاً من جزء الشمائل للترمذي.
٢ - بفتح الفاء وسكون الخاء: أي عظيماً في نفسه.
٣ - أي المعظم في الصدور والعيون.
٤ - أي يستنير.
٥ - عن الحسن بن علي عن خاله هند بن أبي هالة (الشمائل للترمذي).
٦ - صحيح البخاري باب الجنائز، رقم: ١٢٨٤.
٧ - نفس المصدر: رقم: ١٣٠٣.

www.abulhasanalinadwi.org

كسفت الشمس لموت إبراهيم، فخطب الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله - عزوجل - لا ينكسفان لموت أحد ولحياته، فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبّروا، وصلّوا وتصدّقوا".(١)

تأمل هذا الموقف العظيم، إن المرء في مثل هذا الموقف يسر ويفرح بأن الناس يكبرونني ويعظمون ابني، بدون أن أقول لهم شيئاً، فلا يمنعهم؛ بل يتركهم يذكرون ويكبّرون، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقف هذا الموقف، ولم يرض بأن يقع نقص أو خلل في عقيدة أحد، فيعتقد أن أحداً غير الله يؤثر في الأرض والسماء، أوالشمس أو القمر، بل شدَّد النكير على ذلك، وقال بقوة وصراحة: إن كل ما يقع في الأرض أو الأجرام السماوية، لا يكون إلا بأمر الله.

كان هذا المثال من أمثلة الحزن والأسى، وتأمل مثال السرور والحبور، يقول ابن هشام: إن جعفر بن أبي طالب قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح خيبر، فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عينيه والتزمه، وقال: ما أدري بأيّهما أنا أسرّ: بفتح خيبر، أم بقدوم جفعر (٢). تأمل جامعيته هذه؛ أنه كان بشراً اقتضت بشريته أن يبدي سروره بقدوم أحد أقاربه الأقربين بعد مدة طويلة قضاها في المنفى، مما يدلّ على كمال بشريته، ومع ذلك أعرب عن سروره بفتح المسلمين بصفته نبياً وقائداً لهم، وإنه من أوضح أمثلة اعتداله وعدله، فإنه اعتبر المسرتين فبذلك أدى كقائد وأمير واجب الفرح والسرور بفتح المسلمين، كما أدى واجب الأخوة والمحبة والقرابة والرحم خير تأدية؛ بإبدائه السرور

---

١ نفس المصدر، كتاب الكسوف، رقم: ١٠٤٣

٢ - سيرة ابن هشام ٣٥٩/٢

www.abulhasanalinadwi.org

بقدوم قريبه العزيز الحبيب .

كرمه وحلمه:

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إمام الخلق أجمعين، ومعلمهم في حسن الخلق، وكرم النفس، والتواضع، لقد قال تعالى: "وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ" [القلم: ١٤] وقد قال صلى الله عليه وسلم: "أدبني ربّي فأحسن تأديبي" ، وعن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله بعثني لتمام مكارم الأخلاق، وكمال محاسن الأفعال"(١) وسئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه، فقالت: " كان خلقه القرآن" (٢) .

وكان من العفو والحلم، ورحابة الصدر، وقوة الاحتمال، حيث لا يبلغه ذكاء الأذكياء، وخيال الشعراء، ولو لم يرو عن طريق لا يتطرق إليه شك، ولا ترتقي إليه شبهة، لما قبلته أذهان الناس، ولكن روي بإسناد صحيح متصل، ونقل عادل عن عادل، وتواتر واستفاض ذلك، فكان أثبت من التاريخ الأمين، و نكتفي هنا بقليل مما روي في هذا الباب .

فمن كرمه صلى الله عليه وسلم وعفوه عن أشدِّ أعدائه، وإحسانه إليه، أنه أتى عبد الله ابن أبي (٣)- رأس المنافقين - بعد ما أدخل حفرته، فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخرج، فوضعه على ركبتيه، ونفث فيه من ريقه، وألبسه قميصه (٤) .

وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: كنت أمشي مع رسول

---

١ - رواه البيهقي في شرح السنة، مشكاة المصابيح، ص: ٥١٤.

٢ - رواه الإمام مسلم في صحيحه، من حديث عائشة بطوله .

٣ وهلك سنة تسع من ذي القعدة بعد الانصراف من تبوك، الزرقاني ، ج٣ ، ص: ١١٢.

٤ - صحيح البخاري، كتاب الجنائز ملخصاً .

www.abulhasanalinadwi.org

الله صلى الله عليه وسلم وعليه برد نجراني، غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجبذه بردائه جبذة شديدة، فنظرت إلى صفحة عاتق النبي صلى الله عليه وسلم وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد ! مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه، فضحك، ثم أمر له بعطاء (١).

وجاء زيد بن سعنة قبل إسلامه يتقاضاه ديناً عليه، فجبذ ثوبه عن منكبه، وأخذ بمجامع ثوبه، وأغلظ له، ثم قال: إنكم بني عبد المطلب مطل، فانتهره عمر، وشدَّد له في القول، والنبيُّ يبتسم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا وهو كنا إلى غير هذا أحوج منك يا عمر! تأمرني بحسن القضاء، وتأمره بحسن التقاضي، ثم قال: لقد بقي من أجله ثلاث، وأمر عمر يقضيه ماله، ويزيده عشرين صاعاً لما روعه، فكان سبب إسلامه (٢).

الرفق بالحيوانات والدواب:

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يرحم الحيوانات والدواب، ويوصى بالرفق بها، يروي شداد بن أوس فيقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحدّ أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته(٣).

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً أضجع شاة وهو يحد شفرته، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أتريد أن تميتها موتتين؟

---

١ - رواه البخاري في كتاب الجهاد، باب" ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي المؤلفة قلوبهم، ورواه الإمام أحمد في المسند، ج/٣ ص: ١٥٣ باختلاف في اللفظ.

٢ - رواه البيهقي مفصلاً، وابن حبان والطبراني.

٣ - رواه مسلم في باب الأمر بإحسان الذبح.

www.abulhasanalinadwi.org

هلا حددت شفرتك قبل أن تضجعها (١).

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حمرة معها فرخان، فأخذنا فرخيها فجعلت تفرش، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال: من فجع هذه بولدها، ردّوا ولدها إليها، ورأى قرية نمل قد حرقناها، قال: من حرق هذه؟ فقلنا: نحن، قال: إنه لا ينبغي أن يعذّب بالنار إلا رب النار(٢).

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصي بالإحسان في علف الدابة وسقيها، وعدم إرهاقها وتكليفها ما لا تطيق، وعدم اتخاذها غرضاً، ونوّه بما في إزالة الكربة عن الحيوانات وإراحتهم من الأجر والثواب والقرب عند الله، روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خفه، ثم أمسكه بفمه، فسقي الكلب فشكر الله له، فغفر له، قالوا: يا رسول الله! وإن لنا في البهائم أجراً؟ فقال: في كل ذات كبد رطبة أجر(٣).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عذبت امرأة في هرّة لم تطعمها، ولم تسقها، ولم تتركها تأكل من حشائش الأرض(٤).

وعن سهل بن عمرو قال: مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

١ - رواه الطبراني والحاكم.

٢ - رواه أبو داود في كتاب الجهاد باب كراهية حرق العدو بالنار.

٣ صحيح البخاري كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء.

٤ - رواه مسلم.

www.abulhasanalinadwi.org

ببعير قد لحق ظهره ببطنه، فقال: اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة وكلوها صالحة (١).

وروي أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا سافرتم في الخصب فأعطوا الإبل حظها من الأرض، وإذا سافرتم في الجدب فأسرعوا عليها السير، وبادروا بها نقيها، وإذا عرستم فاجتنبوا الطريق؛ فإنها طريق الدواب ومأوى الهوام بالليل (٢)

سلوكه الحسن مع الأعداء:

دخل الرسول صلى الله عليه وسلم مكة حيث قضى هو وأصحابه ثلاث عشرة سنة في احتمال الأذى والظلم من قبل أهلها المعاندين الذين لم يدخروا وسعاً في إيذائه ومخالفته حتى اضطر إلى الهجرة إلى المدينة، فدخلها الآن فاتحاً، فقال حينما رأى قريش يا معشر قريش! ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: "لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء".

ولما استقر الفتح، وأمَّن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس كلهم، إلا تسعة نفر، أمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، منهم من ارتدَّ عن دينه، ومنهم من قتل مسلماً غيلة، ومنهم من كان يشتغل ويتسلى بهجائه ويذيعه بين الناس، وكان منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وكان قد ارتد، ومنهم عكرمة بن أبي جهل، وكان قد خرج إلى اليمن كارهاً لدولة الإسلام، وخائفاً على نفسه، فاستأمنت له امرأته بعد أن فرّ، فأمّنه النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن أعدى عدو له، في

---

١ - رواه أبو داود في باب ما يؤمر به من القيام على الدواب.

٢ - رواه مسلم في باب مراعاة مصلحة الدواب.

www.abulhasanalinadwi.org

الدنيا، وثب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وما عليه رداء، فرحاً به وترحيباً، وأسلم عكرمة، فسر به رسول الله صلى الله عليه وسلم سروراً عظيماً، وحسن إسلامه، وكانت له مواقف عظيمة في حروب الردة وحروب الشام.

ومنهم وحشي مولى جبير بن مطعم، وقاتل عم الرسول وأسد الله ورسوله حمزة بن عبد المطلب - وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أهدر دمه - فأسلم وقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم إسلامه، ومنهم هبار بن الأسود، وكان قد عرض لزينب بنت الرسول صلى الله عليه وسلم حين هاجرت، فنخس بها حتى سقطت على صخرة، وأسقطت جنينها، ففر، ثم أسلم، وحسن إسلامه، واستؤمن لسارة ولإحدى القينتين اللتين كانتا تغنيان بهجائه، فأمنهما فأسلمتا(١).

قدم عمير بن وهب المدينة، وهو ينوي قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وفق خطة مدبّرة، فبينا عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين، يتحدثون عن يوم بدر ويذكرون ما أكرمهم الله به، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ على باب المسجد متوشحاً السيف فتفرسَ فقال: والله ما جاء إلا لشر، فأخذه وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلمّا رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه، قال: أرسله يا عمر، أدن يا عمير، فدنا و قال: فما جاء بك يا عمير؟ قال: جئت لابني الأسير في أيديكم، قال: فما بال السيف في عنقك؟ قال: قبحها الله من سيوف وهل أغنت عنا شيئاً، قال: اصدقني ما الذي جئت به؟ قال: ما جئت إلا لذلك، قال: بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر فذكرتما كذا وكذا،

---

١ - زاد المعاد: ١/٤٢٥.

www.abulhasanalinadwi.org

وتآمرتما لقتلي، فما إن سمع عمير هذا حتى سقط في يده، فقال: أشهد أنك رسول الله، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام وساقني هذا المساق، وثم شهد شهادة الحق، فقال رسول الله: فقهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره، ففعلوا، وسمع أهل قريش الذين يترقبون خبر قتل محمد بيد عمير خبر إسلامه(١).

وخرج صفوان بن أمية يريد "جدة" ليركب منها إلى اليمن، فقال عمير بن وهب يا نبي الله إن صفوان بن أمية سيّد قومه، وقد خرج هارباً منك، ليقذف نفسه في البحر فأمّنه صلى الله عليه وسلم قال: وهو آمن، قال يا رسول الله فأعطني آية يعرف بها أمانك، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عمامته التي دخل بها مكة، فخرج بها عمير حتى أدركه، وهو يريد أن يركب في البحر، فقال: يا صفوان: فداك أبي وأمي، الله الله في نفسك، أن تهلكها. فهذا أمان من رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جئتك به، قال: ويحك، إني أخافه على نفسي قال: هو أحلم من ذاك وأكرم، فرجع معه، حتى وقف به على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: صفوان: إن هذا يزعم أنك أمنتني قال: صدق، قال: فاجعلني فيه بالخيار شهرين، قال أنت بالخيار فيه أربعة أشهر(٢).

من يمنعك مني:

ولما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة ذات الرقاع وقفل معه الناس أدركتهم القائلة في واد كثير العضاه، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتفرق الناس في العضاه، يستظلون الشجر، ونزل

---

١ - سيرة ابن هشام: ١/٦٦١-٦٦٣.

٢ - سيرة ابن هشام: ٢/٤١٧، ومحمد صلى الله عليه وسلم الإنسان الكامل لمحمد بن العلوي المالكي الحسيني ص: ١٥٩.

www.abulhasanalinadwi.org

رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت سمرة، فعلّق بها سيفه.

قال جابر: فنمنا نومة، ثم إذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعونا، فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن هذا اخترط سيفي، وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده مسلتاً، فقال لي: من يمنعك مني؟ قلت: الله، فها هو جالس، ثم لم يعاقبه رسول الله صلى الله عليه وسلم (١).

رحمة للعالمين:

كانت المحبة والصفح وعاطفة المؤاساة وحبّ الخير للجميع، الصفة الغالبة لحياة الرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان غاية في هذه الأوصاف المثالية النبيلة، وكانت آثارها على المسلمين وآثار تربيته لعقولهم ونفوسهم، بعيدة المدى، ولم تزل تلمس في حياة المسلمين في عهده والأجيال التالية، وكان من نتيجة هذه التربية النبوية أن سائر المناطق التي قامت فيها الحكومة الإسلامية بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، أو وطئت أرضها أقدام المسلمين، أو استوطنوها، دخل أهلها في الإسلام أفواجاً بعد ما شاهدوا وجربوا أخلاق المسلمين؛ من الرحمة والعطف، والعفو والصفح، وحب الخير والمؤاساة والمساواة، والعدل والإحسان إلى من أساء، ولم يجبرهم أحد من المسلمين على اعتناق الإسلام؛ لأن الإسلام لا إكراه فيه ولا إجبار، بل إنه ينهى عن ذلك حتى أن غير المسلمين في الحكومة الإسلامة لا يكلفون مثل ما يكلف المسلمون من واجبات ومسئوليات، وتمنح لهم حرية العمل بمذاهبهم وتقاليدهم، ولا تفرض على عاداتهم القومية الدينية قيود، فبفضل هذه التعاليم الإسلامية السمحة انتشر الإسلام في كل بقعة من بقاع العالم، وكل من شاهد أو

---

١ - صحيح البخاري كتاب المغازي باب غزوة الرقاع.

www.abulhasanalinadwi.org

جرب هذه المبادئ الإسلامية اعتنق الإسلام.

وكان الدخول في الإسلام يعني أن يجعل الإنسانُ اللهَ ربَّه ومالكه وخالقه، ويعمل بالأحكام الإلهية التي وصلت إليه بواسطة النبي صلى الله عليه وسلم، ويمتنع عن الظلم والاعتداء، والانحراف الخلقي والجنسي الذي كان سائداً قبل الإسلام، فبدأ العمل بذلك واستمر، وصلح المجتمع الإنساني صلاحاً، ونشأت فيه فضائل إنسانية، ومحاسن خلقية تجلّت بفضلها المثل الإنسانية العليا والسلوك الإنساني الأفضل في أروع مظاهرها وأحسنها، وإذا قارن أحد بين الحروب التي انتصر فيها المسلمون، وبين الحروب التي انتصرت فيها القوات الصليبية، يجد أنه لم يقع في الحروب التي انتصر فيها المسلمون واحد في المأة من الظلم الذي وقع في الحروب التي انتصرت فيها القوات الصليبية واقرأ على سبيل المثال ما مارسه الصليبيون لدى الاستيلاء على بيت المقدس من قتل وسفك للدماء، إنهم سفكوا دماء الحكام المسلمين وأهل ملتهم أنهاراً، فغاصت فيها أقدام الفرس إلى الركب، وبالعكس لما فتح المسلمون القدس واستردوا بيت المقدس لم يظلموا ولم يمارسوا القتل والدماء، بل عفوا عمن ظلموا، وأحسنوا إليهم، وقد اعترف بذلك المؤرخ الإنجليزي لين بول([1]).

---

[1] - دائرة المعارف البريطانية: ٦٢٧/٦، المقال Crusdes، و صلاح الدين الأيوبي لفريد محمد فريد أبو جديد ورجال الفكر والدعوة في الإسلام المجلد الأول، يقول لين بول عما فعله الصليبيون عند دخولهم بيت المقدس:

"لما دخل المغيرون الصليبيون بيت المقدس منتصرين وضعوا السيوف في الناس، وأحدثوا مجزرة هائلة حتى يقال: إن خيل الصليبيين الذين ذهبوا إلى مسجد عمر راكبين كانت غارقة في الدماء إلى الركب، وأخذوا بأرجل الأطفال، وضربوهم عرض الحائط، أو دوّروهم ورموا بهم من سور البلد وأحرقوا اليهود كلهم في هيكلهم وهم أحياء".

"وفي اليوم الثاني تعمدوا مثل هذه الاضطهادات التي ترتعد لها الفرائص على

www.abulhasanalinadwi.org

كانت المرأة في كل مجتمع قبل الإسلام عرضة للظلم والاعتداء، تُعَامَل معاملة البهائم، ولا تورث، ولا تنال الحقوق، كما ينالها إخوتها، ولم يكن عرضها مصوناً محفوظاً، وتستخدم في بيتها كما يستخدم العبيد والأرقاء، وكانت تعتبر بعد وفاة زوجها علامة نحس وسوء وشؤم، وإذا بشرأحد من الناس بالأنثى اسود وجهه، ويئدون البنات قبل أن يكبرن، وإن لم يئدوها، فيعاملوا معاملة البهائم، ويواجهن الشقاء والإهانة والاعتداء، يقول القرآن الكريم: " وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ، يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ " (النحل: ٥٨- ٥٩)

مستوى أكبر وأوسع ولم يزل يناشدهم "تينكرد" ما قد جعله في ذمته عن تأمين ثلاث مائة من الأسرى، ولكن لم يستجيبوا لصياحه ولم يراعوا ضمانه، وقتلوهم عن آخرهم، ثم حدثت مجزرة مريعة، فقتلت الرجال والنساء والأطفال تقتيلاً، ومثلت أجسادهم تمثيلاً وقد تكدست قطع أجسادهم وأعضائهم الممزقة، ولما انتهت هذه المجزرة الهائلة أمروا الأسرى العرب فغسلوا شوارع المدينة المتلطخة بالدماء".

هذا، واسمع بلسان المؤرخ النصراني "لين بول" ما ضربه السلطان صلاح الدين الأيوبي يوم فتح بيت المقدس من أروع مثل للخلق الإسلامي العظيم من العفو والصفح، والتسامح، ورحابة الصدر، وسماحة النفس، فيقول:

" لم يظهر في يوم من الأيام من مروءة السلطان وبعد همته، و كرم طبعه، ما ظهر يوم تسلّم المسلمون مقاليد بيت المقدس، فتولى جنده، وعماله أمر البلد، وكانوا يمنعون الناس عن أي عدوان وعسف، فلم يصب أحداً من الصليبيين أذى، وكان حرس الملك يحرسون جميع شوارع البلد الخارجية، وكان على باب داود أحد العمال الأمناء ليأذن لكل من أدى الفدية من أهالي البلد بالخروج منه"

ويقول:

" ثم قال صلاح الدين لقواده: تصدق أخي عن نفسه وتصدق باليان والبطريق كل عن نفسه، والآن أتصدق أنا عن نفسي فلم يلبث أن أمر جنده لينادوا في جميع طرقات البلد وأزقته بإطلاق سراح الشيوخ، والضعفاء الذين لا يطيقون أداء الفدية فيذهبوا حيثما شاءوا فبدأوا يخرجون من باب" اليعازر" وما زالت تخرج جماعاتهم منذ طلوع الشمس إلى غروبها، وذلك ما تصدق به صلاح الدين على فقراء ومساكين يتجاوز عددهم الحصر".

www.abulhasanalinadwi.org

ولما جاء الإسلام رفع مكانة المرأة، وأخرجها من الحضيض إلى القمة في العز والشرف والرفعة، وأعطاها حقها في الميراث، بأن ترث أبويها بعد وفاتهما، كما يرث أخوها، وحرّم الإساءة إليها التي كانت تواجهها لكونها امرأة، وإذا كانت تحيض في الجاهلية أصبحت متروكة منبوذة لا يدنو منها أحد، ولا يجالسها، فقضى الإسلام على هذه العادة القبيحة، وأجاز لها جميع صور القرب إلا الجماع في أيام الحيض، وكانت المرأة في الجاهلية أداة عرض وتسلية، تخلب النفوس بجسمها العاري ولباسها الفاتن، وتمتع الأنظار بزينتها وبهرجتها وزخرفها، وكانت أداة تسلية يتسلى بها الرجال في محافلهم للرقص والشرب، فجاء الإسلام وفرض القيود على كل ذلك، وأمرها بالحجاب، وأن تخرج إلى الرجال إذا دعت الضرورة في لباس ساتر فضفاض ذات حشمة لكيلا ينظروا إليها بنظرة شهوة أو نية سوء.

وكذلك في الأحكام التي وردت في المعاملات المختلفة والعادات ذكر الرجال والنساء معاً، وأعطيت الفرصة للنساء في هذا المجال ليتنافسن الرجال في زيادة العبادات وفعل الخيرات، ولكن الإسلام قد راعى من الفرق بين أحكام المرأة وأحكام الرجل ما كان ضرورياً للتفاوت الجسماني والطبيعي بينهما، فقد جاء في القرآن الكريم "وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهَ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" [سورة التوبة: ٧١].

وجاء في موضع آخر:

" مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" [سورة النمل: ٩٧].

www.abulhasanalinadwi.org

وقا ل عزوجل:

" أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ" [سورة آل عمران: ١٩٥].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع: "استوصوا بالنساء خيراً، فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله... الخ"".

فيوجد فرق في خلقة المرأة بالنسبة لخلقة الرجل، وإن هذا التفاوت سبب ضعف المرأة بالنسبة للرجل، فراعى الإسلام هذا الفرق والتفاوت في الخلقة، وقرر حدوداً وضوابط لمنع الرجل من استغلال هذا الضعف في المرأة، فمثلاً منع المرأة من السفر إلا إذا كان معه زوجه أو أحد أقاربها الأشقاء، وأوجب على الرجل أداء المهر بشكل المبلغ أو المال إلى المرأة مقابل امتلاك بضاعها عن طريق الزواج الشرعي، ولم يجز له التصرف فيما تمتلكه من مال أو متاع، وخص حق التصرف فيه لها دون زوجها، وقبل الزواج ألقى الإسلام مسئولية تكاليفها على أبويها، وفي حالة فقدانهما تعود هذه المسئولية إلى أقرب أقربائها، وبعد عقد النكاح حوّلت هذه المسئولية إلى الزوج، وبذلك لم يجعل الإسلام الزوجة مسئولة عن تكاليفها، بل جعلها ربَّة بيت زوجها، ورفيقة له ومساعدة، فهي راعية ومسئولة عن شؤون البيت، وتربية الأولاد ورعايتهم، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: " المرأة راعية في بيت زوجها، وإن طلقها زوجها تعد إلى كفالة والديها ورعايتهما.

وبفضل المثل الخلقية والقيم الإنسانية العليا النبيلة التي فرضها الإسلام ودعا إليها، من الرحمة والمؤاساة، وحب الإنسانية، والعطف والتعاون، قد وقع انقلاب رائع في كل مكان، ذهب إليه المسلمون بهذه

www.abulhasanalinadwi.org

القيم العليا الإسلامية، وساد الأمن والسلام، وارتفع الظلم والاعتداء الذي كان سائداً وعاماً في المجتمعات الإنسانية على أساس التفاوت الطبقي، أو على أساس التمييز بين الرجل والمرأة، وبين الحاكم والمحكوم، والسيد والمسود، أو الصراع الحربي، أو كان سائداً بمجرد الاستلذاذ والتمتع والتنعم كما كان في المجتمع الرومي.

فبفضل تعاليم الإسلام والبعثة المحمدية قد ارتفع هذا الظلم، حتى تأثر بها غير المسلمين أيضاً، واختارت المجتمعات غير الإسلامية إلى حد ما، ومنع الرسول صلى الله عليه وسلم عن الظلم على الحيوانات والبهائم، وقد كانت الحيوانات عرضة للاعتداء لمجرد التسلية والترفيه، واخترعت طرق مختلفة لإيذاء البهائم، وكان الإنسان يغلق مع الضواري في قفس حديدي، أو يلقى في مكان عميق ضيق كالبئر، والناس يستلذون ويروحون نفوسهم والإنسان المظلوم يموت بين ضحكاتهم وتصفيقاتهم، ولا يرون حاجة إلى الرحمة على الإنسان فضلاً عن البهائم والدواب، فجاء رسول الرحمة والإنسانية فقضى على جميع هذه الطرق والصور الظالمة الوحشية، فحل الربيع وولى الخريف، تغير الوضع، وحدث انقلاب هائل في الحياة، فبذلك لم يكن رحمة للناس فحسب، بل كان رحمة للناس والحيوانات وجميع المخلوقات كما قال الله عزوجل: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ".

www.abulhasanalinadwi.org

المنهج النبوي في الإصلاح والدعوة

لما اصطفى الله تبارك وتعالى رب العالمين سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم نبياً، جعله هادياً عظيماً للإنسانية جمعاء، وأعظم قائد، على أوسع نطاق، إلى يوم القيامة، فبذلك حاز الرسول صلى الله عليه وسلم ما حاز، من مكانة عظيمة سامية ليست فوقها مكانة، ومع ذلك قام عن طريق إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة والغواية إلى الهداية والسعادة، بذلك العمل العظيم الذي كانت الإنسانية بأمس حاجة إليه في ذلك الزمن المظلم، كان العرب والعجم كلهم في عهد البعثة المحمدية قد وصلوا إلى النهاية في الفوضى الخلقية، والظلم والعدوان، وكان الإنسان قد تجرَّد عن شخصيته الإنسانية، وفقد سموه الإنساني، وكانت الإنسانية في احتضار، وعلى شفا جرف هار، فجاشت رحمة الله، وبعث مصلحاً عظيماً، وهو محمد بن عبد الله الأمين صلى الله عليه وسلم وألقى عليه بطريق الوحي مسئولية هداية الإنسان، وإعادته إلى مكانته الإنسانية السامية، فأدّى الرسول صلى الله عليه وسلم هذه المسئولية خير تأدية وأكملها، وكان مع كونه نبياً عظيماً، معلماً ومربياً عظيماً كذلك، وكانت طريقة تعليمه وتربيته وفق أمر الله تعالى فقال: "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ" [سورة النحل: ١٢٥].

وقال في موضع آخر: " وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ" [سورة حم السجدة: ٣٣].

www.abulhasanalinadwi.org

فنال بذلك صفة خاصة، وهي خاصية التأثير التي ذكرها الله تعالى في محكم كتابه حيث يقول: " فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ، وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ" [سورة السجدة: ٣٤- ٣٥].

فكانت نتيجة دعوته الحكيمة ونصيحته المؤاسية أن أصبح أعداؤه أصدقاء له، وتحوّل معارضوه مؤيدين له، ولكن قوّة احتماله وصبره على الأذى والمشقة في سبيل اختيار هذا المنهج الحسن؛ منهج النصح واللين والعطف، كان غاية لا يمكن تصورها، ولم يكن أحد يستطيع أن يحتمل ما احتمل الرسول صلى الله عليه وسلم بفضل الله ومنّه، وفي السيرة النبوية أمثلة كثيرة تدل على هذا الجانب المهم للنصح والإصلاح بالموعظة الحسنة، والمحبة واللطف، فكان المنهج النبوي مفعماً بروح المودة والمؤاساة والملاطفة، والردّ على الإساءة بالإحسان والعفو.

ومن أمثلة ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: بال أعرابي في المسجد، فقام الناس إليه ليقعوا فيه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: دعوه، وأريقوا على بوله سجلاً من الماء، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسّرين(١).

وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه برد نجراني، غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجبذه بردائه جبذة شديدة، فنظرت إلى صفحة عاتق النبي صلى الله عليه وسلم وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد! مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه، فضحك، ثم أمر له بعطاء (٢).

---

١ - رواه البخاري في كتاب الوضوء.

٢ - رواه البخاري في كتاب الجهاد، باب" ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي المؤلفه قلوبهم، ورواه الإمام أحمد في المسند، ج/٣ ص: ١٥٣ باختلاف في اللفظ.

www.abulhasanalinadwi.org

وكان صلى الله عليه وسلم من الناحية الاقتصادية قليل المال، حتى لا يجد أحياناً ما يسدّ به حاجته ويقضيها، ويضطر إلى الفقر والفاقة، وأحياناً يكتفي بالتمر والماء فحسب.

ومرة جاءه رجل فقال: أنتم آل عبد المطلب بخلاء، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم بغاية من اللين والعطف: لست أنا ببخيل، ولكني الآن لا أجد ما نعطيك إياه، فلم يغضب الرسول على هذه الجفوة والإساءة، ورد عليها بإحسان وعطف، وكان غاية في الجود و السخاء، يقري الضيوف الذين كانوا يفدون إليه كل وقت، وكان أصحاب الصفة يجتمعون خارج بيته، وهو يطعمهم ويقوم بكفالتهم، وأحياناً يضطر إلى الفقر والفاقة (١).

وكان صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن أحد ما يكرهه، لم يقل ما بال فلان، بل يقول: ما بال أقوام يصنعون أو يقولون، كذا ينهى عنه، ولا يسمى فاعله.

التزكية وإصلاح الباطن:

كان الله تعالى قد بعث نبيَّه الأخير محمداً صلى الله عليه وسلم ليقوم بعمل التعليم والتزكية، يقول عزوجل في محكم تنزيله " هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ" [سورة الجمعة: ٣٣].

وكانت التزكية أي إصلاح أخلاق الإنسان وسلوكه، السمة الغالبة للرسول صلى الله عليه وسلم، وقد كتب العلامة السيد سليمان الندوي وهو يشير إلى هذه السمة الغالبة فيقول:

"قد ورد في مواضع متعددة في القرآن الكريم الثناء على الرسول

---

١ - صحيح البخاري وصحيح مسلم كتاب الزهد.

www.abulhasanalinadwi.org

صلى الله عليه وسلم بهذه الصفة "وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ" فالنبي صلى الله عليه وسلم يزكّي العرب الأميين، ويعلمهم الكتاب والحكمة، وردت في هذه الآية كلمتان تستحقان العناية، إحداهما: التزكية، وثانيتهما: الحكمة.

١- ومعنى التزكية الإصلاح والتطهير وإزالة الأدران والأرجاس، واستعمل القرآن الكريم هذه الكلمة بمعنى تطهير النفس من كل نوع من أنواع الأدران والخبائث والأرجاس، أي إزالة ما ران على هذه المرآة وصقلها وتجليتها، فقد ورد في سورة الشمس: "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا" [سورةالشمس: ١٠]

وأما الكلمة الثانية فهي "الحكمة" التي وردت في القرآن الكريم لمعنيين، أحدهما: العلم والعرفان الذي يودع في قلب النبي بصورة النور الإلهي، وتبدو آثاره من لسانه حيناً في صورة المصالح والأسرار، وحيناً آخر في صورة السنن والأحكام، وأما المعنى الثاني: فهو آثار هذا العلم والعرفان ونتائجه التي تتضمن معظمها التعاليم الخلقية، وقد ورد في موضعين من القرآن الكريم تشريح هذا المعنى الثاني، وما يأتي في نطاق الحكمة، ورد في سورة الإسراء التأكيد على التوحيد، وإطاعة الوالدين، ونصرة الأقارب والمحتاجين، وذوى الحاجة، كما جاء النهي عن الإسراف في الإنفاق، والبخل، وقتل الأولاد، والزنا، وقتل النفس بغير حق، وإيذاء الأيتام. ثم ذكر إيفاء الوعود والعهود وعدم النقص في الكيل والوزن ومنع من المشي على الأرض مرحاً، ثم جاء: "ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ" [سورة لإسراء: ٣٩]. "وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ للهِ" [سورة لقمان: ١٢].

www.abulhasanalinadwi.org

ثم بيّن عدداً من معاني الحكمة أي "لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ"، "وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا" "أَقِمِ الصَّلاَةَ" "وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ" "وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ" "وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ" "وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا" "وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ".

تدل هذه الآيات على أن كلمة "الحكمة" أطلقت على الأمور الصالحة الطيبة الطبيعية التي تتفق جميع الأديان والملل على كونها طيبة مرضية، والتي يمكن أن يعبر عنها بالأخلاق بالمعنى الثاني".

ويقول العلامة الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي:

"ذكر القرآن الكريم ثلاثة أوصاف للرسول صلى الله عليه وسلم: تلاوة الآيات، التزكية، وتعليم الكتاب والحكمة.

ومن أخص صفاته صلى الله عليه وسلم التزكية، ومعنى التزكية أنه لا يكتفي بالتلاوة والإفهام فحسب، بل يصبغ المخاطبين بصبغة التلاوة والتعليم، ويخلق فيهم جوهر التعليم وروحه، يُسْمع الأسماع والأذهان هذا الكتاب والتعليم، ثم يصبغ القلوب والأرواح بالصبغة الإلهية، ثم تظهر النتائج من الأعضاء والجوارح، فإن هذه الصفة هي التي تميِّزه من سائر الوعّاظ والمعلمين في العالم، فكان مزكياً بالإضافة إلى الواعظ والمعلم، وبذلك كان هادياً ومرشداً أنجح، وكان هذا سر الانقلاب الهائل الذي أحدثه في حياة الصحابة روحياً وخلقياً وفكرياً وعملياً، والنجاح الابتدائي للإسلام، ويلمس اليوم في جميع نواحي الحياة الإسلامية بشكل أظهر.

ويعترف الأصدقاء والأعداء جميعاً بأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يحمل تأثيراً عظيماً وعميقاً، وأشد من تأثير الألماس والأحجار النفيسة، فكل من سعد بصحبته أصبح ذهباً مجلى ومصفى،

www.abulhasanalinadwi.org

بل تحول بنفسه ألماساً، وتحولت البهائم إنساناً، وانقلب الإنسان ملكاً، وتلقى العرب من التربية العقدية والخلقية والروحية الأعلى والأكمل ما لا يتصور فوقه، فكل من جالسه، أو فاوضه، أو قضى وقتاً في صحبته انصبغ بصبغته، وانصهر في بوتقة الشريعة، وبدأ يتبع أوامر الشريعة بدون داعية، وأصبحت الطاعات سهلة ومرغوباً فيها طبيعياً، وأصبحت الذنوب والمعاصي مكروهة مبغوضة، حتى تعنقد الأمة بشأن الصحابة أنهم عدول، وثقات، والصحابي وإن كان ذا درجة أدنى، هو أفضل بكثير من أكبر الأولياء المتأخرين العظام.

وكتب السيرة معمورة بأمثلة كثيرة من الانقلاب الفوري والتغير الباطني، فمن تحدث إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أو سمع تلاوته أو كلامه أوجرب خلقه، تغيرت حياته وانقلب رأساً على عقب.

همَّ فضالة بن عمير بن الملوح أن يقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالبيت، فلما دنا منه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أ فضالة؟ قال: نعم، فضالة يا رسول الله صلى الله عليه وسلم! قال: ماذا كنت تحدث به نفسك ؟قال: لا شيء، كنت أذكر الله، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: استغفر الله، ثم وضع يده على صدره، فسكت قلبه، وكان فضالة يقول: والله ما رفع يده من صدري حتى ما خلق الله شيئاً أحب إليَّ منه، قال فضالة: فرجعت إلى أهلي فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها فقالت: هلمّ إلى الحديث، فقلت: يأبي الله عليك والإسلام (١).

ويقول عمرو بن العاص: إِنِّي قَدْ كُنْتُ عَلَى أَطْبَاقٍ ثَلاَثٍ، لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَمَا أَحَدٌ أَشَدَّ بُغْضًا لِرَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم- مِنِّي

١ - زاد المعاد: ٣٣٢/٢

www.abulhasanalinadwi.org

وَلاَ أَحَبَّ إِلَىَّ أَنْ أَكُونَ قَدِ اسْتَمْكَنْتُ مِنْهُ فَقَتَلْتُهُ فَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَكُنْتُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلَمَّا جَعَلَ اللَّهُ الإِسْلاَمَ فِى قَلْبِى أَتَيْتُ النَّبِىَّ - صلى الله عليه وسلم - فَقُلْتُ ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلأُبَايِعْكَ. فَبَسَطَ يَمِينَهُ - قَالَ - فَقَبَضْتُ يَدِى. قَالَ « مَا لَكَ يَا عَمْرُو ». قَالَ قُلْتُ أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ. قَالَ « تَشْتَرِطُ بِمَاذَا ». قُلْتُ أَنْ يُغْفَرَ لِى. قَالَ « أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإِسْلاَمَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ ». وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَىَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَلاَ أَجَلَّ فِى عَيْنِى مِنْهُ وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلأَ عَيْنَىَّ مِنْهُ إِجْلاَلاً لَهُ وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ لأَنِّى لَمْ أَكُنْ أَمْلأُ عَيْنَىَّ مِنْهُ.(١)

فقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بناء على هذه الخصائص والمسئوليات التي ألقيت عليه من قبل الله تعالى بتعليم الناس أحكام الله في جانب، وفي جانب آخر قام بصبغ الأمزجة والطبائع بصبغة الدين وصهرها في قالب الإسلام، وبين آيات الله التي تحصل بها معرفة الله، وزكى الناس مما نشأت فيهم من عيوب ونقائص وسيئات، ونشأهم تنشيئة مثالية، وربّاهم على السيرة المثالية الحسنة، وعلّمهم أحكام الله وكتابه، ولقّنهم مكارم الأخلاق والمنهج السليم للحياة، وطهارة الأخلاق، وسمو السيرة ونبلها، ووضع عنهم أغلال الضلالة والغواية في ضوء تعاليم القرآن الكريم، ودعاهم إلى توحيد الله تعالى، وعظمته وعبادته وإجلاله وحده، وحلاّهم بأحسن الخلق، وكريم الصفات، ونبيل السجايا ورفيع الشيم.

وأدى الرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق قيامه بمسئوليته العظيمة، فريضة معلم ناجح، ومرب حكيم في مجال إصلاح الإنسان

---

١ - رواه مسلم كتاب الإيمان، باب الإسلام يهدم ما قبله والحج والعمرة

www.abulhasanalinadwi.org

وهدايته، وربَّى العرب الأميين الضالين تربية، وعلّمهم تعليماً أن أصبحوا مربِّين ومصلحين للعالم كله، وأحدث صحابته البررة الصالحين انقلاباً هائلاً في كل مكان، وصلوا إليه، أوحلّوا به، أو مرُّوا به، وكانت طريقته في التعليم والتربية ومنهجه في التفهيم والتلقى مؤثراً غاية التأثير، فكل من يأتيه أو يجالسه ينقلب رأساً على عقب، ولكن كل ذلك كان بمشيئة الله تعالى وأمره، يقول الله عزوجل: "إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ" [سورة القصص: ٥٦].

فمن كان قدّر له من أول يومه أن يكون ضالاً وغاوياً، ولم يكن أحد من المربين والمعلمين يستطيع أن يهديه ويرشده، فحرم من تربية النبي صلى الله عليه وسلم، فعلاوة على مثل هؤلاء التعساء المحرومين، كل من أعاره رسول الله صلى الله عليه وسلم من عنايته واعتنى به، تأثر به وتغيّر، وكان هذا أيضاً من مشيئة الله وحكمته أن جعل الأمي الذي لم يتلقَّ درساً ولم يعلمه أحد طريقة التعليم والتعلم، نبياً، فقام بالعمل العظيم الذي لم يستطعه كبار المعلمين في العالم، وسبب ذلك الأكبر أنه صلى الله عليه وسلم لم يقرأ على أحد ولم يتلق التعليم من شخص، ولكن أساس العلم فيه كان أقوى وأرفع، فلذلك أعطى العلم بالواسطة السماوية، وإن الصلاحية التي يملكها العلم السماوي لبناء الحياة الإنسانية تكون أكثر تأثيراً وأكبر قدرة وتفوقاً من الصلاحية التي تحصل بالواسطة الأرضية، فمنحه هذا العلم السماوي صلاحية فائقة نادرة مؤثرة، غير بها حياة الإنسان ظهراً على بطن، وفاض منه النفع العظيم الذي جعل الإنسان أعلى وأفضل، ورفعه من الحضيض إلى القمة، وأعطى الإنسان منهاجاً وشرعة تقدر على إيصاله إلى القمة العالية في الفوز والفلاح إذا اختارها وسلكها، إلى يوم القيامة، وتمنح الإنسان العلم وفق معياره الأعلى وتهديه فيما يهمه، أو يحتاجه في

www.abulhasanalinadwi.org

قضاء الحياة، ولما خاطب الرسول صلى الله عليه وسلم قريش الذين كانوا أميين في الأغلب، وعرض عليهم الكلام الأعلى والمثل العليا للحياة رجعوا إلى علماء أهل الكتاب واستفسروهم عما يقوله صلى الله عليه وسلم، ثم وجهوا إليه بإيعاز من أهل الكتاب أسئلة محيرة لاختبار علمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكانوا يظنون أنه لا يستطيع الإجابة عليها، وذاك أن عامة الناس لا يستطيعون علمها إلا بالطريق السائد للعلم والتعليم، وكان يُتعلم بالطرق الرائجة ولكن علّمه المعلم السماوي وهو خالق الكون والحياة، كانوا قد سألوه عن أصحاب الكهف، وذو القرنين، فعلّمه الروح الأمين شديد المرة، فأخبرهم ما سألوه، فتجلى أمام قريش أن ما يقوله ليس أسطورة من أساطير الأولين، وإنما مصدره ومنبعه العلم الإلهي الذي منحه الله إياه، وهذا العلم يعلم الطريق القويم لبناء حياة الإنسان وسيرته، وشخصيته بناء مثالياً صالحاً، وهذا الطريق يهدي الإنسان إلى الاتجاه الرشيد السليم ويصونه من الوقوع في هُوّة الهلاك.

فخلاصة القول إن العالم قد شاهد بأم عينيه انقلاباً هائلاً عظيماً حدث بفضل هذا العلم الإلهي وهدايته في نصف قرن، وانقلب اتجاه حياة الناس ظهراً لبطن، وكان الإنسان يسير نحو الهلاك والدمار هائماً على وجهه، فبدأ يتجه في نصف قرن إلى طريق النجاح والفلاح، وخضعت أمامه القوى العظمى العالمية في ذلك الوقت باختيار هذا الطريق الرباني، وحدث فيها انقلاب هائل أيضاً، وكان كل ذلك نتيجة لتعليم وتربية النبي العظيم الخاتم صلى الله عليه وسلم الذي قدم أسوة حسنة كاملة جامعة دائمة شاملة للحياة الإنسانية في سائر نواحيها؛ بأعماله وأقواله وسيرته وسلوكه المثالي الحسن.

وقد كتب العلامة السيد سليمان الندوي كيف كان النبي صلى

www.abulhasanalinadwi.org

الله عليه وسلم أسوة لجميع طبقات البشر ويصلح أن يكون قدوة لجميع أفراد بني آدم، على اختلاف صنائعهم ومهمتهم، وظروفهم وبيئاتهم، في كل زمان، يقول رحمه الله:

" لقد مثّلت حياة النبي صلى الله عليه وسلم أعمالاً كثيرة متنوعة، بحيث تكون فيها الأسوة الصالحة، والمنهج الأعلى، للحياة الإنسانية في جميع أطوارها؛ لأنها جمعت بين الأخلاق العالية والعادات الحسنة، والعواطف النبيلة المعتدلة، والنوازع العظيمة القويمة.

إذا كنت غنياً مثرياً، فاقتد بالرسول صلى الله عليه وسلم عندما كان تاجراً يسير بسلعه بين الحجاز والشام، وحين ملك خزائن البحرين، وإن كنت فقيراً معدماً فلتكن لك أسوة به وهو محصور في شعب أبي طالب، وحين قدم إلى المدينة مهاجراً إليها من وطنه، وهو لا يحمل من حطام الدنيا شيئاً، وإن كنت ملكاً فاقتد بسننه وأعماله حين ملك أمر العرب، وغلب على آفاقهم، ودان لطاعته عظماؤهم وذوو أحلامهم، وإن كنت رعية ضعيفاً، فلك في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة أيام كان محكوماً بمكة في نظام المشركين، وإن كنت فاتحاً غالباً فلك في حياته نصيب أيام ظفره بعدوّه في بدر وحنين ومكة، وإن كنت منهزماً ـ لا قدر الله لك ـ فاعتبر به في يوم أحد وهو بين أصحابه القتلى ورفقائه المثخنين بالجراح، وإن كنت معلماً، فانظر إليه وهو يعلم أصحابه في صحن المسجد، وإن كنت تلميذاً متعلماً، فتصور مقعده بين يدي الروح الأمين جاثياً مسترشداً، وإن كنت واعظاً ناصحاً ومرشداً، أميناً، فاستمع إليه وهو يعظ الناس على أعواد المسجد النبوي، وإن أردت أن تقيم الحق وتصدع بالمعروف، وأنت لا ناصر لك ولا معين، فانظر إليه وهو ضعيف بمكة، ولا ناصر ينصره، ولا معين يعينه، ومع ذلك فهو يدعو إلى الحق ويعلن به، وإن هزمت عدوك وخضدت شوكته، وقهرت عناده، فظهر الحق

www.abulhasanalinadwi.org

على يديك، وزهق الباطل، واستتب الأمر، فانظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم يوم دخل مكة، وفتحها، وإن أردت أن تصلح أمرك، وتقوم على ضياعك، فانظر إليه صلى الله عليه وسلم وقد ملك ضياع بني النضير وخيبر، وفدك، كيف دبّر أمورها، وأصلح شؤونها، وفوضها إلى من أحسن القيام عليها، وإن كنت يتيماً، فانظر إلى فلذة كبد آمنة وزوجها عبد الله، وقد توفيا وابنهما صغير رضيع، وإن كنت صغير السن، فانظر إلى ذلك الوليد العظيم حين أرضعته مرضعته الحنون حليمة السعدية، وإن كنت شاباً فاقرأ سير راعي مكة، وإن كنت تاجراً مسافراً بالبضائع، فلاحظ شؤون القافلة التي قصدت "بصري" وإن كنت قاضياً أو حكماً فانظر إلى الحكم الذي قصد الكعبة قبل بزوغ الشمس ليضع الحجر الأسود في محله، وقد كاد رؤساء مكة يقتتلون، ثم أرجع البصر إليه مرة أخرى، وهو في فناء مسجد المدينة يقضي بين الناس بالعدل، يستوي عنده منهم الفقير المعدم، والغني المثري، وإن كنت زوجاً فاقرأ السيرة الطاهرة والحياة النزيهة لزوج خديجة وعائشة، وإن كنت أبا أولاد، فتعلم ما كان عليه والد فاطمة الزهراء، وجدّ الحسن والحسين، وأياً من كنت، وفي أي شأن كان شأنك، فإنك مهما أصبحت أو أمسيت، وعلى أي حال بت أو أضحيت، فلك في حياة محمد صلى الله عليه وسلم هداية حسنة، وقدوة صالحة تضيىء لك بنورها دياجي الحياة، ويتجلى لك بضوئها ظلام العيش، فتصلح ما اضطرب من أمورك، وتثقف بهديه أودك، وتقوم بسننه عوجك، وأن السيرة الطيبة الجامعة لشتى الأمور هي ملاك الأخلاق، وجماع التعاليم، لشعوب الأرض، وللناس كافة، في أطوار الحياة كلها، وأحوال الناس على اختلافها وتنوُّعها، فالسيرة المحمدية نور للمستنير، وهديها نبراس للمستهدي، وإرشادها ملجأٌ لكل مسترشد. (١)

١ - "الرسالة المحمدية" ص: ١٣٥- ١٣٧، نقله إلى العربية: محمد ناظم الندوي رحمه الله.

www.abulhasanalinadwi.org

الباب العاشر

صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم

دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى التوحيد والإيمان بطريقة مؤثرة ؛ نفذ بها كلامه إلى قلب كل من استمع إليه بذهن مفتوح ، وقوي إيمانه به وترسّخ ، كان أسلوبه المفعم بالسلوك الحسن ، والمؤاساة الإنسانية والمحبة والملاطفة معجباً غاية الإعجاب ؛ فمن رآه عن كثب أو سمع كلامه لم يتأثر به فحسب ، بل أصبح له مطيعاً وفياً ومستميتاً في طاعته ، يضحى بنفسه ونفيسه في الدفاع عنه ، ويفديه بأبيه وأمه ، ولم تكن هذه الحال لأربعة أو خمسة رجال ، بل كل من شاهدوه وسمعوه وفهموا دعوته ، انقلبت حياتهم ، وأصبحوا متفانين في الفداء والولاء لرسولهم ، وهان عليهم التخلى عن الدنيا ، وهانت عليهم رزيئة أولادهم ونسائهم في نفوسهم ، وبذلك تربت وتكونت في حياته الدعوية الممتدة على ٢٣ سنة ، جماعة مثالية للمؤمنين لم يشهد التاريخ مثيلاً لها في الإيمان والثبات والوفاء والولاء للرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم أصبحت هذه الجماعة المؤمنة نائبة له من بعد وفاته ، وواصلت مهمته العظيمة بغاية من الأمانة والصدق جاهدين باذلين في سبيل نشر الدعوة الإسلامية ، فبلغت هذه الجماعة المؤمنة في هذه المدة المختصرة في الإيمان ذروته ، وفي الطاعة قمتها.

كان هؤلاء الصحابة الكرام في زمن الإقامة بمكة المكرمة قليلين ، ومتفرقين في قبائل قريش المختلفة ومستضعفين ، يعذبهم ذووهم وأفراد

www.abulhasanalinadwi.org

أسرتهم، ويذيقونهم ألواناً من الظلم والاعتداء. فكانوا عرضة لظلم كفار قريش القاسية قلوبهم، ووحشية المعادين للإسلام، ولم يكن هذا الظلم يفت في عضدهم، ولم يزلزل أقدامهم؛ بل زادهم إيماناً وتسليماً، وثقة بنصر الله ووعده، ولا يبالون أي مبالاة بما يصيبهم من أذى واعتداء في سبيل نيل مرضاة ربهم الله، والاقتداء برسولهم، لا يهمهم إلا طاعة الله، وحبُّ النبي والولاء له، والتهيؤ والتزود للآخرة، وكانوا مستعدين استعداداً كاملاً لتقديم التضحية بالنفس والنفيس في هذا السبيل، فكل من آمن وأسلم، فقيراً كان أو غنياً، عزيزاً كان أو ضعيفاً، جرى فيه طاعة الله واتباع الرسول مجرى الدم، فيتحوَّل من عدوّ إلى صديق، ومعارض إلى مؤيد، ويترسخ فيه الإيمان، فيصبح في إيمانه وإسلامه كالجبال الراسيات.

وكان هذا الإيمان الراسخ الجازم ينشأ في أغلب الأحيان بسببين أحدهما كلام الله المعجز القرآن، الذي كل من سمع شيئاً منه تغير قلبه، وثانيهما خلق الرسول العظيم وعطفه وسلوكه الحسن، فكل من رآه أو سمعه أو خالطه أحبه، بل يكون الرسول أحبّ إليه من بنيه وأبيه وماله وعشيرته وصاحبته، وهناك أمثلة كثيرة للداخلين في الإسلام بمجرد سماع القرآن الكريم، كما ذكر المؤرخون وأصحاب السير أمثلة كثيرة للذين اعتنقوا الإسلام بعد أن جربوا خلق الرسول وسلوكه الحسن المثالي وتأثروا به، ومنهم ثمامة بن أثال الذي ذهب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليصيبه بسوء، ولكن عندما لقيه تغير قلبه وتبدل قصده، وقال:

"والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحبَّ الوجوه إليَّ، والله ما كان على وجه الأرض دين أبغض إليَّ من دينك، فقد أصبح دينك أحبّ الأديان إليَّ".

www.abulhasanalinadwi.org

فكل من كان يؤمن به صلى الله عليه وسلم تتغير حالته، وتنشأ فيه بفضل عطف النبي وتربيته عاطفة الحبة والفداء والولاء المستميت، ثم يتعرف بفضل التوجيه والتعليم النبوي على الحقائق السامية العليا للحياة حتى لا يتلكأ ولا يتردد في التضحية بنفسه في سبيل نيل الهدف الأسمى وهو رضا الرب واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، والفوز بالجنة، كانوا يؤثرون رضا الرسول وحبه على رغائب نفوسهم، ويهجرون ما تشتهيه ويتبعون سنة رسولهم رغم أنهم كانوا معروفين بالشدة في تحقيق رغباتهم وشهواتهم، وكلف ذلك القتل وسفك الدماء.

وعلى كل، فكل من آمن به قدم مثلاً أعلى لحبه لرسوله بعمله وقوله، ومن هذه الأمثلة الرائعة منقطعة النظير خضوع الصحابة في صلح الحديبية وقبولهم لشرائط قريش الظالمة، واستسلامهم وامتثالهم لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم، ومجازفتهم بالنفوس وثباتهم وصمودهم في غزوة الخندق ثلاثة أسابيع، قضوها في الوضع القاسي من شدة البرد، وغياب الموارد الغذائية، وقلة المئون، وفي غزوة أحد قدم عشرات من الصحابة الصادقين في الولاء للرسول صلى الله عليه وسلم روائع من الحب والفداء، وتترسوا دونه تقع النبال في ظهورهم، وجعلوا صدورهم جنة له تقيه من سهام الأعداء، وتحملوا الأذى والجروح حباً له حتى قتلوا عن آخرهم.

جالد طلحة بن عبيد الله المشركين الذين قصدوا الرسول صلى الله عليه وسلم يريدون ما يأباه، وترس عليه بيده، يقي بها النبي صلى الله عليه وسلم، فأصيبت أنامله، وشلت يده، ونزع أبو عبيدة بن الجراح إحدى الحلقتين من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقطت ثنيته، ونزع الأخرى فكان ساقط الثنيتين، وترس أبو دجانة

www.abulhasanalinadwi.org

بنفسه دون رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقع النبل في ظهره وهو منحن عليه، حتى كثر فيه النبل[١].

وعاد المسلمون إلى المدينة فمروا بامرأة من بني دينار، وقد أصيب زوجها وأبوها وأخوها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما نعوا لها، قالت: فما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم؟ قالوا: خيراً يا أم فلان! هو بحمد الله كما تحبين، قالت أرونيه، حتى أنظر إليه، حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل[٢].

ولما أخرج كفار قريش زيد بن الدثنة من الحرم ليقتلوه قال له أبو سفيان: أنشدك الله يا زيد! أ تحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك وأنك في أهلك قال: ما أحبُّ أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة، تؤذيه وأنى جالس في أهلي، قال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً (٣).

وكل من تسنح له فرصة لقضاء دقائق في صحبة الرسول صلى الله عليه وسلم أو جالسه أو فاوضه وهو مؤمن، كان يستعد للتضحية بكل ما يملكه من نفس ونفيس في الحب له واتباعه، إلا منافقين كانوا يتظاهرون بالإيمان ويضمرون الحقد والعداوة لتعايشهم مع اليهود في المدينة، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم عاملهم أيضاً معاملة الحب والملاطفة والتسامح.

فإن جماعة الصحابة المؤمنة كانت كالطود العظيم في الانقياد والطاعة للرسول صلى الله عليه وسلم والحب له، واتباع الدين الإسلامي الذي جاء به، ثم تحولت هذه الجماعة المؤمنة إلى كتلة بشرية هائلة لا يوجد

---

[١] سيرة ابن هشام: ٢/٤١٧.
[٢] نفس المصدر: ٢/٩٩.
[٣] نفس المصدر: ٢/١٧٤.

www.abulhasanalinadwi.org

لها مثيل في التاريخ الإسلامي كله، في الصلاح والصفاء، والأمانة والطاعة، والإيمان والتسليم، والانقياد والاقتداء، وكانت في الواقع مقررة من عند الله الذي قضى بأن لا يكون نبي بعده، وجعل النبي صلى الله عليه وسلم من تربوا في تربيته الحكيمة الدقيقة وتلقوا منه هذا الإيمان الواسع العميق والتعليم النبوي المتقن، حاملين للخصائص الإيمانية العليا، والصفات الإنسانية المثلى ومكارم الأخلاق ليقوموا بنشر هذا الدين الإسلامي والدعوة إلى اختيار الصفات الإنسانية النبيلة ممثلين للنبوة تمثيلاً صحيحاً صادقاً، وكان كل منهم شمساً وقمراً في شخصيته الفذة، وحياته الإيمانية، فقد قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم".

نال منهم الأولويةَ أكثر من كان أقربهم إليه صلى الله عليه وسلم، فكان سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه أقربهم إليه، وكان صديقاً له قبل النبوة، وكان في سنه تقريباً؛ لأنه كان أصغر منه سنتين ونصف، وهو أول من تولى مسئولية القيام بخدمة الدين الإسلامي وصيانته ونشره بعد وفاته صلى الله عليه وسلم، واختير أول خليفة للرسول صلى الله عليه وسلم، ثم اختير بعده ثلاثة خلفاء بالترتيب نابوا عنه نيابة صادقة، وتسموا "الخلفاء الراشدون" واستمرت بهم الخلافة الراشدة على منهاج النبوة ثلاثين سنة من بعد وفاته صلى الله عليه وسلم، وقام الصحابة الكرام بتنفيذ النظام الإسلامي للحياة وفق المنهج الأقوم الذي اختاره الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته، في الأخلاق، والسلوك، والمعاملات، والعبادات، والاجتماع، والاقتصاد، والسياسة، وفي جميع شعب الحياة، وربى صحابته عليه تربية حسنة قويمة، وبذلك وجد مثل أعلى للقرون الآتية، وتقررت

www.abulhasanalinadwi.org

محجة بيضاء وجادة مستقيمة للدين والشريعة ليلها كنهارها، أسوة للأجيال القادمة.

بعد مضي ٢٣ سنة للتربية النبوية الحكيمة الدقيقة والتعليم النبوي المتقن تولى صحابته البررة مسئولية النبوة والرسالة المحمدية، وقاموا بأداء واجباتها خير أداء، ودامت هذه الخلافة الراشدة ثلاثين سنة، وقامت هذه الخلافة على نفس الطريقة التي اختارها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته، وحدد معالمها وبيّن مبادئها وأصولها وضوابطها ونظامها وطرقها، بعمله وسلوكه، وأصبحت بذلك أسوة للأجيال القادمة، وكانت هذه المدة التي قضاها خلفاء الرسول الثقات العدول في الحكم وإدارة شؤون العالم مدة انتقلت بانتهائها مسئولية الحكم والإدارة والدعوة تدريجياً إلى الجيل الجديد الذي لم تكن تناله رعاية الرسول وتوجيهه مباشرة، ولكن النظام السائد فيه نفس النظام الذي كان منفذاً وجارياً في العهد النبوي، وكان ذلك في الواقع مقرراً من عند الله أن تمضي عشر سنوات في رعاية الوحي الإلهي بواسطة رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه، ثم تمضي ثلاثون سنة في رعاية أصحابه الذين رباهم الرسول صلى الله عليه وسلم تربية دقيقة ونشأهم تنشئة حكيمة مثالية، لتبرز أسوة مثالية للنظام الأعلى للإسلام في مدة أربعين سنة، تجعلها الأجيال القادمة نصب أعينها إلى يوم القيامة، وتقضي حياتها في ضوئها، لأن الدين قد كان أكمل، فكان لابدَّ أن تكون أسوة كماله وتمامه أمام العيون، ولن يحتاج إلى حذف أو زيادة فيه إلى أن يرث الله الأرض، إن فيه صلاحية كاملة وضماناً لصلاح الإنسان وفلاحه، وفيه كفاية لأن يسير بالأمم الإنسانية إلى غايتها المثلى الروحية والخلقية والمادية، لأنه دين الله العليم الخبير بطبائع الإنسان

www.abulhasanalinadwi.org

وحاجاته من أوله إلى آخره، بل أنه معلِّم الإنسان حاجاته، وبهذه الناحية أكمل الله الدين، ووعد بحفظه وبقائه: "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا" [المائدة: ٣].

كانت جماعة الصحابة الذين آلت إليهم مسئولية النبوة والدعوة وهداية الإنسان، جماعة مؤمنة مثالية للدين الإسلامي، كانت قد فهمت قول النبي وعمله، فهماً صحيحاً، وقمعت رغباتها ومطالبها ورأيها، وكانت مرآة صادقة للحياة النبوية، يُستَبعد أن تفعل أو تقول ما يعارض سنة الرسول صلى الله عليه وسلم، وتسمى هذه الجماعة المؤمنة جماعة الصحابة، الذين يفوق عددهم الآلاف، وقدم المؤرخ العسكري ريتشارد جابريل الذي عمل سابقاً في جهات حكومية مختلفة في الولايات المتحدة، وخدم في وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، وله ٤١ كتاباً، دراسة اعترف فيها بأن محمداً (صلى الله عليه وسلم) رجل عبقرى وإنسان كامل من جميع النواحي، و ألقى الضوء خاصة على صلاحيته للقيادة العسكرية والتربية فيقول:

"إن محمداً أول قائد عسكري في الإسلام، وأنشأ محمد جماعة مثالية وأجهزة مخابرات من متبعيه تفوقت على نظيراتها من الفرس والروم أقوى إمبراطوريتين آنذاك، ونجح في إحداث تغيير ثوري في العقيدة العسكرية لما كان معروفاً وسائداً في جزيرة العرب لإيمانه بأنه مرسل من عند الله وأنه بفضل ذلك نجح في إيجاد أول جيش نظامي عربي قائم على الإيمان بنظام متكامل للعقيدة الأيديولوجية الدين الإسلامي".

وتأخذ الدراسة حالة ردة بعض القبائل عن الدين الإسلامي بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم كنموذج لعبقرية جنرالات الجيش

www.abulhasanalinadwi.org

الذي أنشأه الرسول إذ استطاعوا أن يهزموا المرتدين ويحافظوا على الدين الإسلامي بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

ويقول: إن الرسول محمداً صلى الله عليه وسلم نجح في إقناع أتباعه لتنفيذ أوامر الله في الأرض، وكانت تلك المرة الأولى في التاريخ التي يعتقد ويؤمن فيها جيش نظامي أنه ينفذ أوامر الله في الأرض(١).

وكتب العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله فيقول:

" ليس يدَّعى أن معلم الإسلام (محمداً صلى الله عليه وسلم) يعلم الناس الكتاب والحكمة، ويتلو عليهم آيات ربهم الله، وأحكامه فحسب، بل إنه صلى الله عليه وسلم يزكيهم ويصفيهم، وبفضل تربيته الحكيمة الدقيقة، وفيضه وتأثيره، يجعل الناقص كاملاً، ويحول العاصي مطيعاً صالحاً، والأعمى بصيراً راشداً، وصاحب القلب المظلم رجل قلب منور، فلما توفي معلم الإنسانية ترك وراءه مائة ألف إنسان على أقل تقدير، استفادوا من تعليمه وتربيته، وبعد ٢٣ سنة بلغ العرب الذين كانوا في حضيض الرذيلة والعادات السيئة، قمة عالية في الأخلاق لم يبلغها أحد حتى الآن.

وإن وُجِد في معلّم تأثير التكميل والكمال هذا، فلابد أن ينظر أنه لا يكفي لتكميل هذا العالم وإدارة شؤونه ونظامه أصحاب كفاءة واحدة، وقوة واحدة، بل يحتاج ذلك إلى مئات من الناس يحملون كفاءات مختلفة، وصلاحيات منوعة، وإن نظرة خاطفة على مراكز معلمي الأخلاق والمربين الآخرين تخبر أنه لا يتعلم فيها إلا طلاب فن واحد، لا يدرس في مدرسة سيدنا موسى إلا العفو والصفح، ولا

---

(١) مجلة المجتمع الكويتية العدد: ١٧٩٦، ٢٨/ربيع الأول ١٤٢٩هـ، المصادف ٢٠٠٨/٤/٥م.

www.abulhasanalinadwi.org

يوجد في معابد بوذا وزواياه إلا الفقراء المتسولون والنساك المتجولون من مكان إلى مكان، ولكن إذا نظرنا في مدرسة سيدنا صلى الله عليه وسلم لوجدنا ورأينا جامعة عامة، تنشأ وتتربى فيها سائر قوى وطاقات التقدم الإنساني، بل إن المعلّم نفسه جامعة توجد فيها سائر شعب العلم والفن، يفد اليها طلاب كل علم، والراغبون في كل فن، يتعلمون فيها ويكسبون الفضل والكمال حسب أذواقهم وطاقاتهم.

وكل من يستعرض حياة الرسول صلى الله عليه وسلم يجد فيه في وقت واحد بشراً، ووالداً، وزوجاً، وصديقاً، وصاحب بيت، وتاجراً، وضابطاً، وحاكماً، وقاضياً، وعسكرياً، وملكاً، ومعلماً، وواعظاً، ومرشداً، وزاهداً، وعابداً، وفوق ذلك نبيّاً، وإن سائر هذه الطبقات الإنسانية تتتلمذ عليه وتتلقى منه العلم، وتستفيد منه كل طبقة ما يفيدها في مهنتها وفنّها، وتنهل من منهله، وتستقي من منبعه ما ينفعها.

انظر بغاية من الدقة إلى هذه الجامعة العظيمة القائمة في مدينة النبي التي كان سقفها من أوراق التمور، وأعمدتها من جذوع النخيل، وسميت المسجد النبوي، كان في كل ناحية من نواحيها صفوف وفصول مختلفة لهذه الطبقات والجماعات الإنسانية، ففي فصل يتعلم الحكام والملوك أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وفي فصل ثان يدرس أصحاب الرأي والعقلاء مثل طلحة، والزبير، ومعاوية، وسعد بن معاذ، و سعيد بن جبير، وفي فصل ثالث يتربى القواد كخالد، وأبي عبيدة، وسعد بن أبي وقاص، وعمرو بن العاص، وفي فصل رابع يتعلم من أصبحوا فيما بعد قضاة في المحاكم، وواضعي دستور، ومقنني قانون، وفي ناحية يتجمع الزهاد والعباد الذين يقومون بالليل ويصومون بالنهار، وفي ناحية نساك متقشفون كأبي ذر، وسلمان، وأبي الدرداء،

www.abulhasanalinadwi.org

الذين يلقبون بـ"مسيحو الإسلام" وفي ناحية أصحاب الصفة طلاب العلم، الذين يجلبون الأحطاب من الغابات ويبيعونها ويكتفون بما يحصل منها، ويصلون الليل بالنهار في كسب العلم، وكان في ناحية فقهاء ومحدثون مثل علي، وعائشة، وابن العباس، وابن مسعود، وزيد ابن ثابت الذين كان شغلهم الشاغل خدمة العلم ونشره، وفي ناحية عبيد ومماليك، وفي ناحية يجلس ملاكهم وساداتهم، ولكن لا ترى بينهم من تفاوت في العز الظاهر والمكانة الدنيوية، بل كلهم يجتمعون على صعيد واحد للمساواة، وحول مصباح واحد للصدق بغاية من الشوق والرغبة والحب والهيام كما تجتمع الفراش حول السراج، تغشاهم وتغمرهم نشوة التوحيد، وتموج وتتحرك في صدورهم عاطفة وقّادة جيّاشة لاتباع الحق، وجميعهم يحاولون أن تنعكس على حياتهم أنوار المرآة القدسية الواحدة للأخلاق(١).

السابقون الأولون والعشرة المبشرة:

لقد واجه السابقون الأولون إلى الإسلام أذى كثيراً بأيدي الكفرة الظلمة فاق الحسبان، وعذبوا تعذيباً شديداً تجاوز عن قوة الاحتمال، وظُلِموا لأنهم آمنوا، واستمرت هذه المعاناة القاسية سنين، وابتلى بهذا لبلاء العظيم الذين كانوا ذوي قوة وعزّ ومنعة في أسرهم، ولم يكونوا يحتملون أدنى إساءة إليهم بأي حال، مهما يكلف ذلك، ولو جر ذلك إلى الحرب، ولكن المؤمنين أمروا بأن يكفوا أيديهم، ويصبروا على أذاهم، ولم يكونوا يعلمون إلى متى تستمر هذه المحنة، أ تنتهي أم لا؟ ففي هذه الحالة القاسية لايستطيع

---

١ سيرة النبي، العلامة شبلي النعماني والعلامة السيد سليمان الندوي، ٦/٢٤- ٢٥، الفيصل، أردو بازار، لاهور، مارس ١٩٩١م.

www.abulhasanalinadwi.org

الصبر وكظم الغيظ والتحمل إلا الأقوياء وأصحاب القلوب القاسية كالحجارة، أو المظلومون الضعفاء الذين لا يملكون أي قدرة على المواجهة والرد على الظلم، ولكن هؤلاء المؤمنين القرشيين كانوا لقادرين على الانتقام وأخذ الثأر، ولكنهم كانوا يصبرون ويحتملون الأذى بأمر ربهم، ولذلك زادت مكانتهم ودرجاتهم، ولقبوا بـ "السابقون الأولون" وقد ورد في القرآن الكريم:

"وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" [التوبة: ١٠٠].

وجاء في موضع آخر:

"لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ" [الحديد: ١٠].

وهذه حقيقة ناصعة أن السابقين الأولين واجهوا الأوضاع القاسية أكثر ممن آمنوا بعدهم، وإن التضحيات وروائع الفداء والولاء والطاعة والانقياد التي قدموها كانت أعلى وأرفع مما يتخيله المتخيلون، وكانت هذه المحن والابتلاءات قبل الحياة المدنية في العهد المكي الذي قاطعهم فيه أقاربهم وذووهم وأذاقوهم ألواناً من الأذى والتعذيب، ثم هاجروا إلى المدينة تاركين وراءهم بيوتهم و ممتلكاتهم وذراريهم ابتغاء لوجه الله، مخلصين للدين، وقد كانت لهذه التضحيات والولاء والفداء والصلة الحميمة وقع على قلبه صلى الله عليه وسلم، فبشرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بإذن الله بأن لهم الزلفى والدرجة العظيمة عند ربهم لما عملوا وقدموا في الدنيا من تضحيات عظيمة، وأعمال جليلة،

www.abulhasanalinadwi.org

من هجر الوطن، ومغادرة الأهل والمال، في سبيل ربهم، وأخبرهم بأن ربهم رضي عنهم وذلك هو الفوز العظيم.

ويقال للطبقة الأولى من هؤلاء المؤمنين الصادقين " العشرة المبشرة " وأبشروا بأنهم في الجنة، فقد جاء في الحديث النبوي الشريف:

"أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد في الجنة، وسعيد في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة"[1].

وإضافة إلى هؤلاء العشرة المبشرة، بشر الرسول عدداً من الصحابة على حدة، كما بشر الصحابة المشاركين في غزوة بدر، وبيعة الرضوان، وكذلك بشر بعض الصحابيات، وكلُّ ما يقوله الرسول صلى الله عليه وسلم أو يبشر به لا يكون إلا بإذن الله تعالى، وقد جاءت هذه البشارات باسم هؤلاء الصحابة الكبار في أوقات ومناسبات مختلفة. وكذلك بشر عامة الصحابة، فقد ورد في القرآن الكريم: "رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ" وبشرهم لسان النبوة أيضاً والنبي لا يقول إلا بما يوحي إليه " وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى" [النجم: ٣- ٤].

فكانت هذه البشارات وفق وحي الله، فبذلك أخبرهم الله تعالى في حياتهم الدنيوية بأن لهم الجنة.

الخلفاء الراشدون:

وقد فاق الأربعة الأولى من بين العشرة المبشرة، وعظمت درجاتهم، وقد ناب هؤلاء الأربعة عن الرسول بعد وفاته في صورة الخلافة الراشدة، ودُعوا الخلفاء الراشدون، وقال الرسول صلى الله

[1] رواه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب مناقب عبد الرحمن بن عوف الزهري.

www.abulhasanalinadwi.org

عليه وسلم: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين"(١).

وظل هؤلاء الخلفاء الراشدون من بعد وفاته يقومون بالحفاظ على منهاجه، ويؤدون مهمته النبوية بغاية من الجد والإخلاص والأمانة، وبذلك تحققت نبوءة الرسول بأن خلافة النبوة بعده تستمر ثلاثين سنة، الخليفة الأول هو أبو بكر الصديق، والخليفة الثاني هو عمر بن الخطاب، والخليفة الثالث هو عثمان بن عفان، والخليفة الرابع هو علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم أجمعين، وبعد وفاة علي بن أبي طالب تولى نجله الحسن أمور الخلافة ستة أشهر، اكتملت بانقضائها مدة ثلاثين سنة، وقد مُدَّ عهد الخلافة الراشدة إلى عهد خلافته، وبمُضيِّ عهد الخلافة اكتملت أربعون سنة من التقويم الهجري، عشر منها قد انقضت في العهد المدني في إنشاء النظام الإسلامي، وإرساء قواعده، وتكوين المجتمع الإسلامي، وثلاثون منها انقضت في تنفيذ هذا النظام الإسلامي وتمثيله، وفي هذه المدة الممتدة على ثلاثين سنة توسعت رقعة الإسلام من الجزيرة العربية إلى البلدان المجاورة، وامتدت مساحته، وفُتحت مناطق جديدة، ومُصِّرت الأمصار، ولما ارتدت بعض القبائل العربية إثر وفاته صلى الله عليه وسلم ظناً منها أنها بعد وفاته قد تحررت، وليس عليها اتباع الإسلام وامتثال أوامره ضرورياً، بذلت الجهود، واتخذت الإجراءات لإعادتهم إلى عقيدة الإسلام ونظامه، فقمعت هذه الثورة وفتنة الردة بأمر الخليفة الأول بإرسال الجيش إلى المرتدين ومانعي الزكاة، واستمر تنفيذ النظام الإسلامي الأمثل وتطبيقه على الحياة بطريقة حسنة، وقد انتشر الإسلام في مدة الخلافة الراشدة من وسط آسيا إلى إفريقيا، وتوسع نطاقه توسعاً هائلاً.

---

(١) رواه الترمذي.

www.abulhasanalinadwi.org

وإن عهد الخلفاء الراشدين الممتد على ثلاثين سنة، عهد مثالي، وهو نموذج رائد للنظام الإسلامي الصحيح السليم، وكل نظام يترسم خطى الخلافة الراشدة ويحتذيها، فهو إسلامي، وإلا فلا يكون إسلامياً[1].

أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

هو الخليفة الأول، وأول من أسلم بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم خارج أهل بيته صلى الله عليه وسلم، وأقرب الصحابة إليه، وموضع ثقته، كان يؤثر الرسولَ صلى الله عليه وسلم على نفسه، ويفديه أباه وأمه، ومهجته ودمه، واختاره الرسول صلى الله عليه وسلم كصاحب له في السفر إلى المدينة عندما أراد الهجرة من مكة، وكان أعرفهم بالمشيئة والطبيعة النبوية، وأمره الرسول صلى الله عليه وسلم قبل وفاته بأن يصلي الناس ويؤمهم، وصاحب الرسول صلى الله عليه وسلم طيلة حياته، وشاركه في كل عمل، وبذلك يعد في المرتبة الأولى من صحابته، فكان الخليفة الأول بعد وفاته، وأدى دوراً عظيماً في تقوية بناء الصرح الإسلامي، وقام في قتال أهل الردة مقاماً عظيماً، وزوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم بابنته عائشة، وبذلك أبدى الرسول تقديره البالغ على صحبته ومساعدته ومشاركته، وكانت عائشة صغيرة فتربت ونشأت في الرعاية النبوية، فأصبحت بذلك أعرف زوجات النبي بشؤون بيته، فروى عنها الرواة فيما بعد واستفادوا منها علوماً جمّةً وأقوالاً كثيرة نبوية.

كانت خلافة الخليفة الأول سنتين، وبذل جهداً عظيماً في إرساء قواعد النظام الإسلامي، وتشكيل النظام الاجتماعي، وتقوية الحكومة

[1] يبتدى هذا العهد من شهر ربيع الأول سنة ١١هـ إلى ربيع الأول ٤١هـ.

www.abulhasanalinadwi.org

الإسلامية وفق مشيئة الرسول وسنته ومنهاجه صلى الله عليه وسلم ، وبذلك استمر النظام الإسلامي قائماً على خطه الصحيح وصورته الصادقة ، وعندما أحس بدنو أجله عيَّن عمر بن الخطاب الخليفة من بعده بعدما فكر ونظر كثيراً ، فصدق عمر رأيه فيه ، وأثبت أنه في المرتبة الثانية ، وأقام النظام الإسلامي على منهاج النبوة والخط الصحيح ، فيرجع فضل ذلك إلى اختيار أبي بكر الصديق لعمر كخليفة بعده.

عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

يأتي اسم عمر بن الخطاب بعد أبي بكر الصديق في المرتبة الثانية ، وكان في الجاهلية ألدّ الأعداء للإسلام ما لم يدرك كنه الإسلام ، ولما فهم الإسلام ودخل فيه وتشرَّب بروحه تحوَّل أعظم مدافع عن الإسلام ، وانقطع انقطاعاً كلياً إلى اتباع الرسول وخدمة الدين الإسلامي ، كبطل وفيّ وجندى مخلص في ولائه وحبه للرسول صلى الله عليه وسلم حتى ثبت أنه كان يستحق أن يكون خليفة بعد أبي بكر الصديق ، فاختير الخليفة الثاني بعده ، واستمر في خلافته عشر سنوات ، وأدى أعمالاً جليلة في نشر النظام الإسلامي وإقامته ، وفي عهده فتحت أعظم الفتوحات الإسلامية ، صارت الشام والعراق أمصاراً إسلامية ، وفتح بيت المقدس ، ودخل أهله في الإسلام طوعياً وقبلوا النظام الإسلامي برغبة منهم واختيار ، وسلموا البلد إلى المسلمين ، وتزوج الرسول بإحدى بناته وهي حفصة ، وبذلك أبدى الرسول تقديراً عظيماً على خدماته العظيمة في سبيل الإسلام ، وصوب الوحي الإلهي وصدق رأيه في مناسبات عديدة.

قد حصلت في عهده فتوحات عظيمة ، وقام النظام الإسلامي ، وتجلى في أورع مظاهره ، وأنشأ حكماً عادلاً ونظاماً أقوى ، وشرع

www.abulhasanalinadwi.org

القوانين لما استجدَّ وحدث في عهده، فحل الأوضاع الجديدة، وقضايا ومشاكل معقدة في ضوء تعاليم الإسلام ومبادئه المقررة، فأصبحت بذلك كلمة المسلمين مجتمعة، ولم تحدث الفرقة، وما تمزق شمل الأمة، فكان حصناً حصيناً للإسلام، وسنداً قوياً للنظام الإسلامي.

عثمان بن عفان رضي الله عنه:

كان الخليفة الثالث بعد شهادة عمر بن الخطاب، وكان رجلاً ثرياً، ذا مال وفير، وأنفق بعد إسلامه معظم ثروته في المصالح الإسلامية، وانقطع إلى خدمة الإسلام وتقويته بنفسه ونفيسه، وفكره وجهده، زوَّجه الرسول بابنته رقية، ولما ماتت زوجه بابنته الثانية أم كلثوم، وبذلك لقب بـ"ذو النورين" ينحدر إلى أمية بن عبد شمس أحد أجداد الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان يحتل مكانة عالية في أسرته، و قوى الإسلام بإسلامه، وقد وضع أهالي أسرته عقبات ومشاكل في وجهه بسبب دخوله في الإسلام، وضيقوا عليه خناق الحياة في مكة حتى اضطر إلى مغادرة مكة إلى الحبشة مرتين، ولما قوى الإسلام وضرب بجرانه عاد من الحبشة.

وقد ميزه الله تعالى بمزايا كثيرة وخصائص عظيمة، كان جهز جيش العسرة في غزوة تبوك، وأنفق في تجهيزه مالاً كثيراً؛ صرف ثلاثمأة بعير بأحلابها وأقتابها في سبيل الله، ومن خصائصه البارزة الحياء والحشمة، وأشاد به الرسول إشادة خاصة، وقد واجه أذى من قبل المعترضين والمعارضين في عهد خلافته، حتى قتلوه في سنة ٣٥ من الهجرة، وهو في الثمانين من عمره، وهو ثاني الخلفاء الذي استشهد، وحدث بوفاته اضطراب في الحكم الإسلامي نتج عنه حدوث مشاكل

www.abulhasanalinadwi.org

عديدة معقدة، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم فيه: " لكل نبي رفيق ورفيقي عثمان" (١).

علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

كان الخليفة الرابع بعد وفاة عثمان بن عفان رضي الله عنه وكان ابن عم الرسول أبي طالب، وأخذه الرسول صلى الله عليه وسلم قبل بعثته من عمه ليكفله ويرعاه، وبذلك صحب الرسول صلى الله عليه وسلم منذ صغره، إنه أصغر من الرسول ثلاثين سنة، فكان بمثابة ابنه من ناحية السن، وزوّجه الرسولُ صلى الله عليه وسلم بابنته فاطمة عندما بلغ سن الرشد، وكانت فاطمة الزهراء أحب البنات إلى أبيه الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبته طيلة حياته وعاشت معه، وتناسل منها نسله بصورة الحفدة والأسباط، وكان الحسن والحسين ابناها اللذان كان يحبهما الرسول صلى الله عليه وسلم مثل الأولاد والحفدة لكون بيتها ملاصقاً لبيته صلى الله عليه وسلم، فنالا حظاً أوفر من شفقة الرسول وحنانه وعطفه، وتعلم سيدنا عليٌّ من الرسول علوماً كثيرة بل أكثر من غيره لمصاحبته معه منذ الصغر إلى مماته، وشب وترعرع في رعايته وتربيته، فأفاد الناس كثيراً.

وظن بعض الناس بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم أن علياً يستخلفه لكونه أقرب الناس إليه ونيله حظاً أوفر من تربيته الخاصة، ولكنه كان أصغر من أبي بكر الصديق ٢٨ سنة، وهو أيضاً من أقربهم إليه، وصاحبه الوفي المعجب به، لذلك كان يحمل أولوية وانسجاماً وتوافقاً في الفكر والطبيعة لصحبته الخاصة الطويلة معه صلى الله عليه وسلم، فلذلك انتُخِب أول خليفة، ثم خلفه عمر بن

---

(١) رواه الترمذي في سننه، باب مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه، رقم الحديث: ٣٦٩٧.

www.abulhasanalinadwi.org

الخطاب، الذي كان أكبر من علي ١٧ سنة، ثم خلفه عثمان بن عفان الذي كان أيضاً أكبر من علي، ثم انتخب عليٌّ بعد وفاته الخليفة الرابع.

كان عليّ بن أبي طالب ممتازاً ونابغة في العلم والحكمة والشجاعة والخصائص الدينية الأخرى لقرابته من الرسول صلى الله عليه وسلم وتعايشه معه، وكان مقداماً إلى الحروب، وقدم روائع من شجاعته وبسالته في مناسبات مختلفة، وقد واجه أوضاعاً قاسية في عهد خلافته، كانت امتداداً للاضطراب والفوضى التي حدثت في المملكة الإسلامية بعد شهادة عثمان بن عفان، حتى استشهد كسابقه في رمضان سنة ٤٠ من الهجرة.

عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه:

أسلم في البداية، وكان تاجراً ناجحاً، فكان ذا ثراء ومال طائل، واشتهر بكرمه وجوده وإنفاقه في مصالح الإسلام، وخدم الإسلام بنفسه ونفيسه، وهو من العشرة المبشرة بالجنة، وهاجر إلى الحبشة مرتين، وساهم مساهمة باسلة في غزوة بدر وأحد والغزوات الأخرى، وصلى الرسول إحدى الصلوات خلفه في غزوة تبوك، توفي سنة ٣٢ من الهجرة ودفن في جنة البقيع.

طلحة رضي الله عنه:

اسمه طلحة بن عبيد الله بن عثمان التيمي، وحضر غزوة بدر، وأحد، ومعارك أخرى، وآخى الرسول بينه وبين أبي أيوب الأنصاري، ولما قصد المشركون الرسول في أحد وأرادوا به شراً جالدهم طلحة، وترس عليه بيده، يقي بها النبي، فأصيبت أنامله، وشلت يده، واستشهد في سنة ٣٦هـ، وقضى حياته في الولاء للإسلام، واتباع الرسول وطاعته، حتى فاز بالبشارة بالجنة، ودخل في العشرة المبشرة.

الزبير رضي الله عنه:

هو الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي، ومن أعيان الصحابة،

www.abulhasanalinadwi.org

وأمه عمة الرسول صفية بنت عبد المطلب التي كانت متصفة بصفات كريمة عظيمة، وتزوج بأسماء بنت أبي بكر الصديق، وولده عبد الله بن الزبير صحابي جليل، استشهد في سنة ٣٦هـ، وجعله الرسول حوارياً له، فقال: "إن لكل نبي حوارياً وإن حواريي الزبير بن العوام"[١] وهو أيضاً من العشرة المبشرة بالجنة.

أبو عبيدة رضي الله عنه:

اسمه أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح الفهري، أسلم بيد أبي بكر الصديق، وشارك في جميع الغزوات والمعارك، وفتحت مناطق الشام بيده، وكان أميراً على منطقة الشام، توفي سنة ١٨هـ، وهو أيضاً من العشرة المبشرة.

سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه:

هو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وينتمي إلى أخوال الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان يكرمه الرسول إكراماً، وأول من رمي بسهم في سبيل الله، وقائد القادسية وفاتح المدائن.

سعيد بن زيد رضي الله عنه:

هو من الرعيل الأول، ومن العشرة المبشرين بالجنة، وكان سبباً في إسلام عمر، وختنَه، وينتهي عدد العشرة المبشرة إلى اسمه[٢].

من كبار الصحابة الآخرين:

حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه:

تشرَّف بالإسلام ولدان من أولاد عبد المطلب - جدّ سيدنا محمد

---

[١] رواه الترمذي، رقم الحديث: ٣٧٤٤.

[٢] راجع لدراسة حياة العشرة المبشرين ومناقبهم وخصائصهم إلى: سنن الترمذي، كتاب المناقب، وطبقات ابن سعد، وأسد الغابة، وتذكرة الحفاظ، وسير أعلام النبلاء، وكتاب الرياض النضرة، وسبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، المجلد الحادي عشر، وحياة الصحابة، وتاريخ الطبري المجلد الثالث، والبداية والنهاية، والكامل في التاريخ.

www.abulhasanalinadwi.org

صلى الله عليه وسلم ـ أحدهما حمزة الذي كان يحمل عزماً وشيكاً، وبأساً مهيباً قبل النبوة، كان الناس في مكة يتحدثون عن مكانته وجاهه، وسمو همته وقوة شكيمته، فكانت له هيبة ورعب على القلوب والنفوس، وكان عم النبي وأخاه من الرضاعة، ولذلك يؤاسيه ويتعاون معه، ويخفض له جناحه، ومرة آذى الرسولَ أبو جهل الذي كان ألد أعدائه وذا مكان عال في أسرته، وسبَّه، وبلغ منه ما يكره، ولما عاد حمزة من هوايته المحببة ورياضته الأثيرة: الصيد، وذهب كعادته إلى الكعبة ليطوف بها قبل أن يقفل راجعاً إلى داره، لقيته أمة عبد الله ابن جدعان وأخبرته ما فعل أبو جهل مع الرسول صلى الله عليه وسلم، واستمع حمزة جيداً لقولها واستشاط غضباً، فأطرق لحظة، ثم مد يمينه إلى قوسه، فثبتها فوق كتفه، ثم انطلق في خطى سريعة حازمة صوب الكعبة، وتقدم من أبي جهل، ثم استل قوسه وهوى بها على رأس أبي جهل، فشجَّه وأدماه، وقبل أن يفيق الجالسون من الدهشة صاح حمزة في وجه أبي جهل: أ تشتم محمداً، وأنا على دينه أقول ما يقول؟! ألا فرد ذلك عليَّ إن استطعت، فأعلن حمزة إسلامه في لحظة من لحظات الحمية والغضب والانفعال، أعز الله الإسلام بحمزة، ووقف شامخاً قوياً يذود عن الرسول وعن المستضعفين من أصحابه، ومنذ أن أسلم حمزة نذر كل عافيته وبأسه وحياته لله ولدينه حتى خلع النبي صلى الله عليه وسلم عليه هذا اللقب العظيم "أسد الله وأسد رسوله" استشهد في غزوة أحد، وكان موته خسارة عظيمة شعر الرسول بفداحتها، وفقد الرسول بفقدانه أعز قريبه ومؤاسيه وناصره.

مصعب بن عمير رضي الله عنه:

هو أحد أولئك الذين صاغهم الإسلام صياغة حسنة متكاملة، وربّاهم محمد صلى الله عليه وسلم تربية محكمة، إنه كان غرة فتيان

www.abulhasanalinadwi.org

قريش، أوفاهم بهاءاً، وجمالاً وشباباً، كان أعطر أهل مكة، ولد في النعمة وغذّى بها، وشبّ تحت خمائلها، لم يكن بين فتيان مكة من ظفر من تدليل أبويه مثل ما ظفر به مصعب بن عمير، فإن الفتى الريان، المدلل المنعم، حديث حسان مكة، ولؤلؤه ندواتها ومجالسها، آمن بالله وبرسوله، فهجر الحياة الرغيدة، واللباس الفاخر، والطعام اللذيذ الشهي، الذي يتمتع به مع أبويه، وفارق أبويه، وخرج من النعمة الوارفة التي كان يعيش فيها، مؤثراً الشظف والفاقة، وانقطع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تاركاً كل ما كان ينعم به من وسائل العيش الرغد، على الإطلاق، وقدم مثلاً أعلى من الحب والولاء والفداء للرسول صلى الله عليه وسلم.

ولما انتشر الإسلام في بعض البيوت في المدينة ومست الحاجة إلى التعليم الديني فيها اختاره الرسول صلى الله عليه وسلم لأعظم مهمة في حينها أن يكون سفيره إلى المدينة؛ يفقه الأنصار الذين آمنوا وبايعوا الرسول عند العقبة، ويدخل غيرهم في دين الله، ويعد المدينة ليوم الهجرة العظيم، فحمل مصعب الأمانة مستعيناً بما أنعم الله عليه من عقل راجح، وخلق كريم، ولم يمض وقت طويل حتى غزا أهل المدينة بزهده وترفعه وإخلاصه، ونجح في دعوته نجاحاً باهراً، بدأ تحول كبير في المدينة إلى الإسلام، ولم يمض عام واحد حتى كان الأنصار يبايعون النبي بيعة العقبة الثانية، ثم دخلوا الإسلام أفواجاً، وتمضي الأيام والأعوام وهو يعيش حياة الإيمان والشظف، ويبذل جهداً مستميتاً في نشر الدعوة إلى الله حتى كانت غزوة أحد، فشارك فيها، وحمل اللواء وقاتل حتى وقع شهيداً، وسقط اللواء، وقع بعد أن خاض في استبسال عظيم معركة الفداء والإيمان.

www.abulhasanalinadwi.org

وبعد انتهاء المعركة المريرة وجد جثمان الشهيد الرشيد راقداً، وقد أخفى وجهه في تراب الأرض المضمخ بدمائه الزكية، وكان من قلة بضاعته ومتاعه الدنيوي يوم قتل في أحد أن لم يوجد له شيئ يكفن فيه إلا نمرة، فكانت إذا وضعت على رأسه تعرت رجلاه، وإذا وضعت على رجليه برزت رأسه، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم، اجعلوها مما يلي رأسه، واجعلوا على رجليه من نبات الإذخر.

وقف الرسول عند مصعب بن عمير وقال - وعيناه تلفانه بضيائهما وحنانهما ووفائهما -: "مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ" [الأحزاب: ٢٣].

ثم ألقى في أسى نظرة على بردته التي كفن فيها وقال: "لقد رأيتك بمكة وما بها أرقّ حلة ولا أحسن لمة منك، ثم ها أنتذا شعث الرأس في بردة".

العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه:

هو عمُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعمُّه الثاني الذي أسلم بعد عمِّه حمزة، ولكن لم يعلن إسلامه إلا عام فتح مكة، مما جعل بعض المؤرخين يعدونه مع الذين تأخر إسلامهم، بيد أن روايات أخرى من التاريخ تنبئ بأنه كان من المسلمين المبكرين، غير أنه كان يكتم إسلامه، وينصر الرسول صلى الله عليه وسلم، ويؤاسيه سرّاً، ويعالج ظلم قريش واعتداءها على الرسول صلى الله عليه وسلم بفطنة ودهاء أدَّيا للإسلام من النفع مثلما أدت السيوف المدافعة عن حقه وحماه، ولما فتحت مكة وزالت الأخطار والمخاوف التي كان يدركها، أعلن إسلامه، وأصبح سبباً في تقوية الرسول صلى الله عليه وسلم، وأسلم أبناؤه، ومنهم عبد الله بن العباس الذي نال مقاماً عالياً، وكان يتمتع من لطف الرسول والتقرب إليه

www.abulhasanalinadwi.org

مثلما ينال الصغار عطف الكبار في أسرتهم، وبارك الله في ذريته، فتفجرت من بعضهم ينابيع العلم والمعرفة، وخدموا الدين، ونشروا العلم، وحصل لذريته حكم دام قروناً، توفي سنة ٣٣هـ.

جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه:

كان عمُّ الرسول أبو طالب الذي لم يسلم، ولكن يشد أزر ابن أخيه، ويحميه، وكان سنداً كبيراً في صيانته في مكة، ونال الرسول منه حماية ويداً حانية في القيام بمهمة النبوة، واستمرت هذه الحماية القوية عشر سنوات بعد النبوة، وكان يحول بينه وبين إيذاء الأعداء، وإن كان لم يسلم ولكن أولاده دخلوا في الإسلام، ومنهم عليّ وجعفر وعقيل، رضي الله عنهم.

كان جعفر بن أبي طالب شخصاً مؤهلاً لعظائم الأمور، ودخل في الإسلام قديماً، واختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم أميراً على مهاجرة الحبشة لما كان قد أوتي من ذكاء القلب وإشراق العقل وفطنة النفس، وفصاحة اللسان، وقوة اليقين، وموقفه مع النجاشي مشهور، وقد برع في شرح الإسلام شرحاً سالت به دموع النجاشي، وشهد أنه الحق، وبحكمته وحجته بقي المسلمون في الحبشة آمنين، وراح يضرب في الحبشة يدعو إلى الله، واهتدت به طائفة من نصارى الحبشة قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت خطبة جعفر مؤثرة للغاية وتعبيراً صادقاً عن الإسلام، وقدم تضحيات غالية في سبيل الدين، واستشهد في معركة مؤتة (٨هـ) وكان أميراً فيها، وكان أحب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فأثرت وفاته عليه تأثيراً كبيراً، وقال صلى الله عليه وسلم: لقد رأيته في الجنة، له جناحان مضرجان

www.abulhasanalinadwi.org

بالدماء، مصبوغ القوادم"[1] ولذلك فقد دعي جعفر الطيار، وقال فيه: أشبهت خَلقي وخُلقي" وكان أسن من عليّ، وعُمِّر أكثر من أربعين سنة، ولقب بـ"أبو المساكين" لأنه كان ينفق عليهم كثيراً، وكذلك لقب بـ"ذو الجناحين" لأن يديه قطعتا في مؤتة فاعتضد الراية بعضديه.

سلمان الفارسي رضي الله عنه:

تحمل قصة إسلام سلمان الفارسي أهمية كبيرة بين الباحثين عن الحقيقة، كان فارسياً؛ ولكنه يبحث عن شخصية دينية صحيحة، وقد عاش خلال البحث عن الحقيقة عند عدد من الأحبار والرهبان وكبار النصارى، وجربهم، لكنهم خيبوا أمله، واستمر في بحثه عن الحقيقة حتى وصل إلى مكة، وقابل الرسول صلى الله عليه وسلم ودخل في الإسلام، ونذر حياته كلها للإسلام وخدمة نبيه، وقدم عدة مقترحات نافعة في الدفاع عن الإسلام، منها مقترحه لحفر الخندق في غزوة الأحزاب، وقبله الرسول صلى الله عليه وسلم وأثنى عليه، وقال فيه: سلمان منا أهل البيت" وتوفي بالمدائن سنة ٣٦هـ.

سعد بن معاذ رضي الله عنه:

لما وصلت دعوة الإسلام إلى المدينة، ودخل في الإسلام عدد من أعيانها، أسلم سيدا قبيلتين كبيرتين الأوس والخزرج، أحدهما سعد بن معاذ الذي كان سيد الأوس لا ينازعه في زعامتهم أحد، وثانيهما سعد ابن عبادة الذي كان زعيم الخزرج، وبإسلامهما أسلم معظم أفراد قبيلتيهما، وبذلك دخل أهالي المدينة في الإسلام إلا قليلاً، ووجهوا الدعوة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينتقل إليهم إلى المدينة، فقبل الرسول صلى الله عليه وسلم الدعوة، وهاجر إلى المدينة،

[1] رواه الترمذي، كتاب المناقب.

www.abulhasanalinadwi.org

وجعلها مقراً لدعوته، وقامت هاتان القبيلتان الأوس والخزرج بحماية الرسول صلى الله عليه وسلم ونصرته حتى في أحرج المواقف وأحلك الأحوال وأقساها، وكان لما دخل عدد ملحوظ من أهالي المدينة في الإسلام سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم أن يرسل إليهم داعياً من أصحابه، فبعث الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم مصعب بن عمير رسولاً يدعو إلى الإسلام، وكان له دور عظيم في نشر الإسلام في المدينة، وساعده أسيد بن حضير وأسعد بن زرارة في القيام بالعمل الدعوي بحكمة وموعظة حسنة، وبالتالي دخلت المدينة كلها في الإسلام وأصبحت قلعة منيعة له.

وكان أبرز أعماله في الدعوة إلى الله أنه بعد لقائه بمصعب بن عمير ودخوله في الإسلام، خرج إلى عشيرته من بني عبد الأشهل الأوسيين، فلم يركن إلى فراشه إلا وقد دخلت عشيرته جميعاً في الإسلام، لم يزل بالأوس يدعوهم ويأتي بهم إلى مصعب حتى أسلمت الأوس جميعاً، وعندما هاجر الرسول إلى المدينة كانت قبيلة سعد مفتحة الأبواب للمهاجرين، وكانت أموالهم كلها تحت تصرفهم من غير منّ ولا أذى، ولا حساب.

وكان سعد وزيراً أميناً للنبي صلى الله عليه وسلم، يمحضه النصح، ولا يضن عليه، وقد أوفده النبي صلى الله عليه وسلم في سفارات كثيرة في الدعوة إلى الله، اهتدى بها خلق كثير، ونذر حياته كلها للدفاع عن الرسول واتباعه، ونصرة الإسلام بفداء وتضحية.

سعد بن عبادة رضي الله عنه:

كانت قبيلة الأوس وقبيلة الخزرج من أكبر القبائل في المدينة، وكانت الخزرج أكبر من الأوس، ولكن الأوس - وإن كانت أصغر من

www.abulhasanalinadwi.org

الخزرج - تساويها في القوة والعظمة، فكانتا تشكلان غالبية سكان المدينة الأصليين، وكان سعد زعيم الخزرج، وكان من أعيان هذه القبيلة عبد الله بن أبي بن سلول الذي كان يحمل أهمية كبيرة في المدينة عندما وصل الإسلام إليها، ولكن لم يخلص في الإسلام والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، ولكن سعد بن عبادة لم يبال بمخالفة هذا الزعيم، ومؤامراته السرية، وأخلص في الإسلام، وانقطع إلى رسول الله، فعاش إلى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم جندياً مطيعاً، ومؤمناً صدوقاً.

أسيد بن حضير رضي الله عنه:

كان أسيد من زعماء الأوس، واقترن اسمه في المجد باسم سعد بن معاذ، فكانا يتقاسمان زعامة الأوس، وكان يكتب بالعربية، ويحسن العوم والرمي، لذلك فإنه سمى "الكامل" وله فضل كبير في إسلام سعد بن معاذ، بالإضافة إلى أسعد بن زرارة، وكانت له مواقف مشهورة في تأييد النبي صلى الله عليه وسلم ونصرته، وتوفي في سنة ٢٠هـ.

أبوذر الغفاري رضي الله عنه:

اسمه جندب بن جنادة، وكان من قبيلة "غفار" ولما سمع بمبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة أتاها، ولقي الرسول وسمع منه، فلم يمض من الوقت غير قليل حتى هتف أبوذر "أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله" ثم مضى بعد إسلامه داعياً إلى الله في قومه، ولم يزل بهم يدعوهم ويعلمهم حتى آمن أكثر قومه من "غفار" ثم آمنت قبيلة "أسلم" جيرانهم، ولم يزل كذلك داعياً صادحاً بالحق حتى لقي الله، وآثر أبوذر حياة التقشف والقناعة والشظف، ورغب عن المال، وقدم مثالاً رائعاً للزهد والتقشف أصبح علامة له يعرف بها، وفي آخر الحياة انقطع إلى الانزواء واعتزل الناس. ولم يكن

www.abulhasanalinadwi.org

يخاف لومة لائم في قول كلمة الحق والنصيحة لكل مسلم، وخصوصاً ولاة أمور المسلمين.

أبو الدرداء رضي الله عنه:

اسمه عويمر بن ساعدة، سماه النبي حكيم هذه الأمة لعظم علمه ودقيق فهمه، صحب النبي صلى الله عليه وسلم، فانقطع للعلم حتى نبغ فيه، وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أرسله عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته إلى الشام معلماً وفقيهاً ومحدثاً حتى صار مرجع أهل الشام في العلم، وانتشر بجهده العلم.

معاذ بن جبل رضي الله عنه:

هو صحابي جليل، كنيته أبو عبد الرحمن، وخزرجي، صحب النبي صلى الله عليه وسلم، فأكب على كسب العلم حتى نبغ فيه، وكان موفقاً في تحصيله للعلم، حتى أصبح أعلم الصحابة بالحلال والحرام، فصار مرجعاً في هذا العلم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقربه ويدنيه ويعلمه ويكلفه بتعليم الوفود القادمة إلى المدينة شرائع الإسلام، وشغل حياته كلها بالعلم والدعوة، وعلم الناس، ونشر العلم.

وقال له النبي مرة: "يا معاذ والله إني لأحبك" وأرسله الرسول صلى الله عليه وسلم إلى اليمن أميراً ومعلماً، فلم يزل باليمن يدعو إلى الله ويعلم الناس شرائع الدين، حتى توفي الرسول صلى الله عليه وسلم فرجع إلى المدينة، ثم انتقل إلى الشام حتى صار معلمها ومفتيها، ولم يزل بها إلى أن توفي عام ١٧هـ وعمره ٣٤ فقط.

حذيفة بن اليمان رضي الله عنه:

كان أبرز الصحابة الأقربين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذين أسرَّ إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم، لذلك لقب

www.abulhasanalinadwi.org

بـ"صاحب سر الرسول" وتعلم من الرسول علم السرائر والنبوءات والفتن والمصائب الواقعة إلى يوم القيامة، فتخصص في قراءة الوجوه والسرائر، يقرأ الوجوه في نظرة، ويبلو كنه الأعماق المستسرة والدخائل المخبوءة في غير عناء، ولقد بلغ في ذلك ما يريد، لقد عاش حذيفة مفتوح البصر والبصيرة على مآتي الفتن، ومسالك الشرور، ليتقيها ويحذر الناس منها، ولقد أفاد عليه هذا بصراً بالدنيا، وخبرة بالناس، ومعرفة بالزمن، توفي بعد شهادة عثمان بن عفان بأيام.

خباب بن الأرت رضي الله عنه:

كان خباب صحابياً جليلاً، أسلم مبكراً، وكان حظه من العذاب في سبيل الإسلام والإيمان كبيراً، ولكن مقاومته وصبره كانا أكبر من العذاب، فقد صبر خباب، ولم تلن له بين أيدي الكفار الظلمة قناة، وجعلوا يلصقون ظهره العاري بالرضف حتى ذهب لحمه، وكان يؤخذ الحديد المحمى الملتهب ويوضع فوق رأسه ونافوخه، وخباب يتلوى من الألم، لكنه يكظم أنفاسه، حتى لا تخرج منه زفرة ترضي غرور جلاديه، صبر خباب على جميع هذه الآلام وأنواع التعذيب الوحشي، لم يفت كل ذلك في عضده، واستقام على الإيمان والإسلام، وقدم تضحية عظيمة وفداء كبيراً في سبيل دين الله تعالى.

بلال رضي الله عنه:

لقد واجه بلال أذى كثيراً وتعذيباً وحشياً في سبيل الدين، كان من أهل الحبشة، وعبداً لأحد أسياد مكة، دخل في الإسلام مبكراً، فما إن سمع سيده أمية بن خلف خبر إسلام عبده الحبشي حتى جن جنونه، واستشاط غضباً، فصب جام غضبه عليه، وعذبه تعذيباً وحشياً، ولكنه صمد لأقسى ألوان التعذيب صمود الأبرار العظام، لقد كانوا

www.abulhasanalinadwi.org

يخرجون به في الظهيرة التي تتحول الصحراء فيها إلى جهنم قاتلة، فيطرحونه على حصاها الملتهب وهو عريان، ثم يأتون بحجر متسعر كالحميم، ينقله من مكانه بضعة رجال، يلقون به على جسده وصدره على أن يزيغ عن دينه أو يضعف اقتناعه، فأبى ويقول: أحد أحد، ولم يزل يستمر تعذيبه حتى اشتراه أبو بكر من سيده وأعتقه، فصحب الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولما شرع الأذان اختاره الرسول صلى الله عليه وسلم ليكون أول مؤذن للإسلام، وعاش بلال مع الرسول صلى الله عليه وسلم، يشهد معه المشاهد كلها، ويؤذن للصلاة، ولم يزل يزداد كل يوم قرباً من قلب الرسول صلى الله عليه وسلم حتى توفي فلم يستطع أن يقيم بالمدينة بعده وخرج مجاهداً في سبيل الإسلام، ومات في الشام مرابطاً في سبيل الله.

عبد الله بن سلام رضي الله عنه:

من أجلة الصحابة، وأحد بني إسرائيل، وكان على ديانة اليهود، بل كان يعد في كبار أحبار اليهود وعلمائهم، فأسلم فارتفعت درجته في الإسلام أيضاً، ونزل فيه "شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ" [الأحقاف: ١٠].

أسلم فصار في كبار علماء الإسلام، وبشره الرسول صلى الله عليه وسلم بالجنة، وكان قومه اليهود يعترفون بفضله وعلمه، ويقدرونه تقديراً، ولكن لما آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم تحولوا أعداء له، إلا أهل بيته فآمنوا.

صهيب بن سنان رضي الله عنه:

هو صحابي مشهور، وكان رومياً، ذهب إلى دار الأرقم ودخل في الإسلام، ثم نذر حياته كلها للدعوة إلى الإسلام، ونفعه بشجاعته

www.abulhasanalinadwi.org

وصلاحيته العسكرية، فكان جندياً مخلصاً للإسلام وصحابياً مطيعاً للرسول صلى الله عليه وسلم، وعذبه مشركو مكة تعذيباً، ولما أراد الهجرة إلى المدينة منعوه حتى رضوا بأن ترك لهم ماله بمكة، فدلهم صهيب على المكان الذي خبأ فيه ماله وثروته، وتركوه وشأنه، واستأنف صهيب هجرته وحيداً سعيداً، حتى أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم في قباء، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم جالساً وحوله بعض أصحابه حين أهلّ عليهم صهيب، ولم يكد الرسول صلى الله عليه وسلم يراه حتى ناداه متهللاً: ربح البيع أبا يحيى!! ربح البيع أبا يحيى.

زيد بن حارثة رضي الله عنه:

من كبار الصحابة، كان عبداً لخديجة بنت خويلد، ولما صارت زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم وهبت بدورها خادمها زيداً لزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتقبله مسروراً وأعتقه من فوره، وراح يمنحه من نفسه العظيمة ومن قلبه الكبير كل عطف ورعاية، وكان والده حارثة يبحث عنه منذ مدة بغاية من اللوعة، ولما علم مستقر ولده بمكة، أغذ السير إليها، ووصل إلى مكة ولقي الرسول صلى الله عليه وسلم وسأله ولده زيداً، ولكن زيداً لم يرض بأن يفارق الرسول صلى الله عليه وسلم، ويذهب مع والده، وقال: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنت الأب والعم" فتبنى الرسول زيداً وصار لا يعرف في مكة كلها إلا باسمه هذا "زيد بن محمد، ولكن نزل الوحي الإلهي أن لا يكون أحد ولد أحد بالتبنى، فدعى زيد بن حارثة.

أحبه الرسول حباً عظيماً، وكان بهذا الحب جديراً وخليقاً، بوفائه وولائه، وزوّج الرسول صلى الله عليه وسلم زيداً من ابنة عمته زينب، ولكن الحياة الزوجية أخذت تتعثر وتستنفد عوامل بقائها

www.abulhasanalinadwi.org

فانفصل زيد من زينب، ثم ضم الرسول صلى الله عليه وسلم ابنة عمته إليه واختارها زوجة له، مؤاساة لها وجبراً لكسر خاطرها، ولم يزل يعامل مع زيد معاملة الحب والعطف والحنان، وكان ولده أسامة الذي يحبه الرسول صلى الله عليه وسلم ويمنحه عطف الأب وحنان الأم، حتى جعله أميراً على الجيش بحضور كبار الصحابة.

الأرقم بن الأرقم رضي الله عنه:

كان من قبيلة قريش المعروفة "مخزوم" التي كان أفرادها من أشد الأعداء للرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن الأرقم دخل في الإسلام، وهو من الرعيل الأول، وجعل بيته مركزاً سرياً للدعوة إلى الإسلام، حيث يلتقي فيه الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه ويرشدهم ويعلمهم الدين، جاء إليه عمر بن الخطاب واعتنق الإسلام، وبذلك نصر الأرقم بن الأرقم الإسلام، وقدم حماية له، وتعرف داره إلى يومنا هذا بدار الأرقم.

عمرو بن العاص رضي الله عنه:

كان أحد أربعة من دهاة العرب، تأخر إسلامه إلى ما بعد الحديبية، وكان قبل إسلامه عدواً للإسلام، ولما هاجر المسلمون إلى الحبشة أرسلته قريش إلى ملك الحبشة ليفاوض في شأن هؤلاء المؤمنين وإرجاعهم إلى وطنهم مكة، واستمر في معارضته للإسلام، حتى هدي إلى الإسلام بعد صلح الحديبية، وشرح الله صدره للإسلام فدخل فيه على يد جعفر بن أبي طالب، ثم نذر حياته كلها ووقف كفاءاته كلها لخدمة الإسلام، فقام بخدمات جليلة، وأدوار رائعة، وفتح الله مصر على يديه في خلافة عمر بن الخطاب، وتوفي بها.

عمار بن ياسر رضي الله عنه:

من الرعيل الأول السابقين إلى الإسلام، قحطاني الأصل، عذَّبه

www.abulhasanalinadwi.org

كفار مكة تعذيباً، وصبُّوا عليه من جحيم العذاب ألواناً وفنوناً، من الكي بالنار، إلى صلبه على الرمضاء المتسعرة، تحت الحجارة الملتهبة، إلى غطه في الماء تختنق أنفاسه وتتسلخ قروحه وجروحه، حتى صار ظهره ذات كيّات سوداء، وكذلك عذّب والده ياسر وأمه سمية تعذيباً وحشياً، وكانت أمه سمية أول شهيدة في الإسلام، ويقول لهم الرسول صلى الله عليه وسلم نظراً إلى ما يلاقونه من العذاب ما لا طاقة لهم به: صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة" وحينا لآخر يقول: أبشروا، الجنة تشتاق إليكم" وكان قد بشره الرسول بالشهادة، فاستشهد في حرب صفين.

خالد بن الوليد رضي الله عنه:

كان أحد أشراف قريش في الجاهلية، وكانت إليه القبة وأعنة الخيل، وكانت له كسوة البيت، واشترك في الحروب التي شنتها قريش ضد المسلمين، وخاصة ألحق بالمسلمين ضرراً كبيراً بحكمته العسكرية المناوئة في غزوة أحد، ولكن بعد صلح الحديبية شرح الله صدره للإسلام فأتى المدينة مع عمرو بن العاص وأسلم، فكان جندياً وفياً للإسلام وقائداً حكيماً، انقطع إلى خدمة الإسلام بشجاعته وبطولته وحنكته السياسية والعسكرية حتى سماه النبي " سيف الله المسلول" وبعد وفاته كان له بلاء عظيم في حرب الردة، وبه قصم الله فتنة مسليمة الكذاب، وشارك في فتح العراق والشام، وكان قائد معركة اليرموك الظافرة، وكان من بني مخزوم التي يعرف عدد من أبنائها بعدواة الإسلام، توفي في حمص (الشام) عام ٢١هـ.

أبو هريرة رضي الله عنه:

هو من كبار الصحابة، خدم الرسول مدة طويلة، وكان من ألزم الصحابة له، وأحفظهم لحديثه ببركة دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم

www.abulhasanalinadwi.org

له، وكان أكثر الصحابة رواية للحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أوتى من قوة الحافظة والذاكرة ما لا يؤتى أحد غيره، فإنه قدم خدمة جليلة، حيث قام بنقله بأمانة ودقة عظيمة وعاش بعد النبي صلى الله عليه وسلم ٤٧ عاماً، وشاهد الوقائع والأحداث التي حدثت في عهده، وأرشد الأمة، وأدى دوراً رائداً في حفظ التراث ونقله للأجيال.

أبي بن كعب رضي الله عنه:

هو أحد الصحابة الأربعة الذين آتاهم الله علم القرآن الكريم وفهم آياته، وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم الناس بتعلم القرآن منهم، هو أنصاري من الخزرج، شهد العقبة وبدراً وبقية المشاهد، وقال له الرسول صلى الله عليه وسلم يوماً: يا أبي بن كعب، إني أمرت أن أعرض عليك القرآن" لقب بلقب " سيد الأنصار" وكان أقرأ الصحابة بشهادة النبي صلى الله عليه وسلم له، وكان أحد أصحاب القضاء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أحد خمسة من الأنصار حملوا القرآن في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، كما كان أحد ثلاثة من الأنصار كانوا يفتون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصحب النبي صلى الله عليه وسلم فاجتمع له علم كثير حتى قال له النبي صلى الله عليه وسلم: " ليهنك العلم أبا المنذر، ليهنك العلم أبا المنذر" توفي في المدينة عام ١٩هـ في خلافة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه.

أبو موسى الأشعري رضي الله عنه:

اسمه عبد الله بن قيس، يمنيّ من قبيلة الأشعر، قدم من اليمن في السنة السادسة إلى مكة وأسلم، وكان نابغة في الفهم والعلم، صحب النبي صلى الله عليه وسلم سنة أو سنتين، فحاز ثقة الرسول صلى الله

www.abulhasanalinadwi.org

عليه وسلم ،ثم عاد إلى اليمن، ومعه علم كثير من القرآن والسنة، وقام خير قيام بأداء المسئوليات التي ألقاها عليه الخلفاء، ويعد في كبار الصحابة المشهورين، وتوفي عام ٥٢هـ بمكة.

أبو سفيان ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما:

اسمه صخر بن حرب بن أمية، كان في الجاهلية من أشراف قريش وزعيمها المطلق بعد بدر، يقود الحروب، فقد قاد الحروب التي خاضتها قريش ضد الإسلام والمسلمين، وهو من أحد فرسان بني أمية فرع قريش، الذي كان منه الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، وبنو أمية من فرع أعمام جد الرسول، ولذلك كانت له قرابة قريبة من الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكنه بكونه قائد قريش لم يزل يقود الحروب ضد المسلمين، ثم أسلم بمناسبة فتح مكة قبل قدوم جيش المسلمين إلى مكة ، فتحول جندياً مخلصاً للإسلام، وحسن إسلامه، وعاش كصحابي، ولده معاوية بن أبي سفيان.

انتقل الحكم الإسلامي إلى معاوية بن أبي سفيان بعد الخلافة الراشدة، وبه بدأ العهد الأموي، وحكم بغاية من الحكمة والخبرة والحنكة السياسية، وجهد جهداً بليغاً للحفاظ على العظمة الإسلامية، وبقاء الصرح الإسلامي شامخاً عالياً، أمّره عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الشام في عهده، فأدى مسئوليته خير أداء، ثم حدث بعد شهادة عثمان بن عفان صراع بينه وبين عليّ، استمر إلى وفاة علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

الصحابة الصغار:

الصحابة الصغار الذين تربوا ونشأوا في تربية النبي صلى الله عليه وسلم وإرشاده في الإسلام منذ الصغر، هم كثير، ونفعوا الناس

www.abulhasanalinadwi.org

بعلمهم العميق وفهمهم السديد للدين الذي تلقوه في تربية النبي صلى الله عليه وسلم ، وإليهم يرجع الفضل في حفظ التراث ونقله إلينا ، ولعبوا أدواراً مهمة في خدمة العلم والدعوة إلى الله ، منهم عبد الله بن العباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن مسعود ، وأنس بن مالك ، وأسامة بن زيد ، والحسن والحسين سبطا الرسول صلى الله عليه وسلم.رضي الله عنهم جميعاً ، وهؤلاء هم الذين أحبهم الرسول صلى الله عليه وسلم وتولاهم برعايته وتربيته.

عبد الله بن العباس رضي الله عنه:

كان ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم يحبه ويؤثره ويدنيه مثل الولد ، وكانت خالته زوجة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولذلك كان عبد الله يختلف إلى النبي صلى الله عليه وسلم وينهل من منهله العذب الفياض ، والنبي صلى الله عليه وسلم يؤثره ويزكيه ويعلمه الحكمة ، ومرة ضمه الرسول صلى الله عليه وسلم إليه وقال : " اللهم علمه الحكمة " وقال فيه : " اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل" ففاق الناس بخصال العلم ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستشيره ويؤثره على بعض كبار الصحابة في هذا الشأن.

وكان يسمى البحر لسعة علمه ، وهو حبر الأمة وترجمان القرآن ، ولما مات قال جابر بن عبد : " مات أعلم الناس وأحلم الناس ، ولقد أصيب به هذه الأمة بمصيبة لا ترتق" وقال ابن الحنفية : " اليوم مات رباني هذه الأمة ". ولقد سجل لابن العباس علم كثير في الفقه والحديث والتشريع وعلوم الحياة والكونيات.

عبد الله بن عمر رضي الله عنه:

هو صحابي من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، نال التقرب إليه وحاز ثقته ، وكانت اخته حفصة زوجة النبي صلى الله عليه

www.abulhasanalinadwi.org

وسلم ، وقد ذكر النبي لها مدحه له وثناءه عليه وقال: إنه ولد صالح، وكان نابغاً في العلم والتفقه، وحصل منه العلم عدد من الصحابة والتابعين، وكان بيته مرجعاً لطلاب العلم من كل الأمصار، ومن أخص تلامذته نافع أستاذ الإمام مالك، توفي بمكة عام ٧٣هـ عن عمر يناهز ٨٦ سنة.

عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

دخل في الإسلام في سن مبكرة، فانقطع إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأمضى في صحبته نحو عشرين عاماً، وكان أقرب الناس هدياً ودلاً وسمتاً برسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد برز في العلم والتفقه، وهو مرجع الفقه الحنفي، وتوفي عام ٣٢هـ عن عمر يناهز ستين سنة.

أنس بن مالك رضي الله عنه:

اسمه أنس بن مالك بن النضر، كان عمره عشر سنين عندما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، وانقطع إلى خدمته، وخدمه عشر سنوات، وفي هذه المدة كلها لم يزجره النبي صلى الله عليه وسلم ولم ينهره، بل عامله معاملة ملؤها الحب والملاطفة، و الخلق الحسن، ودعا له دعاء كثيراً لمس آثاره في حياته كلها، وعُمِّر أكثر من مائة سنة، توفي بالبصرة عام ٩١هـ، لقد استفاد أنس بن مالك من خدمة النبي استفادة عظيمة، فقد حصل من ذلك علماً كثيراً، وسمع منه الحديث، وهو من المكثرين في الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الحسن والحسين رضي الله عنهما:

هما سبطا الرسول الحبيبان، وعقد الرسول بهما آمالاً كثيرة، بل قال صلى الله عليه وسلم فيهما: الحسن والحسين سيدا شباب أهل

www.abulhasanalinadwi.org

الجنة، وكانا أشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم وقال صلى الله عليه وسلم: هذان أبنائي وابنا ابنتي، اللهم إني أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما(١).

أسامة بن زيد رضي الله عنه:

هو الحِبُّ ابن حِبّ الرسول صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة الذي كان أعتقه الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان محبوباً إلى النبي فدعي: "حِبُّ رسول الله" وجعله الرسول صلى الله عليه وسلم قائد الجيش المتوجه إلى الشام، وفي جيشه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة، رضي الله عنهم، توفي بالمدينة عام ٥٤هـ، وكان مالكاً لكل الصفات الكريمة التي تجعله قريباً من قلب الرسول وكبيراً في عينيه.

كان أولئك سلف المسلمين الذين بذكرهم ورؤيتهم يزيد الإيمان ويتجدد، وتنشأ الرغبة إلى العمل الصالح، فلابد من تقديم حياتهم وسيرهم وتراجمهم إلى أجيالنا الناشئة، ليبنوا حياتهم في ضوئها، ويستفيدوا منها، وقد اكتفيت بذكر عدد منها كمثال عال للحياة الإيمانية، وكان كل صحابي من أصحاب الرسول أمة في ذاته.

ولا تخفى على أحد التضحيات الجسيمة والبطولات الخالدة والمآثرة العظيمة التي قدمها أبو دجانة، وخبيب، وعثمان بن مظعون، وكعب بن مالك، وحسان بن ثابت، وزيد بن ثابت، وعمار بن ياسر، والمغيرة بن شعبة، وأبو أيوب الأنصاري، وأنس بن النضر، وغيرهم، رضي الله عنهم جميعاً.

وعلاوة على أمهات المؤمنين الزوجات المطهرات والبنات الطاهرات اللواتى لم يقصرن أي تقصير في تقوية الصرح الإسلامي،

---

(١) رواه الترمذي باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما.

www.abulhasanalinadwi.org

وراحة الرسول صلى الله عليه وسلم ونصرته، وصدقن في الإيمان والثبات والبطولة، والولاء لله وللرسول، صحابيات جليلات يتجمل بذكرهن التاريخ، منهن سمية التي هي أول شهيدة في الإسلام، كانت مسنة ضعيفة، ولكن أبا جهل قتلها بطعنة وحشية في فرجها، ومنهن خنساء التي يضرب بها المثل في الشجاعة والبسالة، وقد أصيب أربعة من أبنائها ولكنها لم تضعف ولم تعوِّل، بل صبرت واستقامت على إيمانها كالجبل، ومنهن صفية عمة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومنهن أسماء بنت أبي بكر الصديق أم عبد الله بن الزبير، وكذلك تذكر كتب السير والتاريخ بالإضافة إليهن أم هانئ وأم أيمن.

جزاهن الله تعالى خير الجزاء وأوفاه، وأنزل عليهن شآبيب رحمته، وغفر لهن، وأدخلهن في جنات النعيم.

رضي الله عنهم ورضوا عنه.

تمت ـ بحمد الله وفضله ـ الترجمة يوم الثلاثاء ١٦/رمضان١٤٣٥ عام هـ المصادف ١٥/يوليو٢٠١٤م

www.abulhasanalinadwi.org

المصادر والمراجع

١- الجامع الصحيح للإمام البخاري

٢- الجامع الصحيح للإمام مسلم

٣- سنن الإمام الترمذي

٤- مسند الإمام أحمد بن حنبل

٥- مستدرك الحاكم

٦- سيرة ابن هشام، بتحقيق: مصطفى سقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، دار الوفاق، بيروت لبنان، الطبعة الثانية ١٩٩٤م.

٧- إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون (السيرة الحلبية) علي برهان الدين، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، محمود نصار الحلبي وشركاؤه، الطبعة الأولى، ١٩٦٤م.

٨- الروض الأنف/عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن السهيلي، المطبعة الجمالية مصر، ١٩١٤م.

٩- المواهب اللدنية بالمنح المحمدية/أحمد بن محمد أبي بكر خطيب العسقلاني، المطبعة الشرفية طنطا، ١٩٠٧م.

١٠- سيرة ابن إسحاق، بتحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، بدوي طه بدوي، دار الأخبار اليوم، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

١١- السيرة النبوية في فتح الباري/حافظ ابن حجر العسقلاني، جمع وتوثيق: الدكتور محمد أمين بن محمود، محمود بن أحمد مولودجكني الشنقيطي.

١٢- السيرة النبوية للحافظ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ١٩٢٧م، ودار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٧م.

www.abulhasanalinadwi.org

١٣- زاد المعاد في هدي خير العباد/العلامة ابن قيم الجوزية، بتحقيق: شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة ومكتبة المنار الإسلامية، الطبعة السابعة والعشرين، ١٩٩٤م.

١٤- التراتيب الإدارية/العلامة عبد الحئ الكتاني، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

١٥- أنساب الأشراف/أحمد يحيى البلاذري، بتحقيق: الدكتور محمد حميد الله، دار المعارف، مصر.

١٦- طبقات ابن سعد، دار صادر، بيروت.

١٧- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد/الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

١٨- السيرة النبوية الصحيحة/الدكتور أكرم ضياء العمري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.

١٩- خلاصة سير سيد البشر/محب الدين أحمد بن عبد الله الطبري، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية وإدارة الشئون الإسلامية، دولة القطر، ١٤٢١هـ.

٢٠- نور اليقين في سيرة سيد المرسلين/العلامة محمد الخضري، دار الخير ٢٠٠٣م.

٢١- الوفاء بأحوال المصطفى/العلامة عبد الرحمن الجوزي، دار الكتب الحديثة، مصر، ١٩٦٦م.

٢٢- خاتم النبيين/محمد أبو زهرة، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، ١٩٧٢م.

٣٢- أسد الغابة في معرفة الصحابة/ابن الأثير، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان.

٢٤- البداية والنهاية/الحافظ ابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت.

٢٥- تاريخ الطبري/أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت لبنان.

٢٦- الكامل في التاريخ/ابن الأثير، دار صادر، بيروت، ١٩٨٢م.

www.abulhasanalinadwi.org

٢٧- جمهرة أنساب العرب/أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، تحقيق: عبد السلام هارون، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة.

٢٨- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين/العلامة أبو الحسن علي الحسني الندوي، دار الغد الجديد، المنصورة، مصر، ٢٠٠٥م.

٢٩- سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم/محمد الحبش، دار النور، دمشق، الطبعة السادسة، ١٩٩٦م.

٣٠- جوامع السير/ ابن حزم، تحقيق: الدكتور إحسان عباس والدكتور ناصر الدين الأسد، مراجعة: أحمد محمد شاكر، إدارة إحياء السنة، كوجرانواله، باكستان.

٣١- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير/محمد بن عبد الله بن يحيى ابن سيد الناس، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ١٩٨٦م.

٣٢- مروج الذهب ومعادن الجوهر/أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ٢٠٠٥م.

٣٣- سيرة النبي/العلامة شبلي النعماني والسيد سليمان الندوي، الفيصل للنشر والطباعة و التوزيع، غزني استريت، اردو بازار، لاهور، ١٩٩١م.

٣٤- رحمة للعالمين/القاضي محمد سليمان المنصورفوري، الناشر: الشيخ غلام علي وأولاده تجار الكتب، كشميري بازار، لاهور، ١٩٦٢م.

٣٥- أصح السير في هدي خير البشر صلى الله عليه وسلم/الشيخ أبو البركات عبد الرؤوف الدانافوري، المكتبة النورية، دلهي، الهند.

٣٦- السيرة النبوية /العلامة أبو الحسن علي الحسني الندوي، المجمع الإسلامي العلمي، لكهنؤ. الهند، ٢٠٠٣م.

www.abulhasanalinadwi.org

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
كلمة الناشر	٣
مقدمة الطبعة العربية	٧
تصدير الكتاب	١٠
كلمة المترجم	٢٤
تقديم الكتاب	٢٩
بين يدي الكتاب	٤٢
الباب الأول	
تمهيد وتوطئة	٦٣
أبو البشر آدم عليه السلام	٦٣
التوجيه الديني بصورة النبوة	٦٦
مهمة النبي ورسالته	٧٤
الباب الثاني	
وضع العالم في القرن السادس المسيحي	٧٦
وضع الدول الأوربية	٧٨
وضع آسيا الجنوبية	٧٩
المجوس	٧٩
البوذية	٨٠
يقول المؤرخون	٨١
الدولة الرومانية والدولة الإيرانية	٨٢
الجزيرة العربية	٨٤
الفساد العالمي	٨٥
الحاجة إلى نبي أعظم	٨٦
جزيرة العرب قبل البعثة	٨٨
العمران البشري في جزيرة العرب	٨٩
إبراهيم الخليل وذريته	٩٠

www.abulhasanalinadwi.org

مكة المكرمة	٩٣
بئر زمزم واكتشافها	٩٤
موقع مكة والمناخ الطبيعي	٩٦
وثنية العرب	٩٨
حالة العرب الخلقية وطبيعتهم وذوقهم	١٠١
لماذا بعث محمد صلى الله عليه وسلم في مكة مركز العرب؟	١٠٣
الباب الثالث	
النسب الزكي، الولادة، النشأة والتربية	١٠٥
أصل العرب	١٠٥
قبيلة قريش	١٠٧
نسبه الذكي	١٠٩
عدنان	١١١
عبد الله	١١٢
مولده	١١٤
رضاعته	١١٥
وفاة والدته ورعاية جدِّه	١٢٠
في كفالة أبي طالب	١٢١
نشأته وتكوينه الخلقي	١٢٣
شخصية عظيمة ذات خصال سامية	١٢٨
حلف الفضول	١٣١
تجارته لخديجة وزواجه منها	١٣١
كفالته لعلي بن أبي طالب	١٣٣
بناء الكعبة المشرفة	١٣٤
التربية الإلهية	١٣٥
صحبة أبي بكر الصديق	١٣٦
في غار حراء	١٣٧
الباب الرابع	
بداية نزول الوحي، البعثة، والدعوة	١٣٨
نزول الوحي في رمضان	١٣٨

www.abulhasanalinadwi.org

بين يدي ورقة بن نوفل	١٤٠
بشارات وردت في الكتب المقدسة السماوية	١٤١
الشريعة المحمدية وصلتها الوثيقة بالعلم والقلم	١٤٥
الشريعة الشاملة الأبدية	١٤٨
مبادئ الشريعة المحمدية	١٤٩
رسالة التوحيد للإنسانية جمعاء	١٥٢
القرآن المجيد	١٥٥
دعوة إصلاح العقائد الباطلة	١٥٦
دعوة إلى الأخلاق ورسالة للإنسانية	١٥٧
نزول سورة المدثر	١٦٢
بداية الدعوة إلى الحق	١٦٥
إسلام خديجة وأبي بكر وعلي وزيد بن حارثة رضي الله عنهم	١٦٦
صلوات العشي والإبكار	١٦٦
دار الأرقم	١٦٧
إعلان الدعوة جهاراً على جبل الصفا	١٦٧
استمراره في الدعوة إلى الحق	١٦٨
مخالفة قريش له	١٧٠
ابتلاء المؤمنين	١٧٢
إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم	١٧٣
قصة إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي	١٧٥
اعتداء قريش على المسلمين	١٧٥
لجان الإيذاء المنظمة	١٨٠
رؤساء قريش مع أبي طالب	١٨١
ما دار بين عتبة وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم	١٨٢
ما أشار به عتبة على أصحابه	١٨٤
ما فعل قريش بأبي بكر	١٨٥
إسلام حمزة رضي الله عنه	١٨٥
إسلام عمر بن خطاب رضي الله عنه	١٨٦
هجرة المسلمين إلى الحبشة	١٨٩

www.abulhasanalinadwi.org

تعقيب قريش للمسلمين	١٩٠
في شعب أبي طالب	١٩٣
إنهاء الحصار	١٩٥
عام الحزن	١٩٦
في الطائف	١٩٧
إسلام عداس	١٩٨
تضرع ودعاء	١٩٩
عودته من الطائف	٢٠٠
إسلام الجن	٢٠١
الباب الخامس	
حدث الإسراء والمعراج، بيعة العقبة، الهجرة إلى المدينة المنورة	٢٠٢
قصة الإسراء والمعراج	٢٠٣
إسلام أبي ذر الغفاري	٢٠٧
بدء إسلام الأنصار	٢٠٩
بيعة العقبة الأولى	٢٠٩
الإسلام في المدينة	٢١٠
قصة إسلام أسيد بن حضير وسعد بن معاذ	٢١٠
بيعة العقبة الثانية	٢١٣
هجرة أم سلمة	٢١٤
مؤامرة قتل الرسول صلى الله عليه وسلم	٢١٦
قصة سراقة بن مالك	٢١٩
خيمة أم معبد في طريق الهجرة	٢٢١
الباب السادس	
الإقامة في المدينة المنورة	٢٢٥
إنشاء نظام اجتماعي، ومواجهة مؤامرات الأعداء	٢٢٥
قدومه إلى المدينة	٢٢٧
بناء المسجد النبوي	٢٢٨
حالة المدينة الطبيعية والجغرافية	٢٣١
الحالة الاجتماعية	٢٣٢

www.abulhasanalinadwi.org

الإخاء العالي	٢٣٣
موادعة يهود	٢٣٤
إنشاء نظام الإسلام الاجتماعي	٢٣٦
بداية الأذان	٢٣٨
تحويل القبلة	٢٣٩
تكوين المجتمع الإسلامي	٢٤١
الصفة وأصحاب الصفة	٢٤٢
الصبر وتحمل الأذى في سبيل الدعوة إلى الحق	٢٤٣
التاكيد على اختيار الوسائل اللازمة لنشر الدعوة إلى الحق	٢٤٤
يواجه المسلمون أول لقاء عسكري	٢٤٧
غزوة بدر الكبرى: أول معركة بين المسلمين والمشركين	٢٥٠
ذكر موجز عن معركة بدر	٢٥٢
مصرع أبي جهل بن هشام	٢٥٦
المعاملة مع الأسرى	٢٥٨
الوصية بإكرام الأسري	٢٥٩
بعد غزوة بدر	٢٦٠
نقض اليهود العهد	٢٦٠
فرض الصوم	٢٦١
أمر بني قينقاع	٢٦٢
غزوة أحد (شوال ٣هـ)	٢٦٣
حمراء الأسد	٢٦٨
بعد أحد	٢٦٩
فاجعة الرجيع	٢٦٩
بئر معونة	٢٧١
قصة شهادة حرام بن ملحان	٢٧١
إجلاء بني النضير	٢٧١
غزوة ذات الرقاع	٢٧٣
من يمنعك مني	٢٧٣
غزوات لم يكن فيها قتال	٢٧٤

www.abulhasanalinadwi.org

أمر بني قريظة	٢٧٨
ابتلاء سعد بن معاذ	٢٨١
أمر بني المصطلق	٢٨٢
تزوجه صلى الله عليه وسلم من جويرية بنت الحارث	٢٨٣
إفساد المنافقين وقصة الإفك	٢٨٣
فزع قريش من دخول المسلمين في مكة	٢٨٧
امتحان الحب والوفاء	٢٨٨
بيعة الرضوان	٢٨٨
موقف المسلمين السلمي ورضاهم بالمصالحة	٢٨٩
معاهدة وصلح	٢٨٩
حكمة وحلم وتنازل	٢٩٠
صلح وامتحان	٢٩٠
بلاء المسلمين في الصلح	٢٩٢
صلح مهين أم فتح مبين	٢٩٤
خيبة بالصورة وانتصار بالحقيقة	٢٩٤
فوائد الصلح وأبعاده	٢٩٥
إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص	٢٩٧
دعوة الملوك والأمراء إلى الإسلام	٢٩٨
كتاب النبي إلى النجاشي ملك الحبشة	٣٠٠
كتابه إلى المقوقس حاكم الإسكندرية ومصر	٣٠٠
كتابه إلى كسرى	٣٠١
كتابه إلى هرقل عظيم الروم	٣٠١
سعي هرقل للتثبت من أمر النبي	٣٠١
غزوة خيبر	٣٠٤
زواجه من صفية	٣٠٧
عمرة القضاء	٣٠٧
غزوة موتة (٨هـ)	٣٠٨
نقض قريش معاهدة الصلح وقرار النبي لنصرة المظلومين	٣١٠
محاولة أبي سفيان زعيم قريش لتجديد العهد	٣١١

www.abulhasanalinadwi.org

إعلان أبي سفيان	٣١٢
إستراتيجية النبي والتأهب لمكة	٣١٣
خروجه إلى مكة	٣١٥
عفو عام وأمن بسيط	٣١٨
دخول خاشع متواضع لا دخول فاتح متعال	٣١٩
يوم المرحمة لا الملحمة	٣٢٠
إعلان بغلبة الحق	٣٢٢
الإقبال العام إلى الإسلام	٣٢٥
غزوة حنين وأوطاس والطائف	٣٢٦
الخطابة المعجزة	٣٢٩
عمرة الجعرانة	٣٣٣
غزوة تبوك ٩هـ	٣٣٣
بركة الصدق والاعتراف بالخطأ	٣٣٦
آثار غزوة تبوك	٣٤٥
مسجد ضرار	٣٤٨
فرض الزكاة	٣٤٨
انتهاء مرحلة الشدة والمحنة في عمل الإصلاح والدعوة	٣٤٩
مقارنة حروب المسلمين بحروب غيرهم	٣٥٢
قدوم الوفود والإقبال العام إلى الإسلام (سنة ٩هـ)	٣٦٤
الباب السابع	
حجة الوداع	٣٦٧
حجته الأخيرة وفرض الحج	٣٦٩
التوجيهات والوصايا	٣٧٨
وقال في خطبة عرفة	٣٨٠
رسالة الإنسانية جمعاء في عرفة ومنى	٣٨٢
الباب الثامن	
المرض والوفاة	٣٨٧
أثر وفاة النبي على الصحابة	٣٩٢
بيعة أبي بكر	٣٩٤

www.abulhasanalinadwi.org

زوجات النبي صلى الله عليه وسلم	٣٩٦
أولاد الرسول صلى الله عليه وسلم	٤٠٩
الباب التاسع	
الأخلاق والشمائل النبوية	٤١٢
بشرية كاملة واعتدال جميل	٤٢٢
كرمه وحلمه	٤٢٤
الرفق بالحيوانات والدواب	٤٢٥
سلوكه الحسن مع الأعداء	٤٢٧
من يمنعك مني	٤٢٩
رحمة للعالمين	٤٣٠
المنهج النبوي في الإصلاح والدعوة	٤٣٦
التزكية وإصلاح الباطن	٤٣٨
الباب العاشر	
صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم	٤٤٧
لسابقون الأولون والعشرة المبشرة	٤٥٦
الخلفاء الراشدون	٤٥٨
أبو بكر الصديق رضي الله عنه	٤٦٠
عمر بن الخطاب رضي الله عنه	٤٦١
عثمان بن عفان رضي الله عنه	٤٦٢
علي بن أبي طالب رضي الله عنه	٤٦٣
عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه	٤٦٤
طلحة رضي الله عنه	٤٦٤
الزبير رضي الله عنه	٤٦٤
أبو عبيدة رضي الله عنه	٤٦٥
سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه	٤٦٥
سعيد بن زيد رضي الله عنه	٤٦٥
حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه	٤٦٥
مصعب بن عمير رضي الله عنه	٤٦٦
العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه	٤٦٨

www.abulhasanalinadwi.org

جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه	٤٦٩
سلمان الفارسي رضي الله عنه	٤٧٠
سعد بن معاذ رضي الله عنه	٤٧٠
سعد بن عبادة رضي الله عنه	٤٧١
أسيد بن حضير رضي الله عنه	٤٧٢
أبوذر الغفاري رضي الله عنه	٤٧٢
أبو الدرداء رضي الله عنه	٤٧٣
معاذ بن جبل رضي الله عنه	٤٧٣
حذيفة بن اليمان رضي الله عنه	٤٧٣
خباب بن الأرت رضي الله عنه	٤٧٤
بلال رضي الله عنه	٤٧٤
عبد الله بن سلام رضي الله عنه	٤٧٥
صهيب بن سنان رضي الله عنه	٤٧٥
زيد بن حارثة رضي الله عنه	٤٧٦
الأرقم بن الأرقم رضي الله عنه	٤٧٧
عمرو بن العاص رضي الله عنه	٤٧٧
عمار بن ياسر رضي الله عنه	٤٧٧
خالد بن الوليد رضي الله عنه	٤٧٨
أبو سفيان ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما	٤٨٠
الصحابة الصغار	٤٨٠
عبد الله بن العباس رضي الله عنه	٤٨١
عبد الله بن عمر رضي الله عنه	٤٨١
عبد الله بن مسعود رضي الله عنه	٤٨٢
أنس بن مالك رضي الله عنه	٤٨٢
الحسن والحسين رضي الله عنهما	٤٨٢
أسامة بن زيد رضي الله عنه	٤٨٣

www.abulhasanalinadwi.org